التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١ - ٥٣٧ هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبوش — جمال عبد الرحيم الفارس

المجلد التاسع

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
التفسير

(٩)

الطبعَة الأولىٰ
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللُّباب
للدِّراسات وتحقِيق التُّراث

DAR-ALLOBAB
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ الرَّعۡدِ

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي يعلمُ مَن أسرَّ القولَ ومَن جهرَ به، ومَن هو مستخفٍ باللَّيل وساربٌ بالنَّهار، الرحمنِ الذي بسطَ الرِّزق لمن شاء ويقدر، فهو الخالق الرَّازق الواحد القهَّار، الرحيمِ الذي وعدَ المتَّقين جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

وروى أبيُّ بن كعبٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قرأ سورة الرَّعد كان له من الأجر وزنَ كلِّ سحابٍ مضى وكلِّ سحابٍ يكون عشرَ حسناتٍ، وبُعِثَ يومَ القيامة وهو من الموفِينَ بعهدِ اللهِ ورسولِه»[١].

و(سورة الرَّعد) مدنيَّة في قول عكرمة والحسن وقتادة[٢]، ومكيَّة في قول ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء ومقاتل وسعيد بن جبير[٣].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٧)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وقال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وانظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٧٤٢)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٣٥) عن قتادة.

(٣) رواه عن ابن عباس النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٣٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٧).

ورواه عن سعيد بن جبيرٍ سعيدُ بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١١٧٧).

وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦٥)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٢٩٩).

وهذه السُّورة ثلاث وأربعون آية، وقيل: أربع وأربعون آية، وقيل: خمس وأربعون آية، وقيل: سبع وأربعون آية، والاختلافُ في خمس آياتٍ: ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، ﴿تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨]، ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣].

وكلماتُها ثماني مئةٍ وثلاثٌ وخمسون، وحروفُها ثلاثةُ آلافٍ وأربعُ مئةٍ وثلاثةٌ وخمسون.

وانتظام أوَّل هذه السُّورة بآخر السُّورة الَّتي قبلَها: أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما في ذِكْرِ القرآنِ وصفتِهِ.

وانتظام السُّورتَيْن: أنَّ (سورة يوسف) في تسلية النَّبيِّ ﷺ بما قصَّ عليه ما نال يوسفَ من الأذى من الأقارب؛ ليصبرَ هو على ما ينالُه من أذى الأجانب.

وختم السُّورة بتكذيبِ الكفَّارِ رسولَ اللهِ ﷺ، وجحودِهم كتابَ اللهِ، وإعراضِهم عن التَّفكُّر في آيات الله، وحذَّرهم العقوبةَ في الدُّنيا والآخرة.

وذَكَرَ في هذه السُّورة أيضًا تكذيبَهم في آياتٍ، وصفةَ القرآن في آياتٍ، ونبَّههم على آياتِ وحدانيته في آياتِهِ، وحذَّرهم عقابَه، وأطمعَهم في ثوابِهِ في آياتٍ.

* * *

(١) ـ ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓر﴾ مرَّت في تفسيرها أقاويلُ.

وقيل: معناه: أنا الله أعلم وأرى.

وقيل: هي اسم هذه السُّورة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: هذه آيات القرآن، وهو كلامٌ تامٌّ.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾: كلامٌ آخر تامٌّ أيضًا، مبتدأ وخبر، ومعناه: وكلُّ ما أنزلَ الله على لسانِ جبريلَ إليك فهو الحقُّ والصِّدقُ، لا كذبَ فيه ولا خُلْفَ.

ووجهٌ آخر: أنَّ قولَه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ في محلِّ خفضٍ عطفًا على قولِه: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، وتقديرُه: تلكَ آياتُ الكتابِ وآياتُ ما أنزلَ إليك، وهو كقولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، ثم قولُه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: بيِّنُ الحقِّ، أو ذلك الحقُّ، كقولِه: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ أي: من الحقِّ أو ذاك[1] الحقُّ، وعلى هذا يكون ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ اسمًا للكتب المتقدِّمة، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الغائب، ويكون وصفًا لآيات الكتب[2] أنَّها الحقُّ.

وقيل: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ شيءٌ واحدٌ، وهو القرآن، وإنَّما عطف بالواو لأنَّ الموصوف واحد، ولكن له صفتان: كتابة، وإنزال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لا يصدِّقون بأنَّه منزَل مِنَ اللهِ؛ لإعراضِهم عن التَّدبُّر فيه.

قال مقاتل: هم مشركو مكَّة، قالوا: إنَّ محمَّدًا تقوَّلَ القرآنَ مِن تِلقاءِ نفسِهِ[3].

وقيل: هم أصناف الكفَّار، فهم الأكثرون عددًا، والأقلُّون خطرًا[4].

***

---

(١) في (ر): «أي من الحق إدراك»، وفي (ف): «أي أرادك».

(٢) في (ر): «الكتاب».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٥٨).

(٤) في (أ): «مطرًا».

(٢) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: خلقَها مرفوعةً، لا أنْ تكونَ موضوعةً فرفعَها، وقد مرَّتْ نظائرُه: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] ﴿مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[1] [الأنعام: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: وهي جمع عِمادٍ، ونظيرُه: الإهابُ والأَهَبُ.

وقوله تعالى: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾: أي: ترونَ السَّماءَ لا عَمَدَ لها، فهو أمرٌ مُعايَنٌ مُشاهَدٌ. وهو طريق الكلبيِّ ومجاهد[2].

وقيل: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ صفةُ العَمَد؛ أي: بغير عَمَدٍ مرئيَّة، ولها عِمادٌ غيرُ مرئيٍّ[3]، وهو القدرة، والله تعالى يمسكُها كذلك بقدرتِه، وكأنَّها عماد لها.

وظاهرُ الآيةِ: بغير عَمَدٍ مرئيَّةٍ، وتحقيقُه: بعَمَدٍ غيرِ مرئيَّةٍ[4]، فكلمةُ النَّفي مُقدَّمَةٌ في الذِّكرِ، مُؤخَّرةٌ في المعنى، قال الشَّاعر:

---

(١) في (أ): «المؤمنين».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤١١) عن إياس بن معاوية وقتادة، أما مجاهد فالمروي عنه القول الآتي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، ورواه عن مجاهد أيضاً ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٦)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٤٠٣)، ولفظه عندهم: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾: بعمد لا ترونها.

(٤) في النسخ: «بغير عمد مرئية»، وهو خطأ ظاهر وتكرار لا معنى له، والصواب المثبت، انظر قول مجاهد السابق والبيت الشاهد الآتي.

ولا أُرَاهَا تَزَالُ ظَالِمَةً تُحْدِثُ لي قرحةً وتَنْكَؤُهَا[١]

أي: أُراها لا تزالُ ظالمةً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: مرَّ تفسيرُه مرَّتَيْن، وهو هنا إخبارٌ عن جريِ[٢] الأمورِ كلِّها على ما قَدَّرَ وقضى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: أي: ذلَّلهما وجعلَهما طائعَيْن له، غيرَ ممتنعَيْن عليه، وقصَرَهما على سَنَنٍ واحدٍ لمنافعِ عبادِه ومصالحِ بلادِه؛ لِمَا يُوجَد بهما مِن الآثار في الحبوب والثِّمار.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: كلٌّ منهما يجري إلى وقتٍ مقدَّرٍ، فالقمرُ يقطعُ الفَلَكَ في شهرٍ، والشَّمس في سنةٍ، لا يختلفُ جريُهما، كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]، وقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]؛ أي: بحسبانٍ معلومٍ لا[٣] يختلف.

وقيل: كلٌّ يجري على ما سخَّرَهُ اللهُ إلى يوم القيامة، ثم ينتقِض، فتُكوَّرُ[٤] الشَّمس، ويُخسَفُ القمر، وتنكدرُ النُّجوم.

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: يجري الأمورَ كلَّها على علمٍ عواقبِها.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: أي: يأتي بالآياتِ الدَّالة على وحدانيته وصدقِ رُسلِهِ فصلًا فصلًا؛ ليتمكَّن العبادُ مِن تدبُّر كلِّ آيةٍ على حِدة.

---

(١) البيت لابن هرمة، انظر: «ديوانه» (ص: ٥٦).

(٢) في (أ): «ذي».

(٣) في (أ): «بحساب معلوم ما».

(٤) في (ف): «فتكسف».

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾: أي: لتوقنوا بالبعثِ بعدَ الموتِ، والمصيرِ إلى ثوابِه وعقابِه.

ويقال لمن مات: لقي الله.

وقيل: هذه الآيةُ مِن جملةِ مئة وثمانين آية هي أجوبةٌ لسؤال المشركين رسولَ الله ﷺ أنَّ الرَّبَّ الَّذي تعبدُه ما فِعْلُه؟ وما صنيعُه(١)؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ الآية [الروم: ٤٠]، ونظائرَها.

وقال مقاتل وعطاء: الأجلُ المسمَّى: يومُ القيامة(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الشَّهر للقمر، والسَّنة للشَّمس(٣)، وفسرَّناهما.

* * *

(٣) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾: ذَكَرَ السَّماءَ وعجائبَها، ثمَّ الأرضَ كذلِكَ؛ دلالةً على ربوبيَّته ووحدانيَّته.

---

(١) في (أ): «وصنعه»، وفي (ف): «وصنعته»، بدل: «وما صنيعه».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦٦)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٧) عن سعيد بن جبير، وقال: وروي عن عكرمة وعطية وعطاء الخراساني والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٩)، بلفظ: (أراد بالأجل المسمّى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهين إليها لا يجاوزانها)، وبنحو هذا اللفظ ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٨٥).

و﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: بسطَها طولًا وعرضًا.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابت، رَسا يَرْسُو رَسْوًا؛ أي: ثبتَ.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: أي: جعل فيها أنهارًا جارية، فيها المياه العذبة وغير العذبة.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي: وجعلَ فيها من كلِّ الثَّمرات.

﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: أي: لونَيْن؛ أسودَ وأبيض، وحلوًا وحامضًا، وصغيرًا وكبيرًا، ورطبًا ويابسًا، ونحو ذلك. وإنَّما أتبع ﴿زَوْجَيْنِ﴾ بقوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ لمعنيَيْنِ:

أحدُهما: أنَّ الزَّوْجَ قد يكون اسمًا للشَّفْعِ، وقد يكون اسمًا للفَرْدِ، فأتبعَه ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ لِيُعْلَمَ أنَّه لم يُرِدْ به الشَّفع، ولكن أراد به اللون الفَرْد.

والثَّاني: أنَّه للتَّأكيد؛ لتمكين المعنى في النَّفس.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يغطي، فيغشي النَّهارَ اللَّيلَ[1] فيُذْهِبُ ظلمَتَهُ، ويغشي اللَّيلَ النَّهارَ[2] فيُذْهِبُ ضوءَهُ، وهو مختصرٌ في الذِّكْرِ مُرادٌ في المعنى، بدلالةِ نظائرِهِ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١]، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيعلمون بتعاقُبِه وتصرُّفِه على نظامٍ واحدٍ أنَّ له صانعًا عليمًا حكيمًا قادرًا، ليس كمثلِه شيءٌ، وأنَّ ذلكَ كلَّه إذا كان مخلوقًا لقِوام العباد اقتضى شكرَهم له على هذه النِّعم بإخلاصِ العبادةِ له.

---

(١) «فيغشي النهار الليل» من (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «ويغشي النهار الليل»، والمثبت من (ف) وهو الصواب.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: خلقَ اللهُ الأرضَ على الماءِ، فكانَتْ تَكَفَّأُ كما تَكَفَّأُ السَّفينة بأهلها، فأرساها اللهُ بالجبالِ حتَّى استقرَّتْ(١).

وقال وهبُ: هذه الجبالُ الشَّامخة على وجهِ الأرضِ، طولُها في الأرضِ مثلُ طولها في الهواء، فلذلك سمَّاها أوتادًا.

* * *

(٤) ـ ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾: أي: متلاصقاتٌ متقرِّبات، تربتُها واحدةٌ وماؤها واحد.

﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾: عطف على قوله: ﴿قِطَعٞ﴾؛ أي: وفي الأرض بساتين مِن أعناب، وهي الكرومُ.

﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾: قرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو وعاصمٌ في رواية حفص كلَّها بالرَّفع عطفًا على قوله: ﴿قِطَعٞ... وَجَنَّٰتٞ﴾.

وقرأ الباقون كلَّها بالخفضِ عطفًا على قوله: ﴿مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾(٢).

والصِّنوانُ: هي النَّخلات الَّتي أصلُها واحد، وهو قول ابنِ عبَّاس والبراء بن عازب ومجاهد وقتادة والحسن(٣).

---

(١) أورده ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٥٥) على أنه حديث، لكنه لم يذكر له راوياً ولا سنداً.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٠) عن ابن عباس =

وهو كذلك في اللُّغة، والواحدة منها: صِنْوٌ، وكلُّ شجرةٍ صِنْوٌ لصاحبتِها إذا كان أصلُهما واحدًا.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «العبَّاسُ صِنْوُ أبي»[1]؛ أي: أصلُه وأصلُ أبي واحدٌ.

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾: قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عَمرو: ﴿تُسْقَى بماءٍ واحدٍ﴾ بالتَّاء الَّتي هي للتَّأنيث على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنُّون، ومعنى التَّأنيث: أنَّ المذكورات[2] قبلَه جماعة، والنُّونُ إخبارُ اللهِ تعالى عن نفسِه بخطاب الملوك.

قرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿تُسْقَى﴾ بتاء التَّأنيث بإمالة، ﴿ويفضِّلُ﴾ بياء المغايبة وبكسر الضَّاد؛ إثباتًا للفعل الظَّاهر صفةً لـ﴿ٱللَّهُ﴾ المذكورِ[3] في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾.

= رضي الله عنهما.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٠ ـ ٢٢٢١) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٠) عن مجاهد.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٥٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢٤) عن قتادة.

(١) بهذا اللفظ رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «فضائل الصحابة» (١٧٥٢) عن أبي عثمان النهدي، ورواه أيضاً (١٨٠٦) من حديث أم حبيبة زوج النبي ﷺ. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٧)، والخلال في «السنة» (٢٦) عن أبي مجلز مرسلاً.

ورواه مسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «عم الرجل صنو أبيه».

(٢) في (ر) و(ف): «المذكوران».

(٣) في (ر) و(ف): «صفة الله تعالى المذكورة».

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامر: ﴿يُسْقَىٰ﴾ بياء التَّذكير على معنى: يُسْقَى ما ذُكِرَ، أو كلُّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ، ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنُّون[١]؛ أي: إنَّ الله تعالى يقول: ونحنُ نفضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الأكل؛ أي: بالثَّمر.

ويُقرأ: (ويُفَضَّلُ) بالياء وفتح الضَّاد على ما لم يُسمَّ فاعلُه، (بعضُها) بالرَّفع؛ لأنَّه اسمُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: أي: مَن استعملَ عقلَهُ وتدبَّرَ ـ معَ سلامةِ العقلِ مِن الآفات المانعاتِ عن كمالِ النَّظر[٣] ـ علمَ أنَّ لذلكَ صانعًا هو فرَّقَ بينَهما وبينَ الجنس الواحد منهما مع اجتماعِها في المغرسِ[٤] والماءِ، فدلَّ على أنَّ ظهورها ليس بالتُّربة والماء؛ إذ لو كانَ كذلك لم تختلف الطُّعوم والمناظر، وذلك ظهورها بإنشاءِ اللهِ تعالى القادرِ على ما يشاء.

وفي الآيةِ وجهٌ آخرُ عن الحسن ومجاهد: وذلك أنَّه مثالُ قلبِ المخاطَبِ، وذاك أنَّ اللهَ أنزلَ القرآنَ الذي هو حياة النَّاس في أديانهم، فيتفاضَلُ العبادُ فيه والقرآنُ واحدٌ كتفاوتِ الثِّمارِ والماءُ واحدٌ، ثمَّ ترى هذا[٥] أنه كما لو شاءَ سوَّى بينَ جميعِ الثِّمار، فكذلِكَ لو شاء لسوَّى بينَ قلوبِ العِبادِ، ولكنَّه بحكمِ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣١).

(٢) تنسب ليحيى بن يعمر. انظر: «المختصر في شواء القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٠).

(٣) في (أ): «النظم».

(٤) في (أ): «الغرس».

(٥) في (ر) و(ف): «ثم قرأ هذا»، وفي (أ): «ثم ترا» وبعدها كلمة غير واضحة، ولعل المثبت هو الأنسب بالسياق.

رُبوبيَّتِـهِ فـاوتَ بينهـا، فَمِـنْ متكبِّرٍ معـرضٍ عنه، ومِـنْ متدبِّرٍ مسـتنبطٍ منه(١).

وانتظامُها بالأولى على هذا التَّأويل: أنَّه جعلَ الأرضَ وما فيها آياتٍ لقومٍ يتفكَّرون، وأخبر في هذه الآية أنَّ النَّاس يتفكَّرون، وفي التَّفكُّر يتفاوتون؛ فمنهم مَنْ لا يتفكَّرُ، ومنهم مَنْ يتفكَّرُ ولا يستقصي فلا يجني ثمارَه، ومنهم يستقصي فيه فيُرْزَق استكثاره.

وهـو كـقــوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

ثمَّ ذَكَرَ في كلِّ آيةٍ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ على الجمع؛ لأنَّ في الشَّيء الواحد آياتٍ ودلائلَ وبيِّناتٍ، فالسَّماء تدلُّ على أنَّ لها صانعًا، وعلى أنَّ صانعَها قديم، وأنَّه قديرٌ مدبِّرٌ مختارٌ مريدٌ واحدٌ، لا شريكَ له، حتَّى يفضي ذلك إلى إثباتِ جميع الصِّفات، وإلى إثبات النُّبوَّات، والبعثِ بعدَ الممات، والثَّواب والعقاب.

وقال القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: فمِن سبخٍ وسهل وحجر ورمل أنواعٌ مختلفةٌ وأزواج متَّفقة، وزروع ونبات، وأشجار أشتات(٢)، أصلُ كلِّ واحدٍ مِن أشجارِها حبَّة متماثلة الأجزاء، متشاكلة الأبعاض، فإذا أنبتَها جعلَ بعضَها عِرقًا(٣)، وبعضها جِذْعًا، وبعضها غصنًا، وبعضها أوراقًا، وبعضها أزهارًا(٤)،

---

(١) روى عنهما بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢١) عن مجاهد مختصرًا.

(٢) في (أ): «أستار»، وفي (ر) و(ف): «باسقات». والمثبت من «اللطائف».

(٣) في (أ): «عدقاً»، وفي (ف): «عرفاً»، والعبارة في مطبوع «لطائف الإشارات»: «غدقاً».

(٤) في (أ): «أوتارًا».

وبعضها قشرًا، وبعضها لُبًّا، ثمَّ لكلِّ واحدٍ طعمٌ مخصوصٌ، ولونٌ مخصوصٌ، وطبعٌ مخصوصٌ[(١)].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: وقولُه: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ يبطلُ قولَ مَن تأوَّل قوله عليه الصلاة والسلام: «الجارُ أحقُّ بِشُفْعَتِهِ»[(٢)]: أنَّ المرادَ به: الشَّريك؛ لأنَّه ذَكَرَ التَّجاوُرَ صفةً للقِطَعِ، فإذا كانَتِ الأرضُ واحدةً فلا تكون متجاورةً، بل التَّجاورُ للقِطَعِ المفرَزة المتلازقة، فدلَّ أنَّ المرادَ بالحديثِ هو الجار المتلازق دون الشَّريك[(٣)].

* * *

(٥) ـ ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾: أي: وإنْ عجبْتَ يا محمَّدُ مِن إنكارِ هؤلاءِ للإعادةِ مع إقرارِهم أنِّي أنا الخالقُ لِمَا قدَّمْتُ ذِكْرَه مِن السَّماء والأرضِ وعجائبِ ما فيهما، وأنِّي أنا المخترع[(٤)] للثِّمار المختلفة مِن الأرضِ الواحدةِ، بل مِن الحبَّةِ الواحدةِ ﴿فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾؛ أي: فقد وضعتَ[(٥)] بالتَّعجُّب في موضعِه؛ لأنَّهم أقرُّوا بقدرتي على ابتداء هذه الأشياء، ثمَّ أنكروا إعادتها، والَّذي أنكروا قدرتي عليه أولى أن يكون مقدورًا عليه مما أَقَرُّوا بقدرتي عليه.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢١٧).

(٢) رواه البخاري (٢٢٥٨) من حديث أبي رافع مولى النبي ﷺ، بلفظ: «الجار أحق بسقبه».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٠٦).

(٤) في (ف): «المخرج».

(٥) في (ر): «بعد وصفت»، وفي (ف): «بعد وضعت».

ووجهٌ آخرُ: أنَّ الكفَّار كانوا صنفَيْنِ: قوم منهم ينكرون الصَّانع، ومنهم مَن كان يُثْبِتُ الصَّانع وينكر البعث، فاحتجَّ على منكرِي الصَّانع بهذه الآيات الدَّالة على قدرتِه ووحدانيتِه، ثمَّ قال لنبيِّه: وإنْ تعجبْ مِن إقامة هؤلاء على الإنكارِ مع قيام الدَّلائل على إثباته ووحدانيته وقدرتِه، فاعجَبْ مِن الذين يقرُّون بالابتداءِ، ثمَّ يُنكرون الإعادة ويقولون:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرو وعاصم وحمزة بالاستفهام فيهما جميعًا، إلَّا أنْ عاصمًا وحمزة يهمزان همزتين، وقرأ نافعٌ والكِسائيُّ بالاستفهام في الأوَّل والخبر في الثَّاني، إلَّا أنَّ الكسائيَّ يهمز همزتين، وقرأ ابنُ عامر على الخبرِ في الأوَّل والاستفهام في الثَّاني رواية(١).

وقال الزَّجَّاج: تقديرُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ نُبعث، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: بعدَ أنْ صرنا ترابًا نُحيَى ونُعاد خلقًا جديدًا كما كنَّا أوَّل مرَّة(٢).

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: قيل: وإنْ تعجَبْ مِن قولِهم: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] يعنونَ بعثَكَ رسولًا، فاعجَبْ أيضًا مِنْ قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾(٣).

ثمَّ العَجَبُ منَّا(٤) يكونُ بظهورِ ما لم يكن في الوَهْم، ولا يجوز ذلك على اللهِ تعالى، فإنْ حُمِلَ على الحقيقةِ فهو على تعجُّبِ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: وإنْ تعجَبْ مِن إنكارِهم رسالتَك فتعجَّبْ مِن إنكارِهم البعثَ أيضًا، وإنْ تعجَبْ مِنْ إنكارِ بعضِهم الصَّانعَ فتعجَّبْ مِنْ إنكارِ المقرِّيْنَ به البعثَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٣٨).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٠٩).

(٤) في (أ): «ثم التعجب منها».

وإنْ جعلْتَ معنى قوله: ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ مِن الله تعالى فمعناه الإنكار؛ أي: أنكرْتَ أنتَ مِن هؤلاء كذا، فقد أنكرَ اللهُ منهم قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾.

وكشفُ هذا الكلام: أنَّ العجبَ منَّا يكون في موضعَيْن:

في الإساءة ممَّنْ يلزمُه الإحسان، فتقول: عجبْتُ مِن فلانٍ؛ أحسنْتُ إليه طولَ الزمان[1] فأساءَ إليَّ! وهو غايةُ الكراهةِ والإنكار[2].

وفي الإحسان ممن كان لا يُتوقَّع منه ذلك، فتقول: عجبْتُ مِنْ فلانٍ قامَ بأموري وأحسنَ إليَّ، وما كان منِّي إليه شيءٌ يقتضي ذلك! ويكون ذلكَ غايةَ الرِّضا والحمد.

فوردَتْ هذه اللَّفظة في هذَيْن الموضعَيْن في صفةِ الله تعالى على إرادة هذَيْن المعنيَيْن؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى ليعجَبُ مِنَ الشَّابِ ليسَتْ له صَبْوة»[3]؛ أي: يرضى عنه غايةَ الرِّضا.

وقال في هذه الآية: ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، وقال في (سورة الصَّافات): ﴿بَلْ عَجِبْتُ

---

(١) في (ر) و(ف): «الدنيا».

(٢) «والإنكار» ليس في (أ).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٣٧١)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٧٤٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٠٩)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وحسن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٧٠)، وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٧/ ٤٥١): رواه الحارث وأبو يعلى وأحمد بن حنبل ومدار أسانيدهم على ابن لهيعة، وهو ضعيف.

قلت: عبد الله بن لهيعة وإن كان سيئ الحفظ، لكن الراوي عنه هنا هو قتيبة بن سعيد، وقد مشَّى بعض أهل العلم حديثه عن ابن لهيعة، وذلك لأنه كتب أحاديثه من كتاب ابن وهب ثم سمعها من ابن لهيعة، وكان ابن وهب ممن سمع منه قديماً قبل اختلاطه واحتراق كتبه، كما أن للحديث شاهداً من حديث أبي هريرة عند أبي نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٦٩). فهو حسن كما قال الهيثمي، والله أعلم.

ويَسْخَرُوْنَ﴾ على قراءة الضَّم[١]، وهو غاية الإنكار[٢] والكراهة، وهو مجازٌ على إرادةِ منتهى الأمر دون مَبدئِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: كفروا بإنكار البعث بربِّهم الذي هم يُقرُّون أنَّه[٣] خالقُهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾: أي: يومَ القيامة، فإنَّه مِن عقوبةِ أهل النَّار، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١]، ولم يذكر الأيدي مع الأعناق، وإنْ كان الاستعمال على هذا الوجه أنْ تكونَ الأيدي مجموعة إلى الأعناق؛ لأنَّه معقولُ[٤] المعنى، فوقعَ الاكتفاء بذِكْرِ أحدِهما عن الآخر.

وقيل: إنَّهم ممنوعون[٥] عن الإضرار بكَ، وإيصال المكروه إليك، وأنتَ معصومٌ عنهم، لا سبيلَ لهم إلى مَسِّكَ بسوءٍ، كالمغلول يداه إلى عنقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ذكرَ (أولئك) ثلاثَ مرَّاتٍ، والمراد به: هؤلاء، وجازَ ذلك لأنَّه مَضى[٦] الخبر عنهم، فجازَتْ الإشارةُ بـ(أولئك).

***

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٦).

(٢) «الإنكار» ليس في (أ).

(٣) في (أ): «الذي مقرون أنه»، وفي (ر): «الذين هم مقرون بأنه».

(٤) في (أ) و(ف): «مفعول».

(٥) في (أ) و(ف): «مخترعون».

(٦) في (أ) و(ف): «قصَّ».

(٦) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾: أي: ومِن عِظَمِ جهالتِهم أنَّهم ـ مع إصرارِهم على الشِّرك ومعاندتهم النَّبيَّ ﷺ ـ يَدْعون اللهَ تعالى بإنزالِ العذابِ عليهم.

نزلَتْ في النَّضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدة بن قصي قال: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢][(١)].

وقوله تعالى: ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بالعذاب.

وقوله: ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: الإيمانِ والطَّاعة الذي يُدْفَع به العذاب، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ الآية [القصص: ٨٤].

وقيل: ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: العفو والإهمال.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: ويحتمِل أن يكون معناه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ منهم إليك؛ أي: الإيذاء ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ منهم إليك، وهي القَبول والتَّصديق[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: العقوبات[(٣)].

وقال قتادة: وقائع الله في الأمم الخالية[(٤)].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦٧)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٢٨٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣١٠).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٣٥).

وقال الكسائيُّ: الأمثال[1].

وقال الأخفشُ: النَّظائر والأشباه؛ يعني: في العذاب.

والـمَثُلات في اللُّغة: العقوبات الَّتي تَزجرُ عن مثل ما وقعَتْ لأجله؛ أي: قد مضَتْ قبلَ هؤلاء وقائعُ اللهِ في الأمم الخالية.

أو قالـوا لأنبيائهم: ائتونا بعذابِ اللهِ، إذا أصرُّوا على كفرهم واقترحوا الآيات، فعُـذِّبَ بعضُهـم بالمسـخ، وبعضُهـم بالخسـف، وبعضهـم بالقـذف[2]، وبعضُهـم بالظُّلَّـة، وهـؤلاء قـد تقـرَّر علمُهـم بذلـك، فكيـف يسـتعجلونك بـه وليـس معهم إيمانٌ يعتصمون به؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾: قـال السُّـدِّيُّ: يعني: المؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعني: على الكافرين[3].

قال بعضُ أهل العلم: هي أرجى آيةٍ في كتاب الله تعالى، حيثُ ذَكَرَ المغفرةَ مع الظُّلم، وهو بدون التَّوبة، فإنَّ التَّوبة تزيلُ العقوبة[4] وترفعُها.

وقيـل: همـا جميعًا فـي حـقِّ المؤمن، وهـو معلَّـق بالمشـيئة فيهمـا، ومعناه: يغفـرُ لمـن يشـاءُ، ويعـذِّب مَن يشـاء، وهـو ترغيـبٌ وترهيـبٌ، وإطلاقُـه كإطلاقِ قولِـه تعالـى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٣) عن مجاهد. وقاله أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٣)،

(٢) في (أ): «بالعذاب».

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٣١١) دون نسبة، وانظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ١٢).

(٤) في (أ) و(ف): «تزيلها».

(٧) ـ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾: هي الآية المقترحة.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾: أي: مبعوثٌ لتحذِّرهم العذابَ، لا مريدٌ لهلاكِهم، ولا مستعجِلٌ بعذابِهم، ولا مالكٌ لعقابِهم.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: أي: أنت نذيرٌ لهم، داعي الخلقِ إلى الحقِّ، وكذلك كان الأنبياء قبلك أوَّلًا[١].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: داعٍ إلى الحقِّ[٢].

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: هو يدعوهم بما يُعطَى مِنَ الآيات، لا بما يتحكَّمون به[٣].

وقال مجاهد وقتادة: وهو نبيُّ كلِّ أمَّة[٤].

وقال الحسن وقتادة في روايةٍ وأبو الضُّحى وعكرمة: الهادي محمَّد رسول الله[٥].

---

(١) في (أ): «والأمم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٥).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٠).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٥٤) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٤٠ ـ ٤٤١) عن مجاهد وقتادة.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٣٨) عن عكرمة وأبي الضحى، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: وروي عن علي بن أبي طالب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبي صالح، وعكرمة، وأبي الضحى، والسدي، والضحاك، وأبي جعفر محمد بن علي، وعبد الرحمن بن زيد أن المنذر النبي ﷺ.

وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٩٩) عن الحسن وعكرمة وأبي الضحى.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في رواية وسعيد بن جبير ومجاهد والضَّحَّاك: الهادي هو الله تعالى، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ وأنا الهادي دونَك(١).

نظيرُه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والمرادُ: إنَّما أنت منذرٌ وهادٍ لكلِّ قوم(٢).

* * *

(٨) ـ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: ينتظِمُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢]، وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الرعد: ٣].

ووجهٌ آخرُ: أنَّه خطاب للمتعجِّلين، وتعريفٌ لهم أنَّ اللهَ لا يدعُ حكمتَه باستعجالِهم، ولا يخفى عليه وجهُ الصَّلاح، فإنَّه الَّذي يعلمُ ما تحملُ كلُّ أنثى: أذكرٌ هو أم أنثى؟ أبيضُ أم أسودُ؟ واحدٌ أو أكثرُ؟ ناقصٌ أم تامٌّ؟

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾: أي: ما تنقصُ، غاضَ يغيضُ، لازمٌ ومتعدٍّ، وكذلك غاضَ الماءُ وغاضَه الله؛ أي: غار، وأغاره(٣) الله، قال تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود: ٤٤].

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٩٩).

(٣) في النسخ: «وأغار»، والصواب المثبت.

وقال الحسن: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾؛ أي: تنقص عن تسعة أشهر، فتضع الولدَ لستَّة أو لسبعة أو لثمانية ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على تسعة[1].

وقال الرَّبيع بن أنس: أي: تزداد على الولد الواحد إلى أربعة، و﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ هو السَّقط[2].

وقال ابن كيسان: ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾؛ أي: تنقص من أعضاء الولد كالـمُخدَج وما أشبهه من نقصان يد أو أصبع، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على الأعضاء كزيادة أصبع أو نحوها.

وقيل: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾؛ أي: تذهِبُ الماءَ فلا تحمل، وتكون عقيمًا، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾: فتحملُ وتلدُ الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾: أي: جعلَ لكلِّ شيءٍ مقدارًا معلومًا مِن الخَلْقِ والرِّزقِ والأجلِ والعمل، فلا معنى لاستعجالهم بالعذاب.

* * *

(٩) - ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾: نعت قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

وقيل: أي: هو عالمُ الغيب والشَّهادة.

وقال الحسن: أي: عالم السِّرِّ والعلانية[3].

وقيل: أي: هو عالمٌ بما غابَ عن الخلق وما شاهدوه، لا يخفى عليه شيءٌ منه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٠).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٧٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦).

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في شأنِه وقدرتِه وسلطانِه وكلِّ صفاتِه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: عمَّا لا يليقُ به.

وقال الحسنُ: المتعالي عمَّا يقول المشركون[١].

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ: أحاطَ الحقُّ سبحانَه بالمعلوماتِ عِلمًا، وأمضى في الكائنات حكمًا، فلا معلومَ يَعْزُبُ عن علمِه، ولا مخلوقَ يخرجُ مِن حكمِه، تعالى عن سمات النَّقص، وتقدَّس عن صفات العيب[٢].

***

(١٠) ـ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: أخفاه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ أي: رفعَ به صوته ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: متوارٍ.

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ذاهب[٣].

وقال الضَّحَّاكُ: ظاهرٌ[٤].

وقال مقاتل بن حيَّان: خارجٌ[٥].

وقال مقاتل بن سليمان: منتشر[٦].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٠٢).

(٢) لم أجده في مطبوع «لطائف الإشارات».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٤) عن أبي رجاء بلفظ: (ذاهب على وجهه). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٥٧) عن الحسن وقتادة بلفظ: (ظاهر ذاهب).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر التعليق السابق.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٤) عن مجاهد.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦٩).

وقال الكسائيُّ: أي: راكب رأسَه(١).

وقيل: سالكٌ في سَرَبِهِ يتسرَّب في مذاهبه(٢)؛ أي: يضطرب في طرقه.

وهذه الأقاويل متقاربة(٣)، وهي في اللُّغة: جريانٌ في خروجٍ بسرعة، وقيل: ذهاب على الوجه.

وقد سَرَبَ سُرُوبًا، وانْسَرَبَ انْسِرابًا.

قال الحطيئة(٤):

وكلُّ أنـاسٍ قاربـوا قيـدَ فَحْلِهـمْ ونحـنُ حللْنَـا قيـدَهُ فهـوَ سـارِبُ(٥)

وقال الحسن: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾: أي: مستترٌ بالنَّهار(٦). وقال الزَّجَّاج: هو جائز في اللُّغة، يقال منه: سَرَبَ الوحشُ وانسَرَبَ: إذا دخلَ كناسَه(٧).

تمدَّح سبحانَه في هذه الآية بسمعِه وبصرِه كما تمدَّح في الآية الأولى بعلمِه

---

(١) في (أ): «دابته». وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٥) عن خصيف في قوله: ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ قال: راكب رأسه في المعاصي ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ قال: ظاهر بالنهار.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٢٣).

(٣) في (ف): «متفاوتة»، ولعله تحريف.

(٤) تحرفت في (أ) إلى: «الحطيب»، ولم أجد من نسبه للحطيئة.

(٥) البيت للأخنس بن شهاب التغلبي، كما في «المفضليات» (ص: ٢٠٨)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ٥٥١)، و«أمالي القالي» (٢/ ٢٤٣)، و«الصحاح» للجوهري (مادة: سرب)، ولم أجد من نسبه لغيره.

(٦) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٢) عن بعض نحويي أهل البصرة بلفظ: السارب هو المتواري. وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٥٧) عن الحسن غير هذا القول وقد ذكرناه قريباً.

(٧) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٢).

فقال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ فليسَ قولٌ عندَه أخفى مِن قولٍ، وليسَ سمعُه كسمع المخلوق الَّذي يَخفى عليه ما بَعُدَ مِن سمعِه، ويَفهمُ ما قَرُبَ منه، وسواءٌ عندَه في الرُّؤية مَن هو مستَخْفٍ باللَّيل ومَن هو ظاهرٌ بالنَّهار.

وقيل: تقديرُه: ومَن هو مستخفٍ باللَّيل ومَن هو ساربٌ بالنَّهار، فترك (مَن) في[1] الثَّاني اختصارًا[2] لدلالة الماضي عليه.

وقيل: بل معناه ـ أي: الاستخفاء والسُّروب ـ صفةُ الواحد لا الاثنين[3]، والمرادُ به أنَّه[4] تستوي حالتا هذا الرَّجل في علم الله، بخلافِ قوله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّهما صفتا رجلَيْن.

وقال القشيريُّ: سِيَّان منكم مَن خاطَبَنا بلسانِه بوصف الدُّعاء جهرًا، ومَن خاطبَنا بقلبِه ببيانِ النَّجوى سِرًّا، لكلٍّ واحدٍ منهما إجابةٌ منَّا إذا ساعدَتْهُ المشيئةُ ووافقتْهُ القضيَّة.

وقيل: سواءٌ في علمِ الله ورؤيتِه وسمعِهِ المُسِرُّ والذي يجهرُ، والذي يَكمن[5] والذي يَظْهَر، فالبصرُ متناولٌ للكلِّ، والعلمُ شاملٌ للجميع، والحكمُ جارٍ على الكافَّة.

وقيل: نزولها في عمير بن وهب[6] الجُمحيِّ، كان جُرِحَ يومَ بدرٍ وهو مع الكفَّار جرحًا مخوفًا، وعالج وبرأ، وقال يومًا وهو مع صفوان بن أميَّة وهو في حِجْر

---

(١) في (ف): «فترك ما في».

(٢) في (أ): «اقتصارا».

(٣) في (أ): «صفة للواحد لا للاثنين».

(٤) في (ف): «أنه لا»، وهو خطأ.

(٥) في (ر) و(ف): «يكتم».

(٦) في جميع النسخ: «وهب بن عمرو بن وهب»، والمثبت الموافق لمصادر التخريج.

الكعبةِ: لولا عيالي ودينٌ عليَّ لتولَّيْتُ قتلَ محمَّدٍ، قال صفوانُ: وكيف تصنع؟ قال: أراعي وحدته فأقتله بسيفي غِيلةً وأهرب، فقال صفوان: دَينُكَ عليَّ، وعيالُك مع عيالي، فافعل هذا.

فاتَّخذَ وهبٌ سيفًا وسمَّه، ودخل مع صفوان بينَ[1] باب الكعبة والسِّتر، وعاهدَه على ذلك.

فقال صفوان: كيف تسير إليه والله يخبرُه بمسيرك؟

فقال: أستخفي باللَّيل؛ أي: أسيرُ في ظلمته، وأسربُ بالنَّهار؛ أي: أدخل السرب.

وكان ذلك عقيدةُ بعضِ الكفَّار في أنَّ العبد قد يتستَّر عن الله بمثل هذا.

ولَمَّا وصل إلى المدينة ودخلَها رآه عمرُ رضي الله عنه، فقال للصَّحابة: إنِّي رأيْتُ وهبًا قد قدم، فرابني قدومُه، وهو رجل غادر، فاحرسوا[2] رسولَ اللهِ ﷺ عنه.

ولَمَّا رآه النَّبيُّ ﷺ قال له: «ما أقدمَكَ؟»، قال: جئْتُ أفادي الأسارى، فقال النَّبيُّ ﷺ: «فلمَ تقلدْتَ السَّيفَ؟»، فقال: يا محمَّد، أَمَا إنَّا حملنا السُّيوف يومَ بدرٍ فلَمْ نُفلح، فقال ﷺ: «وما الَّذي قلْتَ لصفوان في الحِجْر: لولا عيالي ودَيني لتولَّيْتُ قتلَ محمَّدٍ بيدي؟» فقال وهبٌ: ما قلْتَ يا محمَّد؟ أعدْهُ عليَّ. فأعادَ، فقال: كنَّا نكذِّبُكَ في أخبار الأرض، فالآن أخبَرْتَنا بخبر السَّماء، هذا أمرٌ لم يطَّلِعْ عليه أحدٌ مِن النَّاس، وما أطلَعَكَ عليه إلَّا اللهُ بوحيٍ مِن السَّماء، ثمَّ قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأشهدُ أنَّك عبدُه ورسولُه[3].

---

(١) في (أ): «من».

(٢) في (ر): «فأخبروا».

(٣) روى نحوه الواقدي في «مغازيه» (١/ ١٢٥) عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً، ورواه الطبراني =

قال الضَّحَّاك: وفيه نزلَتْ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ الآية[١].

* * *

(١١) ـ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾: قال الحسن وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير والضَّحَّاك وأبو صالح وإبراهيم: أي: لله ملائكة يتعاقبون[٢] باللَّيل والنَّهار[٣].

﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: أي: مِن بينِ يدَي[٤] هذا الذي هو مستَخْفٍ باللَّيل وساربٌ بالنَّهار.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: أي: مِن وراء ظهرِه؛ أي: عليه حفظةٌ مِن الملائكةِ حولَه.

= في «المعجم الكبير» (١٧/ ٥٦) عن عروة، و(١٧/ ٥٨) عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلًا، و(١٧/ ٥٩) عن ابن شهاب مرسلًا، و(١٧/ ٦٠) عن أبي عمران الجوني، وقال: لا أعلمه إلا عن أنس، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤١٣) عن عروة بن الزبير. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٨٦) عن حديث محمد بن جعفر بن الزبير: رواه الطبراني مرسلًا وإسناده جيد. وقال عن حديث عروة (٨/ ٢٨٦): إسناده حسن. وقال عن حديث أبي عمران الجوني (٨/ ٢٨٧): رجاله رجال الصحيح.

وليس في شيء من هذه الأخبار كون القصة سبباً لنزول الآية.

(١) لم أجده.

(٢) في (أ): «معاقب».

(٣) رواه عنهم عدا الضحاك الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٦ ـ ٤٦٠ و٤٦٣ ـ ٤٦٤)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٠) عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (ف): «شر» بدل من «بين يدي».

﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: قال الحسنُ وقتادة: أي: بأمر الله[١]. كما يُقال: أجابك مِن دعائِكَ؛ أي: بدعائك.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: الملائكة هم مِن أمرِ الله[٢].

وقال مجاهد وإبراهيم: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: من الجنِّ والهوامِّ[٣]. وسمى الجنَّ مِن أمرِ اللهِ لأنَّها لا تُرى؛ كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقيل: أي: مِن عذابِ اللهِ، كما قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨].

وقيل: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: لأمرِ اللهِ، كما قال: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]؛ يعني: أنَّ هذا المستخفيَ والسَّارب إنَّما يمتنِعُ مِن نزولِ العقوبةِ به مع قبيحِ فعله لِمَا وكَّلَ اللهُ تعالى به من[٤] الحفظة، لا أنَّه يمتنع بقوَّة نفسه[٥]، أو لمكانةٍ له عند ربِّه، أو لخفاءِ أحوالِه وأفعالِه على الله تعالى، ولكن يؤخِّر إزالةَ نعمتِه وعافيتِه عنه وإنزالَ عقوبتِه وسطوتِه به إلى أنْ يغيِّروا هم ما بأنفسهم بالإصرار على الفساد، والإقامة على الكفر، فتزول المعقِّبات، وتنزل العقوبات.

وقال كعب: لولا أنَّ الله وكَّل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذًا لتُخطِّفتم[٦].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٤) عن قتادة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٢).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٥).

(٤) «من» ليس في (أ) و(ف).

(٥) في (أ): «فيه» وفي (ف): «الله».

(٦) في (أ): «لتخطفكم» وفي (ر): «لتخطفتكم»، وفي (ف): «لتحفظنكم»، والمثبت من «تفسير الطبري»، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٦).

وقيل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾؛ أي: للَّذي أسرَّ القول. . . إلى آخره.

وقيل: أي: لله معقِّبات بينَ يدَي الرَّسول المصطفى محمَّد ﷺ ومِن خلفِه؛ أي: وللرَّسول معقِّبات، فقد سبقَ ذكرُه في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾؛ أي: حفظةٌ يحفظونَه بأمرِ اللهِ ممَّنْ يريدُ به سوءاً، أو يهمُّ فيه بمكروهٍ مِن قتلٍ أو غيرِه.

أو يرجع إلى جميع الرُّسل، فقد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾؛ أي: ولكلِّ قومٍ هادٍ وكَّل اللهُ به مَن يحفظُه.

والمعقِّبات: إنَّما جُمِعَ بالألفِ والتَّاء مع أنَّ الملائكةَ ذكران لأنَّه جمع الجمع، مَلَكٌ معقِّبٌ، وطائفةٌ منهم معقِّبةٌ، وطوائِفُ منهم معقِّبات، وهو كالرَّجل والرِّجال والرِّجالات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾: أي: من نعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: بالكفران.

قال ابنُ عبَّاس: إذا أنعمَ اللهُ على قومٍ بنعمةٍ فشكروها ولم يَكْفرُوها زادَ لهم تلك النِّعمة وأدامَها عليهم، وإذا لم يشكروها وتلقَّوها بالكُفْران سلبَها عنهم وابتلاهم بضدِّها[1].

وفيه يقول الشَّاعر:

لـم يشـكروا نعمـةَ مـا خُوِّلـوا ... فبدَّلـوا المالـحَ بالعـذْبِ
صـاحَ بهـمْ مِـنْ بينِهـم صائـحٌ ... شـتَّتَهُم فـي الشَّـرْقِ والغَـرْبِ[2]

---

(١) ذكر نحوه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٤١).

(٢) ذكر البيت الأول القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (٢/ ٣٤٦) وعزاه لابن الكوني، أبو الحسن ابن عبد الجبار من فقهاء صقلية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾: أي: وإذا حقَّتْ كلمةُ العذابِ على هؤلاءِ الَّذين غيَّروا ما بأنفسِهم، وحانَ وقتُ حلولِ النِّقمة بهم، وكانوا أهلًا لذلك ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أي: فلا يقدرُ أحدٌ على ردِّهِ عنهم، فزالَ عنهم المعقِّبات.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾: أي: ما لهؤلاء القومِ أحدٌ دونَ اللهِ يليهم ويلي أمرهم؛ أي: لا يعافيهم[1] إلَّا الله، ولا أحد يملكُ أمرهم إلَّا الله، فلا مانعَ ولا دافعَ ولا رافعَ ولا شافعَ.

* * *

(١٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾: تنتظِمُ بما قبلَها في بيان قدرةِ اللهِ تعالى على ما يشاء.

وقيل: نزلَتْ: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ هذه الآية وما بعدها في أربد بن قيس، أخي لبيد بن ربيعة الشَّاعر لأمِّه[2]؛ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ مريدًا له سوءًا، فعلمَ بذلكَ رسولُ الله ﷺ، فخرجَ أربدُ فأرسلَ اللهُ عليه في طريقِهِ صاعقةً فقتلَتْهُ[3].

---

(١) في (أ): «يعاقب لهم» وفي (ف): «يعاقبهم».

(٢) في (ر) و(ف): «لأنه».

(٣) رواه مطولًا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧٦٠)، و«المعجم الأوسط» (٩١٢٧) من طريق عبد العزيز بن عمرانَ، عن عبد الرحمن وعبد الله ابنَي زيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيهما، عن عطاء بنِ يسارٍ، عن عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

ورواه مطولاً أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٧ ـ ٤٧٠) عن عبد الرحمن بن زيد أسلم، و(١٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢) عن ابن جريج. وكلاهما مرسل. =

فتوعَّدهم اللهُ تعالى بهذا، ودلَّهم به على قدرتِهِ وعَجْزِ آلهتِهم عن مثلِه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾؛ أي: اللهُ هو الذي يريكم ـ معاشرَ عبادِه ـ البرقَ في السَّماء ﴿خَوْفًا﴾ للمسافر، يخافُ أذاهُ لِمَا ينالُه مِن مطرٍ إنْ كانَ عقيبه ﴿وَطَمَعًا﴾ للحاضر، المعنى: أنْ يكونَ عقيبه مطرٌ فينتفعُ به.

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿خَوْفًا﴾ من العذاب، ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث[1].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿خَوْفًا﴾ للمسافر، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم[2].

وقال قتادة: ﴿خَوْفًا﴾ للمسافر يخافُ أذاه ومعرَّته، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم يرجو بركته ومنفعته[3].

وقيل: ﴿خَوْفًا﴾ مِن هولِه وصواعقِه، ﴿وَطَمَعًا﴾ في مطرِه.

والرَّعدُ والبرقُ فيهما أقاويلُ كثيرة ذكرناها في (سورة البقرة).

وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾: أي: ينشئ ويبدئ، والسَّحابُ هنا جمعُ سحابةٍ، ولذلك قال: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ على الجمع؛ أي: الثِّقال بالمطر، وهو واحدٌ في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ [الروم: ٤٨].

***

= ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٧٦) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح (وتسمى سلسلة الكذب) عن ابن عباس. وسيأتي الخبر بتمامه قريباً.

(١) رواه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٦١٨)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٧).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣١٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٦١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٥).

(١٣) - ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: قال شَهْرُ بنُ حَوْشَبُ: الرَّعدُ مَلَكٌ، وصوتُه: سبحانَ ربِّيَ العظيم[١].

وقال الضَّحَّاكُ: الرَّعدُ: مَلَكٌ، والبرقُ: سوطٌ[٢] مِن نورٍ، يزجرُ به السَّحاب[٣].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «ينشئ اللهُ السَّحاب، فينطق أحسنَ النُّطْقِ، ويضحكُ أحسنَ الضِّحك، فمنطقُه الرَّعْدُ، وضحكُهُ البرقُ»[٤].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الرَّعدُ ملَكٌ يسوقُ السَّحاب، والصَّوتُ الَّذي تسمعون هو زجرُه السَّحاب[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٧)،

(٢) في النسخ الثلاث: «صوت»، والمثبت من مصدر التخريج.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٣) وابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣١٦) عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٤٨) عن عمرو بن أبي عمرو عن الثقة عن النبي ﷺ.
ورواه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٣٥)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص: ١٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٦٨٦)، والعقيلي (١/ ٣٥)، وابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣١٧)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٢٢٠)، من حديث شيخ من الصحابة. ورجال أحمد رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢١٦)، ولفظه: «إنَّ الله يُنْشِئُ السَّحابَ، فيَنْطِقُ أَحسَنَ المَنْطِقِ، ويَضحكُ أَحسَنَ الضَّحِكِ».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٨).

وقال عليٌّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: الرَّعد: الرِّيح، والبرقُ: النَّار، وهي مخاريق الملائكة[١].

وقال أبو الجَلْدِ: الرَّعدُ: الرِّيح، والبرقُ: الماءُ[٢].

وقال بعضُ أهل اللُّغة: الرَّعدُ: الصَّوت، والبرقُ: نارٌ، يكونان مع السَّحاب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: وقال مقاتل بن سليمان: ميَّزَ الله بينَ الرَّعدِ وبينَ الملائكةِ، كما ميَّزَ بينَ جبريل وميكائيل وبين الملائكة، وكما ميَّزَ بينَ الفاكهة وبين النَّخل والرُّمَّان[٣].

وقيل: الرَّعدُ: اصطكاكُ أجرامِ السَّحاب، وتسبيحُهُ: دلالتُه على وحدانيَّة اللهِ تعالى وتنزيهِه عن كلِّ سوءٍ، وهو كقولِه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله في الآية: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾:

يحتملُ: خوفًا لأهل البنيان، ﴿وَطَمَعًا﴾ لأهل الأنزال.

ويحتمل: طمعًا في وقت المنفعة، وخوفًا في غير وقت المنفعة، ﴿خَوْفًا﴾ من نزوله، ﴿وَطَمَعًا﴾ في مضيِّه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٥٥). والمخاريق: جمع مخراق، وهو المنديل يلف لِيُضربَ به، أو السيف.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦١ و ٣٦٣ ـ ٣٦٤) و(١٣/ ٤٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٥٥).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٠). وقوله هذا مبني على أن الرعد ملك، حيث قال قبله: (والرعد ملك من الملائكة اسمه الرعد، وهو موكل بالسحاب صوته تسبيحه، يزجر السحاب ويؤلف بعضه إلى بعض ويسوقه بتسبيحه إلى الأرض التي أمر الله تعالى أن تمطر فيها).

ويحتمل: ﴿خَوْفًا﴾ موعودًا، ﴿وَطَمَعًا﴾ موعودًا؛ لأنَّ البرقَ نورٌ ونارٌ، فالنُّور يُطمِعُ في النُّور الموعود في الجنَّة، والنَّارُ يخوِّفُ مِنَ النَّار الموعودة في جهنَّم.

وقال في قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾: قال أبو عوسجة: أي: يرفع.

وقال في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: روي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: أقبلَتِ يهودُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرَّعد ما هو؟ قال: «ملَكٌ مِن الملائكة موكَّلٌ بالسَّحاب معه مخاريق مِن نار، يسوق بِهِ السَّحاب حيثُ شاءَ اللهُ»، فقالوا: ما هذا الصَّوت الَّذي نسمع؟ قال: «زجرُه السَّحاب إذا زجرَه انتهى[1] إلى حيث أُمِرَ»، قالوا: صدَقْتَ[2]. فإنْ ثبتَ هذا فهو هو.

قال: وقيل: الرَّعدُ: ملَكٌ يسوقُ السَّحاب، وإذا شذَّتْ[3] سحابةٌ ضمَّها، فإذا اشتدَّ غضبُه طار[4] مِن فيه النَّار، فهي الصَّواعق.

قال: وقال بعض الفلاسفة: هو ريحٌ مختنقٌ تحتَ السَّحاب.

قال: وأيَّ شيءٍ كانَ فالتَّسبيح مُحْتَمَلٌ مِن كلِّ شيءٍ، فيَحْتَمِلُ تسبيحَ الخلقة، وجعلَ في كلِّ شيء حمدَ صانعِه وبراءةَ مُنشِئِه مِن كلِّ ما وصفَتْه الملاحدة.

فالأقاويل فيه كثيرة، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجةٌ سوى أنَّه هولٌ هائلٌ يهولُ الخلقَ ويذكِّرُهم سلطانَه وعظمتَه، ولولا أنَّهم اعتادوا ذلك وإلَّا لم تقمْ[5] أنفسُهم لسماع ذلك.

---

(١) في (أ): «زجر حتى ينتهي» بدل من «زجره انتهى».

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٨٣)، والترمذي (٣١٧٧)، وقال: حسن غريب.

(٣) في (ر) و(ف): «شردت».

(٤) في (ف): «صار».

(٥) في (أ): «تستقم».

وقال في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾: له وجهان:

أحدهما: أنَّه خوفُ عقوبتِه؛ لأنَّه قد جاء فيهم[1] الوعيد؛ قال: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

والثَّاني: خوفُ هيبتِه؛ لأنَّه وصفَهم بالطَّاعة والاستسلام، والعملِ على الدَّوام، وخوفُ الهيبة لا يزولُ في الآخرة، وخوفُ العقوبة يزولُ[2].

وقال القشيريُّ رحمه الله: إذا أُنشِئَتِ السَّحابةُ في السَّماء أظلمَ الجوُّ في الوقتِ، ولكنَّه يَعقبه بعدَ ذلك ضحكُ الرَّياحين، وما لم تبكِ السَّماء لا تضحكُ الرِّياض.

فكذا يُنْشِئُ في القلبِ سحابةً للطَّلب، فيحصل للقلب تردُّدُ الخاطر، ثمَّ يلوح وجهُ التَّحقيقِ فتضحكُ الرُّوح بفنون راحات الأُنْس، وصنوف أزهار القُرْب[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: جمعَ صاعقةٍ، وهي نارٌ تسقطُ مِن السَّماءِ هائلةٌ، لها صوتٌ يقتلُ، فتقتلُ مَن تُصيبُه أو تُدْهِشُه.

وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾: أي: وهؤلاء المشركون ـ مع علمِهم بأنَّ اللهَ خالقُ هذا الرَّعدِ وما فيه مِن الخوفِ والطَّمع ـ لا يُخلصون العبادةَ للهِ، بل ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: يخاصمونَ النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين فيه، فمرَّةً يقولون: أآلهتنا خيرٌ أم هو؟ ومرَّة يقولون: صِفْ لنا ربَّك، على ما رُوِيَ أنَّ عامر بن الطُّفيل قال للنَّبيِّ ﷺ: أخبرني عن إلهك، مِن أيِّ جنسٍ هو؟ مِن جميع

---

(١) في النسخ الثلاث: «قد خافهم»، والمثبت من «تأويلات أهل السنة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣١٨ ـ ٣٢٠).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٢٠).

أجناس الآلهة، أم مِن خشبٍ، أم حديدٍ، أم رصاص، أم شَبَهٍ، أم صُفرٍ، أم ذهب، أم فضَّة؟ فأرسلَ اللهُ عليه صاعقةً نفخته فذهب[١].

وقيل: نزلَتْ في أربد بن قيس أخي لبيد بن ربيعة لأمِّه، وذلك أن عامر بن الطُّفيل أتى النَّبيَّ ﷺ، فقال له: ما تجعل لي مِن أمرِكَ إنْ أسلمْتُ؟ فقال: «أجعلُ لكَ الوبر»، فقال: أليس ذلك لي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «فما تريد أنْ أجعلَ لكَ[٢]؟» قال: اجعل لي الأمر بعدَك، فقال: «ذلك إلى الله تعالى»، فقال: فاجعلني على أعنَّة الخيل، فقال: «ليس ذلك إليَّ»، فغاظه ذلك فقال لأربد بن قيس: اكفني أمرَ محمَّد أو أكفيك أمره، قال: ما تريد[٣]؟ قال: اشغلْهُ بالحديثِ حتَّى أقتلَه، فأجابه إلى ذلك، فجاء عامرٌ فشغلَ رسولَ اللهِ ﷺ، فجاء أربدُ مشتملًا على سيفِه ليضربَه، واختلفوا فيما بعد هذا:

فمنهم مَن قال: شُلَّتْ يدُه.

ومنهم مَن قال: استمسكَ السَّيف في القراب فلم يقدر على سلِّه.

---

(١) في (أ) و(ف): «فذهبت تفجعه» بدل من «نفخته فذهب». وهذا الخبر الواحدي في «البسيط» (٢٤/ ٤٢٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٦٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول سورة الإخلاص.

وذكره بنحوه دون عزو في هذه الآية الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣١٦)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٥١٩)، وفيهما أن القائل لذلك هو أربد لا عامر.

وروى نحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٥)، والبزار (٢٢٢١ ـ كشف الأستار)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٤٦٨)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٠)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٢٣٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧١)، من حديث أنس رضي الله عنه، دون تسمية الرجل.

(٢) «أن أجعل لك» ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (أ): «اكفني أمر محمد أو أكفيك ومن قال ما تريد» وفي (ر): «اكفني أمر محمد وأكفيك أمره».

ومنهم مَن قال: كُفَّ عن رسولِ الله ﷺ.

فقال عليه السَّلام: «اللَّهمَّ اكفني عامرًا ـ أو: قني عامرًا ـ»، فانصرف أربد، فقال له عامر: ما منعَكَ مِن قتله؟ قال: كلَّما همَمْتُ بقتلِه رأيتُكَ بيني وبينَه. ثمَّ جاءَتْ صاعقةٌ فأحرقَتْهُ، وجعلَتْهُ فحمًا[1].

وأمَّا عامرٌ فقد قيل: إنَّه دخلَ بيتَ امرأةٍ مِن بني سلول، وظهرت على ركبته غُدَّة، وهو يقول: غدَّةٌ كغدَّة البعير، وموتٌ في بيت سلوليَّة، فواللهِ ما قتلني إلَّا ربُّ محمَّد، وركبَ الفرسَ وبيده الرُّمح، وهو يقول: يا ملكَ الموتِ، تحاربني عن خفية، فاظهرْ لي وجاهرني بالمحاربة ترَ بأسي، فما زالَ يطارد حتَّى يسقط عن فرسِه، ومات وصار إلى النَّار، ونزلَتِ فيه الآية[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: أي: اللهُ شديدُ العقوبةِ[3]، وقيل: قويُّ الكيدِ.

ولا يجوز في الابتداء وصفُ اللهِ به، ويجوز على وجهِ المجازاة كما مرَّ في المكر والخداع والاستهزاء، وهو مِن قولِكَ: مَحَلَ[4] به إلى السُّلطان؛ أي: سعى به، وذكرَ عيوبَه حتَّى أوقَع به، ومنه في صفة القرآن: «هو شافعٌ مشفَّع وماحِلٌ مصدَّق»[5].

(١) في (أ) و(ف): «حممًا».

(٢) تقدم تخريجه مستوفًى في هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وأكثر الروايات على أن أربد يبست يده فلم ينفذ كيده برسول الله ﷺ، ولم أقف على الرواية التي فيها أن يده شلت.

(٣) في (ف): «العقاب».

(٤) في (ر): «ماحل» وفي (ف): «حل».

(٥) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠١٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٥٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه. =

وقيل: هو من الإهلاك، وسَنَةُ الـمَحْلِ: سَنَةُ القَحْطِ الـمُهْلِكِ.

وقيل: هو صفةُ عامرٍ، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾؛ أي: شديد المخاصمة والمنازعة، والمماحلة كذلك.

* * *

(١٤) ـ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: هي شهادة أنْ لا إلهَ إلَّا الله على إخلاص التَّوحيد[1]. وهو قول قتادة وابن زيد[2].

وقال الحسنُ: اللهُ الحقُّ، فمَنْ دَعاه دعا الحقَّ[3].

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمَه الله: ويحتملُ: له عبادةُ الحقِّ؛ لأنَّه المستحِقُّ للعبادةِ.

وقيل: أي: للهِ دعوةُ الحقِّ، وهي الاستعانةُ بهِ والدُّعاءُ بكشفِ الضُّرِّ وإعطاءِ

= ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٤٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٤): رواه الطبراني، وفيه الربيع بن بدر وهو متروك. وصحَّح وقفه الدارقطني في «العلل» (٢/ ٢٣٢).

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (١٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠١٠)، من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٦) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٦) عن ابن زيد.

(٣) ذكره الواحدي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١٩/ ٢٣).

السُّؤْلِ، وهي الحقُّ، ومَن دعا اللهَ وسألَه فهو على حقيقةٍ مِن دعوَتِه؛ لأنَّه يدعو مَن لا يعجزُه شيءٌ، ولا يلحقُه بخلٌ، ولا تنقضه عطيَّةٌ.

وقيل: للهِ دعوةُ الخَلْقِ إلى الحقِّ، ولمن دعا إليه بأمرِه، وليس ذلك لغيره مِن الأصنام؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [غافر: ٤٣][(١)].

وقيل: للهِ دعوة[(٢)] الرُّبوبيَّة، فله عليه البراهين الباهرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾: يعني: الأصنام، وجمع بالواو والنُّون وهي جماد لأنَّ المشركين وضعوها موضعَ الأحياء العقلاء الذين يضرُّون وينفعون، ويستجيبون للَّذين يدعون، فأُضِيْفَ الخبر عنهم إليها كما يُضاف إلى العقلاء، كما في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

ويحتمل: أنَّه أراد به الملائكة وعُزيراً والمسيح والجنَّ؛ لأنَّهم لا يستجيبون لعابدِيهم بشيءٍ، ولا ينفعونهم إلَّا بأمرِ اللهِ، فأمَّا أنْ ينفعوهم مِن عندهم فلا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: قيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: لكن؛ أي: لا يستجيبون لهم أصلًا، لكنَّهم كمادٍّ يدَيْهِ إلى الماء ليبلُغَ الماءُ فمَه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾؛ أي: ليس يبلغُ الماءُ فمَهُ.

وقيل: هو على حقيقةِ الاستثناءِ، والمعنى[(٣)]: لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلَّا كما يُستَجابُ لِمَن بسطَ كفَّيْهِ إلى الماء؛ أي: فإذا كان لا يُستجابُ لهذا الباسطِ بشيءٍ،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٢١).

(٢) في (أ): «دعوى».

(٣) في النسخ الثلاث: «ومعنى»، ولعل الصواب المثبت.

فكذلك لا يُستجابُ لهم، وهو كقولك للرَّجل يرجو بخيلًا: ربما[١] يعطيْكَ فلانٌ كما أعطى فلانًا، يريد: أنَّه لم يعطِه شيئًا فكذلك لا يعطيْكَ.

وقال مجاهدٌ: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾؛ يعني: يدعو بلسانِه، ويشيرُ بيدِه، فلا ينالُه أبدًا[٢].

وقال عطاءٌ: هو إنسانٌ ينظرُ في قعرِ بئرٍ، فكما لا تبلغُ يدُه قعرَ الماء، ولا يعلو الماءُ إليه، فكذلك الأصنامُ لا تنفعُ العبدَ شيئًا[٣].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هذا مَثَلُ المشركِ الَّذي عبَدَ غيرَ اللهِ، فمثلُهُ كمَثَلِ العطشانِ الَّذي ينظرُ إلى خَيالِهِ في الماءِ ليتناوَلَهُ، فلا يقدرُ عليه[٤].

وقال الفرَّاءُ: لا تجيبُ الأصنامُ داعيَها إلَّا كما ينالُ الظَّمآن المشرِفُ على الماء، وليسَ معه آلاتُ الاستقاء[٥].

والعربُ تضربُ المثلَ لِمَنْ سعى[٦] فيما لا يدركُهُ بالقابضِ على الماء، قال الشاعر:

فأصبحْتُ ممَّا كان بينِيْ وبينَها ... مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القابِضِ الماءَ باليَدِ[٧]

---

(١) في (ف): «إنما».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٨).

(٣) رواه أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٩).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦١).

(٦) في (أ): «يسعى».

(٧) البيت لأبي الهذيل، كما في «النكت والعيون» (٣/ ١٠٣)، ولأبي دهبل الجمحي كما في «الأغاني» (٧/ ١٥٥). ودون نسبة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٧)، و«الحيوان» (٥/ ٤١ و٧٧)، و«تفسير =

وقيل: أي: مَن بسطَ كفَّيْهِ إلى الماء مِن غير أنْ يرفعَه إلى فِيْه بكفَّيْهِ أو في إناءٍ لم يبلغْ فاه، يجعلُ الماءَ مثلًا للمعبود مِن دونِ اللهِ، وقد جعلَ بَسْطَ اليدَيْن إلى الماء كتوجيه الرَّغبة إلى المواتِ المعبودِ الَّذي لا يعقل، كالماء الَّذي لا يعقل رغبةَ باسطِ الكفِّ إليه فيه.

وأخبرَ أنَّهم فيما يرجون مِن ذلكَ في ضَلالٍ، وهو قولُه تعالى:

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: في غيرِ استقامةٍ وهدًى، فإنَّه غيرُ حاصلٍ لهم ما رَجَوه، ولا إجابةَ لهم ممَّن دَعَوه.

وقيل: هو مبتدأ؛ أي: وما دعاءُ الكفَّارِ الأصنامَ إلَّا ضلالًا عن الهدى.

وقيل: أي: تَضِلُّ الأصنامُ عنهم، فلا يجدونها ولا ينتفعون بها، قال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ: دواعي الحقِّ صارخةٌ في القلوبِ مِن حيث البرهان، فيدعو العبدُ بلسانِ الخواطرِ، فمَنِ استمعَ إليها بسَمْعِ الفهم استجابَ ببيان العلم، وفي مقابلتِها دواعي الشَّيطان، وهي هاتفةٌ بالعبدِ تزيينَ المعاصي، فمَنْ أصغى إليها بسمْعِ الغَفْلةِ استجابَ لصوتِ[1] الغيِّ[2].

***

(١٥) ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾.

= الطبري» (١٣/ ٤٨٨)، و«المستقصى في أمثال العرب» (٢/ ٢٠٩).

(١) في النسخ الثلاثة: «بصوت»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢١). ووقع في النسخ الثلاث: «بصوت الغي»، والمثبت من المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾: أي: إنَّ الكفَّارَ وإنْ دعوا مِن دونِ اللهِ دعوةَ الباطلِ، وامتنعوا مِن دعوةِ الحقِّ، فكلُّ مَن في السَّماواتِ والأرضِ مِن الملائكةِ وبني آدمَ والجنِّ والشَّياطين يسجدون للهِ؛ إمَّا طائعِيْن، وإمَّا كارهِين، وظلالهم تسجدُ له بالغَدواتِ والعشايا.

والآصال: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُل: جمع أصيل، وهو العشيُّ، وهو ما بينَ العصرِ إلى غروبِ الشَّمس، ويُجمَعُ على أصائلَ أيضًا، قال أبو ذؤيب:

لَعَمْـرِي أنـتَ البيـتُ أُكْـرِمُ أهلَـهُ ... وأقعـدُ في أفيائِـهِ بالأصائـلِ[1]

والسُّجودُ طوعًا ظاهرٌ، والسُّجودُ كَرْهًا ممَّنْ أُكْرِه على الإسلام موجودٌ أيضًا، أمَّا ما عداهما: فتركُّبُ[2] صور الأعيان، واختلافُ الأحوال عليها، وتعاقبُ المتضادات مِن الحركة والسُّكون والاجتماع والافتراق عليها، وحاجةُ بعضها إلى بعض في تمامِ قوامِها = شاهدٌ على أنَّها مصنوعاتٌ محتاجةٌ إلى مَن يقيمها، وأنَّ لها صانعًا صنعَها[3] لا يشبهُها، فهذا مِن الكافرِ شاهدٌ للهِ بالرُّبوبيَّةِ، وأنَّه مستحِقٌّ لدعوة الحقِّ، وإنْ كانَ الكافرُ كارهًا لذلك غيرَ مريدٍ له ولا معترفٍ، وذلك سجودٌ مِن الكافرِ للهِ وخضوعٌ له كرهًا.

وأمَّا الظِّلال فساجدةٌ للهِ تعالى بالغدوِّ والآصالِ؛ لأنَّها تميلُ مِن ناحيةٍ إلى ناحية، وليس ذلك باختيارِها، بل هو بفعلِ اللهِ ذلك بها، وتصريفُه إيَّاها على ما يشاء مِن ذلك، ودلَّ ذلك على أنَّها مخلوقةٌ مصرَّفةٌ على ما يصرِّفُها عليه صانعُها

---

(١) انظر: «الكامل» للمبرد (٣/ ٥٤)، و«شرح أشعار الهذليين» (١/ ١٤٢).

(٢) في (أ): «فتركت»، وفي (ر): «فتركيب»، وفي (ف): «فتركبت».

(٣) في (أ): «يصنعها».

ومدبِّرُها، وذلك شهادةٌ منها للهِ تعالى بالقدرةِ والسُّلطان والوحدانيَّة، وخضوعٌ منها له، وهو السُّجود.

ومِنَ السُّجود كَرهًا معنى سجود الكافرِ للهِ إذا نزلَ به ضرٌّ ألجأتْهُ الحاجة إلى أنْ يتواضعَ للهِ ويسجدَ له، يدعوه بها لحاجتِه بها.

***

(١٦) - ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: أي: قلْ للمشركِيْنَ السَّاجدِيْنَ للهِ كَرْهًا دلالةَ الخلقَةِ: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مالكهما ومدبِّرُهما، وكانوا مقرِّين[1] بأنَّ ربَّ السَّماوات والأرض هو الله؛ أي: سَلْهُم عن هذا، فيقولون: الله، فحذفَ جوابَهم لدلالةِ الكلامِ عليه؛ لأنَّهم كانوا مقرِّيْنَ بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقولـه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: أي: وإذا قالوا: الله، فقـل أنت أيضًا: الله، تقريرًا لهـم، وتأكيدًا للاحتجاجِ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾: استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ والتَّقريع؛ أي: قلْ لهم بعدَ هذا التَّقرير: فلِمَ اتَّخذْتُم مِن دونِه أولياء تتولَّونهم وتعبدونهم وتوجِّهون الرَّغبة إليهم، وهم لا يملكون لأنفسِهم نفعًا يجلبونَه إليها، ولا ضرًّا يدفعونَه عنها، وإذا كان كذلك فهم مِن ملكَةٍ لكم أبعدُ.

---

(١) في (ف): «مقهورين مقرين».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: وهو تقريعٌ آخر؛ أي: هل يستوي الجماد الذي لا يُبصِرُ ولا يسمَعُ، واللهُ الحيُّ الذي يبصرُ ويسمعُ.

وقيل: هو مَثَلُ الكافر والمؤمِن.

ولَمَّا قرَّرَ أنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ، وبَّخهم بعبادةِ غيرِ اللهِ، وبيَّنَ أنَّ مَنْ فعلَ ذلك فهو أعمى عن الرُّشد، والمؤمن بصيرٌ[1] به، ولا يستويان.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؛ أي: الكفر والإيمان، فالكفرُ ظلمةٌ لا يُهتَدى فيها، والإيمانُ نورٌ يُهتَدى فيه، ولا يستويان.

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ: إنَّ الأنوارَ إذا تلألأَتْ في القلوبِ نفَتْ آثارَ الظُّلمةِ، فنورُ اليقين ينفي ظلمةَ الشَّكِّ، ونورُ العلمِ ينفي تهمةَ الجهلِ، ونورُ المعرفةِ يمحو أثَرَ النَّكرة، ونورُ المشاهدة ينفي آثار البشريَّة، وأنوار الجمع تنفي آثار التَّفرقة، وأنوارُ الحقائق تمحو[2] آثارَ الحظوظِ[3].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾: وهذا تقريعٌ آخر، يقول: أوَقعَ عندَهم أنَّ الأصنامَ تخلقُ الأشياءَ كما أنَّ اللهَ تعالى يخلقُ الأشياءَ فاستجازوا[4] عبادةَ الأصنامِ لوجودِ التَّخليقِ منها، كما استجازوا[5] عبادةَ اللهِ لذلك لاشتراكِهم في استحقاق العبادةِ لذلك، وإنْ[6] لم يكنْ هذا هكذا، بل اللهُ

(١) في (ف): «بصير».

(٢) في (ر) و(ف): «تنفي».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٤) في (ر): «فاختاروا»، وفي (ف): «فاستخاروا».

(٥) في (ر): «اختاروا»، وفي (ف): «استخاروا».

(٦) في (ر): «وإذا».

هـو المنفـرِد بالتَّخليـق، فهو المتفـرِّد(١) باسـتحقاق العبادة له.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: وقد أقررْتُم أنَّه لا خالقَ غيرُه، فلا يستحقُّ العبادةَ غيرُه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾؛ أي: الواحدُ الَّذي لا ثانيَ له، ولا شريكَ له، وهو القهَّارُ الَّذي يقهرُ بقدرتِه كلَّ شيءٍ، ولم يقهرْهُ شيءٌ، وهو المستحِقُّ لتوجيه الرَّغبات إليه، والاستغناءِ به عن غيرِه.

***

(١٧) ـ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ الآية: قال قتادةُ: هذه ثلاثةُ أمثالٍ في مثلٍ واحدٍ:

قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ الصَّغير والكبيرُ، فشبَّه نزولَ القرآنِ بالماءِ ينزلُ مِن السَّماء، وشبَّه القلوبَ بالأوديةِ والأنهار، فذو العلم على قَدْر علمِه، وذو الجهل على قَدْر جهلِه، فهذا مَثَلٌ.

ثمَّ شبَّه وساوسَ الشَّيطان ومخايل النَّفس والخَطَرات الفاسدةَ بالزَّبَد يعلو الماء، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾(٢)، والرَّابي: العالي، فما يقعُ في النَّفس مِن الوهم والفضول فمِن ذاتِها لا من الحقِّ، يقولُ: فكما يذهبُ الزَّبدُ باطلًا

(١) «بالتخليق فهو المتفرد» ليس في (أ).

(٢) «وهو قوله تعالى فاحتمل السيل زبدًا رابيًا» من (ف).

ويبقى صفوُ الماءِ، كذلك تذهبُ مخايلُ النَّفس ووساوسُ الشَّيطان ويبقى الحقُّ كما هو، فهذا مثلٌ ثانٍ.

والمثل الثَّالثُ قولُه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾: أي: له خبثٌ مِثْلُ زَبَدِ الماءِ، فكما[1] يذهبُ خَبَثُ الجواهرِ ويبقى خلاصُها وصفوها كَذَلِكَ يذهبُ الجهلُ والوهمُ، ويبقى العلمُ والفهمُ، فهذا المثل الثَّالث[2].

وقال الإمامُ القشيريُّ: الآيةُ تشتملُ على أمثالٍ:

شبَّه القرآنَ المنزَلَ بالماءِ المنزَل من السَّماء.

وشبَّه القلوبَ بالأودية.

وشبَّه وساوسَ الشَّيطان وهواجس النَّفس بالزَّبَد الَّذي يعلو الماء.

وشبَّه الحقَّ بالجواهر الصَّافية مِن الخَبَثِ؛ مِنَ الذَّهب والفضَّة والصُّفر والنَّحاس وغيره.

وشبَّه الباطلَ بخبَثِ هذه الجواهر.

ثمَّ إنَّ الأودية مختلفةٌ في صغرِها وكبرِها، فبقَدْرها تحتمِلُ الماءَ في القلَّة والكثرة، كذلك القلوبُ مختلفةٌ في الاحتمالِ على حسب الضَّعف والقوَّة، وكما أنَّ السَّيل إذا حصل في الوادي يطهِّر الوادي، كذلك القرآن يطهِّرُ القلوب.

وكما أنَّ السَّيل يحتمل الزَّبد فيلفِظُهُ كذلك القرآن إذا حصل حفظُه في القلوبِ ينفي الوساوسَ والهواجسَ عنها.

---

(١) في النسخ: «فكذا»، والصواب المثبت.

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٠١).

وكما أنَّ الماء قد يصحبُه ما يكدِّره، ويخلِّص بعضه عمَّا يشوبُه، فكذلك الإيمانُ وفهمُ القرآنِ في قلوب المؤمنين قد تختلطُ به نزغات[١] الشَّيطان والخواطر الرديَّة، فمِن بين صافٍ وكدرٍ.

وكما أنَّ الجواهر التي يُتَّخَذ منها الأواني إذا أذيبَتْ[٢] خلصَتْ عن الخبث، كذلكَ الحقُّ يتميَّز مِن الباطل ويبقى الحقُّ ويضمحلُّ الباطلُ.

ثمَّ الجواهرُ الَّتي تُتَّخَذُ منها الأواني مختلفةٌ؛ فمِن إناءٍ يُتَّخَذُ مِنَ الذَّهبِ، وآخر مِن الرَّصاصِ إلى غيرِه، فكذلِكَ القلوبُ تختلفُ.

وفي الخبر: «إنَّ للهِ أواني، وهي القلوبُ»[٣]، فمريدٌ قاصدٌ، ومحبٌّ واجدٌ، وعابدٌ خائفٌ، وموحِّدٌ عارفٌ، ومتعبِّدٌ متقشِّفٌ، ومتهجِّد[٤] متصوِّف. وأنشدوا:

ألوانُها شتَّى الفنونِ وإنَّما ... تُسْقَى بماءٍ واحدٍ مِن مَنْهَلِ[٥]

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: الواحدُ القهَّار أنزلَ مِن السَّماء مطرًا.

---

(١) في (ف): «قد يختلط بنزعات».

(٢) في (ف): «صفت».

(٣) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٨٤٠) عن أبي عنبة الخولاني مرفوعاً، قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ٦٣١): إسناده جيد.
ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٩٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.
ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٦٨٧) من قول عبد الله بن مالك، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (١/ ١١) من قول ثور بن يزيد.

(٤) في (ف): «ومجتهد».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، والبيت للوأواء الدمشقي واسمه محمد بن أحمد العناني أبو الفرج.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ﴾: جمعُ وادٍ ﴿بِقَدَرِهَا﴾: على أقدارها[1] مِن السَّعةِ والضِّيق، والكِبَر والصِّغَر.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾؛ أي: الوادي إذا سالَ حملَ السَّيل زبدًا مرتفعًا على ظهرِه؛ وهو زَبَدُ الماءِ والغثاء؛ أي: الحق الَّذي أنزلَه اللهُ تلقَّتْهُ القلوبُ على قَدْرِ عقولِها وإذعانِها، والباطلُ يظهرُ أحيانًا ويكادُ يعلو الحقَّ، ثمَّ يتلاشى ويضمحِلُّ، ولا تكون العاقبةُ إلَّا للحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: من الجواهر الَّتي يستخرجونها مِن المعادن فيوقدون عليها ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾؛ أي: طلبَ الحلية ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾؛ أي: آنية من الأواني فله ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ أي: خبثٌ كزبدِ الماء، ثمَّ إنَّه[2] ينمحقُ عندَ أوَّل ما لمستْهُ النَّار، ولا ينتفِعُ به أهلُه، فكذلك الباطل يضمحِلُّ عندَ أوَّلِ حجَّةٍ تقومُ بهِ مِن حججِ الحقِّ، والجواهرُ تبقى في الأرض، وهي مِثْلُ الحُجَجِ[3] تثبُتُ وتقوى.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾: أي: يبيِّن ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾؛ أي: يذهبُ بعدَ علوِّهِ السَّيل برفعِ الرِّياح إيَّاه، وقذفِ الماءِ به، وتعلُّقِه بالأشجار، وجنبات الأودية.

وقد جَفَأَتِ القدرُ وأجْفَأَتْ، وجَفَأَ الوادي وأَجْفَأَ؛ أي: رمى بما علاه، فيرمِي الوادي بالجَفأ أوَّلًا إلى جانبٍ، ثمَّ تعمل فيه الرِّيحُ والشَّمسُ ويتلاشى، وكذا الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: المطرُ وجواهرُ المعادن

---

(١) في (أ): «مقدارها».

(٢) «إنه» من (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «مثلٌ لحجج».

تستقرُّ في الأرض، فيَنتفعُ بها النَّاسُ عندَ الحاجةِ إليها، والزَّبَدُ يعلو صورةً ثمَّ يتلاشى، وكذلك الباطلُ وأهلُه، والماءُ والجواهرُ يسفُلُ صورةً ويثبُتُ ويبقى، فكذلك الحقُّ وأهلُه، والجواهر تستفيدُ بالنَّار صفاءً، وكذلك المحقُّ يزدادُ بأذى المبطلِيْنَ خُلوصًا وبقاءً.

وقولـه تعالـى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: يبيِّـنُ الأشـياءَ لإيضـاحِ الحـقِّ وإدحـاضِ الباطـلِ.

***

(١٨) ـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾؛ أي: أجابوا دعوةَ الحقِّ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: المثوبةُ الَّتي لا أحسنَ منها، وهي الظَّفَرُ والتَّمكين في الدُّنيا، والنَّعيم المقيم في الجنَّة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]؛ أي: الظَّفَرَ والشَّهادة، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الجنَّة.

وقال الإمام القشيريُّ: هي قَبولُ استجابَتِهم له، وذلك مِن أجلِّ الأشياءِ عندَهم؛ إذْ لا شيءَ أعزُّ على المحبِّ مِن قَبول محبوبِه منه شيئًا[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾: لم يجيبوا لربِّهم في دعوةِ الحقِّ، فلا مخلَصَ لهم بوجهٍ مِن الوجوهِ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: مِن صنوفِ الأموالِ ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ أي: وضعفَ ذلك.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٥).

﴿لَافۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾: لأعطَوه بدلًا عن أنفسِهم ليخلِّصوها من العذاب، ولا يُقبَل منهم، قال ذلك في آيةٍ أخرى، وهذا ممَّا عَلِمَ اللهُ في الَّذي لا يكونُ أنَّه لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾: أي: يحاسبُهم اللهُ بكلِّ معاصيهم، فيجازيهم عليها ولا يتجاوزُ عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مرجعُهم بعدَ المحاسبة النَّارُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ أي: بئسَ الفِراشُ جهنَّمُ.

* * *

(١٩) ـ ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾: استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: ليسَ الَّذي استجابَ للهِ في دعوة الحقِّ وعلم أنَّ ما أوحى اللهُ إليك أنَّه حقٌّ صِدقٌ كالذي لم يستجبْ له فيها وعميَ عنها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي: إنَّما يتَّعظُ بآياتِ اللهِ أولو العقول، فيعلمون أنَّ وحيَه الحقُّ.

وقال أبو القاسم ابنُ حبيبٍ رحمَه الله: رأيْتُ في بعض التَّفاسير أنَّها نزلَتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وفي أبي جهلٍ لعنَه الله[١].

وقيل نزلَتْ: في عمَّار بنِ ياسرٍ وأبي حذيفة بن المغيرة[٢].

---

(١) الذي ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٣٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٤٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في حمزة رضي الله عنه وأبي جهل.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٥).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لا يستوي البصيرُ والضَّريرُ، والمقبولُ والمردودُ، والمؤهَّلُ للتَّقريبِ والمعرَّضُ للتَّعذيب، والَّذي أقصيناه عن شهودِنا والَّذي هديناه لوجودِنا[١].

***

(٢٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾: له وجهان على الانتظام:

أحدهما: أنَّه نعتُ قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

والثَّاني: أنَّ تقريره: هم الَّذين.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الَّذين يقيمون على الشَّهادة ولا ينقضون ذلك[٢]؛ أي: لا يشركون بالله تعالى.

وقال مقاتلُ بنُ حيَّان: هو ميثاق ذريَّة آدم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ إذا بلغوا الحنثَ[٣].

وقيل: هو ميثاقُ أهلِ الإيمان وقَبول الأوامرِ والنَّواهي.

وقيل: هو ميثاقُ الخِلْقة، وقد مرَّ ذكرُها وذكرُ أقاويل أُخَر في أوَّل (سورة البقرة).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: هو باستدامةِ العِرفان، وإيفاءِ شرائطِ الإحسان،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٥).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٣٨) بلفظ: (يريد: الذي عاهدهم عليه في صُلب آدم).

(٣) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٧١) في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، وهو مثل ما ذكره الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في التعليق السابق.

والتوقِّي عن(١) ارتكاب العصيان، بذلك(٢) انبرم العقدُ يومَ الميثاق والضَّمان، وميثاقُ قومٍ ألَّا يعبدوا سواه، وميثاقُ قومٍ ألَّا يحبُّوا سواه، وميثاقُ قومٍ ألَّا يشاهدوا سواه، وميثاق قومٍ ألَّا يسألوا سواه(٣).

***

(٢١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: يعني مَن آمنَ مِن أهلِ الكتابِ وصلُوا الإقرارَ بكلِّ الأنبياءِ والكتبِ، ولم يقولوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض(٤).

وقيل: هو صلةُ أرحامهم.

وقيل: هو صلةُ رَحِم النَّبيِّ ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إلا أن تودُّوني لقرابتي منكم(٥).

وهو خطابٌ للعربِ، ويجوز أن يكون لأهل الكتاب أيضًا، فهم بنو إسرائيل، وهم أولاد إسحاق، والعربُ ـ وهم النَّبيُّ عليه السلام وأصحابه ـ من أولاد إسماعيل، فهم بنو عمٍّ بعضُهم لبعض.

---

(١) في (أ): «والتنفي عن» وفي (ف): «والنفي عن»، وفي (ر): «والسعي عن»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٢) «بذلك» ليس في (أ).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٦).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٣٩).

(٥) في (ف): «أي إلا أن تودوني منكم» وفي (ر): «أي لا تؤذوني لقرابتي منكم».

وقيل: هو التَّواصل في[1] الدِّين والتَّوالي عليه، ولا طاعةَ بعدَ الإيمانِ باللهِ تعالى أعظمُ ثوابًا مِن الحبِّ في الله تعالى والبغضِ فيهِ.

وقولـه تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: أي: فـي نقضِ الميثاقِ وقطيعـةِ الرَّحم وكلِّ شيء.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾: أي: مناقشتَه، والمجازاةَ على كلِّ المعاصي بغيرِ عفوٍ.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: يصلونَ أنفاسَهم بعضَها ببعضٍ، فلا يتخلَّلُها نَفَسٌ لغيرِ اللهِ تعالى، ولا في شهودِ غيرِ الله، ويصلونَ سيرَهم بسُراهم[2] في إقامة العبوديَّة، والتَّبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّة.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: والخشيةُ لجامٌ يوقفُ المؤمنَ عن الرَّكض في ميادين الهوى، وزمامٌ يجرُّه إلى[3] استدامة حكم التَّقوى.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: يبدو لهم مِن اللهِ ما لم يكونوا يحتسبون[4].

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾: أي: حبسوا أنفسَهم عمَّا لا يجوز.

وقيل: أي: تجرَّعوا مرارةَ منعِ النَّفس فيما تهواه.

---

(١) في (ف): «على».

(٢) في (ر) و(ف): «سرهم بسرائرهم».

(٣) في (أ): «مجرد أي» بدل من «يجره إلى».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٦).

وقيل: صبروا على أداءِ الطَّاعات.

وقيل: صبروا على ترك السَّيِّئات.

ويجوز أن يكون هذا عطفًا، ويجوز أن يكون ابتداء، وجوابُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل الوجهَيْن.

وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: الصَّلوات بأركانها وشروطها وآدابها.

وقـوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾: أي: في الزَّكوات، ونوافل الصَّدقات، والمندوبِ من النَّفقات، سرًّا وعلانية، لا علانية لا غير، فيكونَ رياءً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: أي: يدفعون إساءةَ مَن أساءَ إليهم مِن النَّاس بالإحسان إليهم، عملًا بقولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقيل: أي: يدفعون بالإيمانِ الشِّرك.

وقال الحسنُ: إذا حُرِموا أَعطوا، وإذا ظُلِموا عفَوا، وإذا قُطِعوا وَصَلوا[(١)].

وقال ابنُ كيسان: إذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا، فيدفعون بالتَّوبة عن أنفسِهم معرَّة الذُّنوب[(٢)].

ونظيرُه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام لمعاذٍ رضي الله عنه: «إذا عملْتَ سيِّئةً فأتْبِعْها بحسنةٍ، السِّرُ بالسِّرِّ، والعلانيةُ بالعلانيةِ»[(٣)].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٦)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٤٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣٢٥) من طريق أبي معاوية عن معاذ رضي الله عنه قال أوصني يا رسول الله... الحديث.

ورواه الإمام أحمد في «الزهد» (١٤١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٥٩) عن عطاء بن يسار عن معاذ. =

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: أي: هؤلاء الَّذين وصفناهم هم الَّذين أعقبَهم اللهُ الجِنان مِن دار الدُّنيا؛ أي: جزاءً بما فعلوا فيها.

وعن ابن المبارك أنَّه قرأ هذه الآيات فقال: ثماني خِلالٍ مسيِّرةٌ إلى ثمانيةِ أبوابٍ مِن أبوابِ الجنَّة(١).

وقال القشيريُّ رحمَه الله: وممَّا يجبُ الصَّبر عليه لأهل الإرادة هو الوقوف على حكم تعزُّز الحقِّ جلَّ جلالُه، فإنَّه يتفضَّلُ على الكافَّة مِن المجتهدين، ويتعزَّز خصوصًا على المريدين، فيمتحنُهم بالصَّبر في أوانِ إرادتِهم، فإذا صدقوا في صبرِهم جادَ عليهم بتحقيقِ ما طلبوا(٢).

❋ ❋ ❋

(٢٣) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾: رفعُها مِن وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنَّه بدلٌ عن قولِه: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

والثَّاني: أنَّه مبتدأ، وخبرُه ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾؛ أي: بساتينُ إقامةٍ يدخلونها.

= ورواه هناد في «الزهد» (١٠٧٢) و(١٠٩٢)، والطبراني (٢٠/ ١٧٥)، عن أبي سلمة قال: قال معاذ... وكلها مرسلات، ويشهد له حديث أبي ذر رضي الله عنه: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، رواه الترمذي (٤/ ٣٥٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٧).

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾: أي: مَن آمنَ بالله مِن والدِيهم وزوجاتِهم وأولادِهم فيجتمعون، وفيه أعظمُ اللذَّات وأجلُّ النِّعمة والكرامات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾: قال مقاتلٌ: يدخلون عليهم في مقدارِ يومٍ وليلةٍ مِن أيَّام الدُّنيا ثلاثَ كرَّات[1]، معهم الهدايا والتُّحف[2].

* * *

(٢٤) ـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾: أي: يقولون: سلامٌ عليكم، وهو تحيَّة وكرامة.

وقيل: إخبارٌ منهم أنَّهم وصلوا إلى السَّلامة التَّامَّة مِن كلِّ آفةٍ.

وقيل: هو دعاءٌ منهم لهم بها.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[3]: في الدُّنيا عن المعاصي[4] وعلى الطَّاعة وعلى المحنة.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: أي: فهي نِعْمَ عُقبى الدَّار، وقد فسَّرناها.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «كرامات»، وفي «تفسير مقاتل»: «ثلاث عشرة مرة»، والمثبت الموافق لـ (أ)، و«تفسير الثعلبي».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٦)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٨٦).

(٣) بعدها في (ر): «أي: بما صبروا».

(٤) في (أ): «المعصية».

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: أي: إيثاقه ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هو بمقابلة ما ذكر في الآيات المتقدِّمة مِن الوفاء بالعهد وصلة الرَّحم.

قوله تعالى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾: قيل: بالعمل بالمعاصي.

وقيل: بالتَّنفير عن النَّبيِّ ﷺ والنَّميمة على المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾: أي: الطَّرد والإبعاد عن رحمة الله ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: يرَوْن فيها ما يسوؤهم.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: نقضُ العهدِ: الرُّجوع إلى الاختيار والتَّدبير[1] بعدَ شهودِ الأقدارِ وملاحظة التَّقدير[2].

* * *

(٢٦) ـ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يوسِّع الرِّزق لمن يشاءُ ويضيِّق على مَن يشاء، وليس التَّوسيع على الكفَّار لكرامتهم، ولا التَّضييق على المسلمين لإهانتِهم، بل للمسلمين في الآخرة الجنَّة ونعيمها، ونِعْمَ عُقبى الدَّار، وللكافرين في الآخرة اللَّعنة ولهم سوء الدَّار.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: سُرُّوا بها وبطروا؛ أي: المشركون، ولم يعلموا ما عندَ اللهِ للَّذين يؤمنون.

---

(١) في (ف): «والإدبار».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٨).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾: قال مجاهدٌ: أي: نفعٌ قليلٌ ذاهبٌ[١].

وقال القشيريُّ رحمَه الله: بسَطَ الرِّزقَ للأغنياء وطالبَهم بالشُّكر، وقبضَ عن الفقراءِ وطالبَهم بالصَّبر، ثمَّ وعدَ الزِّيادةَ للشَّاكرين، ووعدَ معيَّته للصَّابرين، فللأغنياء الأموال بمزيدِها، وللفقراءِ التَّجرُّد في الدَّارين عن طريفِها وتليدِها.

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فرحَ الأغنياءِ بزكاءِ أموالِهم، وفرحَ الفقراءِ بصفاءِ أحوالِهم.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾؛ أي: قليلٌ بالإضافةِ إلى متاعِ الآخرةِ، فأموال الأغنياء وإنْ كَثُرَتْ قليلةٌ بالإضافةِ إلى ما وعدَ لهم مِن شهودِ جماله وجلالِه[٢].

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: يقول عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ وأميَّةُ وأصحابُه: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ مِن ربِّه، وهي آيةٌ كانوا يقترحونَها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ مع ظهور الآيات ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ مَن يشاءُ[٣] مع غموضِ الآيات، فهو الهادي والمضلُّ، فيهدي ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ إليه؛ أي: رجعَ إليه[٤]، وانقطعَ بعملِه إليه؛ أي: يهدي مَن علمَ منه اختيارَ الهدى والرُّجوع إليه تعالى.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥١٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٩).

(٣) في (ف): «أناب».

(٤) في (أ) و(ف): «إلى الله».

(٢٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: هذا نعتُ ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وذلك بمعنى الجمع؛ لأنَّه جنسٌ.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ أي: تسكنُ ولا تضطرب، وتزول عنها الشُّبَه.

قال مجاهدٌ: الآيةُ في أصحابِ رسولِ الله ﷺ[١].

وقال مقاتلٌ: وتطمئنُّ قلوبهم بالقرآن[٢].

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾؛ يعني: تسكنُ القلوبُ بالقرآنِ.

وقال قتادةُ: أي: تَهَشُّ إلى ذكرِ اللهِ وتستأنسُ به[٣].

وقال القشيريُّ: قومٌ قد اطمأنَّتْ قلوبُهم بذكرِ اللهِ، وفي الذِّكْرِ وجدوا سلوتهم[٤]، وبالذِّكرِ وصلوا إلى صفوتِهم، وقومٌ قد اطمأنَّتْ قلوبُهم بذكرِ اللهِ، فإذا ذكرَهُم اللهُ بلطفِه أثبتَ الطَّمأنينة في قلوبِهم على وجهِ التَّخصيص لهم.

وقيل: إذا ذكروا أنَّ اللهَ ذكرَهُم استروحَتْ قلوبُهم، واستبشرَتْ أرواحُهم، واستأنسَتْ أسرارُهم[٥].

* * *

(٢٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥١٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥١٨)،

(٤) في (ر) و(ف): «سكونهم».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٢٩).

وقولـه تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هـذا مبتـدأ، وخبـرُه قولُه تعالـى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾.

وقيل: لَمَّا قال في الآية الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وقَبْل جوابه أتى بكلامٍ معترضٍ تامٍّ، وهو قولُه: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾؛ أي: هكذا يجبُ أنْ يكون، انقطع الأوَّل، فأعاد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهو يرجع إلى ما تقدَّمَ، وبني عليه جوابُه.

﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾؛ أي: لهم طِيْبُ العيش.

﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾؛ أي: حسنُ مرجعٍ ومنقلَبٍ إلى كرامةِ اللهِ تعالى.

و﴿طُوبَىٰ﴾: فُعلـى مِـن الطِّيب، والـواو أصلها اليـاء، وصـارت واوًا لضمَّةِ ما قبلها.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: فرحٌ لهم، تقرُّ به أعينُهم.

وقال قتادة: حُسنى لهم.

وقال عكرمة: نِعْمَ ما لهم.

وقال الضَّحَّاك: غبطةٌ لهم.

وقال إبراهيم: أي: كرامة لهم من الله.

وقال مجاهد: أي: الجنَّة لهم(١).

قال أبو هريرة: هي شجرةٌ في الجنَّة(٢).

---

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٠ ـ ٥٢٣).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً.

وقيل: هي تأنيثُ الأطيبِ، وهي صفة الجنَّة؛ أي: أطيب الأشياء لهم، وهي الجنَّة.

وقال الزَّجَّاج: أي: العيش الطَّيِّب لهم[١].

وقال الرَّبيعُ بنُ أنس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: هو البستانُ بلغة الهند[٢].

وقال مجاهد: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: هو الجنَّة بلسانِ الحبشة[٣].

وقال شميط بن عجلان[٤]: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾؛ يعني: دوام الخير[٥].

وقال أبو هريرة: طوبى: شجرةٌ في الجنَّة، يقول الله تعالى لها: تفتَّقي لعِبادي عما شاؤوا، فتتفتَّقُ لقومٍ عن الخيلِ بِسُرُجِها ولُجُمِها، ولقومٍ مِن الإبلِ برحالِها وأَزِمَّتِها، ولقومٍ عن الحليِّ والحُلَلِ، ولقومٍ عن الفواكِه[٦].

وقال مقاتلٌ: طوبى: شجرةٌ في الجنَّة، لو ركبَ رجلٌ فرسًا أو نجيبةً عُمُرَهُ لم يبلغ الموضِعَ الَّذي ركبَ منه حتَّى يدركَهُ الهرمُ، ولو طارَ طائرٌ مِن ساقِها لَمَا أدركَ فرعَها حتَّى يدركَهُ الهرمُ، لها أوراقٌ كلُّ ورقةٍ منها تُظِلُّ أمَّةً، على كلِّ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٢) عن سعيد بن مسجوح.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) شميط بن عجلان البصري العابد، أحد زهاد البصرة، أسند شيئًا يسيرًا عن التابعين، وله مواعظ نافعة وقصص، سئل أبو حاتم عنه فقال: لا بأس به، يكتب حديثه، توفي (١٥٠ هـ). انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٨٩٢).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٨).

(٦) رواه نعيم بن حماد في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (٢٦٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٧٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦).

ورقـةٍ ملَكٌ يسـبِّحُ اللهَ تعالى بأنـواع التَّسـبيحِ، ثمارُها الحلـيُّ والحُلَلُ[١].

وقال عبيدُ بنُ عميرٍ: طوبى: شجرةٌ في الجنَّة[٢]، أصلُها في دارِ النَّبيِّ ﷺ، ففي كلِّ دارٍ وغرفةٍ غصنٌ منها، لم يخلق الله لونًا ولا زهرةً إلَّا وفيها، ينبعُ مِن أصلِها عينان: الكافور والسَّلسبيل[٣].

وروى أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ عن النَّبيِّ ﷺ: «طوبى شجرةٌ في الجنَّةِ مسيرةُ مئةِ سنةٍ، ثيابُ أهلِ الجنَّةِ تخرجُ مِنْ أكمامِها»[٤].

وقال أبو أمامة: طوبى شجرة في الجنَّة، ليس فيها دارٌ إلَّا وفيها غصنٌ منها، ولا طيرٌ إلَّا وهو فيها، ولا ثمرةٌ إلَّا وهي فيها[٥].

وقال يزيد بن شجرة: طوبى شجرةٌ في الجنَّةِ عليها طيرٌ أمثالُ البخت، يقعدُ الوليُّ على الخوان فيدعو واحدًا منها فيقع على الخوان، فيأكل نصفَه شواءً، ونصفَه قديدًا، فإذا فرغَ مِن الأكلِ قامَ الطَّيرُ فطارَ وذهبَ[٦].

***

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٧).

(٢) في (أ): «جنة عدن».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٩)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣١٦).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٦٧٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٧٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤١٣).

(٥) رواه ابن وهب في «جامعه ـ تفسير القرآن» (٣٢٨).

(٦) رواه هناد في «الزهد» (١٢٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٩٦٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» (١١٧٠ ـ تفسير)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٨)، جميعهم من قول مغيث بن سمي.

(٣٠) ـ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾: أي: قد خلَتْ مِن قبلِكَ أممٌ أرسلنا إليهم كما أرسلنا إلى هذه الأمَّة.

قوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: لتقرأَ عليهم القرآنَ فيتدبَّروه، ويقفوا على إعجازِه، فيكونَ آيةً على صدقِكَ، إذْ هم في غايةِ الفصاحةِ والعلمِ بأصنافِ الكلامِ، فيستدلُّوا بعجزِهم عن الإتيان بسورةٍ مثلِه أنَّه مِن عندِ اللهِ، فيقفوا أيضًا على أقاصيصِ الماضِيْن ليتيقَّنوا[1] أنَّه مِن عندِ اللهِ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: ممَّا تتلو عليهم مِن القرآنِ المعجزةِ[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا أكفرُ بِـهِ كما تكفرون ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدْتُ ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ أي: مرجعي في الأمورِ كلِّها.

وقال مقاتلُ بنُ سليمانَ: نزلَتْ في صلح الحديبيةِ حينَ صالحَ رسولُ اللهِ ﷺ أهلَ مكَّة؛ منهم سُهَيلُ بنُ عَمرو، وذلك أنَّهم أرادوا أنْ يكتُبَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ كتابَ الصُّلح، فقالَ للكاتبِ: «اكتب: بسمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحيم»، فقال سهيلٌ: ما نعرفُ الرَّحمن إلَّا صاحبَ اليمامةِ ـ يعني مسيلمة الكذَّاب ـ اكتبْ: باسمِكَ اللَّهمَّ، فكتبَ: باسمِكَ اللَّهمَّ[3]، فأُنْزِلَتْ هذه الآيةُ[4].

---

(١) في (أ): «فيعرفوا»، وفي (ف): «فيقروا».

(٢) في (أ): «من الطرف المعجز» بدل من «القرآن المعجزة».

(٣) «فكتب باسمك اللهم» ليس في (ف).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٧ـ٣٧٨)، وعزاه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩١) لقتادة وابن جريج، =

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: نزلَتْ في أبي جهلٍ، وذلك أنَّه دعا جماعةً مِن المشركين، وأتَوا النَّبيَّ ﷺ، فقالوا[١]: إنْ يسرُّكَ أنْ نؤمِنَ بكَ ونتَّبِعَكَ فسيِّرْ لنا هذهِ الجبالَ مِن مكَّةَ، فنحنُ في ضِيْقٍ حتَّى نتَّخذ كظائِمَ ـ يعني: آباراً[٢] ـ ونغرس ونزرع، فلسْتَ أهونَ عندَ اللهِ مِن داود، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا أطيقُ ذلك»، قالوا: فسخِّرْ لنا الرِّيحَ لنركبَها، ونمتارَ في يومٍ إلى الشَّامِ مسيرةَ شهرٍ، ونرجعَ مِن يومِنا، فلسْتَ أهونَ عندَ اللهِ مِن سليمانَ، قال: «لا أطيقُ ذلك»، قال: فإنْ كنْتَ لا تطيقُهُ فأحيِ لنا جدَّكَ قُصيًّا حتَّى يخبرَنا عن كونِ البعْثِ، وعن صحَّةِ أمرِكَ، فلسْتَ بأهونَ عندَ اللهِ تعالى مِن عيسى، قال: «لا أطيقُ ذلك»، قال: فإنْ كنْتَ لا تطيقُه فلا أُلفينَّكَ تذكرُ آلهتَنا بسوءٍ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية[٣].

* * *

(٣١) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

= وأصل الحديث رواه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) في (أ): «فقال لرسول الله ﷺ» وفي (ف): «النبي ﷺ فقال» بدل من «وأتوا النبي ﷺ فقالوا».

(٢) في (أ): «يعني: آثاراً» وفي (ر): «ثم نبني لها دارًا». والكظائم: هي آبارٌ تُحْفَرُ ويُبَاعَدُ ما بَيْنَها، ثمَّ يُخْرَقُ ما بَيْن كلِّ بئرينِ بقناةٍ تُؤدِّي الماءَ مِن الأُولى إلى التي تَلِيْها، حتَّى يَجْتَمِعَ الماءُ إلى آخِرِهِنَّ؛ ليَبْقَى في كلِّ بئرٍ ما يَحْتاجُ إليه أهلُها للشُّربِ وسَقْيِ الأرض، ثمَّ يُخْرَجُ فَضْلُها إلى التي تَلِيْها. انظر: «مجمع الغرائب» للفارسي (مادة: كظم).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩٢).

وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥) عن قتادة والضحاك وابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: جوابُه محذوفٌ، وهو: لكان هذا القرآن، وهو كقولِ القائل:

وأقْسِمُ لو شَيءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ ... سِواكَ ولكِنْ لم يَجِدْ لَكَ مَدْفعَا[1]

وجوابُه محذوفٌ، وهو: لدفعْنَاه.

وقال الفرَّاءُ: يجوزُ أنْ يكونَ جوابُه: لكفروا بالرَّحمن؛ لتقدُّم ما يقتضيه[2].

يعني: إنَّهم لتعنُّتِهم لا يؤمنون مع رؤيةِ كلِّ آيةٍ، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١]، وهي منتظِمةٌ بما مَرَّ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ يعنون: مثلَ تسيير الجبالِ وتفجُّرِ الأنهار، فلمَّا أُشِيْرَ بهم إلى القرآن أنَّه آية معجزة قالوا: فافعل هذا بقرآنِكَ، فنزلَتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ فكذا وكذا، وجوابُه: لكان هذا القرآن، لكنْ ما أُنْزِلَ هذا القرآنُ لهذه الأشياء، فليسَتْ هذه[3] مِن القرآنِ ولا مِن محمَّد، بل هي مِن الله[4] تعالى، ولو فُعِلَ بالقرآنِ لكانَ

(١) البيت لامرئ القيس، انظر: «ديوانه» (ص: ١٢٦)، وصدره في الديوان:

وجَدِّكَ لو شيءٌ أتانا رسوله

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٣)، وفيه: (وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لم يأتِ بعدَه جوابٌ لـ(لو)، فإنْ شئْتَ جعلْتَ جوابها متقدِّمًا: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ولو أنزلنا عليهم الذي سألوا، وإنْ شئْتَ كان جوابه متروكًا لأنَّ أمرَه معلومٌ، والعرب تحذفُ جوابَ الشَّيء إذا كان معلومًا إرادةَ الإيجاز).

فقوله: (فإنْ شئْتَ جعلْتَ جوابها متقدِّمًا: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾...)، هو ما أراده المؤلف بما عزاه للفراء كما يتبين من كلام مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٥/ ٣٧٤١) حيث قال: قال الفراء: الجواب: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والتقدير: ولو أن قرآناً سيرت به الجبال لكفروا بالرحمن.

(٣) «فليست هذه» ليس في (أ) و(ف).

(٤) في (أ) و(ف): «بل هو لله».

ذلِكَ مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، والأمرُ كلُّه للهِ تعالى، يفعلُ ما يشاءُ، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَه، ولكن لا يفعلُ[1] على شهواتِ المقترحين.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾: استفهامٌ بمعنى الأمرِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ والحسنُ وقتادةُ وابن زيدٍ وأبو عبيدةَ: يعني: أفلمْ يعلمْ، ومعناه: فلْيعلَمْ[2].

قالَ سُحَيْمٌ:

أقولُ لهمْ بالشِّعْبِ إذْ ييسرونَني ... ألمْ تَيْأَسُوا أنِّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ[3]

وقيل: أفلمْ ينقطعْ طمعُهم مِن خلافِ هذا علمًا لصحَّتِه، والعلمُ بالشَّيءِ يوجِبُ اليأسَ مِن خلافِه.

وقيل: إنَّ طائفةً مِن المسلمين قالوا: يا رسولَ اللهِ، أجبْ هؤلاءِ الكفَّارَ إلى ما سألوا، فعسى يؤمنون، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى

---

(١) في (أ): «يعمل».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن جريج ومجاهد وقتادة وابن زيد. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٢٨) عن الحسن.
وذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٣/ ١٤٩)، ثم قال: «والقول عندي ـ والله أعلم ـ أن معناه: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون لأنه قال: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾».

(٣) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٣٢)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (٣/ ١١٤٨)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ٥٣٥)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٩٣)،

﴿ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ أي: إن الله قادرٌ على أنْ يهديَ كلَّ النَّاسِ، ولكنْ لا تطمعوا أنتم في إيمانِهم، فإنِّي لا أهديهم لعلمي باختيارهم الضَّلال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: قال ابنُ عبَّاس: ﴿قَارِعَةٌ﴾: عقوبة[١].

وقال قتادة: بليَّة[٢].

وقال مجاهدٌ: وقعة هَلَكة؛ أي: مِن سراياه[٣].

وقال المبرِّد: داهيةٌ[٤]. وأنشدَ لحسَّانَ رضي الله عنه:

وأَمَّ النَّبـــيُّ بنـــي مالـــكٍ لقارعـــةٍ وَسْـــطَهُمْ تَنْـــزِلُ[٥]

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤١) بلفظ: «عذاب من السماء ينزل عليهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤٢)، ولفظه: «وقيعة».

(٣) وقع لفظ الكلام في (أ) هكذا: «وقال مجاهد دفعة وقيل هلكة أي من سراياه». وقد روي خبر مجاهد في المصادر بألفاظ مختلفة لكنها متقاربة، ففي «تفسير مجاهد» (ص: ٤٠٧)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ٥٤١)، من طريق ابن أبي نجيح عنه قوله: (تُصَابُ مِنْهُمْ سَرِيَّةٌ أَوْ تُصابُ فيهم مُصِيبةٌ). ورواه سفيان الثوري في «تفسيره» (٤٥٦) عن ليث عن مجاهد بلفظ: (﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ قال: السرايا)، وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤٢) من طريق عكرمة عنه. وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤٣) من طريق ليث أيضاً وزاد: (كان يبعثهم النبي ﷺ) وهذا يدل على أن الضمير في «سراياه» عائد على النبي ﷺ، وقد جاء في رواية أخرى عند الطبري: (﴿قَارِعَةٌ﴾: سَرِيَّةٌ)، وفي أخرى: (كتيبةٌ)، وفي أخرى: (﴿قَارِعَةٌ﴾: مصيبة من محمد ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: أنتَ يا محمدُ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ قال: الفتحُ).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩٤) بلا نسبة.

(٥) لم أقف عليه.

فعلى قولِ مَن قالَ: هذا السُّورة مكيَّةٌ، فتأويلُه: ولا يزالُ هؤلاء المشركون يصيبهم بكفرِهم واقتراحِهم داهيةٌ مهلكةٌ مِن صاعقةٍ، كما أصابَتْ أربدَ ونحوَ ذلك، وكما أصابَتِ المشركين[1] بمكَّة على ما تأتي قصَّتُه إن شاء الله تعالى، أو تحلُّ أنت يا محمَّد قريبًا مِن دارِهم، تخرجُ مِن المدينةِ وتنزل قريبًا من دارِهم، فيخافون، حتَّى يأتيَ أمرُ اللهِ بالقتالِ.

وعلى قولِ مَن قال: هي مدنيَّة، فالقارعةُ: السَّريَّةُ مِن سرايا رسولِ الله ﷺ تأتي مكَّة، أو تحلُّ القارعةُ قريبًا مِن دارِهم حول مكَّة، والتَّاء[2] في هذا للتَّأنيث، وفي الأوَّل للخطاب ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾: فتحُ مكَّة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وقيل: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾: إظهار دينِه على الأديانِ كلِّها.

وقيل: حتَّى يأتي يومُ القيامةِ.

والقارعةُ: مِن القَرْعِ، وأصلُه: الضَّربُ بشدَّةٍ كقَرْعِ البابِ، والضَّرْبُ بالمِقْرَعَةِ، والقارعةُ اسمٌ للقيامةِ لقرعِها القلوب.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وهذه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ.

---

(١) في (أ): «المستهزئين».

(٢) أي: التاء في ﴿تَحُلُّ﴾.

يقول: ولقد فُعِلَ بالرُّسلِ مِنْ قبلِكَ ما يَفعلُ هؤلاء المستهزئون[1] بك، مِن الاستهزاءِ، واقتراحِ الآيات، فأمهلْتُ المستهزئينَ مدَّةً ليؤمِنَ مَن كان في علمي أنَّه يؤمِنُ، أو يزدادَ إثمًا ويكفرَ مَن علمْتُ أنَّه لا يؤمنُ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾: بالعقابِ، فانظر كيف كان ذلك.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كلمةٌ تُستعمَلُ عندَ الإعلام بالقدرة، وهو توعُّدٌ لهؤلاءِ بمثلِه.

* * *

(٣٣) - ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: هو تعجُّبٌ مِن المشركين في إشراكِهم باللهِ غيرَه، وهو استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: ليس مَن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ؛ أي: قائمٌ بالتَّدبير في جزائها[2]، وقيل: بحفظِها وإدرارِ رزقِها.

وقيل: أفمَن هو محاسِبٌ مطالِبٌ، كما قال: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وحذفَ هنا: (كمَنْ ليس كذلك) لدلالةِ الكلامِ عليه، ومثلُهُ في القرآن كثيرٌ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩]، ودلَّ على هذا الحذف ما بعدَه، وهو قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: شركاءَ ليسوا بقائمِينَ على الأنفس.

---

(١) «المستهزئون» ليس في (أ).

(٢) في (ف): «حراستها».

وقيل: المحذوفُ شيءٌ آخرُ، وتقديرُه: أفمَن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ يحفظُها ويرزقُها في دار المحنةِ إلى مدَّةٍ يمتحنُهم ثمَّ لا يجعلُ لهم دارَ جزاءٍ؛ أي: هذا لا يكون.

وكلمةُ: (أفَمَنْ) و(أومَنْ) و(أمَّنْ) ذُكِرَتْ في القرآنِ في ستَّ عشرةَ آية:

ثلاثٌ في صفةِ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس: ٣٥].

وثلاثٌ في حقِّ الرَّسولِ ﷺ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وواحدةٌ في حقِّ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ الآية [القصص: ٦١].

وواحدةٌ في حقِّ الفاروقِ رضي الله عنه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ [فصلت: ٤٠].

وواحدةٌ في حقِّ عثمانَ رضي الله عنه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩].

وواحدةٌ في حقِّ عليٍّ رضي الله عنه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨].

وثلاثٌ في حقِّ المؤمنين: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وثلاثٌ في حقِّ الكفَّارِ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩]، ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقـوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: أشركوا أيضًا مع إنكارِهُمُ البعثَ، فازدادوا كفرًا إلى كفرٍ.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾: قيل: سمُّوا هؤلاء الَّذين جعلتُموهم شركاء بأسماء حقيقةٍ لها معانٍ تستحقُّ بها أنْ تكونَ معبودةً، ولم تقدروا على ذلك، فبطلَ قولُكم.

وقيل: إذا سمَّيتموها آلهةً فسمُّوها بأسماء الله، وهي الخالق والرَّازق وسائر الأسماء، ولا يفعلون ذلك لعلمِهم أنَّه باطلٌ، فكذلك تسميتُهم بالآلهةِ.

وقيل: إذا جعلتُم لي شركاء فسمُّوها مَن هم، ولا شكَّ أنَّهم يسمُّون أصنامَهم المعروفةَ باللَّات والعُزَّى ومناةَ ونحوها، فيَعلمُ كلُّ عاقلٍ أنَّها جماداتٌ لا تملكُ شيئًا، ولا يكون منها شيءٌ إلهًا معبودًا، وهو كمَنْ يقولُ: إنِّي لأعلمُ لفلانٍ شبيهًا، فيُقالُ له: سَمِّهِ، فإذا سَمَّى مَن يُعْلَمُ يقينًا أنَّه ليس بشبيه لِمَنْ(١) يقولُ، رُدَّ عليه قولُه، وبطلَ كلامُه، فكذا هذا.

وقولُه تعالى: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: أتخبِّرون اللهَ بالشُّركاءِ في الأرض وهو لا يعلمُ ذلك؛ أي: لو كان لَعَلِمَ، فهو في الحقيقةِ نفيُ الكونِ، لا نفيُ العِلْم، وأنَّه(٢) عطفٌ على الألفِ في قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾.

وقيل: هاهنا مُضمَر بالألف، ثمَّ هذا عُطِفَ عليه: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾(٣) أتسمُّونهم أم تنبِّئون اللهَ بما لا يعلمُ في الأرض.

---

(١) في (أ): «لشبيه أن» بدل من «بشبيه لمن».

(٢) في (ف): «ولأنه».

(٣) في (ر) و(ف): «بل سموهم».

وقوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾: قالَ مجاهدٌ وقتادةُ: أي: بظاهرٍ مِن قَوْلِ سلفِكُم على الجهالةِ أنَّها شركاء مِن غير حقيقةٍ[١].

وقيل: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الَّذي أنزلَ اللهُ على عبادِه، فإنِ ادَّعوا ذلكَ فقل: هاتوا برهانَكم.

وقيل: أي: بظنٍّ[٢] مِنَ القولِ، كالرَّجلِ يرى ظاهرَ الشَّيءِ وهو لا يعلمُ باطنَه، ولو تأمَّلَه لَبَانَ له خلافُه، وهو كقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]؛ أي: بما ظهرَ لهم من الرَّأي مِنْ غيرِ تأمُّلٍ.

وقيل: أي: بباطلٍ مِن القولِ زائلٍ، ويقال: ظهرَ عنِّي العيب؛ أي: زالَ، قال الشَّاعرُ:

وتِلْـكَ شَـكاةٌ ظاهـرٌ عنـكَ عارُهـا[٣]

أي: زائلٌ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾: أي: ما أُتُوا مِن هذا، ولكن زَيَّنَ الشَّيطانُ لهم اختداعَهم[٤] للضَّعفة.

وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ بضمِّ الصَّاد؛ أي: وصرفَهُم الشَّيطان عن سبيلِ اللهِ، وقرأ الباقونَ بفتحِها[٥]؛ أي: هم أعرضوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: هذا ظاهرٌ.

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤٩)، ولفظ مجاهد: «بظن»، ولفظ قتادة: «الظاهر من القول: هو الباطل».

(٢) في (ر) و(ف): «نطق».

(٣) عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي، انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ٢١)، وصدره:

وعيَّرهـا الواشـون أنِّـي أحبُّهـا

(٤) في (أ): «اختلاعهم»، وفي (ر) و(ف): «اخداعهم»، والمثبت من «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٣).

(٣٤) ـ ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

وقوله: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: يحلُّ بهم كما حلَّ بالمستهزئين وبرؤوس المشركين يومَ بدرٍ ونحو ذلك.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾: أي: أغلظُ وأبلغُ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾؛ أي: إذا عذَّبهم لم يمنعْهُ مانعٌ عنه.

***

(٣٥) ـ ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾.

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: قيل: جوابُه محذوفٌ في آخرِه، وهو: أَجَلُّ مَثَلٍ.

وقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: صفةُ الجنَّة، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وعلى هذا فيه مُضْمَرٌ أيضًا، تقديرُه: صفةُ الجنَّة التي وُعِدَ المتَّقون [أنها][١] تجري مِن تحتِها الأنهارُ.

وقيل: الإضمار في أوَّلِه: وفيما يُتْلَى عليك مثلُ الجنَّةِ.

وقيل: إضماره: هذا مثل الجنَّة، ذكر وعدَ الأولياءِ بعدَ ذكرِ وعيدِ الأعداءِ.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: في غاية النُّزهة، والعربُ كانوا في عِوَزٍ مِن الماءِ، فكانوا يَعُدُّون هذا أعظمَ نزهةٍ.

وقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾: أي: ثمرُها غيرُ منقطعٍ ﴿وَظِلُّهَا﴾ كذلِكَ لا تنسخُهُ الشَّمسُ.

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق، وبدونه لا يكون هناك مضمر، وهذا الوجه أجازه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٦٥)، ونقله عنه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٥).

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: أي: هذه عاقبة المتَّقين ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾: هذا ظاهر.

***

(٣٦) - ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ أي: وأهل الكتاب الَّذين أسلموا ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: بالقرآنِ؛ لموافقةِ كتابِهم في ذِكْرِ الرَّحمنِ.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾: قال مقاتلٌ: يعني: بني المغيرة وبني أميَّة وآلَ أبي طلحة بن عبد العُزَّى، قالوا: ما نعرفُ الرَّحمن إلَّا مسيلمة(١).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: إنَّ مؤمِني اليهود أتَوا النَّبيَّ ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ذِكرُ الرَّحمنِ في التَّوراةِ كثيرٌ، ولسْنَا نرى ذلك في القرآنِ، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] الآية، فقال مشركو مكَّة: كان محمَّدٌ يدعونا إلى إلهٍ واحدٍ، والآن يدعونا إلى إلهَيْنِ اثنَيْنِ، فأنكروا اسم الرَّحمن، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾(٢).

وقيل: فرحَ أهلُ الكتابِ به لموافقتِه كتابَهم في كلِّ شيءٍ، والأحزابُ ينكرونَ بعضَه لأنَّهم يقولون: الخالقُ هو اللهُ، ثمَّ يشركون بهِ غيرَه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ: إنَّ اليهودَ آمنوا بسورةِ يوسف لوفاقِها ما في التَّوراة مِن قصَّةِ يوسفَ، ثمَّ أنكروا جميعَ القرآنِ سوى قصَّةِ يوسفَ(٣).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٨٢)، وفيه: «أنكروا الرحمن، والبعث، ومحمدًا عليه الصلاة والسلام» بدل «قالوا: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٧٤)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٣).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٨٠)، وروى نحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٦).

والأحزابُ: جمعُ حِزْبٍ، وهم الأخلاط من اليهود والنّصارى والمشركين، تحزَّبوا على رسولِ اللهِ ﷺ يوم الخندق؛ أي: تعاونوا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾: أي: مرجعِي في أمورِي كلِّها، وهو حَسْمٌ لإطماعِهم في مطابقتِهم على شيءٍ مِن دينِهم.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: أي: وكما آتيناهم الكتاب قد أنزلنا عليكم حكمًا عربيًا؛ أي: كتابًا بلسانِ العربِ.

والحُكْمُ: اسمُ القرآنِ، سُمِّيَ به لأنَّه للحُكْمِ نَزَل.

وقيل: أي: أنزلنا حُكْمًا دانَتْ به العرب قديمًا، وهو دينُ الحنيفيَّة، دينُ إبراهيمَ وإسماعيلَ، إلى أنْ غيَّروه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: في اتِّباع مِلَّةِ آبائِهم المشركين.

وقد قيل: في القِبْلَةِ، فقد قيل في ذلك: نزلَتْ حين دعاه اليهود إلى الصَّلاة إلى قبلِتهم بعدما حُوِّلَ عنها.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾: يتولَّى دفعَه عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾: يقيْكَ عذابَه.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ﴾: ثمَّ عاد الكلامُ إلى ذِكْرِ ما التَمسوا مِن الآياتِ قال: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ﴾[1].

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾؛ أي: زوجاتٍ وأولاداً؛ أي: كان سبيلُهم كسبيلِ غيرِهِم مِن البشرِ، ينكحونَ ويُوْلَدُ لهم، ويقضونَ ما أحلَّ اللهُ لهم مِن الشَّهوات، لم يفارقوا غيرهم إلَّا في الرِّسالة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: أي: لم يكنْ في وُسْعِهم الإتيان بآيةٍ إلَّا بإيتاءِ اللهِ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾: أي: لكلِّ شيءٍ وقتٌ وقد قدَّرَه اللهُ فيه، فالآياتُ الَّتي التمسوها إنَّما تكون في الوقتِ الذي أجَّله الله لها، لا على اقتراحِهم.

وقيل: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في اليهودِ حينَ عيَّرَتْ[2] رسولَ اللهِ ﷺ، وقالوا: لا نرى له همَّة إلَّا النِّساء والنِّكاح، فأنزلَ اللهُ هذه الآية[3].

وقد كانَ لداودَ عليه السَّلام مئةُ امرأةٍ مهريَّة، وثلاثُ مئة سُرِّيَّة، وكان لسليمان عليه السلام ثلاثُ مئةِ مهريَّة، وسبعُ مئة سُرِّيَّة، ولك يا محمَّد تسع نسوةٍ، فما لهم لا يعيبونهما ويعيبونك.

* * *

(٣٩) ـ ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

---

(١) في (ف): «ثم عاد الكلام إذا ما ذكروا قال ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك»، وليست في (ر).

(٢) في (ر): «عابت».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٧٥) عن الكلبي، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٨)، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ﴾ [النساء: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عَمرو وعاصم: ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ مخففًا، مِن الإثباتِ، والباقون: ﴿يُثَبِّتُ﴾ مشددًا مِن التَّثبيت[1].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن ديوان الحفظَةِ، ما ليسَ فيه ثوابٌ ولا عقابٌ، ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ ما فيه ثوابٌ وعقابٌ، وذلك لأنَّ الحفظَةَ تكتبُ على الإنسانِ جميعَ ما يقول ويعمل، فإذا كان يومُ الخميس والإثنين عُوْرِضَ ذلك باللَّوح المحفوظ، فيُلْقَى مِن كتاب الحفظة ما لا جزاءَ له مِن خيرٍ وشرٍّ، ويُثبتُ ما يوافق الكتابَ مِن ذلك الخير والشَّرِّ، والثَّواب والعقاب[2].

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾ ما ليس للعبد ولا عليه، ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ ما له وعليه[3].

وقال عليٌّ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من القرون، ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ ما يشاء من القرون؛ قال تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ [طه: 128]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31][4].

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ: هذا في الفرائض والشَّرائع، يَنسخُ فرضٌ فرضًا، وشريعةٌ شريعةً[5].

وقال قتادة: هو قوله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 106] الآية[6]، يشيرُ إلى أنَّ النَّاسخ هو المثبَت، والمنسوخ هو الممحوُّ.

---

(1) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: 359)، و«التيسير» للداني (ص: 134).

(2) ذكره بنحوه عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (12/ 379)، ورواه الطبري في «تفسيره» (13/ 566) عن الكلبي.

(3) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (5/ 297)، والواحدي في «البسيط» (12/ 379)، و«الوسيط» (3/ 20)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (4/ 338).

(4) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (5/ 298).

(5) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (5/ 298)، والواحدي في «البسيط» (12/ 380).

(6) رواه الطبري في «تفسيره» (13/ 567).

وقال عكرمةُ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: يمحو بالتَّوبة جميعَ الذُّنوب، ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ بدلَ الذُّنوب حسناتٍ، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠](١).

وقال الحسنُ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾ الآباءَ، ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ الأبناء(٢).

وقال السُّدِّيُّ: يعني: في الشَّمس والقمر، ومعناه: يمحو القمرَ، ويثبت الشَّمس؛ قال تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: ١٢](٣).

ومحو اللَّيل على وجهَيْن:

أحدهما: نقصانُ نورِه عن نورِ الشَّمس.

والثَّاني: ما نرى مِن السَّوادِ في وجهِ القمر.

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ: إذا وُلِدَ الإنسانُ أُثْبِتَ أجلُه ورزقُه، فإذا ماتَ مُحِيَ أجلُه ورزقُه(٤).

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: ويحتمل محوَ الأحوال(٥) وإثبات أضدادها، مِن نحوِ تحويلِ النُّطفةِ علقةً، ثمَّ مضغةً. . . إلى آخرها.

ويحتمل: محوَ الأعمالِ؛ إذا كان كافرًا ثمَّ أسلمَ في آخر عمرِه مُحيَتِ الأعمالُ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٢٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩٨)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٨٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩٨).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٩٨)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٢٥).

(٥) في (ر) و(ف): «ويحتمل محو أجله وأحواله».

الَّتي كانت في حالِ كفرِه فأُبْدِلَتْ حسناتٍ، وإذا كان مسلمًا ثمَّ كفرَ في آخر عمرِه مُحِيَتْ أعمالُه الَّتي كانت صالحةً فلم ينتفِع بها[١].

وقيل: هو محو السعادة وإثبات الشقاوة وعكسهما[٢].

وعن عمرَ رضي الله عنه: أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاء: اللَّهمَّ إنْ كُنْتَ كتبْتَ اسمي في ديوان الأشقياءِ، فامحُهُ مِن ديوان الأشقياءِ، وأثبتْهُ في ديوان السُّعداءِ، فإنَّكَ قلْتَ وقولُك الحقُّ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣].

وقيل ـ وهو الأوفقُ[٤] للنَّظم ـ : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أي: لكلِّ وقتٍ قضاءٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فكانَ في أيَّامِ الماضيْنَ إذا سألوا آيةً مقترحةً أتاهم ذلك، فإذا لم يقبلوها استأصلَهم، كالنَّاقة لصالح، والمائدة لعيسى.

وكان في زمنِ النَّبيِّ ﷺ الإتيانُ بالآيات الدَّالة على حقيقته مِن غير اقتراحٍ منهم، ولم يؤْتِهم ما اقترحوه؛ لأنَّ تركَ الإيمانِ يوجبُ الاستئصال، والنَّبيُّ ﷺ بُعِثَ رحمةً للعالمين.

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾: يمحو إيتاءَ الآياتِ المقترحة، ويثبِتُ إيتاءَ الآيِات المبتدأة لهذه الحكمة.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٥٢).

(٢) في (ف): «وعكسها».

(٣) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ٦٣)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٤١٨)، والدولابي في «الكنى» (١/ ١٥٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٦٣)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٢٠٧).

وروى نحوه ابن فضيل في «الدعاء» (٥٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٥٣٠)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٥٧)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في (ر) و(ف): «الأزين».

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: يمحو مِن قلوبِ الزُّهَّاد حبَّ الدُّنيا، ويثبِتُ بدلَه الزُّهدَ فيها.

ويمحو مِن قلوب العارفين الحظوظ، ويثبِتُ بدلها إيثارَ حقِّ اللهِ.

ويمحو عن قلوب الموحِّدين شهود الخلق، ويثبِتُ بدلها شهود الحقِّ.

وقيل: يمحو العارفين عن شواهدِهم، ويثبِتُهم بشاهد الحقِّ.

وقيل: يمحو العبدَ عن أوصافِه، ويثبِتُه بالحقِّ.

وقيل: يمحو عن قلوبِ الأجانبِ ذِكْرَ الحقِّ، ويبدلُ بدلَه غَلَبَاتِ الغَفْلَةِ وهواجم النِّسيان.

وقيل: يمحو أوضارَ الزَّلَّةِ عن نفوس العاصين، وآثارَ العصيانِ عن ديوانِ المذنبين، ويثبِتُ بدلَه لوعةَ النَّدمِ، وانكسارَ الحسرةِ، والخمودَ عن متابعةِ الشَّهوة.

وقيل: يمحو نضارةَ الشَّبابِ، ويثبِتُ صفةَ الشَّيبِ.

وللمقال مجالٌ في هذا الباب.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي أُثْبِتَ فيه ما سبقَ علمُه وحُكمه بما لا تبديلَ له ولا تغيير.

وقيل: هو إشارة إلى علمِه الشَّامل لكلِّ معلومٍ[1].

* * *

(٤٠) ـ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾: ﴿إِمَّا﴾ كلمتان؛ (إنْ) للشَّرط، و(ما) للتَّأكيد، والنُّون في ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ كذلك.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾: هو قولُه: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾، وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.

يقول: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ﴾ ما نعدهم من الانتقام[1]؛ أي: مِن هؤلاءِ المستهزئين بك المكذِّبين لك في حياتِك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ أي: أو أُمِتْكَ قبلَ ذلكَ وفعلْتُ بهم ذلكَ بعدَ موتِكَ، أو أخَّرْتُ عقوبَتهم إلى يومِ القيامةِ = فليس عليكَ في ذلكَ نقصٌ في نبوَّتِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: بتبليغ الرِّسالة، والوعيدِ بالعقوبةِ، لا تعجيلها لهم ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾؛ أي: وإلينا مراعاةُ أجلِها المعلوم، والإيقاعُ بهم عندَ الوقتِ المحتوم.

(٤١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: أي: تأخيرُ العذاب عنهم ليس للعجزِ؛ لأنَّا قد أريناهم النُّقصان في أطراف بلادِهم، بخرابِ ما حولَهم مِن القُرى، وخلوِّها عن أهلِها بالقتل والسَّبي، وزوالِ سلطانِهم عنها، وضربِ الجزيةِ عليهم.

وتفسيرُ قولِه تعالى: ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: يأتيها أمرُنا بالعذابِ، كما قال: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]،

---

(١) في (ر) و(ف): «الأسقام».

وهذا التَّأويل عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما والحسن والضَّحاك[١].

وقال مجاهد: هو بموت أهلها[٢].

وقال ابن عبَّاس في روايةٍ ومجاهد: بموت العلماءِ وخيارِ أهلِها[٣].

والأطرافُ: الأشرافُ ـ لغةً ـ على هذا القول، وعلى القول الأوَّل: النَّواحي.

وقال ابن عبَّاس في رواية: بخرابها[٤].

وروى أبو هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «هو موتُ العلماءِ»[٥].

وقيل: معنى الآية: أَوَلَا يتأمَّلون أنَّا نفتحُ على رسولِ اللهِ ﷺ ما حولَ مكَّةَ مِن بلاد المشركين فأَنْقصُ بذلك مِن قراهم وأزيدُ في بلادِ الإسلامِ، فيعلموا أنَّه لا يكون لهم حُسن[٦] العاقبة بعدَ أنْ نَقَصْتُ مِن أطرافِ أرضِهم.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: ما رُويَ أنَّه موتُ علمائِها، وذلك لأنَّ العلماءَ هم عُمَّار الأرض وأهلها، وبهم صلاحُ الأرضِ، فوصفَ الأرضَ بالنُّقصانِ بذهابِ أهلِها، وهو كما قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال: ﴿لَفَسَدَتِ

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥)، ولفظ ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟ ولفظ الحسن والضحاك قريب منه، فقول المؤلف: «يأتيها أمرنا بالعذاب» المراد به هزيمتهم وقهرهم بتغلب النبي ﷺ عليهم، وذهاب أرضهم وملكهم بما يفتح الله على نبيه منها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٣٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٩٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٩) عن مجاهد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٦).

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٥) إلى ابن مردويه.

(٦) في (ر) و(ف): «حسن مآب أي» بدل «حسن».

ﱡٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، والأرضُ لا تفسدُ بنفسِها، بل وُصِفَتْ به لفسادِ أهلِها، فلذلك لا تَنْقصُ، ولكنْ وُصِفَتْ بِهِ لذهابِ عُمَّارها.

ثمَّ يحتمِلُ ذلكَ علماءَ أهلِ الكتاب المتقدِّمين، والمرادُ بذِكْرِ ذلك أنَّهم إذا ذهبوا فلا بُدَّ مِن رسولٍ يعلِّمُهم الشَّرائع والآداب، ويجدِّد ما درسَ مِن الآياتِ، وإنْ أرادَ به علماءَ هذه الأمَّة ففيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتعزيةٌ له بما يصيبُ أمَّته(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾؛ أي: لا ناقضَ له، ولا رادَّ، والتَّعقيبُ: إعقاب الشَّيء بما يبطلُه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: أي: إنَّ أجلَ العذابِ إذا جاءَ لم يتأخَّر عن مستحقِّه، بل هو سريعٌ عاجلٌ.

وقال القشيريُّ: النَّقص مِن أطرافِها هو موتُ الأولياء الذين إليهم يفزَعُ الخَلْقُ.

وقيل: هو ذهابُ أهلِ المعرفةِ حتَّى إذا جاء مسترشدٌ في طريقِ اللهِ لم يجدْ مَن يهديهِ إلى اللهِ تعالى(٢).

***

(٤٢) ـ ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: أي: بأنبيائِهم(٣)؛ بالاستهزاءِ، والتماسِ آياتِ الاقتراحِ، كما مكرَ بك هؤلاء وصوَّروا عندَ الضَّعَفة أنَّ دعوتَكَ لو كانت حقًّا لجئْتَهم بما يلتمسونَه مِن الآياتِ المقترحة.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٥٥).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٣٦).

(٣) في (ر) و(ف): «باستهزائهم».

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعًا﴾: أي: إنَّ اللهَ تعالى يردُّ ضررَ المكرِ على الكفَّارِ، فلا يحصلون[(١)] مِن مكرِهم على شيءٍ، ويوضِّحُ اللهُ حُججَهُ لعبادِه، فيعودُ أثرُ مكرِهم عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥١].

وقيل: تحصيلُ هذا الكلام: أنَّ اللهَ مالكُ مكرِ العبادِ، لا يضرُّ الماكرون أحدًا إلَّا بإذنِ اللهِ، وقد ضَمِنَ اللهُ تعالى نصرةَ أوليائِهِ، فلا يعودُ ضررُ مكرِ المشركين إلَّا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ﴾: أي: مِن خيرٍ أو شرٍّ، فهو مجازِيْها بهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾: أي: عن قريبٍ يعلمون، وقرأ أبـو عَمرو: ﴿وَسَيَعْلَمُ الكافِرُ﴾[(٢)]، وهو معرفةٌ، فكان للجنس، فتضَمَّنَ معنى الجمعِ.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾: أي: يعلمون لِمَنْ تكونُ عاقبةُ الدَّار، وهذا وعيدٌ.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: مكرُ الكفَّارِ: إظهارُ الموافقةِ مع إبطانِ المخالفةِ، ومكرُ اللهِ بهم: إيهامُهم أنَّهم محسنونُ في أعمالِهم، وأنَّ لهم شيئًا مِن أحوالهم[(٣)].

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله

---

(١) في (ر) و(ف): «يحيطون».

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع أيضاً. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٤).

(٣) في (أ): «وأن بهم شيئًا من أحوالهم»، وفي (ر) و(ف): «وأن لهم شيئًا من أقوالهم»، وانظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٣٧)، وفيه: «وحسبانهم أنهم ستأمن أحوالهم».

عنهما: هو كعبُ بنُ الأشرفِ، ومالكُ بنُ الصَّيفِ، وكنانةُ بن أبي الحقيق، وربيعة بن عَمرو[١].

ويجوز أنْ يكون جميعَ كفَّارِ عصرِه.

وقال مقاتلٌ: يعني: مشركي العرب[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: جوابُ هذا وردَ منصوصًا عنه في آياتٍ، منها قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ ـ ٣]، ومنها قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

ثمَّ معنى قولهم: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾: ما أنتَ برسولٍ مِن اللهِ إلينا؛ لأنَّكَ عاجزٌ عن إنزالِ ما التمسناهُ منكَ مِن الآيات.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: أي: كفى بالله شهيدًا لي عليكم بما أقامه مِن الدَّلائل على صحَّةِ[٣] دعوى النُّبوَّة والرِّسالة، بالمعجزات الَّتي أظهرَها على يدي، وبما أيَّدني به مِن الإخبار عن الغيوب، وغير ذلك، وكفى بذلك شهادةً؛ لأنَّه ممَّا لا يتهيأُ لأحدٍ مِن البشرِ أنْ يعارضَها بمثلِها، أو ينقضَها بضدِّها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: عطفٌ على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾.

وقيل: أُريدَ به عبد الله بن سلام، كما قال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠].

---

(١) في (ف): «وشعبة بن عامر» بدل: «وربيعة بن عمرو». وقد ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٣٢) دون نسبة بلفظ:

(٢) يعني: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر اليهود. ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٨٤).

(٣) في (أ): «حجة».

وقيل: ﴿مَنْ﴾ للجنسِ، والمراد بهِ جمعٌ، وهم: عبد الله بن سلام، وتميمٌ الدَّاري، وسلمانُ الفارسي، والنَّجاشي، وعلماء أهل الكتاب الذين أسلموا.

وقرأ بعض المتقدِّمين: (ومِن عِنْدِهِ عِلْمُ الكتابِ) بكسر الميم والدَّال(١)، ومعناه: ومِنْ عندِ اللهِ علمُ الكتابِ.

وكان يقول: حملُه على هذا أولى؛ لأنَّ حملَهُ على علماءِ أهلِ الكتابِ لا وجهَ له هنا، والسُّورة مكيَّة، وإسلامهم كان بعدَ ذلك.

لكنْ لا وجهَ لتَرْكِ القراءةِ المشهورةِ، والأكثرُ على أنَّ السُّورةَ مدنيَّة(٢)، والله أعلم.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم، وهي قراءة شاذة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٢)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٣٥٨).

(٢) قال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٦) بعد أن ذكر خبرًا مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ يؤيد هذه القراءة: وهذا خبر ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزُّهري، فإذا كان ذلك كذلك، وكانت قراء الأمصار من أهل الحجاز والشَّام والعراق على القراءة الأخرى، وهي: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] كان التَّأويل الَّذي على المعنى الَّذي عليه قرَّاء الأمصار أولى بالصَّواب ممَّن خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحق بالصَّواب.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي يضلُّ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاءُ وهو العزيز الحكيم، الرحمنِ الَّذي يُدخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات في جنَّاتِ النَّعيم، الرحيمِ الذي يغفرُ للمؤمنينَ يومَ يقومُ[1] الحسابُ وهو الغفور الرَّحيم.

وروى أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن قرأَ سُورةَ إبراهيمَ أُعْطِيَ مِنَ الأجرِ عَشرَ حسناتٍ بعددِ مَن عبدَ الأصنامَ ومَن لم يعبدْها»[2].

وهذه السُّورةُ مكيَّةٌ، إلَّا آيتينِ نزلَتا بالمدينة في قتلى بدرٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] الآيتَيْن.

وهي إحدى وخمسون آيةً، وقيل: اثنتان، وقيل: أربع، وقيل: خمس، وقيل: سبع؛ لأَنهم اختلفوا في هذه المواضع: ﴿[لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ] مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿[أَنْ أَخْرِجْ] قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: ٩]، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) «يقوم» ليس في (أ) و(ف).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢٢). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وقال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

[إبراهيم: ٢٤]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢][1].

وكلماتُها ثماني مئةٍ وثلاثون، وحروفها ثلاثةُ آلاف وأربع مئة وثلاثة وستُّون.

وانتظامُ أوَّل هذه السُّورة بخَتْمِ تلكَ السُّورة بذكْرِ[2] الكتاب: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾.

وانتظامُ هذه السُّورة بتلك السُّورة: أنَّ تلك السُّورة في بيانِ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وصفاتِه، وبيانِ القرآنِ، وبيانِ عقلاءِ المؤمنين، وبيانِ المعانِديْن مِن المشركِيْن، وبيانِ اقتراحِهم وتكذيبِهم، وقوله في آخرِها: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾ [الرعد: ٤٣].

وهذه السُّورة تسليةٌ له على ذلك: في أوَّلها بيانُ إنزالِ الكتاب عليه، وبيانُ مدحِه، وبيانُ إرسالِ الرُّسل مِن قَبْلِه وصبرِهم على إيذاءِ قومِهم، وبيانُ عاقبةِ الفريقَيْنِ، ووَعْدُ الموافِقِيْنَ بالجنَّة، ووعيدُ المخالِفِيْنَ بالنَّار، وبيانُ مَثلِ الإيمان[3] ومَثلِ الكُفْرِ كما كان في (سورة الرعد)، والأمرُ بالصَّلاة والزَّكاة كما وعدَ في (سورة الرعد) على الصَّلاة والزَّكاة، وعِظَمُ قَدْرِ الصَّلاة بذِكْرِها في قصَّةِ إبراهيم، وذِكْرُ القيامةِ فيها كما ذُكِرَ في تلكَ السُّورة، وختمُها بقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، كما قال في تلك السُّورة: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الرعد: ٤٠].

***

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧١)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) في (أ): «بذلك».

(٣) في (أ): «النار».

(١) ـ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ مرَّتْ الأقاويلُ فيها مرَّات.

﴿كِتَٰبٌ﴾: أي: هذا كتابٌ أو سورةٌ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾[١] نحن[٢]، ما ألقاهُ إليكَ شيطانٌ، ولا افتريْتَهُ أنت.

وقوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أي: ظلمات الكُفْرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: نور الإيمان ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: تفعلُ هذا بهم[٣] بأمرِ ربِّهم إيَّاك به.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: هو ترجمةُ قولِه: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلى طريقٍ دعا إليه اللهُ العزيزُ في ملكِه، الحميدُ عندَ جميعِ خلقِه بجلالِه وإفضالِه وحميدِ فِعالِه.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: لِتُخرِجَ النَّاسَ مِن ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ العلمِ، ومِن ظلماتِ الشَّكِّ إلى نورِ اليقينِ، ومِن ظلماتِ التَّدبيرِ إلى نورِ شهودِ قضاءِ التَّقدير، ومِن ظلماتِ دَعاوي النَّفسِ إلى نورِ معارفِ القلبِ، ومِن ظلماتِ التَّفرقةِ إلى أنوار الجمعِ، ومِن ظلماتِ الابتداعِ إلى أنوار الاتِّباع.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾: بإرادتِه ومشيئتِه وسابقِ حكمِهِ وقضائِه، إلى صراطِ اللهِ، وهو نهجُ التَّوحيدِ بشواهدِ التَّفريد[٤].

---

(١) في (أ) و(ر): «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾: أي: هذا كتاب أو سورة ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾».

(٢) في (ر): «بحق»، وفي (ف): «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾»، وسقط التفسير منها.

(٣) في (ر) و(ف): «أي بفعل هداهم».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٣٨).

(٢) ـ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿اللهُ﴾ رفعًا بالابتداء، وخبرُه ﴿ٱلَّذِى﴾، وقرأ الباقون بالخفض[1] نعتًا لـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: أي: وإذا كانَ للهِ ما في السَّماواتِ والأرض، وهو خالقُهما ومدبِّرُهما، وهو المستحِقُّ للعبادةِ، فمَنْ أشركَ به غيرَه فلَهُ الوعيدُ الغليظُ بالعذابِ الشَّديدِ في الآخرة.

***

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: يُؤْثرون الحياةَ القريبةَ المدَّةِ وشهواتِها والتَّعزُّزَ فيها بالرِّئاسةِ[2] على الحياة الآخرة الباقية التي لا ينقطعُ نعيمُها، وهو صفة الكافرين الذين لهم العذاب الشَّديد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: يمنعون النَّاسَ عن سلوكِ طاعةِ اللهِ، الذي يهدي إلى رضوانِه وجنانِه.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: يطلبون لها تعويجًا وتحريفًا عن وجهِها، ويقبِّحونها عندَ الرَّاغب فيها بإدخالِ الشُّبَهِ. والتَّأنيثُ لأنَّ السَّبيلَ مؤنَّثةٌ سماعًا.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٤).

(٢) في (ف): «والتعزز فيها بالرفاهة»، وفي (ر): «والتقرر فيها بالرفاهية».

و﴿يبغونها﴾ بمعنى: يبغون لها، قال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أي: يبغونَ لكم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾: عن الحقِّ، وهو قوله[1]:

* * *

(٤) ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾: أعلمَ رسولَه في الآيةِ الأولى أنَّه أرسلَه وأنزلَ عليه كتابًا بيانًا للنَّاس، ثمَّ قالَ: وكذلكَ كانتِ الرُّسلُ قبلَك أرسلوا بلسانِ قومِهم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾: أي: يبيِّنوا لهم[2]، ثمَّ إنْ كانَ كذلِكَ لم يتَّفقوا على قَبولهم بل اختلفوا؛ فضَلَّ قومٌ واهتدى قومٌ.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ فيما يريدُ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما يفعلُ.

* * *

(٥) ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي: كما أرسلناكَ ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾؛ أي: بأنْ أخرجْ.

---

(١) «وهو قوله» ليس في (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «أرسلوا بلسان قومهم ليبينوا لهم».

وقيل: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بمعنى: أعلَمْنا وعرَّفْنا ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: هو في مقابَلةِ ما قالَ لرسولِنا ﷺ: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾: قال الحسنُ ومجاهدٌ وقتادةُ وسعيدُ بنُ جبيرٍ: أي: بنِعَمِ اللهِ[1].

وقيل: أي: بنِقَمِ الله بعادٍ وثمودَ وغيرِهم مِن الأممِ الضَّالة.

قال عَمرُو بنُ كلثومٍ:

وأيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٌ ... عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أنْ نَدِيْنَا[2]

قيل فيه قولان: النِّعم، والنِّقم مِن أعدائنا.

وقال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، قيل: لا يخافون وقائعَ اللهِ الَّتي أوقعَها بأعدائِه.

وقيل: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ في الأممِ الخاليةِ، فيها آياتٌ مِن حيثُ إنَّه عاقب قومًا وأنجى آخرين، على الطَّاعات منهم والمعاصي، والتَّصديق والتَّكذيب، ليعملوا بما يدخلون به في زمرة التَّائبين النَّاجين، ويخرجوا عن طبقة المعاقَبين الهالكين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: أي: لكلِّ مَن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧) عن مجاهد وقتادة وابن زيد وسعيد بن جبير، وذكره الواحدي في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٤) عن الحسن.

(٢) البيت من معلقته. انظر: «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري (ص: ٣٨٨)، و«شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص: ٢٢١)، و«شرح القصائد العشر» للتبريزي (ص: ٢٢٥).

استكملَ خِصالَ الإسلامِ، فقد رُوِيَ: «الإيمانُ نصفانِ: صبرٌ، وشكرٌ»(١)، فتَرْكُ كلِّ المعاصي صَبْرٌ، وفِعْلُ كلِّ الطَّاعاتِ شُكْرٌ.

وكأنَّه قال: لآياتٍ لكلِّ كاملٍ في إيمانِه، فهو الذي ينتفعُ بها، نحو(٢) قولِه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أيَّامُ اللهِ: نَعْماؤُه، بأنْ ظلَّلَ عليهم الغَمامَ، وأنزلَ عليهم المنَّ والسَّلوى، وفلقَ البحرَ، ونحوها(٣).

وقيل: هو إهلاكُ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ولوطٍ وشعيبٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] هذا في النِّعم.

وقولهم: مَنْ يَرَ يومًا يُرَ بِهِ(٤)، هذا في الشِّدةِ.

وقول الشَّاعر:

فيومًا علينا ويومًا لنا ... ويومًا نُساءُ ويومًا نُسَر(٥)

---

(١) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (١٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٦٤) من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه. ويزيد ضعيف. انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي (ص: ١٣٩٩).

(٢) في (أ) و(ف): «وهو».

(٣) ذكره عن ابن عباس الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٥٠٨) (ط: دار إحياء التراث العربي). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٩٧) عن مجاهد.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «المسند» (٢١١٢٨) عن ابن عباسٍ، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، عن النَّبيِّ ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: «بِنِعَمِ اللهِ».

(٤) معناه: مَن رأى يومًا على عدوِّه رأى مثله على نَفسه، وقيل معناه: مَن أحلَّ بغيره مكروهاً حلَّ به مثله. انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ٢٧٢).

(٥) البيت للنمر بن تولب، كما في «ديوانه» (ص: ٣٤٧)، ويروى البيت بضم (يوم)، واستشهدوا =

جمعَ(١) المعنيَين.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: أيَّام الله: هي ما سبقَ لأرواحِهم مِن الصَّفوة وتعريف التَّوحيد قبل حلولها بالأشباح، قال قائلهم:

سَقْياً لها ولطِيبها ... ولحُسنها وبهائها
أيامَ لم يَلِجِ النَّوَى ... بينَ العصا ولحائها(٢)

وقيل: هي ما كانَ وقتَ الميثاقِ وبعدَه.

***

(٦ ـ ٧) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: فسَّرناها في (سورة البقرة)، وهذه مِن أيَّام الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: أي: أعلمَ، وتأذَّن وآذَنَ واحدٌ، كقولِك: تَوَعَّد وأَوْعدَ، وهو قول الحسن والفرَّاء(٣).

= به على جواز الابتداء بالنكرة وعلى حذف الضمير من الخبر. وهو من شواهد «الكتاب»، انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٨٦)، و«الشواهد الكبرى» للعيني (١/ ٥٦٥).

(١) في (ر): «لجميع»، وفي (أ): «بجمع».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٩)، وذكره عن الحسن الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٢٧٣).

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: وهو وعدٌ بإبقاءِ النِّعمةِ، فالزِّيادة عليها[١] تكونُ بعدَ بقاءِ أصلِها.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: إنْ جُعِلَ هذا مِن الكُفْرانِ فمعناه: إنَّ عذابي بإزالةِ النِّعمةِ عنكم لشديدٌ عليكم، وإنْ جُعِلَ مِنَ الكُفْرِ فمعناهُ: إنْ جَحدْتُم النِّعم مِن عندي فعذابي للكفَّار شديدٌ، لأنَّه بالنَّار، وهو دائمٌ.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: وعدَ ربُّكم وكفلَ ربُّكم، لم يبيِّنْ ما الشُّكر، وما النِّعمة، وما الزِّيادة، وما الكفر، وما العذاب؟

ويُشبِهُ أنْ يكونَ معناه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ لي بالتَّوحيدِ بما خلقْتُكُم، وركَّبْتُ فيكم ما تتلذَّذون به وتتنعَّمون في الدُّنيا، وبما قوَّمتكم في أحسن التَّقويم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ النِّعَمَ الدَّائمة في الآخرة، وهذا قول ابن عبَّاس[٢]، أو هو قريب منه، ألا ترى أنه قال: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: ولَئِنْ صرفْتُم شكرَ نعمتي إلى غيري.

ويحتمِلُ أنْ يكونَ: كلُّ نعمةٍ يشكرُها يزيدُ له مِن نوعِها في الدُّنيا ويُديمُ له ذلك[٣].

وقال القشيريُّ: لَئِنْ شكرْتُمْ إنعامِي زِدْتُكُم مِن إكرامي، ولَئِنْ كفرْتُم إحساني عذَّبْتُكُم اليومَ بامتحاني، وغدًا بفراقي[٤] وهجراني.

---

(١) «عليها» من (أ).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٠٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٦٥ـ٣٦٦).

(٤) في (ر) و(ف): «بعذابي».

لَئِنْ عرفْتُم قدرَ أفضالي لأرقينَّكُم مِن وجودِ نوالي إلى شهودِ جمالي وجلالي.

لَئِنْ شكرْتُم توفيقَ العبادةِ لأزيدنَّكُم تحقيقَ الإرادةِ.

لَئِنْ شكرْتُم وجودَ ألطافي لأزيدنَّكُم شهودَ أوصافي.

لَئِنْ شكرْتُم صنوفَ نعمتي لأزيدنَّكُم كشوفَ كرمي، ولأرقينَّكم إلى شهودِ قدمي[1].

لَئِنْ شكرْتُم مختصَّ نعمائي لأزيدنَّكُم منتظرَ آلائي.

لَئِنْ شكرْتُم ما خوَّلْتُكُم مِن عطائِي لأزيدنَّكُم ما وعدْتُكُم مِن لقائي.

ولَئِنْ كفرْتُم نعمتي بأنْ توهَّمْتُم استحقاقَها لجرَّعناكُمْ ما تستمرُّون مذاقَها[2].

* * *

(٨ ـ ٩) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾: قال القشيريُّ رحمَه الله: أي: قالَ موسى لقومِه: لَئِنْ اجتمعْتُم أنتم ومَن عاصركم ومَن غابَ عنكم ومن حضرَكُم، والَّذين يقتفون أثَرَكُم = على أنْ تكفروا باللهِ جميعًا، وأخذْتُم كلَّ يومٍ في الشِّرْكِ أمرًا قطيعًا[3]،..............................

(١) كذا في النسخ، وفي «لطائف الإشارات»: «إقدامي».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤١).

(٣) في (ف) و(أ): «فظيعًا». وفي «اللطائف»: (وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً).

لَمَا أوجبْتُم لعزِّنا شَينًا[١]، كما لو شكرْتُم وآمنْتُم ما حصَّلْتُم لِمُلْكِنا زَينًا[٢]، فالحقُّ بنعوتِه ووصفِ جبروتِه عَلِيٌّ، وعَنِ العالَمِ بأسرِهِ غنيٌّ[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: قيل: هو كلامُ موسى لقومِه.

وقيل: هو ابتداءُ خطابٍ مِن اللهِ تعالى لأهلِ عصرِ محمَّدٍ، يقول: ألم يأتِكُمْ يا معشرَ الكفَّار خبرُ الأممِ الَّذين سمعْتُم بتكذيبِهم لرسلِهم، وما أحلَّ اللهُ بهم مِن نقمَتِه، وهم في الكثرةِ على ما لا يَعلمُ عددَهم وأسماءَهم إلَّا اللهُ تعالى.

وكان ابنُ مسعودٍ إذا قرأَ هذهِ الآيَةَ قال: كذبَ النَّسَّابون، يدَّعونَ علمَ الأنساب في الأسلاف، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤].

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾؛ أي: رسُلنا، وأضاف إليهم لأنَّهم أُرسلوا إليهم بالبيِّناتِ؛ أي: الحُجَج والمعجزات.

وقيل: أي: الشَّرائع الواضحات، لا يخفى حسنُها على المتدبِّر.

وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: أي: جعلوا أصابعَ أنفسِهم في أفواهِ أنفسِهم يعضُّونها غيظًا، إذ كان فيه تسفيهُ أحلامِهم وشتمُ أصنامِهم، وهو

---

(١) في (ف): «بأسًا».

(٢) في (ف): «فلا تنقص مواهبكم من ملكنا شيئًا» بدل من «ما حصلتم لملكنا زينًا».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٤).

كقوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وهو قولُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه وابنِ زيد(١).

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في رواية الكلبيِّ: فردُّوا أيديَ أنفسِهم في أفواهِ أنفسهم؛ أي: وضعوا الأيدي على الأفواه؛ إشارةً إلى الرُّسل أنِ اسكتوا(٢).

وقال مقاتلٌ والحسنُ: في أفواه الرُّسُلِ يسكتونَهم بذلك(٣).

وهو كما فعلَ عتبةُ بنُ ربيعةَ حين قرأ رسولُ اللهِ ﷺ: (حم السجدة) حتَّى بلغَ قولَه: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فوثبَ فوضعَ يدَه على فمِ رسولِ اللهِ ﷺ لئلَّا يقرأَ الباقي، وقال: خشيْتُ إنْ أتمَّ الآيةَ أنْ تأتيني صاعقةٌ مِنَ السَّماءِ فتحرقَني(٤).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٥) عن عبد الله، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٦) عن ابن زيد.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٨)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤١١) عن الكلبي.
أما ابن عباس رضي الله عنهما فروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٧) قوله: لمَّا سمعوا كتاب الله عجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ١٢٥) عن الحسن، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٩٩)، وفيه: «وضع الكفار أيديهم في أفواههم، ثم قالوا للرسل: اسكتوا فإنكم كذبة ـ يعنون الرسل ـ وإن العذاب ليس بنازل بنا في الدنيا».

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٥٦٠)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١١٢٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٨١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٠٢) وصححه، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٠): (رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين، وغيره، وضعفه النسائي، وغيره، وبقية رجاله ثقات). وقال ابن كثير في «تفسيره»: (الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي وقد ضعف بعض الشيء).

وقال مجاهدٌ: ردُّوا نعمَهم بأفواهِهم[١].

وحُكِيَ عن أبي عبيدةَ أنَّ هذا مَثَلٌ، ومعناهُ: أنَّهم كَفُّوا عمَّا أُمِروا بقولِه مِن الحقِّ ولم يؤمنوا به، ويُقالُ للرَّجل إذا أمسكَ عن الجواب فلم يُجبْ: ردَّ يدَه في فيه[٢].

وكأنَّ مجازَ هذا[٣]: أنَّه سترَ فاه بيدِه؛ أي: هذا لم يدخل قلبي، وليس له عندي جوابٌ.

وحُكِيَ عن غيرِ أبي عبيدة أنَّ العربَ تقولُ: كلَّمْتُ فلانًا في حاجةٍ فردَّ يدَه في فيه: إذا سكتَ عنه ولم يُجبْ[٤].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: ويحتملُ هذا المكاءَ بأفواهِهم استهزاءً بهم[٥].

وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾: أي: مِن التَّوحيد وترك الشِّرك.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾: أي: مِن صحَّة[٦] ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ﴾؛ أي: مُوقِعٍ للرِّيبةِ والتُّهمةِ لكم بالكذب فيه.

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ١٥٦) دون عزو.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٣٦)،

(٣) في (أ): «وكان هذا مجازاً»، وفي (ف): «وكأن مجازة هذا».

(٤) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٨)، وردَّه بقوله: وهذا أيضًا قول لا وجه له؛ لأن الله عزَّ ذكره قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، فقد أجابوا بالتكذيب.

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٦٨)، وفيه: ويحتمِل ردَّ الأيدي في أفواه أنفسهم يصوِّتون ويستهزئون بهم وبأتباعهم؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾ الآية [الأنفال: ٣٥].

(٦) في (أ): «صحيح».

(١٠) ـ ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾: أي: في أنَّ العبادةَ لا تجوزُ إلَّا له.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: نعتُ قولِه: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يقدرُ على إنشائِهما غيرُه، فلا شريكَ له فيهما، فكيفَ يجوزُ الإشراكُ به؟

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾: أي: على ألسنتِنا إلى عبادَتِه.

﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: (مِن) زائدةٌ[١].

وقال سيبويه: لا يجوز ذلك في الإثبات، وإنَّما ذلك في النَّفي[٢]، ولكن (مِن) للبدل؛ أي: بدلَ ذنوبِكُم الَّتي كانت في الشِّركِ.

وقيل: هو للتَّبعيض، وهي ذنوبُ حالةِ الشِّرك، فإنَّ ما يفعلُه بعدَ الإسلامِ فهو بحالِه، لا يُغفَر إلَّا بتوبة، أو بفضلِ الله تعالى لأهل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: إلى منتهَى أعمارِكُم، فلا يعاجلكم بالعقوبة والهلاك، وهو جواب قوله: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]، يقول: إذا أسلمتُم لم[٣] تُتَخطَّفوا، وبلغتُم إلى آجالكم المسمَّاة. قالَه الإمام أبو منصور رحمه الله[٤].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٣٦).

(٢) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٣٨) و(٢/ ٣١٦)، و«شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (١/ ٢٧٨)، وانظر: «المفصل في صنعة الإعراب» للزمخشري (ص: ٣٨٠).

(٣) في (أ): «أن».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٧٠).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: أي: ما أنتم.

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾: أي: حجَّةٍ ظاهرة.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: في قولهم تناقضٌ مِن وجهَيْن:

أحدهما: أنَّهم تركوا طاعةَ رسلِهم، واتِّباعَ رسلِهم[1]؛ لأنَّهم بشرٌ مثلهم، ثمَّ أطاعوا آباءَهم واتَّبعوهم في عبادةِ الأصنامِ، وهم بشرٌ مثلُهم.

والثَّاني: أنَّهم لم يروا الرُّسُل مَتبوعِين لأنَّهم بشرٌ، ثمَّ لا يخلو هم بأنفسِهم مِن أنْ يكونوا مَتْبوعين، استتبَعوا غيرَهُم ممَّن هو دونَهم، أو كانوا أتباعًا لغيرِهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وذلكَ تناقضٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾: سألوا الحُجَّة على ما دَعوا إليه مِن ألوهيَّةِ اللهِ تعالى ووحدانيَّتِه، أو على ما ادَّعوا من الرِّسالة مِنَ اللهِ، وفي كلِّ شيءٍ وقعَ عليه بصرُهم دلالةُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وألوهيَّته، وكذلك الرُّسلُ أقاموا الحُجَجَ[2] على دَعوى الرِّسالةِ، وكانوا معاندِين في قولِهم: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[3].

* * *

(١١) ـ ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

---

(١) «واتباع رسلهم» ليس في (ف). وفي «التأويلات»: (واتباعهم).

(٢) في (ر) و(ف): «أتتهم بالحجج».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٧١).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: إنَّ اجتماعَ الكلِّ في صفةِ البشريَّةِ لا يُبطل التَّفاضل؛ لأنَّه يوجِبُ ألَّا يكون في الدُّنيا مَن يفضُلُ غيرَه في رياسةٍ ومُلْكٍ ونفاذِ قَولٍ، وحُسْنِ خلقٍ[1]، وحُسْنِ وَجْهٍ، وفَضْلِ مَالٍ[2]، وسلامةِ بدنٍ، وصِحَّةِ عَقْلٍ، وجودةِ تمييزٍ، وهذا ممَّا لا تَخفى استحالتُه، بل للهِ أنْ يخلقَ البشرَ، ويفضِّلَ بعضَهم على بعضٍ في الأحوالِ والأموالِ وغيرِها، فَيَمُنَّ عليه بذلك.

والحكمةُ في دارِ المحنةِ ألَّا يكونَ النَّاسُ سواءً لا يفضلُ بعضُهم على بعضٍ، فيبطلُ حينئذٍ موضعُ[3] الشُّكر والصَّبر اللَّذين هما جملةُ الإيمانِ.

فأمَّا السُّلطانُ المبينُ مِن جهةِ الإعجازِ، فذاكَ إنَّما يُحتاجُ إليه في إثباتِ صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ في دعوى الرِّسالة، لا في إثباتِ حقِّ ما يدعو إليه النَّبيُّ عليه السَّلام، بلْ إذا ثبتَتْ نبوَّتُه بالإعجازِ كانَ جميعُ ما يدعو إليه حقًّا، وما يحكمُ به صوابًا، ولا قدرةَ للرَّسولِ على إيرادِ معجزةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ؛ أي: بإعطاءِ اللهِ إيَّاه ذلكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أي: قال الأنبياءُ: وعلى اللهِ فليعتَمِدِ الَّذين آمنوا به في كفِّ شرِّ مَن خالفَهم، وفي إيضاحِ دعوتِهم، وإقامةِ حقِّهم.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «ونفاذ وحسن قول».

(٢) «مال» ليس في (أ).

(٣) «موضع» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾: أي: وأيُّ عذرٍ لنا في تركِ التَّوكُّلِ على الله في كفِّ أذاكُم[١] وكيدِكُم عنَّا.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾: أي: وقد وفَّقنا لسلوكِ سبيلِ الحقِّ، فينصرُنا عليكم أيضًا.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾: أي: على إيذائِكم، وكان هذا قبلَ الأمرِ بالانتصارِ منهم، وحالَ قلَّةِ المؤمنين وكثرةِ الكافرين

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾: أي: فعليهِ فليعتَمِدِ المعتمدون دونَ غيرِه.

وقال القشيريُّ رحمه الله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وقد حقَّقَ لنا ما سبقَ به الضَّمانُ مِن وجوه الإحسان، وكفايةِ ما أظلَّنا[٢] مِن الامتحان[٣].

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾: والصَّبرُ على البلاءِ يهونُ إذا كان على رؤيةِ المُبْتلِي[٤].

وأنشدونا في معناه:

مُـرٌّ[٥] مـا مَـرَّ بي لأجلِـكَ حُلْـوٌ وعَـذابي لأجْـلِ حُبِّـكَ عَـذْبٌ[٦]

---

(١) في (ف): «أيديكم».

(٢) في (ر): «كلَّفنا» وفي (ف): «ظننا».

(٣) في مطبوع «اللطائف»: «الامتنان».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤٣).

(٥) في (ر) و(ف): «كل».

(٦) البيت لأبي إسحاق الصابئ. انظر: «أحسن ما سمعت» (ص: ٧٧)، و«المنتحل» (ص: ٢٤٩) كلاهما للثعالبي، و«الدر الفريد» للمستعصمي (٩/ ٢٧٠)، وفيها: «وعذابي في مثل» بدل «وعذابي لأجل».

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾: أي: ولتصيرُنَّ إليها[1]، ولم يريدوا حقيقةَ الرُّجوع، فإنَّهم ما كانوا قَطُّ فيها، وقد مرَّ شرحُه في (سورة الأعراف).

ولعلَّهم اشتغلَتْ قلوبُهم بهذا القولِ كما تقتضيه طباعُ البشرِ، فسكَّنَها اللهُ تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾؛ أي: الَّذين يظلمونَ أنفسَهم وإيَّاكم ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾؛ أي: ولنجعلنَّكُم سكَّانَ أرضِهم بعدَ هلاكِهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾: أي: هذا مِن مِنَني على الأنبياءِ وأتباعِهم؛ بخوفِهم مقامِي، وخوفِهم وعيدي.

ومعناه: أنَّهم إذا تذكَّروا الحسابَ وقيامَهم للعرضِ على الله تعالى، وقيل: قيامَهم على رؤوسِ القبور إذا بُعثوا ثلاث مئة سنة، وقد تذكَّروا ما توعَّد اللهُ به النَّاسَ مِن غليظِ العِقاب على معاصيهم = ثبتوا على طاعتي، وتجنَّبوا سخطي، فإضافةُ الـمَقام إلى اللهِ تعالى إنَّما هو على معنى كونِه بينَ يدَي اللهِ.

وقيل: ذلك لِمَنْ خافَ قيامي عليه وحِفظي أسبابَه، مِن قولِه: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣].

***

(١) في (أ): «عليها» وفي (ر): «إلينا».

(١٥) ـ ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: قال عبدُ الرَّحمن بن زيد: أي: استفتحَ الكفَّارُ بالبلاء(١).

وقال الحسنُ ومجاهدٌ وقتادةُ: أي: استفتحَ الرُّسلُ بالنَّصرِ(٢)؛ أي: أذِنَ للرُّسلِ بالاستنصارِ، فسألوا اللهَ تعالى ذلك.

وقيل: أي: سألوا الله على الحُكْمِ(٣) بنصرِهِم وإهلاكِ أعدائِهِم.

والفَتْحُ: الحُكْمُ، والفتَّاحُ: الحاكِمُ، ودليلُه قوله تعالى خبرًا(٤): ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨]، وذلك عندَ اليأسِ مِن إيمانِهِم.

وقوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي: أُجيبَتْ دعوةُ الرُّسلِ، فيئسَ الجبَّارون المعاندون فلم يفوزوا بخيرٍ، ولا نالوا أملًا ببقاءِ الرِّياسةِ(٥) ودوامِ الحُرْمَةِ.

وقيل ـ على قولِ مَن جعلَ الدُّعاء والاستفتاح مِنَ الكفَّار ـ: إنَّهم قالوا: اللَّهمَّ إنْ كانَ رسلُنا صادقِيْن فعذِّبْنا، فخابوا بهذا الدُّعاء؛ أي: انقلبَ ذلك عليهم.

والجبَّارُ: هو طالبُ علوٍّ ليسَ فوقَه منزلةٌ.

وقيل: هو مَن لا يَرى لأحدٍ عليه حقًّا.

وقيل: هو المتكبِّرُ بغيرِ حقٍّ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦١٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦١٥ ـ ٦١٦) عن مجاهد وقتادة.

(٣) في (ر) و(ف): «سألوا الحكم».

(٤) «خبرًا» من (أ).

(٥) في (أ): «الرسالة».

والعنيدُ: الجائرُ عنِ الحقِّ إلى الباطلِ.

وقال ابن كيسان: هو الشَّامخُ بأنفِهِ[١].

وقال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ: هو المعرِضُ والمجانِبُ[٢].

وقيل: هو المعارِضُ لكَ بالخلافِ.

***

(١٦) - ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: وراءَ هذا الجبَّارِ العنيدِ جهنَّمُ؛ أي: أمامَه، كما قال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال الشَّاعر:

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِي وطاعَتِي ... وقَوْمِي تميمٌ والفَلاةُ وَرائِيَا[٣]

وقال مقاتلٌ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾؛ أي: مِن بعدِه[٤].

والوراءُ تُستعمَلُ للخلفِ والقُدَّام، وأصلُه: أنَّ كلَّ ما وارى عنك شيئًا مِن خلفٍ أو قُدَّامٍ فهو وراءٌ.

وقيل: إنَّه يجوز في الزَّمان على تقدير: إنَّه كان خلفَهم لأنَّه يأتي ليلحقَهم[٥].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٩).

(٢) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٩).

(٣) البيت لسوَّار بن المضرِّب السعدي. انظر: «الأضداد» للأصمعي (ص: ٢٠)، و«الكامل» للمبرد (٢/ ٧٧)، و«ربيع الأبرار» للزمخشري (٣/ ٢٩٦)، وعزي للفرزدق في «جمهرة اللغة» لابن دريد (٣/ ١٣١٧)، ولمساور بن حمئان من بني ربيعة في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٠).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠١).

(٥) في (أ): «ليخلفهم».

قال الأخفش: ويُقال: هذا الأمرُ مِن ورائِكَ، يعني: أنَّه[١] سيأتيك[٢].

وقال الشَّاعر:

عسى الكربُ الَّذي أمسيْتَ فِيْهِ يكونُ وراءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبُ[٣]

أي: لهم الهلاكُ في الدُّنيا، والعِقاب في العُقْبى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾: قال قتادة: هو ماءٌ يخرجُ مِن بينِ جلدِ الكافرِ ولحمِهِ[٤].

وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ ومحمَّدُ بنُ كعبٍ: هو ما يسيلُ مِن فروجِ الزُّناة، يُسقاه الكافرُ[٥].

وقيل: هو الحميمُ أُغْلِيَ حتَّى خَثَر.

وقال أهلُ اللُّغة: هو القيحُ الَّذي يسيلُ مِن الفرجِ.

وقيل في التَّفسير: هو ما يسيل مِن جوفِ الكفَّارِ مِنَ القيحِ والدَّمِ.

ثمَّ قوله: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: مِن ماءٍ هو صديد[٦]؛ أي: لونُه لونُ الماءِ، وطعمُه طعمُ الصَّديد، وهو كقوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٦]؛ أي: لها صفاءُ الزُّجاجِ وبياضُ الفضَّة.

---

(١) في (أ): «أنه كان».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٠٦).

(٣) البيت لهدبة بن خشرم. انظر: «الكتاب» لسيبويه (٣/ ١٥٩)، و«الكامل» للمبرد (١/ ١٥٨)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٦/ ٢٥٧)، و«أمالي القالي» (١/ ٧٢).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٠٢)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٩).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣١٠).

(٦) «أي: من ماء هو صديد» ليس في (أ).

(١٧) ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ أي: يَزْدَرِدُهُ باستكراهٍ واستثقالٍ لعطشِهِ وحاجتِهِ إلى الماءِ.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: أي: لا يُمْرِئُهُ[١]، ولا يقاربُ إدخالَه حلقَه، يُقال: ساغَ لي الشَّراب، وأسغتُهُ؛ أي: أدخلْتُه جوفي بسهولةٍ.

قال النَّبيُّ ﷺ في تفسيرِها: «يُقَرَّبُ[٢] إليه فيتكرَّهُه، فإذا أُدْنِيَ منه شَوَى وجهَهُ ووقعَتْ فروةُ[٣] رأسِهِ، فإذا شربَهُ قطَّعَ أمعاءَهُ حتَّى يخرجَ مِن دُبُرِهِ، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ: يعني في النَّارِ مِن كلِّ ناحيةٍ[٥]؛ أي: ليسَ في جسدِهِ موضعُ شعرةٍ إلَّا والموتُ يأتيه منها مِن شدَّةِ العذابِ حتَّى يجدَ طعمَ الموتِ وكُرَبَهُ.

---

(١) في (ف): «يمريه».

(٢) في (أ): «تفسير هذا ليقرب» وفي (ف): «تفسير هذا يقرب» بدل من «تفسيرها يقرب».

(٣) في (أ): «ووقع لحم».

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٤ ـ زوائد نعيم بن حماد)، ومن طريقه الترمذي (٢٥٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٩٣) و(٣٧٠٤) وصححه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث غريب.

(٥) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٣٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٢٨).

وقيل: يأتِيْه غمُّ الموتِ مِنْ كُلِّ عُضْوٍ ومَفْصِلٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾: لا يموتُ حقيقةً فيستريحَ، قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقيل: مِنْ كُلِّ مكانٍ مِنْ جهاتِ بَدَنِهِ السِّتَّةِ: مِنْ فوقِه، ومِنْ تحتِهِ، ووراءِه، وأمامِهِ، وعن يمينِهِ، وعن شمالِهِ، كما قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: أي: أمامَه؛ أي: متجدِّدٌ له كلَّ ساعةٍ بعدما كانَ يصيبُه عذابٌ(١) أغلظُ مِنَ الأوَّلِ.

***

(١٨) ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: يتَّصِلُ بقولِهِ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]؛ أي: لم ينتفعوا بما عملوا، فقد صارَ عملُهُم كذا.

قال الفرَّاءُ: أضافَ الـمَثَلَ إلى الكفَّارِ، والـمَثَلُ لأعمالِهم، وتقديرُهُ: مَثَلُ أعمالِ الَّذين كفروا، ونظيره: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلْقَه﴾ [السجدة: ٧]؛ أي: أحسنَ خلقَ كلِّ شيءٍ، وقوله: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]؛ أي: ترى وجوهَ الَّذين كَذبوا على الله مسودَّةً(٢).

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «غليظ؛ أي».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٢).

قال: وإنْ شئْتَ جعلْتَ المَثَلَ صلةً، فقلْتَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾.

وقال بعضُهم: ﴿مَّثَلُ﴾ بمعنى: صفة؛ أي: صفةُ الكفَّار هذا أعمالُهم كرمادٍ.

قال سيبويه: في الكلام إضمارٌ، ومعناه: وممَّا نقصُّ عليكَ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾[١].

ومعنى الآية: صفةُ الكافرين بربِّهم ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾؛ أي: تحبطُ أعمالُهم وتتلاشَى، فلا ينتفعُ بها أحدٌ منهم، بل تطيرُ أَعمالُهم كرمادٍ[٢]؛ أي: تذهبُ.

وقد سئلَ الإنسانُ عَن الشَّيءِ[٣]، فيُقال له: أين هو؟ فيقول: طارَ وكانَ ريحًا[٤]، فكذا قولُه: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾؛ أي: كرمادٍ هاجَتْ به ريحٌ شَّديدةٌ[٥] في يومٍ كثيرِ الرِّياح قويِّها، فلا شكَّ أنَّه لا يبقى مِن ذلك الرَّمادِ شيءٌ يمكِنُ أنْ يؤخذَ[٦] ويُتعلَّق به، فكذلك هؤلاء بما كسبوه في حالِ شركِهم مِن قِرى ضيفٍ، وصلةِ رحمٍ، وصدقةٍ على محتاجٍ، أو شيءٍ يُعَدُّ مثلُهُ تقرُّبًا، أو سَعوا في جمعِ مالٍ، أو إعداد عتادٍ[٧] يُنتفعُ به في دينٍ أو دنيا، فإنَّ ذلكَ يبطلُ عنهم[٨]، فلا يقدرون منه على شيءٍ؛ أي: لا يجدون له نفعًا.

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٠)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٠١)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٣٩).

(٢) «كرماد» من (أ).

(٣) في (ف): «وقد سأل إنسان عنه النبي ﷺ قال».

(٤) في (ر) و(ف): «ريحاً فمر».

(٥) في (ر) و(ف): «الريح الشديدة».

(٦) في (ر) و(ف): «يوجد».

(٧) «عتاد» ليس في (ف).

(٨) في (ف): «بطل عنهم» وفي (ر): «بطل منهم».

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ أي: سوءُ تدبيرٍ، وضعفُ رأيٍ، وذهابٌ عن الصَّواب إلى ما يتباعد عنه، حتَّى لا يكون فيه موضعٌ في استصوابٍ، ولا قُرْبٌ مِن الهدى.

وقال الفرَّاء: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: إنْ شئْتَ قلْتَ: في يومٍ ذي عُصُوفٍ، وإنْ شئْتَ قلْتَ: في يومٍ عاصفِ الرِّيح(١).

وقال أبو حاتمٍ سهلُ بنُ محمَّدٍ(٢): هذا مِن كلام العرب، ونظيرُه في القرآنِ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وهما لا يمكران، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، وإنَّما يُبْصَرُ فيه، ويُمْكَرُ في اللَّيل والنَّهار، ويُقال: يومٌ ماطرٌ ومُغِيْمٌ(٣)، وليلُ فلانٍ قائمٌ، ونهارُه صائمٌ، على معنى أنَّ هذه الأفعال تكون فيها، فأضيفت إليها.

وقيل: هو كقولهم: يومٌ حارٌّ، ويومٌ باردٌ، واليومُ ليسَ ممَّا يُلْمَسُ فَيُحَسَّ منه الحرُّ والبرد، لكن يكون فيه حرُّ الأشياء وبردُها.

والعُصُوفُ: شدَّةُ هبوبِ الرِّيحِ.

* * *

(١٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٣).

(٢) سهل بن محمد، أبو حاتم السجستاني المقرئ اللغوي الإمام، إمام جامع البصرة. صاحب المصنفات. أخذ عن: أبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي، وحمل الناس عنه القرآن والحديث والعربية. روى عنه أبو داود، والنسائي، والبزار، توفي سنة (٢٥٠هـ)، وقيل: (٢٥٥هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٦/ ٩٥).

(٣) في (أ): «ذو مغيم».

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿خالقُ السَّمواتِ والأرضِ﴾، وهو نعت، وقرأ الباقون: ﴿بِالْحَقِّ﴾[1]، وهو فعلٌ.

وهو مِن حُجَجِ وحدانيَّة الله تعالى، و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: ألَمْ تعلمْ يا محمَّد، ومعناه الإثبات؛ أي: قد علمْتَ، أو الأمر؛ أي: اعلمْ، وهو لتعليمِ غيرِه أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بالحقِّ.

قال مقاتلٌ: أي: لم يخلقْهُما باطلًا عبثًا، بل لحقٍّ؛ أي: أمرٍ كائنٍ[2]، وهو البعث والجزاء.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لَهُ ذلِكَ بحقِّ ملكِهِ[3]، وخلقَهُما بقوله الحق، فجعلَ كلَّ جزءٍ منها على وحدانيَّته دليلًا، ولِمَن أرادَ الوصولَ إلى ربِّه سبيلًا[4].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: قال عامَّة أهلِ التَّأويل: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: للحقِّ؛ أي: للكائنِ لا محالةَ، وهي الآخرةُ؛ لأنَّ المقصودَ مِن خَلْقِ العالَم الأوَّل هو العالَم[5] الثَّاني.

وقال: وقيل: أي: للحقِّ الَّذي وجبَ عليهم له بالامتحان.

وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمةِ[6].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٤).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٢).

(٣) في (أ): «ملكهما».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤٦).

(٥) في (ر) و(ف): «الخلق».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).

وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: أي: يُهْلِكْكُم ويفنيْكُم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أطوعَ له منكم.

* * *

(٢٠) - ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: أي: غير[١] ممتنعٍ ذلك عليه، وهو إذهابُكُم والإتيانُ بغيرِكُم.

وقيل: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: شديدٍ، كما يشتدُّ على ملوكِ الدُّنيا إذا ذهبَ أهلُ المملكةِ؛ إذْ لا زيادةَ في ملكِهِ، ولا نُقصانَ مِن خلقِهِ.

* * *

(٢١) - ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: ماضٍ بمعنى المستقبلِ؛ لأنَّه مِن أمورِ الآخرةِ، وهي كائنةٌ لا محالةَ، فأخبرَ عنها كما يخبرُ عن الكائنِ الموجودِ المتحقِّق.

والبروزُ: الخروجُ والظُّهور؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

يقول: ويُحْشَرُ هؤلاء يومَ القيامةِ فيظهرون بحيثُ لا يسترهم ساترٌ، ولم يبقَ أحدٌ منهم لم يُحْشَرْ ولم يَظْهَرْ[٢].

---

(١) في (أ): «عزيز».

(٢) «يقول ويحشر هؤلاء يوم القيامة فيظهرون بحيث لا يسترهم ساتر ولم يبق أحد منهم لم يحسر ولم يظهر» من (أ)، وفي (ف): «يقول لم يخرج ولم يظهر»، وفي (ر): «أي: ظاهرة».

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: الخلقُ اليومَ كلُّهم بارزون لله تعالى، وإنَّما ذَكَرَ ذلك يومَ القيامةِ لأنَّ الكفَّارَ لا يعتقدون ذلك، ولا يُقرُّون به(١)، ويومَ القيامةِ يقرُّون بذلك ويعلمونه(٢)، وهو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: أي: فيقولُ الأتباعُ للرُّؤساءِ ـ وهم كلُّ جبَّارٍ عنيدٍ ـ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أي: أتباعًا، والتَّبَعُ: جمعُ تابعٍ، كالغَيَبِ جمعُ غائبٍ، والخَدَمُ جمعُ خادمٍ، والسَّلَفِ جمعُ سالفٍ، والخَلَف جمعُ خالفٍ.

وقال الزَّجَّاجُ: ويجوز أن يكون مصدرًا وُصِفَ به، فيستوي الواحدُ والجمعُ فيه(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: قال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: قال قائلون: أي: دافعون عنَّا عذابَ اللهِ، نافعون لنا.

ولكن هذا بعيدٌ أنْ يطلبوا منهم دفعَ العذابِ عنهم، فقدْ رأَوْهم في العذابِ، ولو قدروا على دفعِ العذابِ عنهم لدفعوا أوَّلًا عن أنفسِهم، إلَّا أن يكون فيهم حيرةٌ وعمًى كما كان في الدُّنيا، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾.

والأشبهُ أنَّهم يطلبون رفعَ بعضِ العذابِ عنهم، وتحمُّلَه منهم، وكان ذلك

---

(١) في (ف) و(أ): «بذلك».

(٢) في (ف) و(أ): «ويعلمون ذلك».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٨٢).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٨).

متعارفًا في الدُّنيا، ويدل عليه قوله تعالى خبرًا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧](١).

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾: قال الإمامُ أبو منصورٍ رحمة الله عليه: قال بعضُ أهلِ العلم: إنَّ الأتباع والمتبوعين مِن الكفَّار أعلمُ باللهِ مِنَ المعتزلة، يقولون: لو هدانا الله لهديناكم، والمعتزلةُ يقولون: هداهم الله جميعًا فلم يهتدوا، ولو أرادَ أنْ يهديَ واحدًا لم يملِكْ، وكذا إبليسُ أعلم باللهِ منهم يقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، وهم يقولون: لا يغوي اللهُ أحدًا(٢).

ومعنى هذه الآية: لو وفَّقَنا اللهُ للإيمانِ واهتدينا في دارِ الدُّنيا لهديناكم؛ أي: بيَّنَّا لكم طريقَ الهُدى.

وقيل: أي: لو هدانا الله إلى طريقِ التَّخليص مِن العذاب(٣) لهديناكم إليه.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾: الجَزَعُ: انزعاجُ النَّفسِ لورودِ ما يغمُّ، وهو نقيضُ الصَّبر، وقال الشَّاعر:

فإنْ تَصْبِرا فالصَّبْرُ خَيْرُ مَغَبَّةٍ(٤) ... وإنْ تَجْزَعا فالأمرُ ما تَرَيانِ(٥)

أي: يقولون: لا حيلةَ لنا فيما قدْ وقعْنا فيه، وسواءٌ علينا أجزِعْنا أم صَبَرْنا لا يخفُّ عنَّا العذابُ بالصَّبر ولا يرقُّ لنا بالجَزَع.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٨٣).

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) في (أ): «العقاب».

(٤) في (ف): «مطية».

(٥) البيت بلا نسبة في «المقابسات» لأبي حيان التوحيدي (ص: ٢٤٢)، و«محاضرات الأدباء» للأصفهاني (٢/ ٥٢٥)، و«الدر الفريد» للمستعصمي (٧/ ٣٧٧).

وقال مقاتلٌ: يقولون ذلك في النَّار، فيقولون أوَّلًا: تعالوا نجزَع لعلَّنا نُرْحَم، فيجزعون خمس مئة سنة فلا ينفعُهم الجَزَعُ، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمس مئة سنة، فلا ينفعُهم الصَّبر، فيقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١][1].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: ويحتملُ أنَّهم يقولون ذلك حين يُقال لهم: ﴿فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦][2].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: مَنْجًى. وقيل: مَخْلَصٍ. وقيل: مِنْ نجاةٍ. وقيل: مِن فرارٍ. وقيل: مِن رَوَاغٍ[3].

والمحيصُ في اللُّغة: المحيدُ، يُقال: حاصَ يحيْصُ حَيْصًا ومَحِيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصانًا؛ أي حادَ، كما قالوا في الدُّنيا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، قيل لهم في النَّارِ: ﴿فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وهم قومٌ صفتُهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، و﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٣)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣١٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٨٤).

(٣) في (ف) و(أ): «رواغ».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: ولَمَّا قال الضُّعفاء للَّذين استكبروا ما ذكرْنا، وأجابهم أولئك بما حكيْنا(١)، اجتمعوا كلُّهم على ملامَةِ إبليس، فهو الَّذي زيَّن(٢) لهم الكفر، فيقول لهم إبليس هذا.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: فُرِغَ مِن سَوْقِ أهلِ النَّار إلى النَّار، وسوقِ أهلِ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، واستقرَّ كلُّ فريقٍ في منزلِه، والشَّيطانُ مشرفٌ عليهم في النَّارِ بحيث يرونَه ويسمعون كلامَه.

وقال مقاتلٌ: يوضَعُ له منبرٌ في النَّارِ فيرتَقِيْه، وتجتمعُ عليه الكفَّارُ باللَّائمةِ، فيقولُ لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: كونَ هذا اليومِ كما ترَوْنَ، فصدَقَكُمْ وعدَهُ، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أنَّه غير كائنٍ(٣) ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وَعْدِي(٤).

وقيل: ﴿وَعْد الحق﴾؛ أي: الصِّدق، وتقديرُهُ: وعدًا صِدْقًا، والإضافة إليه بمعنى نعتِه به، كقولِكَ: حقُّ اليقين، وهو وَعْدُ الثَّوابِ على الإيمان والطَّاعة.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ على الشِّركِ والكُفْرِ النَّصرَ والمعونةَ ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وهو قولُه تعالى: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وكلُّ مواعيدِه أمانيُّ وغرورٌ؛ قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: أي: مُلْكٍ أقهرُكُم به على ما دعوتُكم إليه.

---

(١) في (أ): «وأجابهم بما حكينا أولئك»، وفي (ر): «وأجابوهم أولئك بما حكينا».

(٢) في (أ): «سن» وفي (ف): «سيق».

(٣) في (أ): «جائز».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٣).

وقيل: أي: حُجَّة، بلِ الحُجَجُ[١] كانَت للأنبياءِ.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكنِّي دعوتُكم بما أوردْتُ على قلوبِكُم مِن الوساوس، ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾[٢]: فقبلْتُم ذلكَ مِنِّي واعتقدْتُموه.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾: على استجابتِكُم لي.

ولومُ النَّفْسِ على الإساءةِ أمرٌ صحيحٌ، كما يصحُّ حمدُها على الإحسانِ، قال الشَّاعر:

تبعْتُكَ إذْ عَيْنِي عليها غِشَاوةٌ ... فلمَّا انجلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُومُها[٣]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ ليسَ لأنَّه لا يستحقُّ الملامة، لكنْ يقول: لومُوا[٤] أنفسَكُم أولى بكم؛ إذْ أنتم الَّذين أهلكْتُم أنفسَكُم بإجابتِكُم لي طوعًا.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾: أي: بمغيْثِكُم[٥]؛ يعني: بمالكِ إغاثتكم[٦].

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾: قرأ حمزةُ بكسر الياء، والباقون بالفتح[٧].

---

(١) في (أ): «الحجة».

(٢) «فاستجبتم لي» من (أ).

(٣) البيت للحارث بن خالد بن العاص المخزومي. انظر: «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٤٤٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٧١)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (١/ ٢٣٨)، و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٤/ ٢٢٥).

(٤) في (ر) و(ف): «ليس لأنه لا يستحق اللوم لكن لومكم».

(٥) في (ف): «بمعينكم».

(٦) في (ف): «إعانتكم».

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٤).

والمصرِخُ: المغيثُ، والصَّارخُ: المستغيثُ، وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]؛ أي: يستغيثون بالصِّياح والصُّراخ.

والصَّرْيخُ[1]: اسمٌ للمُصْرِخِ والمستصرِخِ جميعًا، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مُغِيْثَ، والصَّارخُ: الدِّيكُ لصياحِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾: أي: بإشراكِكُم إيَّايَ في العبادة معَ اللهِ في الدُّنيا، وهو التَّبرُّؤُ مِن ذلكَ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] أي: يتبرَّأُ.

ثمَّ هذا يحتملُ وجهَيْن:

الإخبار عندَ ذلك أنَّه كان يتبرأُ مِن ذلك في الدُّنيا.

والثَّاني: أَنَّه يتبرأُ مِن ذلك يومَ القيامةِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مرَّ تفسيرُه مرَّات[2].

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: ذَكَرَ حالَ المؤمنِيْن في نيلِهم[3] الجنَّة بعدَ ذِكْرِ الكافِرِيْن ووقوعِهم في النَّار.

---

(١) في (أ): «والصياح والصريخ» وفي (ف): «والصياح والصراخ والصريخ».

(٢) «مر تفسيره مرات» من (ف).

(٣) في (أ): «وتسلمهم»، وفي (ف): «وإدخالهم»، بدل: «في نيلهم».

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: قيل: أي: يحيِّي بعضُكُم بعضًا بدوامِ السَّلامةِ مِن كلِّ خوفٍ وحزنٍ.

وقالَ الضَّحَّاكُ: هو سلامُ الملائكةِ عليهم(١).

ويُقال: هو سلام الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقيل: قومٌ يحيِّيهم الملِكُ، وقومٌ تحيِّيهم الملائكة(٢).

* * *

(٢٤) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: أي: ألم تعلمْ كيفَ بيَّنَ اللهُ مثلًا ﴿كَلِمَةً﴾ بدل عنه، وترجمة له ﴿طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: هذا مَثَلُ كلمةِ التَّوحيد ﴿كشجرة طيبة﴾؛ أي: زاكية مستطابة الثَّمر.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: أي: لها أصلٌ ثابتٌ في الأرض؛ أي: يشربُ مِنَ الأرضِ بعروقِه.

﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾: أي: تسقيها السَّماء مِن فوقِها بمطرها، فهي تنمو بذلك، وتطول فروعُها حتَّى تكون في نهايةِ طولِ الأشجار(٣).

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٣٤) عن ابن جريج.

(٢) في (أ): «الملك».

(٣) في (أ): «حتى تطول الإبحار».

(٢٥) - ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: أي: تثمرُ في كلِّ حينٍ بإذنِ اللهِ؛ أي: بإيجادِ اللهِ ذلك.

و﴿أُكُلَهَا﴾: ما يُؤكَلُ منها.

فهذا مَثَلُ كلمةِ الإيمانِ، وهي طيِّبة في لفظِ صاحبِها المتكلِّم بها؛ لأنَّها حمدٌ وتنزيهٌ للخالقِ البارئِ المصوِّر الواحدِ، الموصوفِ بالصِّفاتِ الحسنى، وشهادةٌ له بالحقِّ.

وهي طيبةٌ فيما تثمرُه؛ لأنَّها تثمِرُ في الدُّنيا الثَّناءَ الحسنَ[1]، والمودَّةَ في صدور الأخيار، والأسماء الجميلة، وتثمر أيضًا في الدُّنيا التَّوفيقَ مِن اللهِ للطَّاعات، وانشراحَ الصَّدر للحقِّ والعملِ بهِ، وتثمرُ في الآخرةِ رضوانَ اللهِ عليهم، والنَّعيمَ المقيمَ في جوار الأنبياء والصِّدِّيْقِين والشُّهداءِ والصَّالحين.

وهي ثابتةُ الأصلِ في الأرضِ، ليس معتقدُها بمذبذبٍ، ولا هو مِن دينِه في لَبْسٍ، ولا هي مأخوذةٌ تقليدًا مِن غيرِ دليلٍ وبرهان، فصاحبُها مِن الانتفاعِ بها وإصابةِ الحقِّ منها على بصيرةٍ وبيِّنة.

ثمَّ فرعُها في السَّماء؛ لأنَّ عملَ صاحبِها مُتَقَبَّلٌ، مرفوعٌ إلى اللهِ، تثني به عليه الملائكةُ، ويذكُرُهُ اللهُ تعالى بها في الملأِ الأعلى.

وهي تؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ؛ لأنَّ شهادةَ المؤمنِ للهِ تعالى بالوحدانيَّةِ، وثناءه

---

(١) «الحسن» ليس في (أ).

عليه، وتمجيدَه له، وشكرَه له على النِّعم السَّالفةِ والآنفةِ[(١)]، لا ينقطعُ في الأوقاتِ، بل هي منهُ على ذُكرٍ؛ إمَّا بلسانِه، وإمَّا بقلبِه، وكذلك أعمالُه الصَّالحةُ تتَّصلُ وتَتابَعُ في الأحايين كلِّها، وهذا تمثيلٌ في غايةِ الحُسْنِ والصِّدقِ[(٢)].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: وإنَّما يضربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ ليتذكَّرَ بها النَّاسُ أشباهَ الأشياء الغائبةِ بالأشياءِ الحاضرة، فإذا كانَتِ الأشياءُ الحاضرةُ المضروبُ بها الأمثال حسنةً محمودةً مالوا إليها، وإذا كانَتِ الأشياءُ الحاضرةُ المضروبُ بها الأمثال قبيحةً مذمومةً انحرفوا عنها.

كالهدى[(٣)] الَّذي هو في معنى الشَّيء الغائب لأنَّه يُدرَكُ بالدَّليل، والضَّلالُ الَّذي هو كذلك، إذا ضُرِبَ الـمَثَلُ للهُدَى بالنُّورِ قَرُبَ مِن القَلْبِ كَقُرْبِ النُّور منه، وإذا ضُرِبَ مَثَلُ الضَّلالِ بالظُّلْمَةِ أُبْعِدَ مِنَ[(٤)] القلبِ كبُعْدِ الظُّلمة منه.

ثمَّ الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ قيل: هي النَّخلة.

ورُويَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأصحابه يومًا: «أخبروني عَن شجرةٍ مَثَلُها مَثَلُ المؤمنِ؟»، قالَ ابنُ عمرَ: فوقعَ النَّاسُ في شجرِ البوادي، فوقع عندي أنَّها النَّخلةُ، فأردْتُ أنْ أقولَ: هي النَّخلة، فنظرْتُ فإذا في القومِ أبو بكرٍ وعمرُ، فسكتُّ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هي النَّخلةُ»، فذكرْتُ ما وقعَ في قلبي لِعُمَرَ، فقالَ: لو كنْتَ قُلْتَهُ كانَ أحبَّ إليَّ مِنَ الدُّنيا وما فيها، أو كلامًا هذا معناه[(٥)].

---

(١) في (ف): «والآتية».

(٢) «والصدق» ليس في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «كالمهدي».

(٤) في (أ): «بعد عن».

(٥) رواه البخاري (١٣١)، ومسلم (٢٨١١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هي شجرةٌ في الجنَّة(١).

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ قال مجاهد وابن زيد: هي السَّنَةُ(٢).

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما ـ في رواية ـ وسعيدُ بن جُبيرٍ والحسنُ: ستَّة أشهرٍ مِن وقتِ الطُّلوع إلى وقت الصِّرام(٣).

وقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ: غدوةً وعشيَّةً(٤).

وقيل: أُكُلُ النَّخلِ: الطَّلعُ والبُسْرُ والرُّطَبُ والتَّمرُ، وهو دائمٌ لا ينقطعُ على هذه الصِّفة، وهذه حالةُ المؤمنِ، لا يخلو وقتًا مِن الأوقات مِن خيرٍ؛ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عَجبًا لِأَمْرِ الـمُؤْمِنِ، إنَّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ؛ إنْ أصابَهُ خيرٌ حَمِدَ اللهَ، وإنْ أصابَهُ ما يَكرَهُ(٥) صَبَرَ، وكانَ أمرُه كلُّه إلى خيرٍ»(٦).

وقال الإمامُ أبو منصورٍ: قال الإمامُ أبو بكرٍ الكيسانيُّ(٧):..................

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤٩). ومن قوله: «وقال ابن عباس» إلى هنا ليس من (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧). وفي (ر) و(ف): «الظلام» بدل «الصرام».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤٤).

(٥) في (أ): «مكروه» بدل من «ما يكره».

(٦) رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٧) في جميع النسخ: «الكسائي»، والمثبت من «التأويلات»، وهو ممن أكثر الماتريدي في كتابه المذكور النقل عنه في عشرات المواضع. وهو خيران بن العلاء أبو بكر الكلبي الكيساني الأصم من أهل دمشق، روى عن الأوزاعي وزهير بن محمد وحماد بن سلمة، روى عنه ابنه عمرو بن خيران وأبو عمرو الأوزاعي ـ وهو شيخه ـ وغيرهما، قيل: وكان من خيار أصحاب الأوزاعي. انظر: «تاريخ دمشق» (١٧/ ٧٣). وقد تقدم ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ =

كلمةٌ طيِّبةٌ: هي هذا القرآنُ، وكلمةٌ خبيثةٌ: هي الكُتُبُ الَّتي أحدثَها النَّاس.

شَبَّهَ القرآنَ بالشَّجرةِ الطَّيِّبةِ الَّتي تثمرُ، والشَّجرةُ الطَّيِّبةُ هي باقيةٌ إلى آخرِ الدَّهرِ، ينتفعُ بها النَّاس بجميعِ أنواعِ المنافعِ، لا يقطعونَها، فهي تدومُ[1] وتبقى، فعلى ذلك القرآنُ ينتفعُ بِهِ النَّاسُ، وهو دائمٌ أبدًا.

﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٌ﴾: لها قرارٌ، وهو ثابتٌ بالحُجَجِ والبراهين، والكتبُ المحدَثةُ باطلةٌ فاسدةٌ، لا حجَّةَ معها ولا برهان، كالشَّجرةِ الخبيثةِ الَّتي هي غيرُ مثمرةٍ، لا بقاءَ لها ولا قرارَ ولا ثبات[2].

قال القشيريُّ: شبَّهَ اللهُ تعالى معرفةَ المؤمنِ بشجرةٍ طيِّبةٍ، أصلُ تلكَ الشَّجرةِ ثابتٌ في أرضٍ زاكيةٍ، وفروعُها باسقةٌ عاليةٌ، وثمراتُ تلكَ الشَّجرةِ وافيةٌ، تؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ، وينتفعُ بها أهلَها في كلِّ وقتٍ، فالإيمانُ كذلكَ، أصلُهُ المعرفةُ المصحَّحةُ بالأدلَّةِ والبراهين، وفروعُها الأعمالُ الصَّالحةُ الَّتي هي الفرائضُ[3].

ومجانبةُ المعاصي في الإيمانِ كصيانةِ الشَّجرةِ ممَّا يضرُّها مِن قشطِ قشرٍ، وقطعِ عِرْقٍ، وإتلافِ غصنٍ، وما يجري مجراه.

وأوراقُ تلكَ الشَّجرةِ: قيامُه بآدابِ العبوديَّة.

وأزهارُ تلكَ الشَّجرةِ: أخلاقُه الجميلةُ.

= [الأعراف: ٣٢] نقلاً عن الماتريدي، فوقع هناك: (ابن كيسان)، وكان في «التأويلات»: (أبو بكر الأصم)، ونبهنا على الاختلاف ثمة لكن لم نذكر ترجمته فلتستدرك من هنا.

(١) في (أ): «ملزوم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٨٧).

(٣) في (ر): «أداء الفرائض».

وثمارُ تلكَ الشَّجرةِ حلاواتُ الطَّاعةِ، ولَذَاذاتُ(١) الخِدْمةِ.

ثمَّ الثِّمارُ تختلفُ في الطَّعمِ والطَّبعِ والرَّائحةِ والصُّورة، كذلكَ ثمراتُ الطَّاعاتِ، وهي المعاني الَّتي يجدُها العبدُ في قلبِهِ، وهي مختلفةٌ مِن حلاوةٍ يجدُها في الطَّاعةِ وهي صفةُ العابدِيْن، وبسطٍ يجدُهُ في وقتِهِ وهو صفة العارفِيْن، ولوعةٍ في ضميرِهِ وهي صفةُ المريدِيْن، وأُنْسٍ ينالُهُ في سِرِّهِ وهو صفة المحبِّيْن، وقلقٍ واهتياجٍ يجدُهُ ولا يعرفُ سببَهُ، ولا يجدُ سبيلًا إلى سكونِهِ، وهو صفةُ المشتاقِيْن، إلى ما لا يفي بشرحِهِ نُطْقٌ، ولا يستوفِيْهِ بيانٌ وذكرٌ؛ مِنْ لوائِحَ وبوائح، ولوامِعَ وطوالِع، وشوارِقَ وطوارِق.

ثمَّ هذه الشَّجرةُ تربو بالعناية، وتورقُ بالكفاية، وتتورَّد بالكلاءة، وتثمرُ بالرِّعاية.

ولا بُدَّ للشَّجرِ(٢) مِن ماءٍ، وماءُ هذه الشَّجرةِ ماءُ النَّدمِ والحياءِ، والتَّلهُّفِ والحسرةِ، والإنابةِ والخشوع، وإرسالِ الدُّموع.

ثمَّ ثمراتُ الأشجارِ في السَّنةِ مرَّةً، وثمراتُ هذه الشَّجرةِ في كلِّ لحظةٍ كذا وكذا مرَّةً، فهي كثمراتِ الجنَّةِ، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة، وكذا هذه اللَّطائفُ لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة، وقلوبُ أهلِ الحقائقِ عنها لا مصروفةٌ ولا محجوبة(٣).

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: المعرفةُ شجرةٌ في قلبِ المؤمنِ، لها سبعةُ غصونٍ:

غصنٌ ينتهي إلى قلبِه وثمرتُه: صحَّةُ الإرادات.

وغصنٌ ينتهي إلى لسانِه وثمرتُه: صِدْقُ المقالات.

---

(١) في (أ): «ولذات».

(٢) في (ر) و(ف): «ولا بد لهذه الشجرة». وفي «اللطائف»: (ثم لا بد للشجرة).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

وغصنٌ ينتهي إلى عينِه وثمرتُه: الغضُّ عنِ المحرَّمات، والنَّظرُ بالعِبرةِ في الكائنات.

وغصنٌ ينتهي إلى رجلِه وثمرتُه: المشي إلى الجماعات.

وغصنٌ ينتهي إلى يدِه وثمرتُه: إعطاءُ الصَّدقات.

وغصنٌ ينتهي إلى الحلْقِ والبطنِ وثمرتُه: أكلُ الحلال، وتركُ الحرامِ والشُّبهات[١].

وغصنٌ ينتهي إلى النَّفس وثمرتُه: تركُ الشَّهوات.

وقال سهلُ بنُ عبدِ الله: لها أربعةُ أغصان:

أحدُها: ينتهي إلى قصرِ الأمل.

والثَّاني: إلى إخلاصِ العمل.

والثَّالثُ: إلى ارتقابِ الأجل.

والرَّابع: إلى تدارُكِ الخَلَل.

* * *

(٢٦) ـ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾: هي كلمةُ الكُفرِ ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾: غيرِ زاكيةٍ، كما قال: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وخبيثةٌ أيضًا مِن جهةِ أنَّ ثمرتَها[٢] غيرُ مستطابةٍ.

---

(١) في (أ): «الحلالات»، وفي (ف): «الحلال والمباحات»، بدل: «الحلال وترك الحرام والشبهات».

(٢) في (ر): «شجرتها».

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: اقتُلعَتْ، وقد جثَّ جثًّا مِن حدِّ دخَلَ يدخُلُ[(١)]؛ أي: قَلَعَ، واجتَثَّ اجتثاثًا كذلك.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ في الأرض، ولا فروعَ لها في السَّماء[(٢)]؛ لأنَّها مستأصَلةٌ مِن فوقِ الأرضِ، ولا عروقَ لها في الأرضِ فتزكوَ؛ لأنَّها قد اجتُثَّتْ مِن أصلِها، أو أنَّها لا عروقَ لها في باطنِ الأرضِ، فإذا اجتُثَّتْ ـ أي: أُخِذَتْ جُثَّتُها الَّتي هي بارزةٌ على وجهِ الأرض ـ مِن أصلِها انقطعَ ثمرُها، وهي شجرةٌ ليسَ لها أصلٌ ثابتٌ يتفرَّع، وإنَّما هي قطعةُ عودٍ أو نباتٍ على الأرضِ، لا ثمرةَ لها[(٣)]، ولا نماءَ، ولا نفعَ.

فكذلك كلمةُ الشِّركِ[(٤)] هي خبيثةٌ في لفظِ المتكلِّم بها؛ إذ هي ثناءٌ على جمادٍ لا يَعقِل، وتسميةٌ بالإلهيَّة لحجرٍ لا يضرُّ ولا ينفع.

وهي تثمرُ في الدُّنيا الذِّكْرَ القبيحَ، وتسفيهَ العقلِ، وتضليلَ الرَّأي، والتَّسميةَ بالأسماءِ المكروهةِ مِن الصُّمِّ والبُكْمِ والعُمْي، والتَّشبيهَ بالحُمُرِ والبهائمِ والأموات.

وتثمرُ في الآخرةِ العقابَ[(٥)] الأليم، وصاحبُها في لَبْسٍ مِن دينِه، واختلاطٍ مِن اعتقادِه، وعلى غيرِ بصيرةٍ مِن دَرْكِ الصَّوابِ فيه، وليسَ له عملٌ يصعدُ إلى اللهِ تعالى.

---

(١) في (أ): «من حد نكل». والمؤدى واحد، فإن نكل من باب دخل أيضاً. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: جثث ونكل).

(٢) قوله: «في الأرض» «في السماء» من (ف).

(٣) «لها» ليس في (أ).

(٤) في (أ): «و» بدل: «فكذلك كلمة الشرك».

(٥) في (أ): «العذاب».

وقال أنسٌ[١]: الشَّجرةُ الخبيثةُ: الشَّريان وهو الحنظلُ[٢].

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هي شجرةٌ لم تُخْلَقْ، وهي مَثَلٌ[٣].

وقال القشيريُّ رحمه الله: خَبُثَتْ كلمةُ الشِّركِ لصدورِها عن قلبٍ هو مستقرُّ الشِّركِ ومنبعُهُ[٤].

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: لأنَّ الكفرَ متضادٌّ متناقضٌ، ليسَ له أصلٌ صحيحٌ، ولا برهانٌ موجِبٌ، ولا دليلٌ كاشِفٌ، ولا علَّةٌ مقتضيةٌ، إنَّما ذلك شُبَهٌ وأباطيل، وضلالٌ وتضليل، اقتضاها وساوسُ وتسويل.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ لأنَّها حاصلةٌ مِن شُبَهٍ واهية، وأصولٍ فاسدة.

***

---

(١) في (ر): «وقيل» وفي (ف): «وقال أليس».

(٢) في (أ): «الخبيثة هي السريانة وهي الحنظل» وفي (ف): «الخبيثة هي بالسريانة وهي الحنظل»، وفي (ر): «الخبيثة بالسريانية هي الحنظل»، والمثبت من المصادر. والخبر رواه ابن الجعد في «مسنده» (١١٠٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٢١٦)، والطبري في «التفسير» (١٣/ ٦٥٢ ـ ٦٥٣)، والخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ٥١٢).

قال الخطابيُّ: أُراه غلطاً، وإنَّما هو: (الشَّرْيُ)، وهو الحنظلُ، وأمَّا الشَّرْيانُ: فهو شجرٌ يُعْمَلُ منه القِسِيُّ، يَنْبُتُ في بطون الأَودية ومجاري الماء.

لكن ذكر الزمخشري فيه تفصيلاً آخر، حيث قال: الشَّرْيان والشَّرْي: الحنظل، وقيل: هو ورقه، الواحدة: شَرْيةٌ، وأمَّا الشِّرْيان بالكسر ـ وقد يفتح ـ فشجرٌ يُعمل منه القِسِيُّ، الواحدة: شِرْيَانة. انظر: «الفائق» (٢/ ٢٣٩)، و«النهاية» (مادة: شرى).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٥٤).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٤٩).

(٢٧) - ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: ﴿يُثَبِّتُ﴾؛ أي: يوفِّقُ للثَّبات، ويحفظُ عن الزَّوال والزَّلل.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: الذين آمنوا واتَّقوا، فالوعدُ للمؤمنِ المستقيمِ المستكمِلِ خصالَ الإيمانِ، وذلك بالتَّقوى، فأمَّا العصاةُ[١] فهم في خطرٍ.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قيل: هو صلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: هذا الوعدُ للَّذين آمنوا بالقولِ الثَّابتِ؛ أي: بالتَّوحيد الخالص، فوحَّدوا اللهَ، ونزَّهوه عمَّا لا يليقُ به.

وقيل: هو صلةُ ﴿يُثَبِّتُ﴾؛ أي: يثبِّتُهم بالبقاءِ على هذا القولِ الثَّابت.

أو يكون بمعنى الجزاءِ؛ أي: يثبِّتُهم بسببِ قولِهم الثَّابت، يُقال: جزيتُه بكذا أو على كذا أو في كذا[٢].

و﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ما داموا أحياءً، وعندَ الموتِ، حتَّى يُختَم لهم به.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: في القبرِ عندَ مسائلةِ مُنكر ونَكير.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَن دامَ على الشَّهادةِ في الحياة الدُّنيا ثبَّتَهُ اللهُ عليها في قبرِه ولقَّنه إيَّاها[٣].

---

(١) في (ف): «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الذين آمنوا واتقوا فالوعد للمؤمن التثبت على الإيمان وخصال الإيمان بالتقوى وأما العصاة...»، وفي (ر): «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ واتقوا ما يحبط إيمانهم وأعمالهم أهل الثبات في الدنيا والآخرة فأما الكفار والعصاة...».

(٢) في (ر) و(ف): «جزيته بكذا وعلى كذا».

(٣) ذكره النيسابوري في «تفسيره» (٤/ ١٩٢)، والرازي في «تفسيره» (١٩/ ٩٧).

وكذلك قالَ مقاتلٌ[١]، وعليه كثيرٌ مِن الأخبار[٢].

وقيل: القبرُ مِن الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّه في الدُّنيا صورة، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عندَ مسائلةِ اللهِ إيَّاهم عندَ الحساب.

والقولُ الثَّابتُ: هو الشَّهادةُ للهِ بالوحدانيَّة، والصِّفاتِ التي وصفَ بها نفسَه، وهو قولٌ ثابتٌ في نفسِهِ بدلائلِ العُقول وشهاداتِ المعارف.

وقيل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: يمكِّنُهم اللهُ في الأرضِ، ويستخلِفُهم فيها، وفي الآخرةِ في الجنَّةِ بقولهم الثَّابت؛ أي: بسببِ كلمةِ التَّوحيد منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: يخذِلُ الَّذين ارتكبوا الكبائرَ، فوضعوا الأمرَ غير موضعِه، وظلموا بذلك أنفسَهم.

وهذا الوعيد لهم ما داموا مختارِيْن لذلك، فإذا تركوا الظُّلم ورجعوا إلى[٣] الحقِّ يوفِّقُهم اللهُ ويعصمُهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾: يتوبُ على الظَّالم إنْ شاءَ، فيغفرُ له ويهديه، ويغفرُ له إنْ شاءَ مِن غيرِ توبةٍ، ويعاقبُه إنْ شاءَ ويتركُه في ظلمةٍ.

والآيةُ ردٌّ على المعتزلةِ، فإنَّهم يقولون: لا يقدِرُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّه شاءَ إيمانَ الجميع، ولم يؤمنوا، فلم يقدرْ أنْ يفعلَ ذلكَ بهم.

* * *

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٥).

(٢) في (أ): «وعليه كثرت الأخبار» وفي (ر): «وعليه كثير من الأخيار».

(٣) في (ف): «فتراجعوا» بدل: «ورجعوا إلى».

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: قال الحسنُ: يعني: أبا جهلٍ وأصحابَه[1]، الَّذين[2] بدَّلوا نعمةَ اللهِ عليهم بمحمَّد وبالإيمانِ، فكفروا به وكذَّبوه.

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: أي: دار الهلاك ﴿جَهَنَّمَ﴾: هو بدلٌ عنها، وترجمةٌ لها، فأخرجوهم إلى قتالِ محمَّدٍ ببدرٍ، فقتلَهُم اللهُ فدخلوا النَّارَ.

فالنِّعمةُ هي محمَّدٌ ﷺ في هذه الآيةِ، وكذلك في قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

وقيل: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: هي بدرٌ هلكوا بها.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ يكون منصوبًا لقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، وهو كلامٌ غيرُ الأوَّل[3].

وقيل: النِّعمة: هي جميعُ ما أنعمَ اللهُ تعالى عليهم بها، فكفروا بها، فاستحقُّوا بها العقاب.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يدخلون جهنَّم ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾؛ أي: بئسَ الاستقرار؛ أي: بئسَ المستَقَرُّ جهنَّم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٦) عن قتادة.

(٢) «الذين» ليس في (أ).

(٣) وتبسيط كلام المؤلف في إعراب ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾: أن لها وجهين: إما أن يكون ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدلاً من ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ فـ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ منها أو من الدار أو من القوم، أو يكون قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ منصوباً بفعلٍ مقدَّر يفسره قوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ وهو ما يسمى بالنصب على الاشتغال.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: النَّاسُ بَراءٌ مِن هذه غير ظَلَمةِ قريشٍ[١].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: هم بنو المغيرة وبنو أميَّة؛ أمَّا بنو المغيرة فاسْتُؤصِلوا ببدرٍ، وأمَّا بنو أميَّة فمُتِّعوا إلى حين[٢].

***

(٣٠) ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾؛ أي: أشكالًا وأشباهًا مِن الأصنامِ سمَّوها اللَّات والعزَّى، كما أنَّ مِن أسماء الرَّبِّ جلَّ جلالُه: الله والعزيز.

﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: أي: ليضلُّوا بذلك عن سبيلِ طاعةِ اللهِ غيرَهم، كما ضلُّوا بأنفسِهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾: أي: قل لهم يا محمَّد: تمتَّعوا في الدُّنيا ما شِئْتُم ﴿**فإن مصيركم إلى النار**﴾؛ أي: مرجعَكم في عاقبةِ أمرِكُم إلى جهنَّم.

ويجوزُ أنْ يكون: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ دليلًا على قلَّةِ مُكْثِهم في الدُّنيا، فإنَّ المتاع اسمٌ لذلك؛ قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨]، وإنْ أُجْرِيَ على إطلاقِهِ وطولِ زمانِهِ فقد قال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

***

(٣١) ـ ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾.

---

(١) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤١١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٠).

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: أي: قـلْ لهـم: أقيمـوا الصَّـلاة، فيقيمـوا الصَّـلاة، فهـذا الظَّاهـر جُزِمَ بالجـوابِ للأمـرِ المحـذوفِ الَّذي دلَّ عليـه: ﴿ قُل ﴾.

وقيل: هو بنفسِهِ أمرٌ بإضمارِ اللَّامِ فيه؛ أي: ليقيموا الصَّلاة، وجاز ذلك لدلالةِ ظاهرِ الكلامِ عليه، ويجوز مثلُه في الكلام: قلْ له: يضربْ زيدًا.

وهذا أمرٌ للمؤمنين بأن يخالفوا الذين بدَّلوا نعمةَ الله كفرًا؛ أي: قل يا محمَّدُ للذين حقَّقوا عبوديَّتهم لي بالإيمان بي ومخالفةِ الَّذين أشركوا بي غيري: أقيموا لي[1] الصَّلاةَ بأبدانِكُم، وأنفقوا في إقامةِ ديني ومواساة عبيدي أموالَكم.

وقـولـه تعالـى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: فِعْلَ المخلصِيْنَ دونَ المرائِيْنَ الذين ينفقون في العلانيةِ بمرآةٍ للنَّاس لا غيرَ.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾: وهـو يومُ القيامةِ، لا يجزي فيه تبايعٌ بينَ[2] النَّاسِ فيشتريَ نفسَه مِن العذابِ بمالٍ يعطيه، ولا مصافاةٌ فيشفعَ خليلٌ لخليلِه فينجِيه؛ قال تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمة الله عليه: أمرنا بالصَّلاةِ التي فيها المناجاةُ، وبإنفاقِ ما رزقَه الله، وهو إنفاقُ اللِّسان على ذكرِه، والبدنِ على طاعتِه، والوقتِ على شكرِه، والقلبِ على عرفانِه، والرُّوحِ على حُبِّه، والسِّرِّ على مشاهدَتِه، ولا يكلِّفُ اللهُ نفسًا إلَّا وسعَها.

---

(١) «لي» من (ر).

(٢) «بين» من (أ).

إنَّما يطالبُكَ بأنْ تحضرَ البابَ، وتقفَ على البساطِ، فيقولُ العبدُ المسكينُ: لو كانَ لي نفسٌ أطوعُ مِن هذهِ لأتيْتُ بها، ولو كان لي قلبٌ أوفى مِن هذا لأحضرْتُه، وكذلك الرُّوح والسِّرُّ، قال قائلُهم:

يفديْـكَ بالـرُّوحِ صَـبٌّ لو يكـونُ لَهُ أعـزَّ مِـنْ رُوْحِـهِ شَيءٌ فَـداكَ بِـهِ[1]

* * *

(٣٢) ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾: وفي هذهِ الآيةِ تعدادُ النِّعمِ، وتتَّصل بقولِه: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾: هو المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾: هي فواكهُ الأشجارِ، وزروعُ الأرضِ ﴿رِزْقًا لَّكُمْ ﴾؛ أي: قوتًا لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ ﴾: أي: وذلَّلَ لكم السُّفنَ، والفُلْكُ: اسمٌ للواحدِ والجمعِ، ويذكَّر ويؤنَّث.

﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾: أي: بتسخيرِه وتكوينِه، كقولِه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾؛ أي: تكوينُنا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾: جمع نَهَر.

* * *

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٥٢)، والبيت لأبي العتاهية، كما في «محاضرات الأدباء» للأصفهاني (٢/ ٥٨).

(٣٣) ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾: أي: مُتَّصلَيِ السَّير، كأنَّهما يدأَبان ـ أي: يجتهدان ـ في ذلكَ لئلَّا يَخرجُا عن أمرِ اللهِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: دأَبُهما في طاعةِ اللهِ تعالى: أنَّهما سُخِّرا على صورةِ مَن أُمِرَ بشيءٍ فأدأبَ نفسَه في طاعةِ آمرِه(١).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾: يتعاقبان لمصالحِكُم.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: قراءةُ العامَّةِ بغير تنوينٍ على الإضافةِ، وقرأ المنذرُ بن سلام مِن قرَّاء البصرةِ والحسنُ والضَّحَّاكُ: (مِنْ كُلٍّ) بالتَّنوين(٢).

معنى القراءة الأولى: أعطاكم مِن كلِّ شيءٍ سألتُموه، وهو للتَّكثير لا لاستغراقِ الجنس، كما يُقال: اشتريْتُ في السُّوق كلَّ شيءٍ، وقولِهِ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٢).

(٢) وهي قراءة شاذة، ذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن ابن عباس والحسن وجعفر بن محمد وسلام بن منذر، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٦٣) عن ابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد ويعقوب.

وهو جوابُ مَن سأَلَ: إنَّ كلَّ إنسانٍ لم يعطَ كلَّ شيءٍ، ولأنَّه قال: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، وهو للتَّبعيض.

ومعنى قراءة التَّنوين: مِن كلِّ شيءٍ ما سألتموه، ثمَّ (ما) إنْ جُعِلَ بمعنى الذي فهو كالأوَّل، وإنْ جُعِلَ للنَّفي فمعناه: مِن كلِّ شيءٍ لم تسألوه؛ أي: أعطاكم ما سألتُموه وما لم تسألوه، كالشَّمس والقمر واللَّيل والنَّهار وما عُدَّ في هذه الآية، وكذلكَ مِن المصالح ما يَخفَى على العبدِ سؤالُه، واللهُ يعطيهِ مِن غيرِ سؤالٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾: أي: لن[1] تطيقوا شكرَها، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «استقيموا ولن تُحصوا»[2]؛ أي: لن تُطيقوا.

وقيل: أي: لا تستوفوا عدَّها[3]، كما قال: «مَن أحصاها دخلَ الجنَّةَ»[4].

وأقلُّ النَّاسِ نعمةً لو تكلَّفَ عَدَّ ما أنعمَ اللهُ عليه نفعًا ودفعًا لم يمكنْهُ إيفاءُ عدِّهِ، وبلوغُ حدِّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾: ﴿لَظَلُومٌ﴾ لنفسهِ في معصيتِه، ﴿كَفَّارٌ﴾ لربِّه في نعمتِه.

وقيل: ظلومٌ: في الشِّدَّة يضجَر ويجزَع، كفَّارٌ: في النِّعمة يجمَعُ ويمنَعُ.

* * *

---

(١) في (ر) و(ف): «قيل أي لا» بدل «أي لن»

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٧٨)، والدارمي في «سننه» (٦٨١)، وابن ماجه (٢٧٧) وابن حبان في «صحيحه» (١٠٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٧)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «لا يستوعبوها»، وفي (ف): «لاستواء عدها».

(٤) جزء من حديث رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مئة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة».

(٣٥) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: أي: اذكرْ يا محمَّدُ إبراهيمَ إذْ لم يستعجلِ العذابَ لِمَنْ[1] كذَّبَه وآذاه، فكذلكَ فافعلْ بأهلِ عصرِكَ، واتَّبعْ في ذلك أباك، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقدَّم على ذلك وأخَّرَ عنه دعوات، فممَّا قدَّم قولُه تعالى:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾: أي: اشرعْ للنَّاس أنْ يكونَ ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ وهو مكَّة ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: مأمنًا[2]، وقيل: مأمونًا فيه، وقيل: ذا أمنٍ، وهو كقولهم: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ، وكقول الله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾؛ أي: بَعِّدْني[3] وأولادي، وقد جَنَبه مِن حدِّ (دخل)، وجنَّبَهُ تجنيبًا للمبالغة، واجتنبَ وتجنَّب لازمٌ، وحقيقة الكلمة: اجعلني في جانبٍ، كما يُقال: نحِّني؛ أي: اجعلني في ناحيةٍ.

﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: (أن) مع الفعل مصدر؛ أي: عبادةَ الأصنام، وهذا لتعليمِ الأُمَّةِ، ولأنَّ العِصمةَ لا تزيلُ المحنةَ، فيجوز فيه الدَّعوة كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

* * *

(١) في (أ): «العذاب والعقوبة أن».

(٢) في (ر) و(ف): «ضامناً».

(٣) في (ر) و(ف): «تعذني».

(٣٦) - ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: ضَلَّ بهنَّ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، أضافَ الإضلالَ إليهنَّ بطريقِ التَّسبُّبِ؛ أي: إلى الأصنام، كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ [المؤمنون: ١١٠].

وقال القشيريُّ رحمَه الله: كانَ إبراهيمُ عليه السَّلام بينَ شهودِ فضلِ ربِّه، وشهودِ فَقْرِ نفسِهِ، فلِنَظَرِه إلى فضلِ ربِّهِ قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ [الشعراء: ٨٦]، ولِنَظَرِه إلى فَقْرِ نفسِهِ قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

وقال: وقيل: شاهدَ عزَّ اللهِ واستغناءَه فقال[1]: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وشاهدَ فضلَه ورحمتَه ولطفَه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦][2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾: أي: فمَنْ كانَ على ديني في توحيدِكَ فإنَّه ممَّنْ أُمالِيْهِ[3] وأَعُدُّه مِن جُملةِ أصحابي، كما قال في قصَّة طالوت: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ﴿غَفُورٌ﴾: تسترُ عليه ذنبَه، ﴿رَّحِيمٌ﴾: ترحمُه فتتوبُ عليه.

وقيل: أي: تُمْهلُه ولا تعاجِلُه بالعذاب، فهو كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ

---

(١) في (أ): «شاهد عن الله استغناءه فقال». وفي «اللطائف»: (شاهد غيره فقال).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٥٥).

(٣) في (ر) و(ف): «أوى إليه».

ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦]، فالمغفرةُ في هذه الآيةِ على ستر ذنوبِهم وإمهالِهم.

وقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ولم يقل: (عصاكَ)، وإنْ كانَ مَن عصاهُ فقد عصى الله؛ مراعاةً للأدبِ في الخِطابِ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾: أي: بعضَ أولادي، وهو إسماعيلُ مع أمِّه هاجر، وأسكنتُه؛ أي: جعلتُه ساكنًا.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: هو وادي مكَّةَ، وهو الأبطحُ، والوادي: سفحُ الجبلِ.

و﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾؛ أي: لا ماءَ فيه فنزرعَ الأرضَ عليه.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾: وهو الكعبة، والإضافةُ إلى اللهِ تعالى للتَّشريف.

والتَّحريمُ: إثباتُ حرمتِه وحرمةِ ما يَحلُّ مِن غيرِه فيه.

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ في[١] قولِه تعالى: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: هو إخبارٌ عن صدقِ توكُّلِه وصِدْقِ تفويضِه.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ هو بيانُ أنَّه رأى الرِّفق لهم في الجوار، لا في المَبارّ[٢].

---

(١) «في» ليس في (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

ثمَّ قيل: هذا كان بعدَ بنائِهِ البيت.

وقيل: كان قبلَ بنائِه، لكنْ كانَ اللهُ أبانَ له موضعَ البيتِ، فصحَّتْ إشارتُه إليه.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أسكنْتُهم به ليعبُدُوكَ به، ويقيموا الصَّلاةَ لكَ، مخلصِيْن غيرَ مشركِيْن.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَنْزِعُ إليهم[١].

وقال الضَّحَّاكُ: تشتاقُ إليهم[٢].

والهوى لغةً: هو الانحطاطُ بسرعةٍ.

يقول: حَبِّبْ هذا البيتَ إلى عبادِكَ ليأتوه فيحجُّوه.

وقال مجاهدٌ: قال: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولو قال: (أفئدة النَّاس) لازدحمَتْ عليه الرُّوم والتُّرك والهند[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي: التي تكون في بلاد النَّاس، فتُجنَى إليه الثَّمرات مِن النَّواحي، فيُوجَد به ما يوجَدُ بها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: أي: ليشكروا لك.

وقيل: (لعلَّ) هاهنا للتَّرجِّي؛ أي: أرجو أنَّهم إذا استغنَوا بهذه النِّعم فيه سكنوه

---

(١) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (١/ ٢١٤).

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤١٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٠٠) عن قتادة.

(٢) في (ر) و(ف): «تساق». والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير أبي الليث السمرقندي» (٢/ ٢٤٦)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٢٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٥٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٩٨).

واستوطنوه، وأقاموا مناسكَكَ فيه؛ شكرًا لك على نِعَمِكَ، فاستجابَ اللهُ دعاءَه بثمراتِ الطَّائف.

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ: يقول: أسكنْتُهم بهذا الوادي، ولا متعلَّق مِن الأغيارِ لقلوبِهم، ولا مُتناوَل لأفكارِهم وأسرارِهم[1]، فهم مطروحون ببابِك، مقيمون بحضرتِك، جارٍ فيهم حكمُك، إنْ راعيتَهم كفيتَهم وكانوا أعزَّ خلقِكَ، وإنْ أقصيْتَهم ونفيْتَهم كانوا أذلَّ خلقِكَ[2].

* * *

(٣٨) ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾: أي: لا يخفَى عليكَ قولي وإرادتي في إرادةِ الخيرِ بعبادِكَ عمومًا، وبذريَّتي خصوصًا؛ لعلمِي بسَعَةِ رحمتِكَ، وإرادَتِكَ الخيرَ بمَن آمنَ بك.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ومقاتلٌ: ﴿مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ مِن الوجدِ[3] بإسماعيلَ وأمِّه، وغربتِهما وكونِهما بوادٍ غير ذي زرعٍ[4].

---

(١) عبارة «اللطائف»: (أسكنتهم بهذا الوادي حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبهم، ولا تشتغل بشيء أفكارهم وأسرارهم).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٥٧).

(٣) في (ر) و(ف): «الرحيل».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل. وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٩).

وقوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: يجوُز أنْ يكون هذا مِن كلامِ إبراهيمَ، ويكونُ انتقالًا مِن المخاطبة إلى المغايبة، وهو أحدُ أقسامِ البلاغة.

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا كلامًا معترِضًا في كلام إبراهيم، وهو كلام الله تعالى؛ أي: صَدَق إبراهيم فيما قال: لا يخفى على الله مِن شيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماء؛ أي: علمَ اللهُ قصدَه بهذا الدُّعاء، فاستجابَ له في البيت وذريَّتِه.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾: أي: الشُّكرُ للهِ على أنْ وهبَ لي هذَيْن الولدَيْن على كِبَرِ سنِّي وكِبَرِ سِنِّ امرأتي، كما قالت سارة: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: وُلِدَ إسماعيلُ لإبراهيم وهو ابنُ تسعٍ وتسعيْنَ سنةً، ووُلِدَ له إسحاقُ وهو ابنُ مئةٍ واثنتي عشرة سنة[١].

وقال سعيدُ بنُ جُبير: وهو ابنُ سبعَ عشرةَ ومئةِ سنةٍ[٢].

وقال مقاتلٌ: وُلِدَ إسماعيلُ لإبراهيمَ وهو ابنُ أربعٍ وستِّين سنة، ووُلِدَ له إسحاقُ وهو ابنُ سبعينَ سنةً[٣].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٢٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٠٢).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: قد سمعَ دعائي: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وقيل: إنَّه أراد به: اسمعْ[1] دعائِي في حقِّ البيت وفي حقِّ ذرِّيَّتي.

* * *

(٤٠) ـ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: أي: وفِّقْني وأولادي لإدامةِ الصَّلاةِ وإقامَتِها على شرائِطِها في أوقاتِها.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾: أي: عبادتي، قال الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]؛ أي: فاعبدوه.

ويحتمِل: أنَّه عَدَّ دعاءَه لذرِّيَّته وللمؤمنين عملًا صالحًا يُثابُ عليه، فسأَلَ قَبولَه.

* * *

(٤١) ـ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾: قال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: قال الحسن: كانَتْ أمُّه مسلمةً، بدليلِ قولِه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، ولم يصف الأمَّ بالضَّلال.

قال الإمام أبو منصور: ولسنا نعلمُ ذلكَ، وسؤالُ المغفرةِ للأبِ الضَّالِّ وللأمِّ إنْ كانَتْ ضالَّةً، هو سؤالُ ما يُنالُ به المغفرة، وهو الإسلام[2]. وقد شرحناه بأتمَّ مِن هذا في آخر (سورة براءة).

---

(١) في (أ): «يسمع» بدل: «قد سمع دعائي ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقيل إنه أراد به اسمع».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٠٦).

وقيل: أرادَ به آدمَ وحوَّاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: دعاءٌ بالمغفرةِ لجميعِ المؤمنين أيضًا، ويدخلُ فيه هذه الأمَّة، فهو قد دعا لنا، ونحنُ ندعو له بالصَّلاة بأمرِ اللهِ بِهِ إجابةً لدعائِهِ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: أي: حين يجيءُ وقتُ الحسابِ، كما يُقالُ: قامَت الصَّلاة، وقامَت الحربُ.

وقيل: هو عبارةٌ عن العدلِ في الحسابِ، يُقال: أقمْ هذا الحساب؛ أي: اعدلْ فيه.

***

(٤٢) ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: يخاطبُ نبيَّه به[1] تسليةً له وإخبارًا أنَّ إبراهيمَ لم يستعجلْ؛ ليصبر هو كما صبرَ إبراهيمُ، وبيانًا للمشركين أنَّ إبراهيمَ لم يكن راضيًا بفعلِهم بهذا القول، وإنَّ تأخُّرَ العذابِ عن الكفَّار في الدُّنيا لتشديدِهِ عليهم في العُقْبى.

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ: الظُّلم على وجوهٍ:

ظلمٌ على النَّفسِ: بوضعِ المعصيةِ مكانَ الطَّاعة.

وظلمٌ على القلبِ: بتمكُّنِ الخواطرِ الرَّديئة منه، وإخطارِ الغيرِ بالبالِ.

---

(١) «به» ليس في (أ).

وظلمٌ على الرُّوحِ: بمحبَّةِ المخلوقِيْنَ[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: أي: تأخيرُ عذابِهم ليسَ لخفاءِ حالِهم على اللهِ تعالى، بل يؤخِّرُهم ليومِ القيامةِ الذي ترتفعُ فيه أبصارُهم ارتفاعًا لنزولِ[٢] ما توعِّدوا به، ولانفتاحِ أبوابِ السَّماءِ ونزولِ الملائكةِ.

***

(٤٣) ـ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾: أي: مسرِعِيْنَ على خوفٍ لِمَا أنَّهم[٣] مساقون إلى النَّار.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أي: رافعِيْها حتَّى لا يبصروا مواضعَ أقدامِهم.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: أي: لا تَغتمِضُ عيونُهم.

ووحَّدَ الطَّرْفَ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ؛ طَرَفَ[٤] ببصرِهِ يطرُفُ طَرْفًا.

والجمعُ بينَ الإهطاعِ والإقناعِ على معنى: أنَّهم يكونونَ مُسْرِعِيْنَ إلى الدَّاعي إذا دعاهُم، وإلى أنْ يدعوهم يكونونَ مُقْنِعي رؤوسِهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: قيل: هي خاليةٌ لا تعي شيئًا ولا تعقلُ مِن الخَوف.

وقيل: جُوف لا عقولَ لها.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٥٩).

(٢) في (أ): «ارتقاء بالنزول».

(٣) في (ف): «لأنهم» بدل: «لما أنهم».

(٤) في (أ): «طرفه».

وقيل: نُزِعَتْ أفئدتُهم مِنَ أجوافِهم(١)، وارتفعَتْ إلى حلوقِهم. قالَه مقاتلٌ ومجاهدٌ والضَّحاك(٢).

وقال الحسنُ: أي: خاليةٌ كهواءِ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ(٣).

وقيل: أفئدتُهم خاليةٌ عن كلِّ سرورٍ وكلِّ خيرٍ لِمَا يعانونَهُ مِن الأهوالِ، ويتوقَّعونه مِن الأحوالِ، كقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠].

***

(٤٤) ـ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾: المُعَدُّ للظَّالمين، فيسألونَ الرَّجعة ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: ردَّنا إلى الدُّنيا، وأمهلْنا مدَّةَ عمرِنا الَّذي كانَ لنا في الدُّنيا.

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾: جوابُ قولِهم: ﴿أَخِّرْنَآ﴾، وجُزِمَ لذلك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾؛ أي: رُسُلَكَ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾: أضمرَ هاهنا: فيُقالُ لهم ـ وجاز ذلكَ لدلالةِ الحالِ عليه ـ: أليس قد كنتم في الدُّنيا تحلفون

---

(١) في (أ): «أفواههم».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤١٠)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٤٧) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧١٢ ـ ٧١٣) عن أبي الضحى وقتادة.

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٤٧) دون نسبة.

أنَّه ما لكم مِن انتقالٍ عنها إلى دارٍ أخرى، إنَّما هو أنْ تموتوا فتصيروا ترابًا، لا بعثَ لكم، ولا حِسابَ عليكم.

وقيل: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾: ابتداءُ خطابٍ لهم؛ أي: ما لَكم مِنْ زوالٍ عن هذهِ الحالةِ، ورجوعٍ إلى الدُّنيا.

وقد تمَّ الكلامُ الأوَّل بقولِه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾، وهو ما ذَكَرَ مِن قولِهم: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: قيل: هو متَّصلٌ بهذا الخطابِ في القيامةِ؛ أي: وسكنْتُم بلادَ مَن كانَ قبلَكُم مِن الأممِ المكذِّبةِ لأنبيائِها.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾: أي: صحَّ عندَكُم بظهورِ الآثارِ وتواتُرِ الأخبارِ كيفَ أهلكناهُم، فلم تعتبِروا بهم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: وصفْنَا لكم العِبرَ فلم تعتبِروا بهم.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾: أي: احتالوا حِيْلَتَهُم.

وقيل: ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ خطابُ مشركِي مكَّةَ، وانفصل عن الأوَّل.

وقولـه تعالـى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾؛ أي: وقـد مكـرَ بِـكَ يـا محمَّـد أهـلُ مكَّـة ﴿مَكْرَهُمْ﴾؛ أي: مكـرَ أولئِـكَ الأمـم قبلَهـم بأنبيائِهـم.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾: أي: علمُ ذلكَ عندَ اللهِ، وهو محفوظٌ عليهم.

وقيل: وعندَ اللهِ جزاءُ مكرِهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾: قرأ الكسائيُّ بفتحِ اللَّام الأُولى، ورفعِ اللَّام الثَّانية[1]، وله وجهان:

وقدْ كانَ مكرُهُم لَتزولُ منهُ الجبالُ.

وما كانَ مكرُهُم إلَّا تزولُ منه الجبالُ.

وقـد مـرَّ شـرحُه فـي قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، على الطَّرِيقَيْنِ[2]، وهو تعظيمٌ لمكرِهم؛ أي: كادَ مِن قوتِه[3] وعظمتِه يكون كذلك، وهـو كـقـولِه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

ولكنَّه لم ينفذ ولم يضرَّ بالإسلامِ وأهلِه بدفعِ اللهِ تعالى، فيكونُ معنى الكلام: وإنْ كانَ مكرُهُم يكونُ بحيثُ تزولُ منه الجبالُ، كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]؛ أي: كادَتْ، وهكذا عامَّة ما يُطلَقُ مِنَ الألفاظِ في تكثيرِ

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٥).

(٢) في (ر) و(ف): «الطرفين».

(٣) في (ر) و(ف): «قدرته».

الشَّيءِ وتفخيمِه ممَّا يحيطُ[١] العلمُ بأنَّ مثلَه لا يكونُ، وإنَّما هو على معنى: كادَ يكونُ لو جازَ كونُه.

وقد قرأ عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ وأبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنهم: (وإنْ كاد مكرُهم لِتزولَ منه الجبال) بالدَّال[٢].

وقرأ عامَّةُ القرَّاءِ: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسْرِ اللَّام الأولى ونصبِ الثَّانية[٣]، وهو للنَّفي؛ أي: وما كان مكرُهم مكرًا عظيمًا ينفذُ وتزولُ منه الجبال، وكانوا إذا عظَّموا الشَّيء وصفُوه بمثلِه، قال الشَّاعر:

لَمَّـا أتـى خبـرُ الزُّبيـرِ تضعْضَعَـتْ سُـوْرُ المدينـةِ والجِبـالُ الخُشَّـعُ[٤]

وقيل: الجبالُ مَثَلُ الإسلامِ وآياتِ القرآنِ في وَثاقِها وثبوتِها، يقول: لم يؤثِّرْ مكرُهم في توهينِ شيءٍ مِن ذلكَ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ومقاتلٌ في نزولها: إنَّ نمرود بنَ كنعان كانَ أوَّلَ مَن ملَكَ الأرضَ، فحملته نخوته على أنْ قال: إنْ كان ما يقولُه إبراهيمُ حقًّا أنَّ في السَّماوات إلهًا، فلا أستقرُّ حتَّى أعلمَ صِدْقَ ما يقولُه، فاتَّخذَ تابوتًا، وعمدَ إلى أربعةٍ مِنَ النُّسورِ، فعلَّقَ على كلِّ جانبٍ مِنَ التَّابوتِ بنسرٍ منها، وأقعدَ في التَّابوتِ رجلَيْنِ، وجعلَ له بابَيْن مِن أعلى ومِن أسفل، وجعلَ على جوانبِ التَّابوتِ مِن فوقِ

---

(١) في (ر) و(ف): «بما نحيط»، وفي (أ): «مما يحيطه».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٥).
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٢٠ ـ ٧٢٣) عن عمر وأنس وابن مسعود.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٥).

(٤) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (٢/ ٩١٣).

لحمًا شديدَ الحمرة حِيال النُّسور، ثمَّ خلَّى عنِ النُّسور، فارتفعْنَ طمعًا في اللَّحم، حتَّى أبعدَتْ في الهواء، فقالَ أحدُ الرَّجلَيْن للآخر: افتحِ البابَ الأعلى، فانظرْ هل ازددْنا مِن السَّماءِ قُرْبًا، ففتحَ ونظرَ، وقال: إنَّها كهيئتِها، ثمَّ قالَ افتحِ البابَ الأسفلَ، ففتح فقالَ: انظرْ إلى الأرضِ، كيفَ تراها؟ قال: أراها كاللُّجَّةِ البيضاء، ثمَّ أغلقَ البابَ، وارتفعَتِ النُّسورُ حتَّى حالَتِ الرِّيحُ بينَها وبينَ الطَّيران، فقال لصاحبِه: افتحِ البابَ الأعلى وانظر، ففتحَ وقال: إنَّ السَّماءَ كهيئتِها، ثمَّ فتحَ البابَ الأسفلَ وقالَ: إنَّ الأرضَ سوداءُ مظلمةٌ، فقالَ لصاحبِهِ نكِّسِ اللَّحمَ فنكَّسَهُ على قوائم التَّابوت متدلِّيًا، فتصوَّبَتِ النُّسورُ طمعًا في اللَّحم حتَّى قربَتْ مِنَ الجبالِ، فسمعَتِ الجبالُ[1] هفيفَ التَّابوتِ والنُّسور، فظنَّتْ أنْ قدْ حدثَ بها حدثٌ مِنَ السَّماءِ، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[2].

***

(١) «فسمعت الجبال» ليس في (أ).

(٢) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٢٥)، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤١٢)، وقد رواه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧١٨) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورواه أيضاً عن سعيد ابن جبير ومجاهد، ورواه الطبري أيضاً (١٤/ ٢٠٣) عن السدي. وفي خبر مجاهد أنه بختنصر، وكيف كان فقد رد العلماء هذه القصة، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٦): وذلك عندي لا يصح عن علي رضي الله، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه في مثل هذا.

وقال الخازن في «تفسيره» (٣/ ٤٥): واستبعد العلماء هذه الحكاية وقالوا: إن الخطر فيه عظيم، ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم، وليس فيه خير صحيح يعتمد عليه، ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة.

(٤٧) ـ ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾: يتَّصل بقولِه: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾.

وهو وعيد للكافرين، ووعدٌ للرُّسل.

يقول: فلا تظنَنَّ يا محمَّد أنَّ اللهَ مُخْلِفَ رسلِهِ ما وعدَهُم مِنَ النَّصرِ والعُلُوِّ في الدُّنيا، والانتقامِ لهم مِن أعدائِهم في العُقَبى[1].

والإخلافُ: مصدرٌ يطلُبُ فعلُه اسمَيْن، والمتكلِّم في مثله يُضِيفهُ إلى أيِّهما أحبَّ وينصبُ الآخرَ، يقولُ الرَّجلُ: أنا أعطي المالَ زيدًا، ومُعطٍ زيدًا المالَ، لأنَّه يقول: أعطيْتُ زيدًا المالَ، وأعطيْتُ المالَ زيدًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: أي: منيعٌ لا يُغالَبُ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ مِن أعدائِه لأوليائِه.

***

(٤٨) ـ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ ﴾: أي: ينتقمُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ.

وقيل: لا يخلِفُ وعدَه رسلَه يومَ تُبدَّلُ الأرضُ.

وقيل: احذروا يومَ تُبدَّلُ الأرضُ.

﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قال الحسنُ: هي هذه الأرضُ وهذه السَّماواتُ[2].

---

(١) في (أ) و(ف): «في الدنيا والعقبى».

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤١٤)، والماوردي في «تفسيره» (٣/ ١٤٣).

وتبديلُ الأرضِ: تسويةُ جبالِها وأنهارها وآكامِها وأشجارِها، وتُمَدُّ مَدَّ الأديم.

وتبديلُ السَّماءِ: تكويرُ شمسِها، وتناثر نجومِها.

قال[١]: وهذا مِن كلام العرب لشيء تراهُ تغيَّرَ عن حالِهِ: لقدْ بُدِّلَتْ بَعْدِي، وهو هو[٢] بعينِهِ.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: هي تلك الأرضُ، وإنَّما تُبدَّلُ أوصافُها، ثمَّ أنشدَ:

فَمَا النَّاسُ بالنَّاسِ الَّذيْنَ عَهِدْتُهُمْ ولا الدَّارُ بالدَّارِ الَّتي كنْتُ أعرِفُ[٣]

وقال عليٌّ رضي الله عنه: تُجْعَلُ الأرضُ مِن فضَّة، والسَّماواتُ مِن ذهبٍ[٤]. وكذا قال الضَّحَّاك.

وقال عكرمة ومحمَّد بن كعب: هي كقرصة النَّقي[٥].

---

(١) كذا في النسخ، ولم يذكر القائل، ولا وقفنا عليه.

(٢) «هو» ليس في (أ).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢١٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٣٨). وانظر البيت أيضًا في: «ديوان المعاني» (ص: ٧٨)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ٩٦).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤).

(٥) روى مسلم في «صحيحه» (٢٧٩٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد». وقرصة النقي: الحُوَّارَى التي نُقِّيَتْ من القِشْرِ والنُّخَالة.

وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٥) عن عكرمة: عن محمد بن كعب القرظي، أو عن محمد ابن قيس: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم.

وقيل: أرضٌ بيضاءُ نقيَّةٌ، لم يُسفَكْ عليها دمٌ، ولم يُعمَلْ عليها بالمعاصي(١).

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: يحتملُ هذا وجهَيْن: تبديلُ أهلِها، وتبديلُ عينِها.

وإضمارُ الأهل جائزٌ كما في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وتبديلُ أهلِها أنْ يكونوا كلُّهم مستسلمينَ خاضعينَ في ذلك اليوم، ولم يكونوا كذلك.

والثَّاني: أنَّ الأولياءَ يكونون في النَّعيم المقيم، والأعداءَ في العذاب الأليم.

وتبديلُ عينِها بما قلْنَا مِنَ الأرضِ البيضاءِ.

والثَّاني: تغييرُ أوصافِها، وهي على الأحوال، ولأنَّ أرضَ الجنَّةِ مسكٌ وزعفران، وأرضَ جهنَّمَ نارٌ وجمر(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾: أي: خرجُوا مِن قبورِهم لمحاسبةِ اللهِ الواحدِ الذي لا إلهَ غيرُه، القهَّارِ الذي لا يُعترضُ عليه فيما يريدُه.

❊ ❊ ❊

(٤٩) ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي: هؤلاء الظالمين المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾: قُرِنَتْ أيدِيْهم بالغُلِّ إلى أعناقِهم.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: قُرِنوا بالشَّياطين في الأغلال والسَّلاسل(٣).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢٤) عن عمرو بن ميمون، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٠ ـ ٧٣١) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن عمرو بن ميمون.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤١٥). والكلام فيه بنحوه.

(٣) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ٢١٥). وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٤١) عنه قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ يقول: في وثاق.

قال عطاءٌ في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧]: قال: قُرِنَتْ نفوسُ المؤمنين بالحورِ العينِ، ونفوسُ الكافرين بالشَّياطين[١].

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾: أي: في القيود، والواحدُ صَفَدٌ، وقيل: هو الغُلُّ، وقيل: هو السِّلسلة.

* * *

(٥٠) ـ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: أي: قُمُصُهم، جمع سِرْبال ﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ هو ما تُهْنأُ به الإبلُ الجَرْبى؛ أي: يُطْلَوْنَ به، فيصيرُ كاللِّباسِ لهم.

وقرأ عكرمةُ: (مِن قِطرٍ آنٍ) بكسر القاف وتنوين الرَّاء ومدِّ الألف[٢]، وهما كلمتان؛ أي: مِن نحاسٍ أو صُفْرٍ مذابٍ، و(آنٍ)؛ أي: انتهى حرُّه، كما قال: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تُغَطِّيها، لا قطرانَ عليها[٣]، فتلتهبُ النَّارُ في كلِّ أبدانِهم، والقَطرانُ أقبلُ الأشياءِ للنَّارِ.

* * *

(٥١) ـ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾: أي: يفعلُ اللهُ ذلك بهم لجزائِهم على فعلِهم، لا ظُلْمًا عليهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢٩).

(٢) عزاها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤) إلى ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم وعكرمة. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٤٣ ـ ٧٤٥) عن عكرمة.

(٣) «لا قطران عليها» ليس في (ف).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: لا يشغلُه فيه تأمُّلٌ وتتبُّع.

* * *

(٥٢) ـ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾: أي: هذا القرآنُ كفاية لِلنَّاسِ في كلِّ ما يحتاجونَ إليه، في أمرِ دينِهم ودنياهم ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾: جعلناه بلاغًا ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: وليتَّعظَ به أولو العقولِ الخالصة.

وقال القشيريُّ رحمَه اللهُ: الحُجَجُ ظاهرة، والإشاراتُ لائحة، والدَّاعي مسمِعٌ، والمهلَةُ متَّسِعة، والرَّسولُ مبلِّغٌ، والتَّمكُّنُ مِن القيامِ بحقِّ التَّكليف مساعِدٌ، ولكنَّ القِسْمةَ سابقةٌ، والتَّوفيقَ عزيزٌ، والرَّبُّ سبحانَه وتعالى فعَّالٌ لِمَا يريدُ، فمَنِ اعتبرَ نجا، ومَنْ غفلَ تردَّى، ولله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بَعدُ[1].

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين

* * *

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٦١).

سُورَةُ الحِجرِ

سُورَةُ الحِجْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي جعلَ في السَّماء بروجًا وزيَّنَها للنَّاظِرِيْنَ، الرحمنِ الذي جعلَ الجنَّة للمتَّقين يدخلونها بسلام آمنين، الرحيمِ الذي أمرَ رسولَه بخفضِ جناحِه للمؤمنين.

روى أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «مَن قرأَ سورةَ الحِجْرِ كانَ له مِنَ الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعددِ المهاجرينَ والأنصارِ، والمستهزِئِينَ بمحمَّدٍ ﷺ»(١).

وهذه السُّورة مكيَّة.

وهي تسعٌ وتسعون آيةً، وستُّ مئةٍ وأربعٌ وخمسون كلمةً، وألفان وثماني مئة وستَّة عشر حرفًا.

وانتظامُ أوَّلِ هذه السُّورةِ بآخر (سورة إبراهيم): أنَّهما جميعًا في صفةِ القرآنِ.

وانتظامُ السُّورتَيْنِ جملةً: أنَّ (سورة إبراهيم) في بيانِ وحدانيَّة اللهِ تعالى، ودعوةِ

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وقال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٤٥): رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي عن أبيٍّ، وهو موضوع. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

الأنبياء إليها، وتكذيبِ الكفَّار إيَّاهم، وتوكُّلِ الأنبياء على الله تعالى، ونجاتِهم، وهلاكِ مكذِّبِيهم، وبيانِ مَثَلِ أعمالِهم، وبيانِ مَثَلِ توحيدِ المؤمنين، ومَثَلِ كُفْرِ الكافرين، ثمَّ تقسيمِ مَن كفرَ فقيل لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، ومَن آمنَ قيلَ لهم: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وختمَ السُّورةَ بأنَّ القرآنَ بلاغٌ وتبصيرٌ، وإنذارٌ وتذكيرٌ.

وافتتاحُ هذه السُّورة بأنَّ مَن لم يتذكَّرْ ففي الآخرة يتحسَّر، ويودُّ أنْ لو كانَ آمنَ وما كفر، ثمَّ بيانِ تكذيبِ الأوَّلِيْن واستهزائِهم، ثمَّ بيانِ خَلْقِ آدمَ، وانقسامِ أولادِه إلى مَن يَتَّبعُ الشَّياطين ومَن يتَّبعِ الرَّحمن، وبيانِ جزاءِ هؤلاءِ وجزاءِ هؤلاءِ، وتحقيقِ هذَيْنِ المعنَيَيْنِ إلى ختم السُّورة.

* * *

(١) ـ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ مرَّتْ الأقاويلُ فيه.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾: أي: تلك الآياتُ المنزَلة قَبْلَ هذه السُّورة إنْ جُعِلَ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةً إلى الغائبِ، وهذه الآياتُ الَّتي في هذه السُّورة، إنْ كانَ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةً إلى الحاضرِ.

فاللَّفظُ يصلحُ لهما آيات القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ﴾ هما واحدٌ، وسُمِّيَ باسمَيْنِ لاختلافِ المعنيَيْنِ، فهو كتابٌ لأنَّه يُكْتَبُ ليكونَ مُدوَّنًا مخلَّدًا، وقرآنٌ لأنَّه جُمِعَ فيه ما بنا إليه حاجةٌ اليوم وغدًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ قال القشيريُّ رحمَه الله: يبيِّنُ للمؤمنينَ ما يسكِّنُ

قلوبَهم، وللمريدِيْن ما يقوِّي رجاءَهم، وللمحبِّين ما يَهِيجُ اشتياقَهم، وللمشتاقين ما يثيرُ لواعِجَ أسرارِهم[١].

* * *

(٢) - ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾: أي: كثيرًا ما يتمنَّى هؤلاء الكُفَّار أنْ لو كانوا مسلمين منقادين لِحُكْمِ هذا الكتاب.

وكلمة (رُب) موضوعةٌ لتكثيرِ ما يُخْبَرُ عنه، وهي تدخلُ اسمَ النَّكرة، وإذا ولِيَتِ الفعلَ[٢] دخلَها (ما) ليصيرَ مصدرًا، فتصيرُ داخلةً في الاسم معنًى.

وتقدير هذا: رُبَّ ودادِ[٣] الَّذين كفروا.

وفي ﴿رُّبَمَا﴾ قراءتان؛ قرأ عاصم ونافع بالتَّخفيف، والباقون بالتَّشديد[٤]، وهما لغتان، قال الشَّاعر:

أَزُهَيْرُ إنْ يَشِبِ القَذالُ فإنَّني ... رُبَ هَيْضَلٍ مَرِسٍ لَفَفْتُ بِهَيْضَلِ[٥]

وقيل: هذا التَّمنِّي يكونُ عندَ الموتِ، عندَ نزولِ ملائكةِ العذاب.

وقيل: يكون عندَ البعث.

وقيل: يكون عندَ الحساب.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٦٢).

(٢) قوله: «وليت الفعل» كذا في النسخ، والمراد: وليها الفعل. ولو كان: أوليت، لزال الإشكال.

(٣) في (أ): «واد».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٥).

(٥) البيت لأبي كبير الهذلي، واسمه عامر بن حلس. انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣/ ١٠٧٠).

وقيل: يكون عندَ دخولِ النَّار. وقيل: يكون فيها.

وقيل: يكون في كلِّ الأحوالِ الَّتي تُخْطِرُ بالبالِ ظهورَ بطلانِ ما كانوا فيه مِن خلافِ الإسلام.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: يعذب الله قومًا ممن كان يعبده وقومًا ممن كان يعبد غيره فيجمعهم في النار، فيعيِّر الكفار المؤمنين فيقولون لهم: ما أغنى عنكم توحيدُكم وأنتم معنا في النار؟ فيأمر الله بإخراجهم، فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين(١).

وقال مقاتلُ بن حيَّان: يُجْمَعُ طائفةٌ مِن أهلِ التَّوحيدِ وطائفةٌ مِن الكفَّارِ في بعضِ دَرَكَاتِ النَّارِ، فيقول الكفَّارُ للمؤمنين: أمَّا نحنُ فمعلومٌ كُفْرُنا وشِرْكُنا وتَكْذِيْبُنا، ولذلِكَ وقَعْنا في النَّارِ، وأمَّا أنتم فكنْتُم مؤمنينَ مصدِّقين، فما أحلَّكُمُ النَّارَ؟ قال: فيَغارُ اللهُ تعالى للمؤمنين، فيقول: وعِزَّتي لأنجينَّكُم منها، ثمَّ يأمرُ الشُّفعاءَ حتَّى يشفعوا لهم(٢).

وقال القشيريُّ: إذا عرفوا عمَّنْ بقُوا علموا كيف شقُوا، وأيَّ كأسٍ سُقُوا.

ويقال: لو علموا عمَّن بقُوا لرأَوا أنفسَهم أهلًا لِمَا مِن العقوبةِ لقُوا.

ويقال: إذا صارَتِ المعارفُ ضرورةً احترقَتْ نفوسُ أقوامٍ عقوبةً، وتقطَّعَتْ قلوبُ آخرِيْنَ حسرةً(٣).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢٨) عن إبراهيم، و(١٤٢٩) عن مجاهد. وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٨ ـ ١٢) عن أبي موسى وابن عباس وأنس رضي الله عنهم وإبراهيم والضحاك.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٦٣).

وقال الفرَّاءُ والكِسائيُّ: (رب) أصلُهُ[١] لِمَا مَضَى: رُبَّ مالٍ أنفقْتَه، وقد تُستَعْمَلُ في المستقبل على معنى التَّقريبِ له، كما أنَّ (إذ) موضوعةٌ للماضي، ثمَّ قد تُستعمَلُ في المنتظَرِ[٢] تقريبًا له، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الآية [السجدة: ١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وذلكَ لأنَّ ما أَوعدَ اللهُ تعالى به فهو قريبٌ آتٍ لا محالةَ، فجُعِلَ في معنَى ما وُجِدَ[٣].

***

(٣) ـ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: يتمتَّعوا: يتلذَّذوا، ويلهِهِمُ: يَشغَلْهم، وقد لَهِيَ يَلْهَى مِن حدِّ (علم)؛ أي: ذهلَ عن الشَّيءِ وشُغِلَ عنه، وألهاهُ غيرُه.

وهذا تهديدٌ للكفَّارِ، وتسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام؛ يقول: دعْهُم يا محمَّد يتقلَّبوا في الدُّنيا ويتمتَّعوا بها، ويشغلهم طولُ الأملِ عن التَّفكُّرِ في القرآن.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بهم عذابُ الآخرة والسَّيفُ[٤] في الدُّنيا أنَّ ما كانوا فيه مِنَ الاشتغال في الدُّنيا بالاستمتاعِ بها لم يكنْ شيئًا، وأنَّه لا ينفعُ عندَ اللهِ إلَّا الإيمانُ والعملُ الصَّالح.

وقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُواْ﴾ جُزِمَ لأنَّه جوابُ الأمرِ، وكذا ما بعدَه.

---

(١) في (ف): «إن رب صلة» بدل: «رب أصله».

(٢) في (أ): «التنظر» وفي (ف): «الماضي».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٢)، وذكره الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧) عنهما.

(٤) في (ر): «والتعب».

وفي قولِه: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] لم يُجزَمْ لأنَّه حالٌ، لا خبرٌ، وتقول العربُ: (دَعْ زيدًا يَنَمْ)، و: (دَعْ زيدًا ينامُ)، فإذا كانَ غيرَ نائمٍ تقولُ: (دَعْ زيدًا يَنَمْ) جوابًا للأمر، وإذا كان نائمًا تقولُ: (دَعْ زيدًا ينامُ)؛ أي: قَرِّرْهُ على حالةِ النَّوم.

* * *

(٤) - ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾: يتَّصِلُ بما قبلَه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: العذابُ نازلٌ بهم، لكنْ في وقتِه الَّذي جعلناه أجَلًا له، وما أهلكْنَا أهلَ قريةٍ ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ أي: أجلٌ مكتوبٌ[١] معلومٌ، أخَّرناها إلى أجلِها إذا كان في عِلْمِنا إيمانُ مَن يؤمنُ منهم، أو حدوثُ[٢] أولادٍ يخرجون مِن أصلابِهم يؤمنون، فإذا بلغَ الكتابُ أجلَه وجبَتْ كلمةُ العذابِ على الكافرين، ولم يتأخَّرِ العذابُ عنهم.

* * *

(٥) - ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: أي: لا تتقدَّمُ أمَّةٌ، و(مِنْ) مؤكِّدةٌ.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: أي: لا يتأخَّرون عن وقتِها.

ووحَّد (تسبق) بالتَّاء لظاهرِ كلمةِ (أمَّة)، وجمع قوله: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ بالواو والنُّون للمعنى.

---

(١) «مكتوب» من (ف).

(٢) في (ف): «يوجدون» بدل من «أو حدوث».

وقال القشيريُّ: الآجالُ معلومة، والأحوالُ مقسومة، والمشيئةُ في الكائنات ماضية، ولا يَخفى على الله خافية[1].

* * *

(٦) ـ ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾: أي: قال هؤلاء المشركون: يأيُّها الَّذي نُزِّلَ عليه القرآنُ على زعمِهِ، قالوه على وجهِ الاستهزاء به.

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾: يُخَيِّلُ إليكَ الشَّيطانُ فتظنُّه مَلِكًا.

* * *

(٧) ـ ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾: أي: هَلَّا تأتينا بالملائكة رُسُلًا مِنَ اللهِ يخبرونَنا بصدقِ رسالتِكَ، ونزولِ الذِّكْرِ عليك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ في الدَّعوى.

وقيل: تزعمُ أنَّ الملائكةَ يأتونَكَ بالوحيِ، فهَلَّا أظهرْتَ لنا إذْ أتَوْكَ لننْظُرَ إليهم، فنعرفَ صِدْقَكَ.

و(لوما) و(لولا) واحدٌ قال ابنُ مقبل:

لوما[2] الحياءُ ولوما الدِّينُ عِبْتُكُما ... ببعضِ ما فِيْكُما إذْ عِبْتُما عَوَرِي[3]

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٦٣).

(٢) في (ر) و(ف): «لولا».

(٣) البيت في «ديوان» تميم بن أبيٍّ بن مقبل (ص: ٧٦). و«مجاز القرآن» (١/ ٣٤٦)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ١٥)، و«المقصور والممدود» للقالي (ص: ٣٢٥) و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٣١)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٤٥)، ورواية «الديوان» و«المقصور والممدود»: «لولا» بدل «لوما» =

أي: (لولا) و(لوما) بمعنى: هلَّا، قال تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام: ٨].

* * *

(٨) ـ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾: قرأ أبو عَمرو وأهلُ المدينة: ﴿ما تَنَزَّلُ﴾ بنصب التَّاء ورفع اللَّام، بمعنى: تتنزَّل، وحُذِفَتْ إحدى التَّاءين تخفيفًا.

وقرأ عاصمٌ وأهل الكوفة: ﴿نُنَزِّلُ﴾ برفع النُّون ورفع اللَّام إخبارًا مِنَ اللهِ تعالى عن نفسِهِ بخطابِ الملوكِ جمعًا، و﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ نصبًا لأنَّه مفعولٌ، وفي القراءة الأولى رفع لأنَّه فاعل(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: العذابِ الذي حَقَّ على الجُناةِ.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾: أي: إذا جاءَهم العذابُ لم يُمْهَلُوا.

وقيل: أي: لا تنزِلُ الملائكةُ إلى الأرضِ بشهواتِ العبادِ وسؤالِ الاقتراحِ، إنَّما تنزلُ بالحقِّ؛ أي: وحي إلى الأنبياء، أو لقبض الأرواح، أو لأمرٍ مِن أمرِنا.

وقيل: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالموتِ الَّذي هو كائنٌ حقٌّ؛ لأنَّهم لو رأوا الملائكة

= في الموضعين. وجاء صدره في بعض المصادر:

لـولا الحيـاء وباقـي الديـن عبتكمـا

انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٤٤٧)، و«تهذيب اللغة» (١/ ٣١٠)، و«التكملة والصلة» للصغاني (٤/ ٥٨).

(١) وقرأ ابن عامر وابن كثير مثل قراءة أبي عمرو وأهل المدينة، ورواية أبي بكر عن عاصم: ﴿تُنَزَّلُ﴾ بالتَّاء مضمومة وفتح النون والزاي ﴿الملائكةُ﴾ بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠١).

لَمَاتوا لِمَا ليس[١] في وُسْعِهم رؤيةُ الملائكة، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، وعلى هذا قولُه: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: ٨].

وقيل: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالحُججِ على الرُّسل، وهؤلاء ليسوا برسلٍ، ولا أهلٍ لذلك.

وقيل: أي: لا تنزلُ الملائكةُ إلَّا بالوحي إلى الأنبياء، أو تعذيب الكفَّار، وهؤلاء ليسوا كذلك، فليس وراءَه إلَّا النُّزول للعذاب، وذلك إذا حقَّ القول به، وليس بعدَه نَظِرةٌ[٢].

* * *

(٩) ـ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾: أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ نتوَلَّى[٣] حفظَه، فلم يُغَيَّرْ ولم يبدَّلْ[٤]، ولا يأتيه الباطلُ مِن بينِ يدَيْه ولا مِن خلفِه، واستُحْفِظَ أهلُ الكتابِ التَّوراةَ والإنجيل فحرَّفوا وبدَّلوا.

وقيل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ بإعجازِ نظمِه ومعانيه مِن أنْ يعارِضَه معارِضٌ بمثلِه.

وقيل: نزَّلْنا الذِّكْرَ على محمَّد، وإنَّا لمحمَّدٍ لحافظون مِن التَّقوُّلِ علينا، وممَّا وصفتُموه به مِن الجنون.

وقيل: حافظونَ مِن أنْ يُكادَ وينفذَ فيه لمحتالٍ[٥] مرادُه.

---

(١) في (ر): «لو رأوا الملائكة لما كان» وفي (ف): «لو رأوا الملائكة لما».

(٢) في (أ): «نظيره».

(٣) في النسخ: «نولى»، والصواب المثبت.

(٤) في (ف): «فلم يتغير ولم يتبدل».

(٥) في (ر) و(ف): «المحال».

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾: وهنا مُضمَرٌ؛ أي: ولقد أرسلنا مِن قبلك رسلًا مِن قرنِ الأوَّلين[1].

والشِّيعةُ: الفِرقة[2] المتشايعة، وهي الَّتي يعينُ بعضُها بعضًا[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: كما يستهزئُ بكَ هؤلاء.

* * *

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾: أي: نُدْخِلُ الاستهزاءَ والتَّكذيبَ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: أي: بالرَّسول، أو: الكتاب، وسَلَكَ لازمٌ ومتعدٍّ، ونظيره: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال الإمام أبو منصورٍ: أي: مثلَ الذي سلكْنا في قلوبِ المؤمنين مِن قَبولِ الآياتِ والحُجَج والتَّصديق بها لِمَا علمْنَا أنَّهم يختارون ذلك، كذلك نسلُكُ في قلوبِ المجرمينَ مِن تكذيبِ الآياتِ والحُجَج وردِّها لِمَا علمْنَا منهم ذلك[4].

---

(١) «وهنا مضمر أي: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً من قرن الأولين» ليس في (أ).

(٢) في (ر) و(ف): «القرية».

(٣) في (ر): «يعين بعضها بعضًا ويشيعه»، في (ف): «تعين بعضها بعضًا وتشعه».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٢٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: مضَتْ طريقةُ الأوَّلين بالتَّكذيبِ والمعاندةِ والاستهزاءِ.

ويحتمِل: وقد خَلَتْ سُنَّتُنا في الأوَّلِيْنَ؛ بتخليصِ الأنبياءِ والمؤمنين وإهلاكِ المكذِّبِيْن والمعانِدين.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: لو أجبْتُ المشركين[١] إلى مسألَتِهم لأصرُّوا على كفْرِهم ولم يؤمنوا ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾: أي: فظلَّ الملائكةُ ينزلون ويعرجون؛ أي: ويصعَدون، ذكرَ[٢] العروجَ ولا يكون ذلك بدون النُّزول، فكان ذكرُه ذكرَه[٣]، وكانَ حذفُه اختصارًا، واقتضى ظاهرُه إضمارًا.

وقيل: معناه: ولو فتحنا عليهم بابًا من السَّماء فعرجوا فيه بأنفسِهم لم يؤمنوا، بل تعلَّقوا بضَرْبٍ آخرَ[٤] مِن الباطلِ.

* * *

(١٥) ـ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

---

(١) في (أ): «أجيب المشركون»، وفي (ف): «أجبت الكفار».

(٢) «ذكر» من (أ).

(٣) في (ف): «تكرارا»، وغير واضحة في (ر).

(٤) في (ف): «بضروب أُخَر».

قوله تعالى: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾؛ أي: سُحِّرَتْ ومُنِعَتْ عن النَّظر وسُدَّتْ. والسِّكْرُ: السَّدُّ، والتَّسكيرُ للتَّكثير والتَّكرير، وقرأ ابنُ كثيرٍ بالتَّخفيف على الأصل[1].

قال ابنُ عبَّاس ومقاتلٌ: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾؛ أي: سُدَّتْ[2].

وقال الحسنُ: سُحِرَتْ[3].

وقال قتادة: أُخِذَتْ[4].

وقال الكلبيُّ: أُغْشِيَتْ[5].

وقال أبو عَمرو بن العلاء: غُطِّيَتْ[6].

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾: أي: سحرَنا محمَّدٌ، وخَيَّلَ إلينا أنَّ هؤلاء ملائكة، وسَحَرَنا بفتحِ بابِ السَّماء، يَصِفُ عنادَهم.

* * *

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٢٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦ ـ ٢٧) عن مجاهد والضحاك وقتادة.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٩) بلفظ: «عميت».

(٦) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: ثمَّ ذَكَرَ بعدَ عنادِ المشركين دلائلَ قدرَتِه وعَجْزِ أصنامِهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾؛ أي: كواكبَ عظامًا ظاهرةً، ومثلُه قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، وقولُه: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]؛ أي: أبنية عالية.

وأصلُه: الظُّهور، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]؛ أي: ظاهرات.

وقال قتادةُ: البروجُ: الكواكبُ(١).

وقال مجاهدٌ: هي دراريُّ النُّجوم(٢)، يعني: عِظامَها وبيضها.

وقال الضَّحَّاك: هي كبار النُّجوم(٣).

وقال الكلبيُّ عن ابن عبَّاس: هي الحصونُ، وهي منازلُ الشَّمس والقمر، وأسماؤُها: الحمل والثَّور والجوزاء والسَّرطان والأسد والسُّنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدَّلو والحوت(٤).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٦١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٤٤)، جميعهم بلفظ: (هي النجوم).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٢)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٤). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٨٣) عن أبي صالح.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء، وعزاه السيوطي في «تفسيره» (٦/ ٢٦٩) إلى الخطيب في «كتاب النجوم». وجاء في «القول في علم النجوم» للخطيب (ص: ١٤٠) دون سند عن ابن عباس في قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، قال: (هي هذا الاثنا عشرَ بُرْجًا: أَوَّلُها الحَمَلُ، ثم الثَّورُ...).

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: أي: جعلنا السَّماء مزيَّنةً بالكواكبِ للنَّاظرين إليها، كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

* * *

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾: أي: حرسْنا السَّماءَ مِن كلِّ شيطانٍ مرجومٍ بالنُّجوم؛ أي: مرميٍّ بها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: قيل: هو استثناءٌ منقطعٌ، ومعناه: لكنْ مَن استرقَ السَّمع؛ أي: صعد من الشَّياطين إلى السَّماء ليسمعَ كلامَ الملائكةِ فيما يتحاورون بينهم ممَّا يريدُ اللهُ إحداثَه في الأرض، فإنَّه يعرِّفُهم بما يشاءُ مِن ذلك، ثمَّ يوحي منه إلى أنبيائِه ما يشاءُ، فتصعدُ الشَّياطينُ لتستمعَ ذلك فتُرْجَم بالنُّجومِ، فيلحقُها مِن ذلكَ شِهابٌ مبينٌ؛ أي: واضحٌ.

وأتبعَه؛ أي: لحقَه، كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]، وهو كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وقيل: هو حقيقةُ الاستثناءِ، ومعناه: حفظنا السَّماء من الشَّياطين أنْ تسمعَ الوحيَ، وهو كقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]؛ أي: سماعِ الوحي، ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: سماعَ خبرِ أهل السَّماء دون الوحي، فإنَّا لا نحفظها من ذلك، فيسترِقُون ما ليس بوحي، فيقذفونَه إلى آلهتِهم[١]، ثمَّ تتبعهم الشُّهُب فتقتلُهم[٢] أو تخبلُهم.

---

(١) في (ر) و(ف): «كيفيته».

(٢) في (ر) و(ف): «فتصليهم».

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: كانتِ الشَّياطينُ لا يُحجبونَ عن السَّماواتِ، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقونها على الكهنة، فلَمَّا وُلِدَ عيسى عليه السَّلام مُنِعُوا مِن ثلاثِ سماواتٍ، فلمَّا وُلِدَ رسولُ اللهِ ﷺ مُنِعُوا مِنَ السَّماواتِ أجمع، فما منهم مِنْ أحدٍ يريدُ استراقَ السَّمع إلَّا رُمِيَ بشهابٍ مبينٍ[1]، فإنْ أصابَه أحرقَه، وإنْ أخطأَهُ خَبَلَه، فصارَ غولًا يضلُّ النَّاس في البراري[2].

ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ [الجن: ٨-٩] الآية، وقوله تعالى ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨ ـ ٩] الآية.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾: أي: بسطناها على وجه[3] الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالًا ثوابتَ ـ وقد رَسَا يَرْسُو رُسُوًّا؛ أي: ثبتَ ـ لئلَّا تنكفِئ الأرضُ بأهلِها.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾: أي: في الأرضِ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾؛ أي: مقدَّرٍ بقدَرٍ معلومٍ

---

(١) في (أ): «قبس».

(٢) ذكر نحوه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٣)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٢)، والرازي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٠). ولعله من طريق الكلبي عن ابن عباس، فقد ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٥٢) عن الكلبي، والكلبي متروك.

(٣) «وجه» من (أ).

علـى حسـبِ الحاجةِ إليـهِ والصَّلاحِ بـه في معايشِـهم[١].

وقيل: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الجبال[٢] ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾؛ أي: مِنَ الأشـياءِ الموزونـةِ مِـنَ الذَّهبِ والفضَّـةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ وسـائرِ جواهـرِ المعادنِ كلِّها وزينةً[٣].

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا﴾: أي: في الأرضِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾: جمع معيشةٍ، وهي وجهٌ يُقامُ به العيشُ مِنْ حرفةٍ أو تجارةٍ أو زراعةٍ.

---

(١) روى هذا القول الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٤ ـ ٣٦) عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي مالك والحكم بن عتيبة وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وأبي صالح.

(٢) في (ر) و(ف): «الأرض»، والمثبت من (أ) وهو الصواب. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٦)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٣٦) ورواه عن ابن زيد، و«تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤٢٩)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٣٥)، و«البسيط» (١٢/ ٥٧٠) ونقله عن الكلبي، ثم قال: (وهذا قول ابن زيد والحسن واختيار الفراء).

قلت: واستبعده الطبري بقوله: وأولى القولين عندنا بالصواب القول الأوّل؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه.

وتعقب هذا القول أيضاً الماتريدي بقوله: وهذا كأنه ليس بصحيح؛ لأنه لا يقال في الذهب، والفضة والحديد: إنه أنبت في الأرض؛ كما يقال ذلك للنبات وما ينبت فيها، وإنما يقال للذهب، والفضة، والحديد: جعلنا فيها، أو خلقنا فيها.

(٣) قوله: «وزينة» كذا في النسخ، والذي في المصادر: (من الأشياء التي توزن) أو نحو هذه العبارة، انظر التعليق السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾: عطفٌ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾؛ أي: وجعلْنا لكم عبيدًا وإماءً[١] ودوابَّ، لكم رِفقُها، ومنَّا رِزْقُها.

و(مَنْ) تُستَعْمَل في العقلاء، وهنا لبني آدم وهم عقلاء، وللدَّوابِّ على التَّبعيَّةِ عند الاجتماع، كما في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] الآية، لَمَّا بدأ الآيةَ بقولِهِ[٢]: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، وهو يتناولُ كلَّ حيوانٍ ـ ومنهم البشرُ وغيرُهم ـ أطلق لفظة[٣] (مَن) للمشاركةِ.

وقيل: فيه دليلٌ على أنَّ الإنسانَ يُزادُ في رزقِهِ بالخَدَم والنَّعَم.

وقيل: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: جعلْنا للخدمِ والدَّوابِّ أيضًا معايش، فإنَّ للدَّواب والأنعام والوحوش والطيور نصيبًا فيما يرتفعُ مِن الأرضِ مِن الزُّروع والأشجار وغير ذلك، فهو من المعايش لها أيضًا.

وقال القشيريُّ: ومِن الرَّواسي الَّتي تثبتُ بها الأرضُ الأولياءُ الذينَ هم أوتادُ الأرضِ، بهم المدفَع وإليهم المفزَع.

ومنَ الرَّواسي العلماء، فبعلماء الأصولِ قِوامُ أصلِ الدِّين، وبالفقهاء نظامُ أمور المسلمين.

وقال في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: المعايشُ مختلفةٌ، فعيشُ المريدين بيُمْنِ إقبالِه، وعيشُ العارفين بلُطْفِ جمالِه، وعيشُ الموحِّدين بكشْفِ جلالِه، وكلٌّ مربوطٌ بحالِه، ولكلٍّ نصيبٌ مِن أفضالِه، والحقُّ غنيٌّ بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه[٤].

---

(١) في (أ): «وماء» وليست في (ر).

(٢) في (ف): «لأنه يقول» بدل: «لما بدأ الآية بقوله».

(٣) في (ر) و(ف): «من الخلق ولفظة» بدل: «أطلق لفظة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٦٦).

(٢١) - ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾: أي: ليس مِن شيءٍ يخزِّنُهُ الخلْقُ ممَّا يحتاجون إليه.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾: أي: إلَّا نحنُ مالكونَ له، قادرون عليه.

والخزائنُ: جمعُ خزانةٍ، وهي المواضعُ الَّتي[1] يخزِّن فيها الملوك أملاكَهم ليأخذوا منها ما يحتاجون إليه بقَدْرِ الحاجة، ويكونُ الباقي معدًّا لوقت الحاجة، فاستُعِيرَ هنا لِمَا يخرِجُهُ اللهُ تعالى لعبادِهِ عندما يحتاجون إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: وما يخرجُ مِن ذلك للخَلْقِ إلَّا بقَدَرٍ معلومٍ للكفايةِ.

وقال القشيريُّ: مَن عرفَ القِسْمةَ وأنَّ خزائنَ الأشياءِ عندَ اللهِ، تقاصرَتْ خُطاه عن التَّرداد إلى منازلِ الأغيار في طلَبِ الإرفاق، وعن التَّطوافِ في الآفاق في طلبِ الأرزاق، وتنقطعُ آمالُه عنِ الخَلْقِ، فينفردُ قلبُه للهِ، ويتجرَّدُ عنِ التَّعلُّقِ بغيرِ اللهِ.

وقال في قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: مَن عرفَ القسمةَ استراحَ عن كدِّ الطَّلَبِ، فإنَّ المعلومَ لا يتغيَّر، والمقسومَ لا يتقلَّل ولا يتكثَّر[2].

* * *

(٢٢) - ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾؛ أي: لاقحاتٍ بالماء؛ أي: حاملاتٍ،

---

(١) في (ف): «وهو الموضع».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٦٧).

وقد لَقِحَتِ النَّاقة: إذا حملَتْ، مِن حدِّ (علم)، وهو قولُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ[١].

فالرِّياحُ حواملُ بالماءِ وبما يكون فيها مِن خيرٍ، وضِدُّ هذه الرِّيحُ العقيم، وهي الَّتي لا تحملُ الماءَ، وبالنَّظرِ إلى هذه الضِّد عُلِمَ أنَّه يُمْكِنُ إجراؤها على ظاهرها أنَّها لواقِحُ بأنفسِها لا مُلْقِحاتٌ غيرَها، وكذا قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ ـ أي: حملتْها ـ دليلٌ[٢] على أنَّ صفَتها أنَّها حواملُ مستقيمة.

وقال قتادةُ وإبراهيمُ والضَّحَّاكُ: هي بمعنى ملاقِح، جمعُ مُلْقِحَة، وهي مُلْقِحةٌ للشَّجر أو للسَّحاب[٣]، بجعلِها الماءَ فيها، كالفحلِ يكون مُلْقِحًا للنَّاقةِ بجعلهِ ماءَه فيها.

ثمَّ جَعْلُ اللَّاقِح بمعنى الـمُلْقِحِ بطريقَيْن:

أحدهما: أنَّ المنشعبَ يُرَدُّ إلى الثُّلاثيِّ؛ لأنَّه هو الأصل.

والثَّاني: أنَّ اللَّاقحةَ بمعنى: ذات اللِّقاح.

وبهذَيْنِ الطَّريقَيْن كان النَّاصبُ بمعنى الـمُنْصِب في بيتِ النَّابغةِ:

كِلِيْنِـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةُ نَاصِـبِ ... وليـلٍ أُقَاسِـيْهِ بَطِـيءِ الكَواكِـبِ[٤]

أنَّه بمعنى: ذي نَصَبٍ، أو ردَّ أَنْصَب إلى نصَبَ، ومُنْصِبًا إلى ناصبِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٣).

(٢) في (ر): «دال».

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٤ ـ ٤٦).

(٤) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص: ٤٥)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٣٧).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: قيل: سقى وأسقى بمعنًى، وقيل: سقاه بمعنى: أشربَه، وأسقاه بمعنى: جعلَ له شربًا، فتفسيرُه على هذا: فجعلْنَا لكم ذلكَ المطرَ سَقيًا لأراضِيْكُم ومواشِيْكُم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: أي: ليس في وُسْعِكم أنْ تَخْزُنُوا الماءَ[1] بقَدْرِ حاجتكم إليه.

وقال أبو بكر بن عيَّاش: لا تقطرُ قَطرةٌ مِنَ السَّحابِ إلَّا بعدَ أنْ تعملَ فيه هذه الرِّياحُ، فالصَّبا تَهيجُه، والدَّبور تُلقِحُه، والجَنوب تَدرُّه، والشَّمال تفرِّقُه[2].

***

(٢٣) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾: أي: نحيي النُّطفَ ﴿وَنُمِيتُ﴾؛ أي: الأحياء عندَ انقطاعِ آجالِهم ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: الباقون بعدَ فناءِ الخَلْقِ، والمالكون ما في العالَم.

وكانَ للهِ تعالى كلُّ شيءٍ ولكنْ كانَ للخلْقِ تصرُّفٌ، فينقطع تصرُّفُهم بالموت ويخلُصُ للهِ كلُّ شيءٍ بلا وجودِ تصرُّفِ غيرِه، وهو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

***

(٢٤) ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: استقدمَ بمعنى:

---

(١) في (أ): «إلا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٥).

تقدَّمَ، واستأخَرَ بمعنى: تأخَّرَ، وهو كقولهم: استيقَن وتيقَّن، واستعجلَ وتعجَّل، واستكبرَ وتكبَّر.

ومعناه: ولقد علمْنا مَن تقدَّمَ في الموتِ فماتَ قبلَ هذا اليوم، وعلمْنا مَنْ تأخَّرَ موتُهُ فيموتُ بعدَ هذا، فلا يفوتُنا إحضارُهم، فنحنُ نُحْيِيهم جميعًا ونميتُهم جميعًا، ونحشرُهم جميعًا.

***

(٢٥) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيرِه؛ مِن الإحياءِ والإماتةِ والحشْرِ وغيرِ ذلك، ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقِهِ وأعمالِهم وجزائِهم.

وقال عكرمة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ الآية: قدَّم خَلْقًا وأَخَّر خَلْقًا، فعَلِمَ مَن قَدَّمَ، وعَلِمَ مَنْ أَخَّرَ[1].

وقال مقاتلٌ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾: مَن ماتَ مِن لَدُن آدمَ، ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: مَن بقيَ إلى يوم القيامة[2].

وقال قتادة: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: هو آدمُ ومَن مَضَى مِن ذرِّيَّته، ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: مَن بقيَ في أصلابِ الرِّجال[3].

وقال مجاهدٌ: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: القرون الأولى، ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: أمَّة محمَّد[4].

---

(١) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٤٦)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٢٧).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٩).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٤٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥١).

وقال الحسنُ: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: السَّابقون إلى الطَّاعات، ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: المُبَطِّؤون عنها[1].

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ: هذا في الصُّفوف، وذلك أنَّ النِّساءَ كُنَّ يخرجْنَ إلى الجماعات، فتقوم النِّساء صفوفًا خلفَ صفوفِ الرِّجال، فكانَ يتأخَّرُ بعضُ[2] مَن في قلبِهِ رِيبةٌ إلى الصَّفِّ الآخير، وتتقدَّم بعضُ النِّساء في الصَّفِّ لذلك، لتقرُبَ مِنَ الرِّجال، وكانت امرأةٌ مِنْ أحسنِ النِّساءِ وجهًا تصلِّي مع النَّبيِّ ﷺ، فربَّما ينظرُ الرَّجلُ مِن تحتِ إبطِهِ إليها، فنزلَتِ الآية[3].

وذكرَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما في هذه القصَّة: كان بعضُ المسلمين يتقدَّمُ في الصَّفِّ الأوَّلِ لئلَّا تفتنَه هذه المرأة، وبعضُهم يتأخَّر، فإذا سجدوا نظروا إليها مِن تحتِ أقدامِهم، فنزلَتْ[4].

وقال مقاتل بن حيَّان: نزلَتْ في صفِّ[5] القتال[6].

وقال سفيان بن عيينة: يعني: مَن يسلِمُ، ومَن لا يسلِمُ[7].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٢ ـ ٥٣).

(٢) «بعض» من (ف).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٨) عن أبي الجوزاء وابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٣ ـ ٥٤) عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق أبي الجوزاء.

(٥) «صف» من (أ).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٨)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦١) عن مقاتل بن سليمان، وزاد فيه: قال معتمر: فحدثت أبي فقال: لقد نزلت هذه الآية قبل أن يفرض القتال.

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٧).

وقال الرَّبيع بن أنسٍ: حضَّ(١) النَّبيُّ ﷺ على الصَّفِّ الأوَّلِ في الصَّلاةِ، فازدحمَ النَّاسُ عليه، وكانت بنو عذرة دُورُهم قاصيةٌ عن المسجدِ، فقالوا: نبيعُ دورَنا ونشتري دورًا قريبة مِن المسجدِ، فنزلَتْ هذه الآية. وفيهم نزلَتْ أيضًا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]؛ أي: خُطاهم إلى المساجد(٢).

وقال القشيريُّ: إنَّا لنحنُ نحيي القلوبَ بالمشاهدةِ، ونميتُ النُّفوسَ بالمجاهدة، نحيي المريدِيْن بالذِّكْرِ، ونميْتُ الغافلِيْنَ بالهجر(٣).

وقال في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: هم العارفون يستقدمون بالهِمَم، والعابدون بالقَدَم، والتَّائبون بالنَّدَم، وقومٌ يستأخرون بالقَدَم وهم العُصاة، وقومٌ بالهِمَم وهم الرَّاضون بخسائس الحالات.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: يبعثُ كلًّا على الوصفِ الَّذي خرجوا عليه مِن الدُّنيا؛ فمِن منفردِ القلبِ بربِّهِ، ومِنْ منطرحٍ في أوديةِ التَّفرقة، ثمَّ يحاسبهم على ما يستوجبونَه(٤).

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: ثمَّ ذكرَ ابتداءَ خلقِ

---

(١) في (أ): «حرض».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣٨). وروى البخاري (٦٥٦) عن أنسٍ: أنَّ بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم فينزلوا قريبًا من النبيِّ ﷺ، قال: فكره رسول الله ﷺ أن يعروا المدينة، فقال: «ألا تحتسبون آثاركم». وانظر ما سيأتي في تفسير (سورة يس).

(٣) في (ر): «بالغفلة»، وفي (ف): «بالنحر».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

الإنسِ[١] والجنِّ لإثباتِ آيةِ الوحدانيَّة، ومطالبةً بشكرِ النِّعمة، وتنبيهًا على أصلِ الخِلْقة.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: سُمِّي إنسانًا لأنَّه عُهِدَ إليه فنَسِي[٢].

وقال القتبي: ذهبَ قومٌ إلى أن اشتقاقَه هذا، وإنسانٌ أصله: إِنْسِيان، ولذلك يقال في التَّصغير: أُنَيْسيان.

وقال البصريُّون: هو مِنْ قولهم: آنسَ؛ أي: أبصر، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [القصص: ٢٩]، سُمِّيَ به لظهورِه وإدراكِ البصر إيَّاه، وزِيْدَتِ الياءُ في تصغيرِه، كما زِيْدَتْ في تصغير رَجُلٍ، فقِيل[٣]: رُوَيْجِل، وفي تصغير لَيْلَة: لُيَيْلَة[٤].

والصَّلْصالُ: الطِّين اليابس الَّذي يُصَلْصِلُ؛ أي: يُصَوِّتُ إذا نُقِرَ لشدَّة يُبْسِه، وهو كقولِه: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وهو الخزَفُ، شُبِّهَ به لِيُبْسِه وصوتِه عندَ نقرِه؛ أي: خلقْنا آدمَ مِن طينٍ يابسٍ.

قوله: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ الحمأ: الطِّينُ الأسودُ المتغيِّر، والـمَسْنون: قيل: هو المصبوب، وهو إشارةٌ إلى رطوبتِه قبلَ أنْ يجفَّ فيصيرَ صلصالًا.

وقيل: معناه: إنَّه كان طينًا[٥] سيَّالًا، فصارَ حمأً متجاسدًا. وقد سَنَّ الماءَ على وجهِهِ؛ أي: صبَّهُ.

---

(١) في (ف): «الإنسان».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٣٥)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٧).

(٣) «فقيل» ليس في (أ).

(٤) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢).

(٥) في (ر): «رطبًا».

وقيل: المسنونُ: المتغيِّر الرِّيح؛ قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقيل: هو مِن قولِكَ: سننْتُ الحديدةَ على الـمِسَنِّ: إذا غيَّرتها بالتَّحديد.

وقال ابنُ عبَّاس والحسنُ وقتادةُ: الصَّلصالُ: الطِّينُ اليابسُ الَّذي يُسمع له عندَ النَّقْرِ صَلْصَلةٌ[1]؛ أي: صوت.

وقال مجاهدٌ: الصَّلصالُ: المنتِن[2]. مِن قولِهم: صَلَّ اللَّحمُ وأَصَلَّ: إذا أَنْتَنَ.

والصَّلصال بِناءُ النَّعتِ بالفتح، وبالكسر بِناءُ المصدر؛ قال تعالى ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١١].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾؛ أي: رَطْب[3].

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾: قيل: هو إبليس، وقيل: هو أَبُو الجنِّ، وإبليس أَبُ الشَّياطين.

﴿مِن قَبۡلُ﴾: أي: مِن قبلِ الإنسانِ، وهو آدم.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: أي: نارٍ لها التهابٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٧) عن قتادة، ورواه أيضاً عن مجاهد، وروى نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤٣٨)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٩٢) عن الحسن.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٢).

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: نارٌ لا دخانَ لها، والصَّواعق تكون منها، وهي نارٌ بينَ السَّماءِ والحجابِ، فإذا أحدثَ اللهُ أمرًا خرقَتِ الحِجابَ فهوَتْ، فالهَدَّةُ الَّتي تسمعونَ خَرْقُ ذلك الحجابِ(١).

والسَّمومُ في أصل اللُّغة: الرِّيحُ الحارَّة؛ كالحَرُوْر، إلَّا أنَّ الحَرُوْر تكونُ باللَّيل والنَّهار جميعًا، والسَّموم لا تكون إلَّا بالنَّهار، فيحتمِلُ أنَّ نارَ السَّموم نارٌ تلتهبُ التهابَ السَّموم، ومنه قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]؛ أي: عذاب اللَّهب.

* * *

(٢٨) - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: حيوانًا ظاهرَ البَشَرة، لا شعرَ عليه، ولا وَبرَ، ولا صوف.

وقيل: أي: حيوانًا يباشر؛ أي: يلمس، فإنَّ الرُّوحاني لا يلمس(٢).

* * *

(٢٩) - ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي: صوَّرتُه بشرًا سويًّا ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾؛ أي: روحًا مِن الأرواح مفضَّلة على سائرها، وإضافته إلى نفسِه للتَّفضيل والتَّشريف.

والنَّفخُ: الإدخال.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٩) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو خبر ساقط، فالكلبي متروك، وابو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) في (أ): «أي يمس فإن الروحاني لا يمس».

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: أي: خِرُّوا له ساجِدِيْن سُجودَ تحيَّةٍ. وهذا يدلُّ على أنَّه كانَ وضعَ الجبهة[١] على الأرض دونَ الانحناءِ وحدَه.

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: أضمرَ هنا: فخلقْتُ آدمَ فسجد له الملائكة.

﴿كُلُّهُمْ﴾ للاستيعاب، فدلَّ أنَّه كلُّ الملائكة، لا ملأٌ دونَ ملأٍ، و﴿أَجْمَعُونَ﴾ ليس بتكرارٍ، بل يدلُّ على الاجتماعِ في السُّجود؛ أي: سجدوا في حالةٍ واحدةٍ مجتمعين، لا متعاقبين مترادفين. هذا قولُ المبرِّد.

وقال سيبويه: هو تأكيدٌ بعد تأكيدٍ[٢].

* * *

(٣٢ ـ ٣٥) ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: أي: أيُّ سببٍ لكَ في هذا؟ وهذا استفهامٌ بمعنى الإنكار.

---

(١) في (ر) و(ف): «الوجه».

(٢) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٣٧٩) و(٢/ ٣٨٧)، و«الانتصار لسيبويه على المبرد» لابن ولَّاد (ص: ١٠٧ ـ ١٠٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧٩).

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: أي: هـو دونـي، فأنا مِـن نارٍ.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: أي: مِنَ السَّماء، وقيل: مِنَ الملائكة؛ أي: تميَّزْ عنهم.

وقيل: مِنَ الجَنَّةِ.

وقيل: مِن هذه الصُّورة الحسنة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قيل: مشتومٌ، وقيل: ملعونٌ، وقيل: مرميٌّ، وقيل: مُهلكٌ، وقد مَرَّ ذلك في شرح (سورة البقرة)، وكذا تفسير الآيات ومعانيها والقصَّة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: إلى يوم القيامة، وإذا دامَتْ إليه لم تنقطِعْ.

وهي لعنة الله، فقد قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ [ص: ٧٨].

وقيل: هي لعنة المؤمنين إيَّاه، كلما ذُكر(١) لعنوه.

* * *

(٣٦ ـ ٣٨) ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾: قيل: هو وقت فناء الدُّنيا وموتِ أهلها، وهو(٢) تأخير العذاب عنه إلى تلك الحالة.

---

(١) في (أ): «كما ذكر أنهم»، بدل: «كلما ذكر».

(٢) «هو» ليس في (ف).

وقيل: سأل الأمانَ من الموتِ، فلم يُعْطَ ذلك.

والإنظارُ إلى تلك الحالة لم يكن كرامةً له، بل إِمْلاءٌ له[١] ليزدادَ إثمًا.

* * *

(٣٩) ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: مَرَّ تفسيره في الأعراف ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لَأُحَسِّنَنَّ إليهم معاصيك، ولَأُحَبِّبَنَّها إليهم ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ولَأُضِلَّنَّهُمْ.

فقوله: (معاصيك) مُضمَرة فيه، أو أضمر فيه: (ما)، يعني[٢]: لأزيِّنَنَّ لهم ما في الأرض.

وقيل: ﴿فِي﴾ زائدة؛ أي: لَأزيِّنَنَّ لهم الأرضَ، وهي الدُّنيا، وهو كقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾؛ أي: ذريتي.

* * *

(٤٠ ـ ٤١) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: مَن قرأ بفتح اللَّام فمعناه: إلَّا عبادَك الَّذين أخلَصْتَهم بتوفيقِكَ وعصمْتَهم مِن فتنتي، مِن قوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

---

(١) «له» من (أ).

(٢) في (ر) و(ف): «أرى»، ولعلها محرفة عن: (أي).

ومَنْ قرأ بكسرها[١] فمعناه: إلَّا عبادَك الذين أخلَصُوا أعمالَهم لكَ، مِن قولِه: ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾: قيل: هذا الَّذي قلْتَ يا إبليس: (لأزيِّنَنَّ لهم ولأغوينَّهم) طريقٌ مَمَرٌّ مَن سلكَه عليَّ ومصيرُه إليَّ، فأُجازِي كُلًّا منهم على عملِه.

و﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: نعتٌ للصِّراطِ، وليس المرادُ منه استقامتَه في نفسِه، بل المرادُ به أنَّه لا يمكن العُدول عنه، بل يستقيم لسالِكِهِ إليَّ وعليَّ.

وقيل: بل هو إشارةٌ إلى الطَّريقِ الحقِّ، وقد سبق ذِكْرُه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ فالإخلاصُ طريقٌ مستقيمٌ، وقوله: ﴿عَلَيَّ﴾؛ أي: عليَّ وإليَّ الهداية إليه، ودفعُ الشُّبهِ عنه.

* * *

(٤٢ ـ ٤٣) ـ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: إنَّ عبادي الَّذين قاموا إليَّ[٢] بحقِّ العبوديَّة ليسَ لَكَ عليهم سُلْطانٌ.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾: وقَبِل تَزْيينَكَ وإغواءَكَ ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: مِنَ الضَّالِّين.

---

(١) قرأ الكوفيون ونافع: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ إذا كان في أوله ألف ولام بفتح اللام حيث وقع، والباقون بكسرها. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٢٨).

(٢) «إلي» من (أ).

وسُئِلَ سفيانُ بنُ عُيينةَ عن هذه الآيةِ فقال: معناها: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [أن] تلقيَهم في ذنبٍ يضيقُ عنه عفوي[1].

يعني: أنِّي أَحُولُ بينَهم وبينَ الشِّركِ، وما دونَ الشِّركِ لا يضيقُ عنه عَفوي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: موعد متَّبِعِيك.

* * *

(٤٤) ـ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾: قيل: سبعة أَطْباقٍ بعضُها في بعضٍ.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: أي: نصيبٌ مِن الـمُتَّبِعِيْن، فقد جعل لهم على حسب مراتبِهم في كفرِهم.

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: إنَّ اللهَ وضعَ الجِنانَ على العرض، ووضعَ دركاتِ النِّيران بعضَها فوقَ بعض، فأسفلُها جهنَّم، وفوقَها لَظًى، وفوقَها الحُطَمة، وفوقَها سَقَر، وفوقَها الجحيم، وفوقَها السَّعير، وفوقَها الهاوية[2].

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؛ أي: حظٌّ معلومٌ، فجهنَّمُ لِمَنِ ادَّعَى الرُّبوبيَّةَ مِنَ الخَلْقِ، ولَظَى لِعبدَةِ النِّيران، والحُطَمةُ لِعبدَةِ الأصنام، وسَقَر لليهود، والسَّعير للنَّصارى، والجحيم للصَّابئين، والهاوية للموحِّدين[3].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٢)، والماوردي في «تفيسره» (٣/ ٢١٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨٢). وسيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وما بين معكوفتين منه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٢).

(٣) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٥) عن الضحاك دون تسمية الأبواب.

وقيل: جهنَّم مِن قولِ العربِ: بِئْرٌ جِهِنَّامٌ؛ أي: بعيدة القَعر.

ولَظًى مِن التَّلظِّي، وهو التَّوقُّد.

والحُطَمة لأنَّها تَحطِمُ عظامَ الكفَّار؛ أي: تكسرُها.

وسَقَر لأنَّها تُذِيْبُ عظامَهم ولحومَهم، وقد سَقَرَتْهُ الشَّمسُ وصَقَرَتْهُ: إذا أذابَتْه.

والسَّعير لأنَّها سُعِّرَتْ؛ أي: أُلْهِبَتْ.

والجحيم لأنَّها نارٌ عظيمةٌ.

وهاوية لأنَّها تَهْوِي بهم؛ أي: تسقِطُهم.

وقال القشيريُّ: إذا سمَّى اللهُ واحدًا بالعبوديَّة كان مِن جُملةِ الخواصّ، فإذا أضافه إلى نفسِه فهو خاصُّ الخواصّ، فهؤلاء خواصُّ عبادِه الَّذين محاهم عن شواهدِهم، واختطفَهم عنهم، وصانَهم عن أودية التَّفرقة، وجرَّدَهم عن حولِهم وقوَّتِهم، يحفظُ عليهم آدابَ الشَّرع، ويُلبسُهم لباسَ الاختيار في حالةِ الائتمار، ثمَّ يأخذُهم عنهم باستهلاكِهم في شهودِه، واستغراقِهم في وجودِه، فأيُّ سبيلٍ للشَّيطان عليهم؟ وأيُّ يدٍ للعدوِّ عليهم؟

ومَن أشهدَهُ الحَقُّ حقائقَ التَّوحيد، ورأى العالَمَ مصرَّفًا في قبضةِ التَّقدير، فحاشا أن يكونَ نهبًا للأغيارِ، أو محلًّا للأكدار[١].

***

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

---

(١) قوله: «أو محلاً للأكدار» ليس في (أ) و(ف)، ولم يرد في «اللطائف». انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾: ولَمَّا ذَكَرَ مَصيرَ الغاوينَ[١] أتبَعَهُ ذِكْرَ ما أعدَّه للمخلصِيْنَ، وهم الَّذين اتَّقوا الشِّركَ والمعاصيَ، فأخبرَ أنَّهم في بساتينَ فيها عيون، وقد سُمِّيَتْ في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾: أي: يُقال لهم: ادخلوا الجنَّات آمنِيْنَ؛ أي: سالمين غانمين[٢].

قال القشيريُّ رحمَه الله: لم يذكرْ مَنْ يقولُ لهم ذلك، و[قال] قومٌ: يقولُ لهم ذلك الملَكُ.

وقيل: إذا وافَوا بأبواب الجنَّة بعدَ مقاساةِ الشَّدائد والأهوال، ومختلِفِ الأحوال، فمِن حقِّهم أن يَبتدِروا دخولَها، فقد أُبِيْحَتْ لهم، لكنَّهم يقفون احترامًا وانتظارًا للإِذْنِ.

ولعلَّ قومًا إذا قالَت لهم الملائكةُ: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ لم يدخلوا حتَّى يقولَ لهم الحقُّ: ادخلوا، وفي مثله قالوا:

ولا ألبَسُ النُّعْمَى وغيرُكَ مُلْبِسِي ... ولا أقبلُ الدُّنيا وغيرُكَ واهِبُ[٣]

وقال: إنَّ الجنَّةَ دَرَجَاتٌ بعضُها أرفعُ مِن بعضٍ، ولهم اليومَ كذلك، فدرجةُ قومٍ حلاوةُ الخِدْمة ولذاذة الطَّاعة، ولقومٍ البَسْطُ والرَّاحة، ولآخرين الرَّجاءُ والرَّغبة، ولآخرين الأُنْسُ والقربة، قد علمَ كلُّ أناسٍ مشربَهم، ولزِمَ كلُّ فريقٍ اليومَ مذهبَهم[٤].

---

(١) في (ر) و(ف): «العادين».

(٢) في (أ): «ادخلوا الجنان سالمين آمنين».

(٣) البيت لأبي فراس الحمداني. انظر: «الدر الفريد» للمستعصمي (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

(٤٧) ـ ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾: أي: أخرجْنا ما في قلوبِ أهلِ الجنَّةِ مِن غِشٍّ وخيانةٍ وحِقْدٍ وضَغينةٍ مِن بعضِهم على بعضٍ، لا يعادي بعضُهم بعضًا، ولا يُحزِنُ[1] أحدٌ منهم أحدًا، ولا يحسدُه بنعمةٍ صارَتْ إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِخۡوَٰنًا﴾: نصب على الحال ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: يقابِلُ بعضُهم بعضًا، لا يستدبِرُه فينظرَ في قَفاه، حيثُ ما التفَتَ رأى وجهًا يحبُّه.

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: فينا نزلَتْ أهلَ بدرٍ[2].

وروي عنه أنَّه قال: إنِّي لأرجو أنْ أكونَ أنا وطلحة والزُّبير مِن أهلِ هذه الآية[3].

وقال عبدُ الرَّحمنُ بن أبي ليلى: قلْتُ لعليٍّ: كنَّا نظُنُّ أنَّ هذه الآيَةَ نزلَتْ فيكَ وفي طلحةَ والزُّبير، فقال: اعلمْ أنَّ تيمًا وعديًّا كان بينهما في الجاهليَّة دماءٌ وجِراحاتٌ وتقاتُلٌ وتجادُلٌ، فلمَّا جاءَ اللهُ بالإسلامِ، وأسلمَ مَنْ أسلمَ مِنْ تيمٍ وعَدِيٍّ طفقَتْ[4] قريشٌ تقولُ: أتظُنُّ تيمٌ وعَدِيٌّ أنَّ الشَّحناء الَّتي كانت بينهم تزولُ عنهم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية، فدعا رسولُ اللهِ ﷺ أبا بكر وعمر في تكملة أربعةَ عشرَ نفسًا، وقرأ عليهم هذه الآية، فزالَ عن قلوبِهم ما خامرها مِن الشَّحناء والبغضاء[5].

---

(١) في (أ): «يخون».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٥٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨).

(٤) في (أ): «طعنت».

(٥) لم أجده.

وروى أبو أمامةَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ يدخلونَ الجنَّةَ بما في صدورِهِم مِنَ الشَّحناءِ[١] والغِلِّ، فإذا ترافَقوا وتقابَلوا نزعَ اللهُ ذلك عن صدورِهم، فذلِكَ قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الآية[٢].

وقال مجاهدٌ: لا يرى الرَّجلُ مِن أهل الجنَّة قَفا زوجتِهِ، ولا زوجتُهُ تَرى[٣] قَفاه؛ لأنَّ الأَسِرَّةَ تَدُورُ بهم حيث ما شاؤوا، حتى يكونوا في جميع أحوالِهم مُتقابِلِيْن[٤].

***

(٤٨ ـ ٥٠) ـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي: تعبٌ ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا﴾؛ أي: مِنَ الجِنَانِ ونعيمِها ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ بل هم فيها مخلَّدون.

وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾: أخبرهم يا محمَّد ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾:

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تابَ، ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لِمَنْ لم يَتُبْ[٥].

---

(١) بعدها في (ف): «والبغضاء».

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٤٠٠) موقوفًا على أبي أمامة رضي الله عنه من طريق القاسم بن عبد الرحمن. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف.

(٣) «ترى» ليس في (ف).

(٤) رواه مختصرًا ابن المبارك في «الزهد» (٤٣٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٨٠).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٣)، وذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦١٤).

وقيل: لَمَّا ذكرَ ثوابَ المتَّقين وعقاب الغاوين ذكرَ أنَّه غفورٌ رحيمٌ لهؤلاء، وعذابُه أليمٌ لهؤلاء.

وروي أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرجَ يومًا فرأى أصحابَه يضحكونَ، فقال لهم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكْتُم قليلًا ولبكيْتُم كثيرًا»، فأخذوا يبكون، فنزلَ جبريلُ بهذه الآية(١).

وقال القشيريُّ: لَمَّا ذكرَ حديثَ المتَّقين وما لهم مِن رفيعِ المنزلةِ علِمَ انكسارَ قلوبِ العاصين، فتدارَكَ قلوبَهم وقال لنبيِّه: أخبرْ عبادي العاصِيْنَ: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: إنْ كنْتُ الشَّكُورَ الكريمَ بالمطيعين، فإنِّي أنا الغفورُ الرَّحيمُ للعاصين(٢).

وفي الأخبار: لَمَّا نزلَ قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] ووصفَ جبريلُ عليه السلام لرسولِ اللهِ ﷺ ما في جهنَّم، احتجبَ عن النَّاسِ أيَّامًا يبكي، وجاءَ سلمانُ فاطمةَ وأخبرَها به، فجاءَتْ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَتْ: يا أبتاه، ما الَّذي أصابَكَ؟ فذكَرَ لها نزولَ هذه الآيةِ، وبعضَ ما وصفَ له جبريلُ مِن ذلكَ، وقالَ: «إنَّ حرَّها شديد، وقَعرَها بعيد، وحليَّها حديد، وشرابَها الحميمُ والصَّديد، وثيابَها

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٨٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٣) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ.

ورواه البزار في «مسنده» (٢٢١٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ١٠٤) من طريق مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير، وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحدًا يرويه بهذا اللفظ، عن النبي ﷺ إلا ابن الزبير، ولا نعلم له طريقاً إلا هذا الطريق، ولا نعلم أن مصعب بن ثابت سمع من ابن الزبير.

وبعض هذا الحديث متفق عليه، وهو قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»، رواه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٧٤).

مقطَّعاتُ النِّيران، لو أنَّ مثلَ خرقِ إبرةٍ فُتِحَ منها لأحرقَ أهلَ الدُّنيا، ولو أنَّ ثوبًا من ثيابِ أهلِها علقَ بين السَّماء والأرض لماتوا مِن حرِّها ونتنِها، ولو أنَّ ذراعًا من السِّلسلةِ الَّتي ذكرَها اللهُ تعالى في القرآن وُضِعَ على جبلٍ لذابَ إلى الأرض السَّابعة، ولو أنَّ رجلًا بالمغرب يُعَذَّبُ لاحترقَ الَّذي بالمشرق، لها سبعةُ أبوابٍ، بعضُها أسفلُ مِن بعضٍ، مِنْ بابٍ إلى بابٍ مسيرةُ سبعينَ سنةٍ، وكلُّ بابٍ منها أشدُّ حرًّا مِنَ الَّذي يليه بسبعين ضعفًا، تُساقُ أعداءُ اللهِ إليها، فإذا انتهوا إلى أبوابها استقبلَتْهُم الزَّبانِيَة بالأغلال والسَّلاسل، فتُسلكُ السِّلسلةُ مِن فِيْهِ، وتخرجُ مِن دُبُرِهِ، وتُغَلُّ يدُه اليُسرَى إلى عنقِه، وتدخلُ يدُه اليمنى في فؤادِه، وتُنْزَع مِن بينِ كتفَيْهِ، ويُسْحَبُ على وجهِهِ، ويُضْرَبُ بمقامعَ مِن حديدٍ».

فلم يحتملْ قلبُ فاطمةَ سماعَ ذلك، فخرَّتْ مغشيًّا عليها، ولَمَّا أفاقَتْ بكَتْ وصاحَتْ، وقالَتْ: يا ليتني لم أُوْلَدْ.

وسمعَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ذلك خارجَ البابِ، فقال وهو يبكي: ليتني كنْتُ شاةً تُذْبَحُ.

وقال عمرُ رضي الله عنه: ليتني كنْتُ شجرةً تُعْضَدُ.

وقال عثمانُ رضي الله عنه: ليتني لم أُخْلَقْ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: ليتني لم أُوْلَد.

وهربَ مالكُ بنُ سلمة(١) إلى الفيافي، وهو يصيحُ: النَّارَ النَّار.

---

(١) في (أ): «مالك بن أبي سلمة». وفي «نزهة الألباب في الألقاب» لابن حجر (ص: ٢٩٠): ذو الرقيبة مالك بن سلمة القشيري، له صحبة.

وبكى النَّاسُ لبكائِهِ، وخرجَتِ الصَّحابة يطلبونَهُ، فوجدوه في جبلٍ يصيحُ، فردُّوه إلى النَّبيِّ ﷺ، فناشدَه أنْ يقرأها عليه مرَّة أخرى، ففعلَ، وصاحَ وخرَّ ميتًا.

وكانت له بنتٌ صغيرةٌ، فأُخْبِرَتْ بموتِ أبيها، فخرجَتْ إلى النَّبيِّ ﷺ، فوجدَتْ أباها ميتًا، فقالَتْ: ما أصابَهُ، فذكروا لها أنَّه سمع آيةً فاشتدَّ خوفُه وخرجَتْ روحُه، فقالَتْ: اقرؤوا عليَّ تلك الآية، فقرؤوها عليها، فصاحَتْ فخرَّتْ ميتة[1].

فهذا رسولُ اللهِ ﷺ وولدُه وكبراءُ أصحابِه والطَّاهرون مِن أهل عصرِه يخافون جهنَّم هذا الخوفَ، فكيفَ ينبغي لنا أن نغفلَ بعدَه؟

***

(٥١) ـ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾: انتظامُ بقيَّة السُّورة بهذه الآيةِ الَّتي قبلَها: أنَّه قالَ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فذكرَ رحمتَه، وقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، فذكرَ عقوبتَه، ثمَّ ذكرَ إلى بقيَّة السُّورة تأثيرَ رحمتِه في حقِّ إبراهيمَ ببشارة الولد بإسحاق[2]، وفي حقِّ لوطٍ وأتباعِه بالنَّجاة، وفي حقِّ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام ومَن آمَنَ به وأصحابِه بإعطاءِ السَّبع المثاني والقرآن العظيم.

وتأثيرَ عذابِه في حقِّ قومِ لوطٍ وأصحابِ الحجرِ والمقتسمين والمستهزئين.

---

(١) ذكر السمرقندي بعض هذا الخبر في «تنبيه الغافلين» (ص: ٧٠ ـ ٧١) عن يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه.

ولم أقف له على أصل، وعلامات الوضع ظاهرة فيه.

(٢) «إسحاق» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: أضيافه، فقد قال: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾، وصيغتُه صيغةُ المصدرِ، فصلح للجمع.

والضَّيفُ: هو النَّازلُ على غيرِه، طَعِمَ عندَه أو لم يطعَم، نزلَ للطُّعم أو لغيره.

* * *

(٥٢) ـ ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

يقولُ: خبِّرهم عن ضيفِ إبراهيم، وهم الملائكة الَّذين أُرسِلُوا لإهلاكِ قوم لوط ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾: أي: سلَّموا عليه سلامًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: قال إبراهيم: إنَّا منكم خائفون.

قال هذا بعدَما ردَّ عليهم السَّلام وقدَّمَ العجل إليهم فلم يتناولوه، فخافَهم على نفسِه حيثُ لم يتحرَّموا بطعامِه.

ودليلُ هذا الإضمار قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

ولا يُقال: ذكرَ في (سورة الذاريات): ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، ثمَّ ذكر تقديم العجلِ بعد الإنكار: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

لأنَّا نقول: ذاك إنكارُ المعرفة؛ أي: لا أعرِفُكم، لا إنكارُ الخيفةِ.

* * *

(٥٣ ـ ٥٤) ـ ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾: أي: لا تخفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: إذا كبر[١].

وصارَتِ البشارةُ بشاراتٍ: بوجودِه، وبلقائِه إلى أنْ يُعلَّمَ، وبعلمِه، وأيُّ فرحٍ فوقَ هذا الولدِ وعيشِه وعلمِه؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾: أي: بعدَما أصابني كبرُ[٢] السِّنِّ.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ بتشديد النُّون وكسرها، وأصله: (تبشرونني) أدغمَ إحدى النُّونَيْن في الأخرى.

وقرأ نافعٌ بكسر النُّون وتخفيفها، على إسقاط النُّون الأولى تخفيفًا.

وقرأ الباقون بفتح النُّون وتخفيفها[٣]، على إثبات الفعل بدون الإيقاع على نفسِه؛ يعني: أيُّ بشارة تكونُ على رأسِ الكِبَرِ؟ أي: فليس حينَ[٤] بشارة، وهذا تعجيبٌ واستبعادٌ منه لذلك.

* * *

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بما لا كذبَ فيه ولا خُلْفَ، بل هو جِدٌّ وحَقٌّ ويقين.

---

(١) في (أ): «لا أعرفكم» بدل: «إذا كبر».

(٢) في (ف): «الكبر في».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٦).

(٤) في (أ): «خبر».

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾: أي: لا تيأسَنَّ[1] مِن رحمتِه بإعطاء الولد على الكِبَر.

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾: قرأ أبو عمرو والكسائيُّ بكسر النُّون مِن باب (ضرب)، والباقون بفتحها من حد (علم)، وهما لغتان، وأجمعوا في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨] على فتح النُّون[2].

﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾: أي: المخطئون سبيلَ الصَّواب، وهو استفهامٌ بمعنى النَّفي، وتقديره: ولا يقنط مِن رحمة ربِّه ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أخبرَ أنَّه غيرُ قانطٍ مِنْ رحمتِه، ولا مُنْكِرٍ لقدرَتِهِ.

* * *

(٥٧ـ٥٨)ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: أي: أمرُكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لَمَّا بشَّروه بخلاف العادةِ علمَ أنَّهم ملائكةٌ، فخاطبَهم بهذا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾: وهم قوم لوط، أجرموا[3]؛ أي: كسبوا لأنفسِهم بشركِهم وفواحشِهم العقوبةَ.

* * *

(٥٩ ـ ٦٠) ـ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾.

---

(١) في (ف): «الآيسين» بدل: «لا تيأسن».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٦).

(٣) «أجرموا» ليس في (أ).

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾: أي: أُرْسِلنا لإهلاكِ قومٍ مجرمين، إلَّا أتباعَ لوطٍ فإنَّا ما بُعِثْنا لإهلاكِهم، بل لإنجائِهم.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾: استثنوها مِن غيرِ المُهْلَكين، وهم آلُ لوطٍ؛ أي: أتباعُه، فصارت من المهلَكين.

وقوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾: أي: قالت الملائكةُ: أُعْلِمْنا بتقديرِ اللهِ تعالى كونَها مِن الغابِرِيْنَ؛ أي: الباقيْنَ في العقوبةِ.

وقد غَبَرَ مِن باب دخل؛ أي: بقي، و﴿إِنَّهَا﴾ كُسِرَتْ لوقوع اللَّام في الجواب.

و﴿قَدَّرْنَآ﴾؛ أي: أَعلمنا بالتَّقدير، كقوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩]؛ أي: لأُعلِمَكِ بأنَّه وُهِبَ لَكِ.

* * *

(٦١ ـ ٦٤) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾: أي: لا أعرفُكُم، وهذا سؤالُ أنْ يُعرِّفُوه أنفسَهم ليطمئنَّ إليهم.

﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾: أي: بل نحنُ رُسُلُ اللهِ جِئْناكَ بما كان يشكُّ قومُكَ في نزولِه بهم مِن العذابِ الذي حذَّرتَهم إيَّاه.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾: أي: بالعذابِ المتيقَّنِ، كما قال: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾: أي: في إخبارِنا بهلاكِ قومِكَ.

* * *

(٦٥) ـ ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾: سَرَى وأَسْرَى: سارَ باللَّيل، لازمٌ، وبالباء عدَّاه.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: ببقيَّةٍ، وهو كقولِه: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾: أي: كُنْ وراءَ أهلِكَ؛ أي: قَدِّمْهُم، وسِرْ خلفَهُم.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: وهذا الواجِبُ على كُلِّ والٍ أَمِرَ الجيشَ أنْ يتبعَ أثرَهم، أو يأمرَ مَن يتبعُ أثرَهم ليلحقَ به مَن تخلَّفَ منهم، ويحمِلَ المنقطعَ منهم، وليكونَ ذلك أحفظَ لهم(١).

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: لا تلتفِتَنَّ أنتَ وراءَكَ، ولا أحدٌ(٢) ممَّن معَكَ.

أُمِروا بالمبادرةِ في السَّيرِ، وألَّا يعرِّجوا على شيءٍ حتَّى يتباعدوا عن القريةِ قبلَ أنْ يَفْجَأَهم الصُّبح، وينزلَ بالمجرمين العذاب.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: أي: سيروا إلى حيثُ يأمرُكُم اللهُ.

قيل: هي صُغَر؛ إحدى قريَّات قوم لوط(٣).

* * *

(٦٦) ـ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٥٢).

(٢) بعدها في (أ): «منكم».

(٣) قال المقدسي في «أحسن التقاسيم» (ص: ١٧٨): صغر: وتسمى: صقر، وهي على البحيرة المقلوبة وبقيّة مدائن لوط، وإنَّما نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة.

وهي على وزن زفر وصرد، ويقال لها أيضاً: زُغَر. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ١٤٢ و٤١١).

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: أوحينا إلى لوطٍ وأعلمْناهُ، كما في قولِه: وقضينا إلى بني إسرائيل، و﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: هو العذابُ الَّذي قالوا: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٦٤].

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ﴿أَنَّ﴾ ترجمةٌ عن قولِه: ﴿ٱلْأَمْرَ﴾، ودابرُ القومِ: مَن يجيءُ بعدَهم، وإذا قُطِعَ ذلك فقد هَلَكَ الكلُّ.

وقوله تعالى: ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾: أي: يُقْطَعُ مصبِحِيْن؛ أي: في حال إصباحِهم.

* * *

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: قومُ لوط وهم أهل مدينة سَدُوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يُظهِرونُ آثارَ السُّرور في بَشَرَاتِ وجوهِهم؛ إذْ سمعِوا أنَّ غلمانًا صباحًا ضافوا لوطًا؛ طمعًا منهم في ركوبِ الفاحشة.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾: أي: أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾؛ أي: لا تَهتكوا حُرْمَتي فيهم.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ يحتمل: فلا تفضحوني في ضيفي، فإنَّهم إنَّما نزلوا بنا على أمنٍ منَّا.

ويحتمل: فلا تفضحوني في الخُلُقِ، فإنَّهم يقولون: في بيت لوط يُفعَلُ بالأضياف كذا(١).

* * *

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٥٣).

(٦٩ ـ ٧١) ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾: أي: لا تُخجلوني، ولا تلحقوا بي العارَ فيهم.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: قالَ له قومُه: أولم ننْهَكَ أنْ تُضيْفَ أحدًا مِنَ النَّاسِ كلِّهم؟

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾: أي: بناتُ قومي؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ هو أبو أمَّتِه، أُزَوِّجُكُموهنَّ.

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾: أي: قابلين ما آمرُكُم به.

وقيل: أي: طالبين الاستمتاع.

وقيل: أرادَ به بناتَ نفسِه، وكان يزوِّجُهنَّ منهم إذا أسلموا، وقد شرحناه بأتَمَّ مِن هذا في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ [هود: ٧٨].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: هذه القصَّة وما قبلَها مِن القصص في هذه السُّورة وغيرِها، وورودُها بألفاظٍ مختلفةٍ في آياتٍ دليلٌ على أنَّ العبرة لاتِّفاق المعاني، فإنَّ هذه المخاطَبَاتِ لم تكن مرارًا، بل مرَّة، ومع ذلك وردَتْ على وجوهٍ، فدلَّ أنَّ اختلافَ الألفاظ وتغيُّرَها لا يوجبُ اختلافَ الحُكْمِ بعدَ أنْ[1] لا يغيِّرَ المعنى، وذلك أنَّ الخبرَ إذا أُدِّيَ معناه على اختلافِ لفظِهِ فإنَّه يجوز، وكذا إذا قرئ بعدَ أنْ لا يُغيِّرَ المعنى[2] بغيرِ اللِّسان الذي أُنزِلَ جازَ[3].

---

(١) بعدها في (أ): «كان». وليست في المصدر. انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٣٨).

(٢) «إذا قرئ بعد أن لا يغير المعنى» من (أ).

(٣) كرر الماتريدي هذا المعنى في أكثر من موضع. انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٣٨) (٧/ ٧٥) (٨/ ٥٧٢).

(٧٢) ـ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: وهذا كلامٌ اعتَرض في خلالِ القصَّة، يخاطِبُ اللهُ به[١] نبيَّه محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام، فيقول: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: هو قسمٌ بحياةِ رسولِه، والعُمْرُ والعَمْرُ[٢]: البقاءُ والحياةُ.

واللَّام للتَّأكيد، و(عَمْرُ) رفعٌ بالابتداءِ، وخبرُه مُضمَرٌ، وهو: قسمي؛ أي: وعيشُكَ يا محمَّدُ.

وقال الضَّحَّاكُ: هذا قَسَمٌ بدينِهِ[٣].

﴿إِنَّهُمْ﴾: قومَك مِن قريشٍ ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾؛ أي: حيرَتِهم وضلالِهم التي هي كحالِ سُكْرِ السَّكران ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتردَّدونَ في الباطلِ، غافلِيْن عمَّا أَعَدَّ الله تعالى لأهل معصيتِهِ[٤] نظيرًا لِمَا أنزلَه بقومِ لوطٍ.

وهذا كرجلٍ يذكرُ قصَّةَ قومٍ خرجوا على السُّلطانِ فأُخِذوا وقُتلوا، فإذا ذكرَ بعضَ القصَّةِ وهو يريدُ أنْ يَسْمَعَه قومٌ مثلُهم فعلوا كذلك ولم يعاقبوا بعدُ، فقالَ قبلَ تمام القصَّة: اسمعْ فإنَّ هؤلاءِ في غفلةٍ لا يدرونَ ماذا يحلُّ بهم، ثمَّ يعودُ إلى تمامِ القصَّة.

وقيل: هذا قولُ الملائكةِ لِلُوطٍ أنَّه لَمَّا دعاهم إلى نكاح البنات فلم تنجع فيهم

---

(١) «به» من (أ).

(٢) «والعمر» من (ف).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤٥٥). وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ٢١٩).

(٤) في (ر) و(ف): «المعصية».

الموعظة قالت له الملائكةُ: لَعَمْرُكَ إنَّهم لا يعلمونَ ماذا يُنتظر بهم صباحَ ليلتِهم، فلا تخفْ[١]؛ فإنَّهم لا يصلون إليك ولا إلينا.

والقولُ الأوَّلُ أصحُّ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: واللهِ ما خلقَ اللهُ شخصًا أكرمَ عليه مِن محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، وما سمعْتُ اللهَ أقسمَ بحياةِ أحدٍ إلَّا بحياتِه[٢].

***

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: الهَلَكَةُ؛ صاحَ الزَّمانُ به؛ أي: هلَكَ.

﴿مُشْرِقِينَ﴾: داخلِيْنَ في وقتِ شُروقِ الشَّمس؛ أي: طلوعِها؛ أي: في هذه الحالةِ، وكذلك قوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلِيْن في الصَّباح، وهو هذه الحالة.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: أي: قلبَها جبريلُ بأمرِنا عُلْوًا لسفلٍ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أي: وأرسلْنا عليهم ﴿حِجَارَةً﴾ مِن فوقُ، كالمطر يأتي مِن السَّماء.

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ ذكرنا الأقاويل فيه في (سورة هود).

ثمَّ الإمطارُ مع التَّقليْبِ: قيل: قُذِفوا بالحجارةِ أوَّلًا، ثمَّ قُلِبُوا.

وقيل: التَّقليْبُ كان للحاضرِيْن، والإمطارُ لِمَن شَذَّ منهم.

***

---

(١) في (أ): «تحزن»، وفي (ف): «تجدن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٩).

(٧٥) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: قال مجاهدٌ: أي: للمُتفرِّسين(١).

وقال قتادة: أي: للمُعتبِريْن(٢).

وقال ابنُ زيدٍ: للمُتفكِّريْن(٣).

وقال الضَّحَّاك: أي: للنَّاظرين(٤).

وقال أبو عبيدة: أي: للمتبصِّريْن(٥).

وقيل: النَّاظرين في السِّمة الدَّالة على المراد.

يقول: [إنَّ](٦) في هذه القصَّة لدلائلَ للمعتبِرين المستدلِّين على أنَّ عواقب مَن عصى اللهَ مثلُ ذلك، والأصلُ المعقولُ الموافقُ للأصول: أنَّ كُلَّ مشتبِهَيْنِ فحُكْمُهُما مِن حيثُ اشتباهُهما واحدٌ.

***

(٧٦) ـ ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أي: إنَّ هذه المدينة الَّتي جعلْنَا عالِيَها

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٩٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٩٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٩٧).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٩٥) عن الضحاك وابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٥٤).

(٦) زيادة تقتضيها اللام الآتية في قوله: «لدلائل».

سافِلَها بطريقٍ واحدٍ ثابتٍ، يراها المارُّ بها منكم ـ معاشرَ العربِ ـ في الأسفارِ[١]، لا تزولُ عن مكانها، ولا يخفَى أمرُها، فاعتبروا بها.

* * *

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾: أي: هم المنتفِعون بها.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾: الأيكةُ: الشَّجرُ الملتفُّ. وقيل: الغَيْضَةُ.

ذكرَ هلاكَ قومٍ آخرينَ، وهم قومُ شعيبٍ، وقد مرَّتْ قصَّتُه في (الأعراف) وفي (هود).

ومعنى الآية: وما كان أصحابُ الأيكةِ إلَّا ظالمين أنفسَهم، واضعِيْن الشَّيء في غيرِ موضعِه.

* * *

(٧٩) ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي: عاقبناهم ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؛ أي: المدينتان؛ مدينةُ قوم لوط، ومدينةُ قوم شعيب ﴿لَبِإِمَامٍ﴾؛ أي: لبِطَريقٍ يُؤْتَمُّ ويُتَّبَعُ ويُهْتَدَى به. وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ والضَّحَّاكِ والحسن[٢].

﴿مُّبِينٍ﴾: أي: بيِّن واضح، يمرُّ بها المشركون في أسفارِهم، ويطَّلِعون على آثارِهم.

---

(١) في (أ): «الأعراب» بدل: «العرب في الأسفار».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والضحاك وقتادة.

(٨٠) - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: هو مدينةُ ثمودَ قومِ صالحٍ، وبينها وبين وادي القرى ثمانيةَ عشرَ ميلًا، فيما بينَ[1] الحجاز والشَّام.

ذكرَ قصَّةً أُخرى، وكانَتْ منازلُهم وما نزلَ بهم معروفًا عند العربِ، فذكرَهم اللهُ تعالى ليعتبِروا بهم[2].

قال ابنُ عمرَ رضي الله عنه: مررْنا مع النَّبيِّ ﷺ على الحِجْرِ، فقال: «لا تدخلُوا منازلَ الذين ظَلَمُوا أنفسَهم إلَّا أنْ تكونوا باكِيْنَ، حذرًا أنْ يصيبَكُم ما أصابَهم»، ثمَّ تَزَحْزَحَ حتَّى خَلَّفَها[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: رسولَهم صالحًا، وفي تكذيبِهِ تكذيبُ كلِّ الرُّسل.

* * *

(٨١) - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: جئناهم بأدلَّتِنا وحُجَّتِنا، ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: لم يتفكَّروا فيها، ولم يعتبِروا بها.

ثمَّ جمعُ الآياتِ: يحتملُ أنْ يكونَ أعطاهم آياتٍ سِوى النَّاقة، ولم تُذْكَرْ في القرآنِ.

ويحتملُ أنْ تكونَ النَّاقةُ وحدَها آياتٍ، وهي أنَّها كانت مِن الصَّخرة، وتحرَّكَتِ

---

(١) في (أ): «وراء».

(٢) «بهم» ليس في (أ) و(ف).

(٣) رواه البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

الصَّخرةُ لخروجِها، ووِرْدُها يومًا وتركُها يومًا، والانتصابُ لهم حتَّى غلبوها، وصدورُها في طريقٍ غير الطَّريق التي وردَتْ لأنَّه كان يضيقُ عنها(١)، وغيرُ ذلك مِن أمورِها، كلُّ ذلك آياتٌ، وكلُّ واحدٍ مِن ذلك آيةٌ.

* * *

(٨٢) ـ ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾: أي: لأنفسِهم لشدَّة قوَّتِهم ﴿ءَامِنِينَ ﴾ مِن الموتِ عندَ أنفسِهم.

وقيل: مِن نزول العذاب بهم في ظنِّهم، كقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ﴾ [الحشر: ٢].

وقيل: ﴿ءَامِنِينَ ﴾: أنْ تَخِرَّ عليهم، أو تخربَ لإحكامِ صُنْعِها.

* * *

(٨٣ ـ ٨٤) ـ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾: أي: الهَلَكة ﴿مُصْبِحِينَ ﴾؛ أي: داخلِين في صباح اليوم الرَّابع الذي أُوْعِدوا فيه العذابَ، وهو كقوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾: أي: ما نفعَهم وما دفعَ عنهم ما كانوا يكسبون مِن الأموال، وغيرِها من البيوتِ في الجبال.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ ﴾ يحتمِلُ الاستفهامَ، ويحتمِلُ النَّفي، وهو تنبيهٌ

---

(١) في (ف): «عليها».

لأهـل مكّـةَ، يقول: كانوا أشـدَّ منكم قـوَّة وأكثرَ أموالًا، فلـم يُغْنِ ذلك عنهم شـيئًا، فكيف حالكم؟

***

(٨٥) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: إنَّ الأممَ الَّذين عرفتُموهم يا معاشر العرب ـ ومساكنُهم على ممرِّكُم ـ لَمَّا خالفوا الحقَّ أُهْلِكوا؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحقِّ، والسَّاعةُ آتيةٌ للجزاءِ، وجميعُ ما خلَقَ يرجِعُ إلى عالِمٍ به وبتدبيرِهِ[1] ونظمِ أجزائِه.

بيَّنَ في أوَّلِ السُّورةِ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ، وذَكَرَ[2] هاهنا الحكمةَ في خلقِهما فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحقِّ الذي جعلَ لنفسِهِ على أهلِها، وللحقِّ الَّذي لبعضِهم على بعضٍ.

وقيل: أي: إلَّا شهوداً للهِ بالحقِّ على أهلِها.

وقيل: إلَّا ليمتحنهم بالعبادةِ فيها.

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لحقٍّ كائنٍ، وهو البعْثُ بعدَ الموتِ للجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾: أي: إنَّ القيامةَ لَكائنةٌ، فيُجْزَى كلُّ عاملٍ على وَفقِ عملِه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾: أي: فأعرضْ يا محمَّدُ عن هؤلاء

---

(١) في (أ): «وتقديره».

(٢) في (أ): «وبين».

المشركين إعراضًا جميلًا، كما قال: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]؛ أي: لا تكافيهم بما آذَوك بألسنَتِهم وفعلِهم؛ فإنَّ السَّاعة آتيةٌ، وأنا أكافيهم عنك.

ووصفَه بـ﴿ٱلْجَمِيلَ﴾ على معنى: لا تتركْ نصيحَتَهم ودعاءَهم إلى الحقِّ مع ذلك.

وقيل: كان هذا أمرًا بالإعراض عن قتالِهم، ثمَّ نُسِخَ بآيةِ القتال. وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة والضَّحَّاك(١).

وقيل: ليس هذا بمنسوخٍ، بل هو كان مأمورًا بالصَّفحِ في موضعِهِ، وبالقتالِ في موضعِهِ، كما قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، فهو أمرٌ بالإعراضِ في موضعِه، وبالوعظِ في موضعِه.

* * *

(٨٦) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: بخلقِهِ، لا تخفَى عليه أفعالُهم وأقوالُهم وضمائرُهم، ونجزيهم يومَ القيامةِ على استحقاقِهم.

* * *

(٨٧) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: ذكَّرَهُ منَّتَهُ فيما أعطاه؛ ليَسْهلَ عليه تحمُّلُ إيذاءِ المشركين إيَّاه، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾؛ أي: أعطيناك سبعًا من المثاني.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٧) عن قتادة والضحاك ومجاهد وسفيان بن عيينة. وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ١٧٠) عن عكرمة.

روى أبيُّ بنُ كعبٍ وأبو هريرة وأبو سعيدٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «هي فاتحةُ الكتاب»[(١)].

وكذا فسَّره عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه[(٢)].

وعلى هذا قولُه: ﴿سَبْعًا﴾؛ أي: سبعَ آياتٍ مِن المثاني، و(من) ليسَ للتَّبعيض بل هي للتَّجنيس هنا، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾: وهي المثاني؛ أي: الفاتحة، لأنَّها تُثَنَّى في كُلِّ صلاة[(٣)]، ولأنَّ معانيَها من أوَّلها إلى آخرها على المثاني، على ما مرَّ شرحُه في (سورة الفاتحة)، ولأنَّها أَثْنيَةٌ على اللهِ تعالى، ولأنَّها قسمان اثنان.

وقيل: ﴿الْمَثَانِي﴾: اسمُ القرآن، ومعنى ﴿سَبْعًا﴾؛ أي: سبعَ آياتِ الفاتحة، وهي مِن المثاني؛ أي: مِن القرآن الَّذي هو مثاني، قال تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، وسُمِّيَ به لأنَّه ثنَّى فيه الأقاصيص والأمثال والتَّرهيب والتَّرغيب، تأكيدًا للحُجَّة، وإبلاغًا في الإفهام.

وقيل: هو مِن قولهم: ثنَى عِنانَه، وثنَاه عن كذا: إذا صرَفَه، وهي مصارفُ عن المعاصي لِمَن عملَ بها.

---

(١) حديث أبي بن كعب رضي الله عنه رواه الترمذي (٣١٢٥)، والنسائي (٩٨٨).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه رواه البخاري (٤٧٠٤).

وحديث أبي سعيد بن المعلى رواه البخاري (٤٧٠٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٢)، والثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٤١).

(٣) في (ف): «في كل سورة وصلاة».

وقيل: ﴿سَبْعًا﴾؛ أي: سبعَ[(١)] سورٍ ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾؛ أي: مِن القرآن.

قال ابنُ مسعودٍ وابنُ عمرَ وابنُ عبَّاسٍ وجماعةٌ مِن التَّابعين: هي السَّبعُ الطِّوال[(٢)].

والأوَّلُ أصحُّ.

قال الرَّبيع بن أنسٍ رضي الله عنه: نزلَتْ هذه السُّورة بمكَّة قبلَ أنْ ينزلَ مِن الطُّوَلِ شيءٌ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾: قيل: هو جميعُ القرآنِ، والسَّبع المثاني منه، لكنه أفردَها بالذِّكر تخصيصًا وتشريفًا له، كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقولِهِ تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقيل: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ هو الفاتحة، ويدلُّ عليه قولُ النَّبيِّ ﷺ في حديث أُبيِّ بنِ كعبٍ: «هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ»[(٤)]. وهو بعضُ القرآن، ولكنَّ بعضَ القرآن يُسمَّى قرآنًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

---

(١) «سبع» من (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٧) عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم.
ورواه أبو داود (١٤٥٩)، والنسائي (٩١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٩٧).

(٤) ورد في حديث أبي بن كعب وحديث أبي سعيد بن المعلى وحديث أبي هريرة رضي الله عنه التي تقدم تخريجها قريباً.

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: هي سبعةُ الأسباع، وهي كلُّ القرآن[١].

* * *

(٨٨) ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: قيل: قَدمَتْ لأبي جهلٍ ـ لعنه الله ـ في يومٍ واحدٍ سبعُ قوافل للتِّجارة، معها مالٌ كثيرٌ وطعام[٢] ومطاعم وثياب، وكان بأصحاب رسول الله ﷺ يومَئذٍ عُرْيٌ وجوعٌ، فخطرَ بقلب رسول الله ﷺ أنَّ أصحابَه ليس لهم قَدْرُ الحاجة، وللمشركين هذه الأموال بهذه الكثرة، فنزلَتْ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بدل ما أعطيناهم سبعًا من القوافل، وهم لا يمدُّون أعينَهم إلى هذه السَّبع مع عظمتِها، فلا تمدنَّ عينَيْكَ إلى دنياهم مع خساستِها[٣].

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾: أي: لا تتمنَّينَّ يا محمَّدُ ما جعلناه من زينةِ الحياة الدُّنيا متاعًا للأغنياء مِن هؤلاء المشركين ممَّا قد جعلْنا مثلَه لأشباهِهم، وهو معنى قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أشباهًا.

---

(١) روى الطبري نحوه في «تفسيره» (١٤/ ١٢١) عن الضحاك، ولفظه: «المثاني: القرآن، يذكر الله القصة الواحدة مرارًا». وشرحه ما قال الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٥١ ـ ٣٥٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٢): سمِّي القرآن مثاني لأن القصص ثنيت فيه، وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن، ويكون فيه إضمار تقديره: وهي القرآن العظيم.

(٢) «كثير وطعام» ليس في (أ).

(٣) نقله عن المصنفِ الصفوريُّ في «نزهة المجالس» (١/ ٣٦)، وانظر: «السيرة الحلبية» (١/ ٣٩٧).

وقيـل: أي: أفـرادًا، فـإنَّ الزَّوجَيْن فـردان؛ أي: أعطينا ذلك واحـدًا بعدَ واحدٍ؛ لأنَّ الغِنـى خـاصٌّ في النَّـاس، وإذا كان مَتاعًـا[١] كان زائلًا عن قريب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: قيل: كان تمنِّيه ذلك لفقر[٢] أصحابِه، فقيل له: لا تحزنْ لأجلِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: تواضعْ لهم، فتواضعُكَ لهم خيرٌ مِن مَرافق الدُّنيا[٣]، وتَطيبُ بذلك قلوبُهم، وتزول كروبُهم.

وقيل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفَّار بما أصابوا مِن نعيم الدُّنيا.

وقيل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بفقد إيمانهم بالله وطاعتهم له ومتابعتهم لك.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هلاك الكفَّار، فللهلاكِ خلقَهم[٤].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: قيل: أصلُ هذه الكلمة أنَّ الطَّائر إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسِه بسطَ جناحَه له، ثمَّ خفضَه على الفرخ، فجعل ذلك وصفًا لتقريب الإنسانِ أتباعَه وتعطُّفِه عليهم.

وقـال القشيريُّ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾: غارَ الحقُّ سبحانَه على عينِ حبيبِهِ أنْ

---

(١) في (ف): «وإن» بدل من «وإذا كان متاعًا».

(٢) في (أ) و(ف): «لفقراء».

(٣) في (أ): «الحياة».

(٤) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ٢٢٠).

وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٦٢) دون نسبة، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٢) عن الكلبي.

يستعمِلَها في النَّظرِ إلى المخلوقاتِ، ولَمَّا لم يكن في الدُّنيا إلى رؤيةِ الحبيبِ سبيلٌ أمرَهُ بغضِّ بصرِه عن غيرِ الحبيبِ(١). وأنشد(٢):

لَمَّـا تيقَّنْـتُ أنِّـي لسْـتُ مبصرَكُـم غَمَّضْـتُ عيني فلم أنظـرْ إلى أحد(٣)

وتأدَّبَ بهذا الأدبِ، فلم ينظرْ في ليلة المسرى إلى ما أُري(٤) في الحضرة الكبرى، فأثنى عليه في قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧](٥).

***

(٨٩ ـ ٩٠) ـ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾: أي: وقلْ يا محمَّدُ للمشركين بعدَ خفضِ الجناحِ للمؤمنين: إنِّي أنا المخوِّفُ بالعذاب المصرَّح(٦) به ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾؛ أي: بمثل عذابٍ نزلَ بهؤلاء، وصحَّ قوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿إِنِّي﴾ لأنَّ معنى قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: وأنذِر، ويستقيمُ أنْ يُقال: وأنذرهم عذابًا كما أنزلنا.

---

(١) في (ف): «عن الغير».

(٢) «وأنشد» من (أ).

(٣) نسب لأبي بكر الشبلي. انظر: «الأمالي» للجرجاني (٢/ ٩٣)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٣٩٢).

(٤) في (ف): «فلم ينظر إلى ما نهي عنه بمد البصر ففي ليلة الإسراء».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٨٠).

(٦) «المصرَّح» كذا ضبطت في (أ) بفتح الراء، فتكون الحاء مكسورة، والكلمة صفة العذاب، ويجوز كسر الراء ورفع الحاء على أنها خبر آخر لـ(إنِّي).

وقال الحسن: هو عطفٌ على قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ ... كَمَآ أَنزَلْنَا﴾؛ أي: تفضَّلْنا عليك بهذا كما تفضَّلْنا بهذا[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: مِن مشركي العرب، وكانوا اثني عشر رجلًا[٢].

وقال مقاتل: كانوا ستَّة عشرَ رجلًا، بعثهم الوليد بن المغيرة في أيَّام الموسم حتَّى قعدوا على أنقابِ مكَّة ودروبها وأبوابها، فإذا جاء الحُجَّاج قال فريق منهم: لا تغترُّوا بالخارج منا المدَّعي للنُّبوَّة فإنَّه مجنون. وقالت طائفةٌ أخرى: إنَّه كاهن. وقالت طائفة ثالثة على طريق ثالث[٣]: إنَّه[٤] عرَّاف. وقالت طائفةٌ أخرى: شاعر. والوليدُ قاعدٌ على باب المسجد، نصَّبوه حكَمًا، فإذا سُئِلَ عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: صدق هؤلاء[٥]؛ يعني: المقتسمين[٦].

وسُمُّوا مقتسمين لأنَّهم اقتسموا أنقاب مكة.

---

(١) ذكره مقاتل. انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٣٦)، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤١٧) عن مقاتل.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٥٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أنه ذكر أنهم ما بين ثمانية وثلاثين إلى الأربعين. وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أهل الكتاب، رواه البخاري (٤٧٠٥)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٢٩ ـ ١٣٠). وسنذكر لفظه قريباً.

(٣) «على طريق ثالث» ليس في (ف).

(٤) في (أ): «هو».

(٥) في (أ): «أولئك».

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٣٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٥٨).

وقال مقاتل بن حيَّان: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: الَّذين اقتسموا القرآن، فقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضُهم: سَمَرٌ، وقال بعضُهم: كذبٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلين(١).

وقيل: هم أهل الكتاب، اقتسموا القرآن وعَضَوْه(٢)، وآمنوا ببعضِه، وهو ما كان فيه ذِكْر موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وفضائل بني إسرائيل، وكفروا ببعضِه ممَّا قد حرَّفوه مِن كتبِهم، وهو ما قال خبرًا عنهم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢].

* * *

(٩١) - ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾: جمع عِضَةٍ، وهو مِن التَّعضيةِ، وهي التَّفريق، ومِن ذلك العضوُ والأعضاءُ، والعِضَةُ حذفت الواو مِن آخرها، كالبُرَة والثُّبَة والكُرَة والعِزَة(٣).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٥٣)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٦١).

(٢) «وعضوه» من (أ) و(ر)، وهو يشير إلى ما رواه البخاري (٣٩٤٥) عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: هم أهلُ الكتابِ، جَزَّءُوه أجزاءً فآمَنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه، يعني قولَ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾. ورواه (٤٧٠٥) بلفظ: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال: آمَنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، اليهودُ والنصارى.

(٣) البُرَةُ محذوفة اللام: حلقة تُجعل في أنف البعير، وجمعها: بُرُون. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: بري).

والثُّبَة: العصبة من الفرسان، وجمعها: ثُبات وثُبون. انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: ثبى).

والكرة: ما أدرت من شيء، وجمعها: كُرين، وكِرين، وكرًى وكرات. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزابادي (مادة: كرى).

=

وقيل: العِضة أصلُها: العِضْهَة، حُذفَتْ هاؤها تخفيفًا، كالسَّنة أصلها: السَّنْهَة، حذفت هاؤها تخفيفًا، وكذلك الماء والشَّاة، أصلها الماه والشَّاهة، ودليل ذلك التَّصغيرُ والفِعل: مُوَيْهٌ وشُوَيْهةٌ وسُنَيْهَةٌ[١]، وسانهْتُ فلانًا، وموَّهْتُ السِّكين[٢].

وهاهنا أيضًا يقال: يا للعَضِيهة[٣]، والعاضهُ: الباهت، وعضهْتَ الرَّجل: رميتَه بالباطل، والعِضْهة: البُهْتُ والقول الباطل.

ومعناه: أنَّهم عابوا كتابَ اللهِ باهتين، قائلين بالباطل: إنَّه سحرٌ، وإنَّه كهانةٌ، وإنَّه كذبٌ، وإنَّه مفترًى، وإنَّه أساطير الأوَّلين.

وقال الفرَّاء: العِضةُ: السِّحرُ[٤]، وأنشد:

للمـــاءِ مِـــن عِضاتِهـــنَّ زمزمَـــه[٥]

أي: من سحرهنَّ.

* * *

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

= والعِزة: الطائفة من الناس، والهاء عوض عن اللام المحذوفة وهي واو، والجمع: عِزُون. انظر: «المصباح المنير» (مادة: عزز).

(١) «وسنيهة» من (أ).

(٢) أي: سقاها الماء، وذلك حين يَسنُّها به، ذكره في «التاج» في معنى: أماهَ السكِّين.

(٣) العَضيهَةُ: البهيتةُ، وهي الإفك والبهتان، وقولهم: يا لِلعَضيهةِ بكسر اللام على معنى: اعْجَبوا لهذه العَضِيهَة، يقال ذلك عند التعَجُّب من الإفك العَظيم، فإذا نَصَبْتَ اللامَ فمعناه الاستغاثة. انظر: «التاج» (مادة: عضه).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٢).

(٥) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٣٧) دون نسبة.

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: في الآخرة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الاقتسامِ، وتعضيةِ القرآنِ، والشِّركِ والمعاصي، وهو سؤالُ تقريعٍ وتوبيخٍ لا سؤالُ استفهامٍ واستعلام.

وقال القشيريُّ: يسألُ قومًا عن تصحيحِ أعمالِهم، وقومًا عن تصحيح أحوالهم.

يسألُ قومًا عن حركات ظواهرِهم، وآخرين عن خَطَراتِ سرائرِهم.

يسألُ الصِّدِّيقين[1] عن تصحيحِ المعاني تشريفًا لهم، ويسألُ المدَّعين عن تصحيح الدَّعاوي تعنيفًا لهم[2].

***

(٩٤) ـ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: قيل: أي: أَظْهِرْ ما تُؤْمَرُ به.

والصَّدْعُ في اللُّغةِ: هو الشَّقُّ والفَرْقُ والفَتْحُ، وتصدَّعَ القومُ؛ أي: تفرَّقوا، ويقع به الإظهار.

وقيل: أي: فرِّقِ الباطلَ بالحقِّ؛ أي: الَّذي أنزلناه[3] عليك، والشَّقُّ يقعُ به ذلك.

وقيل: أي: امضِ بما تُؤْمَر؛ أي: بأمرِ اللهِ، وأرادَ به تبليغَ[4] الرِّسالة إلى جميعِ الخَلْقِ، ومتى شُقَّ الحائل تهيَّأ المضيُّ.

---

(١) في (ف): «المتقين».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٨٢).

(٣) في (أ): «أنزلته».

(٤) في (أ): «أي امض بأمر الله وإرادته بتبليغ».

و﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ بمعنى المصدر على هذا القول، كما في قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧].

وقال القشيريُّ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: كُنْ بنا، وقُلْ بنا، وإذا كنْتَ لنا بنا فلا تحتفلْ بغيرِنا، وصَرِّحْ بما خصصناكَ به، وأعلِنْ محبَّتنا[1] لك:

فَبُحْ باسْمِ مَن تهوَى ودَعْنِي مِنَ الكُنَى فلا خيرَ في اللَّذَّاتِ مِن دونِها سِتْرُ[2]

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي: عن مكافأتهم.

وقيل: عن قتالهم، ونُسخ هذا بآيةِ السَّيف.

***

(٩٥) ـ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾: أي: نكفيكَ، فذكره بصيغة الماضي لِقُرْبِهِ وتحقُّقِ كونه، كأمور القيامة ذُكِرَتْ أكثرُها بصيغة[3] الماضي لهذا.

قال محمَّدُ بنُ إسحاق: حدَّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزُّبير: أنَّهم كانوا خمسةَ نفرٍ ذوي أنسابٍ وشرفٍ في قومِهم.

من بني أسدِ بنِ عبد العُزَّى بن قصيٍّ: الأسود بن المطَّلب[4] بن أسد أبو زَمعَة،

---

(١) في (ر): «بمحبتنا».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٨٢)، والبيت لأبي نواس. انظر: «ديوانه» (ص: ٢١٢)، المكتبة التجارية، مصر.

(٣) في (أ) و(ف): «على صيغة» في الموضعين.

(٤) في النسخ: «قصي بن الأسود بن عبد المطلب»، والمثبت من «سيرة ابن هشام».

وكان رسولُ اللهِ ﷺ دعا عليه لِمَا كان يبلغُه مِن أذاه واستهزائِه به، فقال: «اللَّهمَّ أعمِ بصرَه، وأثكلْهُ ولدَه».

ومن بني زُهْرة: الأسودُ بن عبد يَغُوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة.

ومن بني مخزوم: الوليدُ بن المغيرة بن عبد الله بن عَمرو بن مخزوم.

ومن بني سهمِ بن عَمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاصُ بنُ وائلِ بن هاشمِ بن سعيد بن سهم.

ومن بني خزاعة: الحارث بنُ طُلاطِلَة بن عَمرو بن الحارث بن عبد عَمرو بن مَلَكان.

فلمَّا تمادَوا في الشَّرِّ وأكثروا الاستهزاء، أنزلَ اللهُ تعالى عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وكان مِن أمرهم أنَّ جبريل عليه السَّلام أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف في البيت، فقامَ وقامَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى جنبِهِ، فمرَّ به الأسودُ بنُ المطَّلب[١]، فرماه في وجهِه بورقةٍ خضراء، فعَمِي.

ومرَّ به الأسودُ بن عبدِ يغوث، فأشارَ إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فماتَ منه حَبَنًا[٢].

ومرَّ به الوليدُ بن المغيرة، فأشارَ إلى أثرِ جرحٍ بأسفل كعبِ رجلِه كانَ أصابَه قبلَ ذلك بسنين، فانتقض به فقتلَه.

---

(١) في النسخ: «الأسود بن عبد المطلب»، والمثبت من «سيرة ابن هشام».

(٢) الحبن: داء في البطن يعظم منه ويرم. انظر: «القاموس المحيط» للفيروزابادي (مادة: حبن).

ومرَّ به العاصُ بنُ وائلٍ، فأشارَ إلى أخمصِ رجلِه، فخرج على حمارٍ له يريد الطَّائفَ، فَوُقِصَ على شِبْرِقَةٍ[١]، فدخلَتْ في أخمصِ رجلِه منها شوكةٌ فقتلَتْهُ.

ومرَّ به الحارثُ بنُ الطُّلاطِلَة، فأشار إلى رأسِه، فامتَخَضَ قيحًا فقتلَه[٢].

وكان رأسُهم الوليدَ بن المغيرة، هو الَّذي جمعَهم[٣].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كانوا خمسةً؛ الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطَّلب[٤].

وقال مقاتل: كانوا سبعةً، وزاد على هؤلاء: بَعْككاً وأصرمَ[٥].

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: وكان جبريل عندَ النَّبيِّ ﷺ، فمرَّ الوليدُ بن المغيرة، فقال جبريل: ما تقولُ فيه يا محمَّد؟ قال: «أقول فيه: إنَّه عبدُ سوءٍ»، فأشار جبريلُ إلى أخمصِ رجلِه، وقال: لقد كُفِيْتَ أمرَه، قال: فندرَتْ[٦] شظيَّة، فتعلَّقَتْ

---

(١) الشبرق: نبت حجازي يؤكل وله شوك، وإذا يبس سمي الضريع. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٤٠) (مادة: شبرق).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٦)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه مطولًا الطبراني في «الأوسط» (٤٩٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٨)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٦)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥) عن مقسم مولى ابن عباس، وهو شبيه بما تقدم عن ابن إسحاق من ذكر قصة هلاكهم واحداً واحداً، وسيأتي بتمامه قريباً. ووقع في النسخ: «الأسود بن عبد المطلب»، والمثبت من المصادر.

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٤٠). ووقع في النسخ: (بعكك) بالرفع والصواب المثبت.

(٦) في (أ): «فمر بنبال»، وفي (ر): «قال فبدرت». وقد جاء في بعض رواياته أنه مر برجل يريش نبلاً فأصاب أبجله فقطعها، وفي أخرى أنه تعلق سهم بردائه فقطع أكحله.

ببردِه، وكان عليه بردةٌ يتبخترُ فيها، فمنعَه الكبرُ أنْ ينزعَها منه، فهبَّتْ ريحٌ، فأسقطَتْه على يدِه، فأصابَتْ أكحلَه، فمات منه.

ومرَّ به العاصُ، فقال جبريل عليه السلام: ما تقول فيه؟ فقال: «عبدُ سُوءٍ»، فأشار إلى ظهرِه، وقال: قد كُفِيْتَ أمرَه. فَخَرَجَ متنزِّهًا مع بَنِيْهِ في شِعْبٍ مِن شِعابِ مكَّة، فصاح وقال: قد لُدِغْتُ، ففتَّشوا، فلم يجدوا شيئًا، ومات منه.

ومرَّ الحارث بن قيس، فقال جبريل عليه السلام: ما تقول فيه؟ فقال: «عبدُ سُوءٍ»، فأشار إلى بطنِه وقال: قد كُفِيْتَ أمرَه. فأكلَ سمكةً مالحةً، فعطشَ، فجعل يشربُ ولا يَروَى، حتى انفطرَ بطنه، ومات(١).

ومرَّ به الأسودُ بنُ المطَّلب، فقال جبريل عليه السلام: ما تقول فيه؟ فقال: «عبدُ سُوءٍ» فأشار إلى عينِه فعمِيَ، فتوجَّعَتْ عينُه، فجعل يضربُ رأسَه في الجَدْر(٢) حتى هلك، وكان رسول الله ﷺ قال: «اللَّهمَّ أعمِ بصرَه».

ومرَّ به الأسودُ بن عبد يغوث، فقال جبريل عليه السلام: ما تقول فيه؟ فقال: «عبدُ سُوءٍ»، فأشار إلى جسدِه، فخرج إلى البادية، ورجع وقد اسودَّ وجهُه وجلدُه كلُّه، فقرعَ الباب، فأنكرَه أهلُه، فلم يفتحوا له حتَّى مات(٣).

---

(١) «ومات» من (أ).

(٢) في (أ): «بالجدار».

(٣) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥) عن مقسم مولى ابن عباس، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٨)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٦)، من طريق جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ورواه ابن حبيب النيسابوري في «عقلاء المجانين» (ص: ٩ ـ ١٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر نحوه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٥)، دون نسبة.

قال مقاتل: وأمَّا بَعككٌ فأخذَتْه الدُّبَيْلَةُ[١] فمات، وأمَّا أصرمُ فأخذَتْه ذات الجَنْب[٢] فمات.

فماتوا في يومٍ وليلةٍ، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[٣].

* * *

(٩٦) ـ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: هي صفة ﴿الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: ما ينزل بهم عاجلًا وآجلًا، ودلَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ قولَه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾؛ أي: نكفيْكَ.

* * *

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾: أي: نحن عالمون أنَّ صدرَكَ يضيقُ بما يقولُ هؤلاء المشركون فيك وفي القرآن مِن الفِريةِ والباطل، ويحزِنُكَ ذلك، فلا يضيقَنَّ صدرُكَ، ولينكشِفْ عنك حزنُكَ، وليكُنْ مفزعُكَ إلى ذِكْرِنا وعبادَتِنا، وذلك قوله:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وهذا قولٌ ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ أي: من المصلِّين، وهذا فعلٌ.

---

(١) الدبيلة: هي خراج ودمل كبير تظهر في الجوف فتقتل صاحبها غالباً، وهي تصغير دبلة. وكل شيء جمع فقد دبل. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (مادة: دبل).

(٢) ذات الجنب: هي الدبيلة والدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وتنفجر إلى داخل، وقلما يسلم صاحبها. انظر: «النهاية» (مادة: جنب).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٤٠).

(٩٩) ـ ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾: أي: وأقم العبادة والعبوديَّة لربِّكَ إلى أن يأتِيَكَ المتيقَّنُ مِن وعدِ اللهِ بما يُنزِلُ اللهُ بهؤلاءِ، وسَمَّى العذابَ يقينًا كما سماه[1] حقًّا في آياتٍ.

وقيل: ﴿ٱلۡيَقِينُ ﴾: الموتُ. وهو قولُ الضَّحَّاكِ وغيرِه[2].

ورُوي أنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ لَمَّا توفِّي جاءَه النَّبيُّ ﷺ وقال: «أمَّا هذا فقد جاءَه اليقين»[3].

وقال الحسنُ: المداومةَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يجعل لعمَلِ ابنِ آدمَ أجلاً[4] إلَّا الموت، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[5].

وسُمِّيَ الموتُ يقينًا لوجهَيْن:

أحدهما: أنَّه بمعنى المتيقَّن، مصدرٌ بمعنى المفعول.

والثَّاني: أنَّه يزول به كلُّ شكٍّ.

ولَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قال النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام: «ما أوحى اللهُ إليَّ أنْ أجمعَ المالَ وأكونَ مِن التَّاجرين، ولكنْ أوحى إليَّ أنْ سبِّح بحمدِ ربِّك وكُنْ من السَّاجدين، واعبُد ربَّك حتَّى يأتِيَكَ اليقين»[6].

---

(١) في (ر) و(ف): «وسمِّي العذاب يقينا كما سمي».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥) عن سالم بن عبد الله ومجاهد وقتادة والحسن وابن زيد.

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٧) من حديث خارجة بن زيد رضي الله عنه.

(٤) في (ر): «حدًّا».

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٨)، والإمام أحمد في «الزهد» (١٥٤٨).

(٦) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٣١٦)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في =

وقال القشيريُّ رحمَه الله: يقولُ: إنْ ضاقَ قلبُكَ بسماعِ ما يقولون في ذمِّك، فارتعْ بلسانِكَ في رياضِ تسبيحِنا والثَّناء علينا، يكنْ ذلك سببًا لزوالِ ضِيقِ صدرِكَ وسلوةً لقلبِكَ.

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾: قفْ على بساطِ العبوديَّة معتنقًا للخدمة إلى أنْ تجلسَ على بساطِ القُربةِ، وتُطالَب بآداب الوصلة.

ويُقال: التزِمْ شرائطَ العبوديَّة إلى أن تُلَقَّى بصفات الحرية، وأَشرفُ خصالِكَ العليَّةِ قيامُك بحقِّ العبوديَّة[1].

وأُنشِدَ في معناه:

لا تَدْعُنِـــي إلا بيـــا عبدَهـــا فإنَّـــه أصـــدقُ أســـمائي[2]

والحمد لله رب العالمين

* * *

= «حلية الأولياء» (٢/ ١٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٧)، من حديث أبي مسلم الخولاني مرسلاً.

ورواه الجرجاني في «تاريخ جرجان» (ص: ٣٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ٥٠٥): رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٨٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٦ و٢٩٦). وعزاه المستعصمي لأبي عبد الله المعري. انظر: «الدر الفريد» (١١/ ١٤٣).

سُورَةُ النَّحْلِ

سُورَةُ النَّحلِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي تَعالَى عمَّا يشركون، الرحمنِ الَّذي جعلَ لعبادِه السَّمع والأبصار والأفئدةَ لعلَّهم يشكرون، الرحيمِ الذي هو مع الذين اتَّقَوا والذين هم محسنون.

وسورة النَّحل مكيَّة إلَّا ثلاثَ آياتٍ نزلَتْ بالمدينة بعدَ قتل حمزة بن عبد المطَّلب عمِّ رسول الله ﷺ، وهي قوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ﴾ إلى آخر السُّورة.

وهي مئةٌ وثمانٍ وعشرون آية، وألفٌ وثماني مئةٍ وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وستُّ مئة وتسعة وثلاثون حرفًا.

وروى أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأَ سورةَ النَّحل لم يحاسبْهُ اللهُ يومَ القيامةِ بما أنعمَ عليه في دار الدُّنيا، وإنْ ماتَ مِن يومِ تَلاها أو ليلةِ تلاها كانَ له مِن الأجرِ كالَّذي ماتَ فأحسنَ الوصيَّة»[1].

وانتظامُ أوَّل هذه السُّورة بآخرِ سورة الحجر: أنَّه ختمَ تلكَ السُّورة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، ثمَّ قرَّب ذلك الآتي فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

وانتظامُ السُّورتَيْن: أنَّه ذكرَ في تلك السُّورة دلائلَ التَّوحيد، ووعيدَ الكافرين، ووَعْدَ المؤمنين، وذلك كلُّه دعاءٌ إلى التَّوحيد، وذكرَ في هذه السُّورة نِعمَه على

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٥)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٥). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وقال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

عبادِه، وهو استدعاءٌ للشُّكر(١) مِن العبيد، وهو الإيمان والطَّاعة(٢) على التَّأبيد، استبقاءً للنِّعمة(٣) واستجلابًا للمزيدِ.

***

(١) - ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾: أي: أتى عذاب الله وعيدًا فلا تستعجلوه وقوعًا.

قال النَّضرُ بن الحارث بن علقمة: اللَّهمَّ إنْ كانَ ما يقولُه محمَّدٌ حقًّا فأمطرْ علينا حجارةً مِن السَّماء. فنزلَتْ هذه الآيةُ جوابًا له(٤).

وهذا مِن الجواب المفصول، وكذا قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١].

وقيل(٥): ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: دنا مجيءُ عذاب الله، كقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: ٢٤]؛ أي: عذابنا.

وقيل: أي: أمرنا بالعذاب.

وقيل أي: عذابنا المأمور به.

وقيل: هو عذاب السَّاعة.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا نزلَتْ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ الآية،

---

(١) في (أ): «استبداء للشكر»، وفي (ف): «استبداد الشكر».

(٢) في (أ): «بالإيمان والطاعات».

(٣) في (أ): «للنعيم».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٦)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٧).

(٥) في (ر) و(ف): «وقوله تعالى».

أشفقَ المشركون، فانتظروا قربَ السَّاعة، فلمَّا امتدَّت الأيَّامُ قالوا: يا محمَّد، ما نرى شيئًا ممَّا تخوِّفنا به، فنزلَتْ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فقالوا: يا محمَّد، أينَ ما تعدُنا به مِن نزول[1] العذاب؟ فنزلَتْ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، فوثَبَ النَّبيُّ ﷺ حذرًا مِن وقوعِ السَّاعة، فنزلَ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنَّ رسولُ الله ﷺ[2].

وقال مقاتل بن حيَّان: لَمَّا أخبرَ النَّبيُّ ﷺ المشركين بالسَّاعة كذَّبوا بها، فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فقال النَّبيُّ ﷺ عندَ ذلك: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعة كهاتَيْن، إنْ[3] كادَتْ لتسبقني»، وأشار بأصبعيه[4].

وقال ابنُ جريجٍ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: السَّيف والأمر بالقتال[5].

وقال الضَّحَّاك: يعني ما كانوا يستعجلون به من الفرائض والشَّرائع[6].

---

(١) «نزول» ليس في (أ) و(ف).

(٢) ذكر نحوه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٦٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٥)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ٢٢١).

(٣) في (ف): «أو».

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٦) تتمة لحديث ابن عباس رضي الله عنهما السابق.

وقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» رواه البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ١٧٨).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٦). قال ابن كثير عند هذه الآية: وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فرائضه وحدوده، وقد ردَّه ابن جرير فقال: لا نعلم أحدًا استعجل الفرائض والشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعادًا وتكذيبًا.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهًا لله عمَّا يقول المشركون.

وقيل: أي: هو مُسبَّح مُقدَّس على ألسنة الملائكة والمؤمنين من الجنِّ والإنس، وفي شهادات الخليقة له بالفطرة مِن أهل السَّماوات والأرضين، كما قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: قرأ الكسائيُّ بتاء الخطاب بناءً على قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وقرأ الباقون بياء المغايبة(١).

ومعناه: تباعدَ عن شِرْكِ المشركين، فلا يجوز وصفُه بالشُّركاء والأنداد.

* * *

(٢) ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾: قرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو بياء المغايبة والتَّخفيف ونصب ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: يُنْزِلُ اللهُ الملائكةَ، وقرأ الباقون بالتَّشديد مِن التَّنزيل(٢)، وهو كالإنزال.

وروى أبو بكر عن عاصم: ﴿يُنَزَّلُ﴾ على ما لم يُسمَّ فاعلُه بالياء والتَّشديد ورفع ﴿الملائكةُ﴾(٣).

﴿بِٱلرُّوحِ﴾؛ أي: بالكتاب الَّذي فيه حياةُ القلوب مِن موتِ الضَّلالة.

---

(١) وقرأ بالتاء أيضاً حمزة. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٢١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٥).

(٣) ذكرها ابن مجاهد في «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٠). والفارسي في «الحجة» (٥/ ٥٣)، وهي خلاف المشهور عنه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: الرُّوحُ: الوحيُ[١].

وقال عطاء: النُّبوَّة[٢].

وقال قتادة: الرَّحمة[٣].

وقيل: جبريلُ عليه السَّلام.

قال أبو عبيدة: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾؛ أي: مع جبريل، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣][٤].

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: شرائعه وأحكامه.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: يختاره للرِّسالة.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ قيل: بأنْ أنذروا؛ أي: يُنزِّل بهذا، أو يأمره بهذا.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾: الهاء في ﴿أَنَّهُۥ﴾ عماد؛ أي: إنَّ اللهَ ينزِّل على أنبيائه[٥] ويوحي إليهم ويأمرُهم أنْ خوِّفوا عبادي عذابي وغضبي على شركِهم بي، فإنِّي لا إلهَ إلَّا أنا فاخشوني ولا تخالفوني، ولا تجعلوا معي إلهًا آخر[٦] غيري.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٦٣).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٦)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٠).

(٥) في (ر) و(ف): «على عباده الأنبياء».

(٦) «آخر» من (أ).

وقيل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نزلَ كتابُ اللهِ، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾: لا تقولوا لمحمَّد: لولا[1] اجتبيتَها، ثمَّ قال على مشاكلته: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

* * *

(٣) - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾: فسَّرنا (الحق) في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] قبلَ هذا بأوراق.

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: فسَّرناه الآن، وهو إقامةُ دلالة التَّوحيد، وتقبيحُ الشِّرك والضَّلالِ البعيد.

وقال القشيريُّ: خلقَ السَّماوات والأرض بقولِه الحقِّ، وبحُكْمِهِ الحقِّ، وله الحقُّ، وخلَقَهما للأمرِ بالحقِّ[2]، مِن تكليف الخلق، وما يَعقب التَّكليف مِن الحشرِ والنَّشْرِ، والثَّواب والعقاب، تقديسًا وتنزيهًا له عن أن يكون له شريكٌ، أو معه مليكٌ[3].

* * *

(٤) - ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾؛ أي: مما يخرجُ مِن صُلْبِ الرَّجل وترائبِ المرأة.

---

(١) في (أ): «لو».

(٢) في (ف): «الحق».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٨٥).

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: أي: فنقلَه أطوارًا إلى أنْ وُلِدَ ونشأ، فصار بحيث يَدفعُ عن نفسه ويخاصم عنها، وبيَّن ذلك بالنسق الذي أقدره الله(١).

وقيل: أرادَ به مخاصمته في أمر السَّاعة ومحاجَّته بقوله: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

نزلَتْ في أميَّة بن خلفٍ الجمحيِّ، حيث(٢) جاءَ بالعظمِ الرَّميم إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا محمَّدُ، أترى أنَّ الله تعالى يحيي هذا بعدَما رَمَّ، ويعيدُه خلقًا جديدًا بعدَ البِلَى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] الآيات(٣).

وقال أبو حاتم: الخَصْمُ: مَن يخاصِمُ بالحقِّ، والخصيم بالباطل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقيل: الخصمُ الاسم، والخصيم النَّعت.

* * *

(٥) ـ ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾: الأنعامُ: الإبلُ والبقرُ والغنم.

وقال الحسنُ: سُمِّيَتْ نَعَمًا للِيْنِ مشيِها. وخرج من ذلك الحافر لصلابة وقعها.

---

(١) في (ر): «ويبيِّن ذلك بالنَّصِّ الذي أقدره الله عليه»، وسقطت من (ف).

(٢) «حيث» من (أ).

(٣) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٧) عن الزهري، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٩٨)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٧) عن قتادة، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾: قال ابن عبَّاس: اللِّباس(١).

وقال أيضًا: هو القُطُفُ والأَكْسيَة وبيوت الشَّعر والوبر(٢).

وقال الكلبيُّ: الدِّفء: حواشي الإبل؛ يعني: صغارها(٣).

وقيل: هو ما يُستدفأ به مِن أوبارها وأصوافها وأشعارها.

وعن الحسن: الدِّفء مِن السُّخونة(٤). وقد دَفُوَتْ ليلتُنا مِن باب شرُف؛ أي: سخُنَتْ، ودَفِئ الرَّجلُ بالثَّوب من حد علم، واستدفأ بالثَّوب، وأدفأه الثَّوب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ﴾؛ أي: من الألبان والسَّمن والرُّكوب والولد.

وقيل: هو ما ذُكِر في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ الآية [النحل: ٨٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي: من لحومِها وشحومِها.

وخصَّ الأكلَ بالذِّكْرِ لأنَّه معظم المقصود.

* * *

(٦) ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾: أي: تَردُّونها(٥) إلى منازلها باللَّيل،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٦٦).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٦٦) دون نسبة. وكذا ذكر نحوه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٩٦).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٧٩).

(٤) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٥) في (أ): «تردون».

وقد راحَتْ هي رَواحًا، وأراحَها صاحبُها إراحة، مِن الرَّواح، وهو العشيُّ، وهو نقيضُ الصَّباح.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: أي: ترسلونها إلى[١] المرعى، وقد سرحَتْ سُرُوحًا لازم، وأسرَحَها صاحبُها سَرْحًا متعدٍّ، وهو كالرُّجوع والرَّجْع.

يعني[٢]: أنَّها إذا راحَتْ إلى المنازل راجعةً من مسارحِها بالعشيِّ، ممتلئةً ضروعُها، منتصبةً أسنمتُها، رافعةً رؤوسَها، ففيها جَمالٌ؛ لأنَّ الإنسانَ يتجمَّل بمالِه؛ قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وفي الخروج إلى المرعى كذلك.

ووقع الابتداء بالإراحة لزيادة الجَمال في حينها[٣] على حين السَّرح[٤].

وقيل: هو جمالٌ يظهرُ في الوجهِ مِن السُّرور بها.

وقيل: هو جمالُ قِرى الأضياف.

وقيل: هو جمال غناهم عن النَّاس وحاجتِهم إليهم.

***

(٧) - ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾:

---

(١) في (أ): «في».

(٢) في (أ): «بمعنى».

(٣) في (ر) و(ف): «حسنها».

(٤) في (أ): «التسريح».

أي: تحمل أحمالكم وما يَثقُلُ عليكم حملُه مِن المتاع إلى البلدان البعيدة التي لا تبلغونها إلَّا ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾؛ أي: الأبدان[١]. والشِّقُّ: المشقَّةُ.

وقيل: هو النُّكرة الَّتي[٢] تكاد تنشقُّ منه النَّفس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: خلقَ لكم هذه الأشياء وسخَّرها لكم.

وقيل: ذكرَ هذا لتَرحموا هذه الأنعامَ بالإنفاق عليها والإحسانِ إليها.

* * *

(٨) ـ ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾: عطفٌ على قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾.

﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ هو حُجَّةُ أبي حنيفة رحمه الله في حرمةِ أكلِ لحم الخيلِ.

وبه استدلَّ عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ اللهَ تعالى ذكرَ هذه الأشياء بطريق عدِّ النِّعم والامتنان بها، ولو كانَ يحلُّ أكلُها لم يكن مِن الحكمةِ تركُ ذِكْرِه وذكرُ ما دونَه في كونِه نعمةً وغرضًا مقصودًا[٣].

---

(١) في (أ): «لا تبلغونها إلا بمشقة الأبدان».

(٢) في (ف): «الذي» بدل من «النكرة التي». والنكرة لعلها: الأمر الشديد، كذا في المعاجم لكن فيها: النُّكر، بدون هاء.

(٣) انظر: «شرح مختصر الطحاوي» للجصاص (٧/ ٢٨٩)، و«المبسوط» للسرخسي (١١/ ٢٣٤).
وأثر ابن عباس رضي الله عنهما رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٧).
وقوله: «لم يكن مِن الحكمةِ تركُ ذِكْرِه وذكرُ ما دونَه» معناه والله أعلم: لم من الحكمة ترك ذكر الأكل وذكر ما دونه من الركوب، ولعل شرح هذا الكلام هو ما قاله الماتريدي في «تأويلات أهل =

ودلَّتِ الآيةُ على حِلِّ اتِّخاذِ البِغال؛ إذ لو حرمَ ذلك لم تكن مِن النِّعم الَّتي يُمْتَنُّ[1] بها.

وقوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾: يحتملُ أن يكون تقديره: ولِزينةٍ؛ أي: لركوبٍ وزينةٍ، أو يكون تقديره: لتركبوها ولتكون زينةً لكم، كما ذكر في الأنعام أنَّها[2] جَمال لكم، وتُحْمَل إحدى الكلمَتَين على موافقةِ الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: يخلقُ سوى هذه البهائم أشياءَ لا تعلمونها، مِن أنواع الحشراتِ في المفاوز، والهوامِّ تحتَ الأرض، وفي البرِّ والبحر ما لم يرَهُ البشر ولم يسمعوا به.

وقيل: هو ما يخلُقُ في الجنَّةِ مِن ذلك لأهلِها، وفي النَّارِ لأهلِها، ما لم ترَوْه ولم تسمعوا به.

وقال قتادةُ: هو السُّوس في الثِّياب، والدُّود في الفواكه[3].

= السنة» (٦/ ٤٧٨)، حيث قال: وسئل ابن عَبَّاسٍ عن لحوم الخيل؟ فقرأ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولم يقل: لتأكلوها؛ فكره أكلها لذلك. وتمام هذا: أن الله ذكر الأنعام وما ذُكر من النَّعم والانتفاعِ بها، وبالغ في ذكرها؛ لأنه قال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الآية، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾...فذكَر جميع ما يُنتفع به من أنواع المنافع ذكرًا شافيًا مبالغاً غير مَكْفي، فدل ما ذَكَر في الخيل من الركوب، وكذلك في البغال والحمير؛ على أنه ليس فيها منفعة أخرى سوى ما ذكر وهو الركوب؛ إذ خرج الذكر لها على المبالغة والاستقصاء؛ ليس على الاكتفاء، ولو كان هنالك منفعة أخرى لذكَر على ما ذكَر في غيره. والله أعلم.

(١) في (أ): «يمن».

(٢) في (أ): «أيضًا».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ليسَ لنا أنْ نتكلَّفَ علمَ ذلك[١].

* * *

(٩) ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: في خَلْقِ ما ذكرنا عبرةٌ ودلالةٌ على الهدى، وعلى اللهِ بيانُ قصدِ السَّبيل؛ أي: الطَّريقِ القاصد، وهو المستقيمُ، وهو طريقُ الحقِّ، وهو كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩].

وليس ذلك للوجوب؛ فإنَّه لا يجبُ على اللهِ شيءٌ، ولكن يقول: مِن الحكمةِ البيانُ منَّا للصَّواب من الخطأ، والرَّشادِ مِن الضَّلال؛ لتتَّبعوا الرَّشاد، وتجتنبوا الضَّلال، وقد فعلْنا ذلك.

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: أي: ومِن الطُّرقِ طريقٌ مائلٌ عن السَّداد، وقد بيَّناه كما بيَّنا الطَّريق المستقيم.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: أعطاكم الاهتداءَ لو علِمَ منكم اختيار ذلك.

وقيل: معنى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولله، كما قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾؛ أي: للنُّصُب.

وقيل: أي: إلى رضوانِ اللهِ وصولُ قاصدي هذا السَّبيل، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي: مِن هذا السَّبيل جائرون مائلون، لا يقصدون رضا اللهِ، ولا يتوجَّهون إلى الله، فممرُّهم على الشَّيطان.

وقيل: أي: ممرُّ القاصدِ والجائرِ على اللهِ، كقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ أي: لا يخرج أحدٌ عن قبضتِه أيَّ طريقٍ سَلَكَ.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٨٠).

وقال قتادة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: بيان الحلال والحرام(١).

وقال السُّدِّيُّ: بيان الهدى، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي: طريق الشيطان(٢).

وقال مجاهد: ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: طريق الحقِّ، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي: زائغ(٣).

وقال ابنُ المبارك رحمه الله: ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: السُّنَّة، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: البدعة(٤).

وقال سهل بن عبد الله: هو كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣](٥).

وقال القشيريُّ: قومٌ هداهُم اللهُ السَّبيل، وعرَّفهم الدَّليل، وصرفَ عن قلوبِهم خواطَر الشَّك، وعصمَهم عن الجَحْد والشِّرك، وأطلعَ على قلوبِهم شموسَ العرفان، وأفردهم بنور البيان، وآخرون أضلَّهم وأغواهم، وعن شهود الحقِّ أعماهم، وفي سابق حكمه أذلَّهم وأخزاهم، ولو شاء لعرَّفَهم وهداهم(٦).

* * *

(١٠) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٧٨).

(٢) ذكره شطره الأول مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٤٦٠)، وروى شطره الثاني الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٧٩) عن قتادة.

(٣) روى شطره الأول الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٧٨).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٨٠) عن ابن زيد.

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٨٧).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾: وهذا أيضًا مِن آثارِ قدرتِه، وأنواعِ نعمته.

﴿مَآءً﴾؛ أي: مطرًا منه تشربون، ومنه يَنْبُتُ الشَّجرُ والنَّباتُ والغَرْس.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: أي: ترعَون مواشيَكم، وقد سامَتْ هي تسومُ سومًا؛ أي: رعَتْ، وأَسَمْتُها أنا إسامةً.

* * *

(١١) ـ ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾: أي: ينبتُ اللهُ بالمطر الزُّروعَ المختلفة من الحبوب التي تقتاتونها.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾: أي: إنَّ فيما خلقَ اللهُ لعلامَةً على ألوهيَّته وقدرتِه وإنعامِه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدَّلائل.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: قال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ووجهُ تسخيرِها: أنَّ اللهَ تعالى خلقَها، وجعلَ فيها منافع للخلْقِ يصلُ إليهم شِئْنَ أو أبيْنَ، أحببْنَ أو كرهْنَ(١).

(١) في (ر): «شاءوا أو أبوا، أحبوا أو كرهوا». والمثبت موافق لما في «التأويلات». انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤٨٣).

وقوله تعالى ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ليس هو أمرَ تكليفٍ، بل هو أمرُ تكوينٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: دلائل واضحة على قدرتِه.

﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾: يستعملون عقولهم في التَّأمُّل فيها.

* * *

(١٣) - ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾: أي: سخَّرَ لكم ما ذرأ لكم[1].

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾: مِن الملابسِ والمطاعمِ والمشاربِ والمراكبِ والمناكحِ والخدمِ وآلاتِ الارتفاقِ وغيره[2].

﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾: نصب على الحال، ووحَّدَ ذلك لتقدُّمه على المنعوت، فصار كتقديم الفعل على الفاعل، وهو في تقدير الفعل أيضًا، ولذلك رفع ﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾، وتقديره: تختلف ألوانه، واختلاف ألوانها: أنَّه لا يشبِهُ بعضُها بعضًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: أصلُه: يتذكَّرون؛ أي: يتَّعظون بمواعظ الله. والآياتُ للكلِّ، لكنَّ الانتفاعَ لهؤلاء، فخُصُّوا بالذِّكْرِ.

وبدأ بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ثم بقوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ ثم بقوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ ثم بقوله: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، وكذا التَّرتيب في الوجود، فإنَّه يتفكَّر أوَّلًا فيها، فيعقِلُ ويتذكَّر، فيشكر اللهَ على نعمِه.

* * *

(١) بعدها في (ر) و(ف): «أي: خلق لكم».

(٢) في (ر) و(ف): «والخدم والآلات والأرزاق والارتفاق وغيرها».

(١٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾: هو للجنس، فيقع على كلِّ البحار.

﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: أي: السَّمكَ بالاصطياد ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ﴾؛ أي: ولتستخرجوا منه بالغَوص ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: اللَّآلئَ والمرجان، تجعلونها في حليِّ الذَّهب والفضَّة، فتتزيَّنون بها.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾: أي: السُّفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: جمع ماخرة، يقال: مَخَرَ مخرًا، مِن حدِّ دخل وصنع؛ أي: جرى بشقِّ الماء مع صوت.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: تركبونها في الأسفار للتِّجارات.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: ولتشكروا اللهَ على هذه النِّعم.

وتسخيرُ البحر: تذليلُه على ما هو عليه مِن كثرة الماء المحتمِل للسُّفن الثِّقال التي كأنَّها الجبال، تُشحَن بأنواعِ الأحمال، فتجري فيه بالرِّياح وبالآلات التي ألهمنا اللهُ اتخاذَها، وعلمنا وجوه إجرائِها، وفيه قطعُ المسافات البعيدة في المدَّة اليسيرة، فتقطع المسافات، وتحمل الحمولات في الماء بالسُّفن، وفي البرِّ بالدَّواب، ومَنَّ بهذه كما منَّ[1] بتلك فيما تقدَّم: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾.

وفي الآيةِ دلالةُ إباحةِ التِّجارة، وطلبِ الفضل بركوب الأخطار واحتمالِ الشَّدائد.

* * *

---

(١) في (أ): «ومن بهذا كما مر».

(١٥) ـ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالًا ثوابتَ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كما قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾؛ أي: لئلَّا تضلُّوا.

والمَيدُ: الانقلاب، وقيل: الاضطراب، وقيل: الدَّوران، وقيل: التَّحرُّك يمينًا وشمالًا.

وقال كعب الأحبار: لمَّا خلق اللهُ الأرضَ جعلَتْ تَكَفَّأ، فخلق اللهُ ملكًا يقال له: صاعديائيل، فوضع رجله عليها فاستقرَّت، ثم أرساها الله تعالى بالجبال[١].

وقال وهبٌ: لمَّا خلق اللهُ الأرض جعلَتْ تمور وتضطرب، فقالت الملائكة: إنَّ هذه غير مُقِرَّةٍ أحدًا على ظهرها، فأصبحَتْ وقد أُرسيَتْ بالجبال، لا تدري كيف أُرْسيَتْ[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾: عطفٌ على الأوَّل؛ أي: وألقى أنهارًا؛ أو يُضمَرُ فعلٌ آخر: وجعل فيها أنهارًا، كما يقال: تقلَّد سيفًا ورمحًا؛ أي: واعتقل رمحًا.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبُلٗا﴾: أي: وجعل فيها طُرُقًا تَصِلون بها إلى مقاصدكم، فلكلٍّ[٣] مقصدٍ طريقٌ به توصِلُ إليه في الحجِّ والغزو والتِّجارات وسائر الحاجات.

وقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾: أي: لتهتدوا إلى المقاصد.

وقيل: أي: لتهتدوا إلى المراشد بالنَّظر في الأدلَّة والشَّواهد.

وقيل: إنَّما قال: ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾ لأنَّه لا بدَّ من الاستدلال في بعض المواضع للاهتداء إلى المقاصد.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١).

(٣) في (ر): «كل»، وفي (ف): «قد جعل لكل».

(١٦) ـ ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾: أي: وجعل للطُّرقِ علامات، وهي معالم وُضعَتْ لها.

وقيل: هي الجبال والرِّياح ونحوُها.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾: أي: وبالنُّجوم، وهو اسم جنسٍ فصلح[(١)] للجمع، كما[(٢)] يقال: فلانٌ كثيرُ الدِّرهم والدِّينار[(٣)].

و﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾: رجوعٌ إلى المغايبة بعدَ الابتداءِ بالمخاطبة، وهو أحدُ أنواع البلاغة والتَّوسُّع في الكلام.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾: إلى الطُّرق[(٤)].

وقال السُّديُّ: أي بالثُّريا والفرقدَيْن وبنات النَّعش والجدي يهتدون إلى الطُّرق[(٥)].

وقال محمَّد بن كعب: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾؛ أي: الجبال بالنَّهار، ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ باللَّيل[(٦)].

---

(١) في (أ): «فصح».

(٢) «كما» ليس في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «الدراهم والدنانير»، وهو تحريف ظاهر.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٩٢)، ولفظه: «﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ يعني بالعلامات: معالم الطرق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٢).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٢).

وقال قتادة: إنَّما جعل اللهُ النُّجوم لثلاثةٍ: لتكون زينةً للسماء، ومعالمَ للطُّرق، ورجومًا للشياطين، فمَن قال غير هذا فقد أخطأ رأيه(١).

* * *

(١٧) ـ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾: استفهامٌ بمعنى الإنكار.

ومعناه: أيستوي مَن يَخلق ومَن لا يَخلق؟

وأرادَ به الأصنام، وإنَّما قال: ﴿كَمَن﴾، ولم يقلْ: (كما) وهي جماد؛ لأنَّه ذكرَ فعْلَ الخلْقِ، وهو ممَّن يَعلَم، ولأنَّ (مَن) بمعنى (ما) موجودٌ في القرآن: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بعقولِكم أنَّه لا يجوز أنْ يُسَوَّى بين القادر والعاجز والخالقِ والمخلوق في العبادة.

* * *

(١٨) ـ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾: أي: لا تُطيقوا عدَّها، وأداءَ حقِّها.

ذكر ما مضى من الآيات في بيان قدرته ونعمته، ثم أنكر على الكفَّار إشراكَهم باللهِ العاجزَ، وبيَّنَ بهذه الآية عجزَهم عن شكرِ نعمتِه، بل عن عدِّ نعمه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾: ساترٌ للذُّنوب، يمهلُكم ولا يعاجلكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ يكتفي منكم من الشُّكر بقَدْر وُسعكم، ويرضى بيسير الشُّكر على كثير النِّعم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩١٣).

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿يسرون﴾ و﴿يعلنون﴾ ﴿والذين يدعون﴾ كلهنَّ بياء المغايبة، وكذلك الكسائيُّ[1]، وروي عن عاصم: ﴿يَدْعُونَ﴾ خاصَّة بياء المغايبة، والباقون كلُّهم بتاء المخاطبة[2].

أي: لا يخفى على الله شيء من عبادِه، أسرُّوا أو أعلنوا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من الأصنام ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يقدرون على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: وهم مخلوقون لله.

***

(٢١) ـ ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿أَمْوَٰتٌ﴾: أي: هم أموات ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾؛ أي: هي جمادٌ لا حياةَ لها، جاهلةٌ لا علمَ لها.

وهو قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي: وما تدري هذه الأصنام متى يُحشرون.

---

(١) ما ذكره المصنف عن حفص هي رواية هبيرة عن حفص عن عاصم، والرواية المشهورة عن حفص عن عاصم: ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء، ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء، وكذا قرأ أبو بكر عن عاصم أيضاً. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧١).
أما الرواية المشهورة عن الكسائي فهي أنه قرأ الثلاثة بالتاء، فالقراء السبعة إذاً اتفقوا على قراءة: ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء، أما ﴿يَدْعُونَ﴾ فالجمهور قرأها بالتاء، وقرأها عاصم بياء المغايبة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧١) و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٢) انظر التعليق السابق.

ومعناه: أنَّ هذه الآلهة تحضر يوم القيامة، فتُجْعَلُ مع عُبَّادها في نار جهنَّم، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨][(١)].

وقيل: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾: صفة المشركين؛ أي: أمواتٌ بالكُفْر، ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بالإسلام، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، وهو كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا يتعرَّفون وقته، ولا يعتقدون قربَه، ولا يستعدُّون له.

* * *

(٢٢) ـ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: المستَحِقُّ لعبادتِكم وتعظيمِكم إلهٌ واحدٌ.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: لا يصدِّقون[(٢)] ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ أي: للتَّوحيد ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: متعظِّمون[(٣)] عن الإيمانِ.

* * *

(٢٣) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾: قال الخليل[(٤)]: هي كلمةُ تحقيقٍ، ولا تكون إلَّا جوابًا، يقال: فعلوا

(١) «كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾» ليس في (أ).

(٢) في (ر) و(ف): «أي لا يؤمنون بالبعث».

(٣) في (أ): «متعظون»، وفي (ر) و(ف): «معظمون»، والصواب المثبت.

(٤) «الخليل» ليس في (أ).

كذا، فيقال: لا جرمَ أنَّهم سيندمون، فالمعنى على هذا: حقًّا إنَّ لهم النَّار[١].

وقيل: ﴿لَا﴾ ردٌّ لكلامِهم، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى: حقَّ ووجبَ.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾؛ أي: كَسَبَ، كقولِه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة: ٢]؛ أي: كَسَبَ فعلُهم لهم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: أي: علِمَها منهم، فأعدَّ لهم جزاءَها.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: أي: المتعظِّمين عن الانقياد للرُّسل.

* * *

(٢٤) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾: أي: من الوعيد؛ أي: إذا ذكِرَ لهم أنَّ ربَّكم أنزل فيكم الوعيد، فكيف تصنعون إذا حلَّ ذلك[٢] بكم؟

﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي: هي أساطير الأوَّلين، هم سطروها، لا أنَّ اللهَ أنزلها، ولهذا رفع قولَه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنهم لم يقرُّوا بإنزالها، فلم يكن فعلُ الإنزال واقعًا عليها على زعمِهم، بل ابتدؤوا بذلك وصفَه.

* * *

(٢٥) - ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ١٥٨)، وابن سيده في «المحكم» (٧/ ٤١٣) (مادة: جرم). وفي «العين» المنسوب للخليل (٦/ ١١٩) الكلام فيه مختصر، ولفظه: لا جَرَمَ يَجري مَجرَى لا بدَّ، ويُفسَّر: حقًّا.

(٢) «ذلك» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هي لام العاقبة؛ أي: فعلوا ذلك ويصيرُ جزاؤهم في العاقبة أنَّهم يعاقبون على ما حملوه من آثامهم كلِّها.

﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾: أي: وآثام الذين اتَّبعوهم وضلُّوا بإضلالهم، وإنَّما قال: (مِن) لأنَّه للتَّبعيض، وفي حقِّ أنفسِهم يُعاقَبون بكلِّ ذنوبِهم، وفي حقِّ الذين ضلُّوا بإضلالهم يُعاقَبون بالذُّنوب التي أذنبوها بإضلالهم دونَ سائر الذُّنوب.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ ليس بعذرٍ، بل هو عيبٌ لهم بالجهل والسَّفاهة، ومعنى نفيِ العلمِ؛ أي: لم يعلموا أنَّهم يَضلُّون بإضلالهم، أو[1] لم يعلموا ماذا يلحقُهم بهذا الإضلال، أو لم يعلموا أنَّ آثامَ الذين ضلُّوا عليهم.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: أي: بئسَ ما يحملون من الأوزار.

وقيل: الآية نزلَتْ في المقتسمين الذين قعدوا على الطُّرق يمنعون النَّاس عن اتِّباع رسول الله ﷺ، ويقرُّونهم على الشِّرك والضَّلال.

وهو عامٌّ في حقِّ كلِّ مُضلٍّ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها إلى يوم القيامةِ، ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئةً فعليه وِزرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ»[2].

* * *

(٢٦) - ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

---

(١) في (أ): «أي».

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: مكرَ الكفَّارُ الذين كانوا قبل هؤلاء المشركين بأنبيائهم كما مكرَ بك هؤلاء، فلم يضرَّ ذلك بالأنبياء.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: أي: أبطلَ اللهُ مكرَهم، ونقضَ حجَّتَهم، وهو مجازٌ، كقولك لرجل إذا انكسَرَتْ حجَّتُه: قد بطلَ ما بنيْتَ، وانهدمَ ما أسَّسْتَ.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾: أي: انقلبَ عليهم مكرُهم.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: مِن الوجه الذين لا يشعرون أنَّه يأتيهم من جهته، وفي الوقت الذي لا يعلمون أنَّه يأتيهم فيه.

وقيل: هو على حقيقة البناء، ومعنى قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: الأساس ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: سقط عليهم ﴿ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، فالخرور لا يكون إلَّا من فوق، وذكرَه للتَّأكيد، كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومعنى التَّأكيد: أنَّه للتَّحقيق، لا للمجاز، فقد يقولُ الرَّجلُ: خَرَّ عليَّ منزلي، ولا يريدُ سقوطَه عليه، فأما إذا[1] أراد ذلك قال: خَرَّ عليَّ مِن فوقي.

فهاهنا أراد: أنَّه[2] سقطَ عليهم وهم تحتَه، فأهلكَهم اللهُ.

وفي التَّفسير: أنَّ هذا البناء كان لبختنصَّر.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وزيد بن أسلم: وهو صرح نمرود[3].

---

(١) في (ر): «فإذا»، وليست في (ف).

(٢) في (أ): «أنه أراد به أنه» بدل من «أراد أنه».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٠٤).

وقال ابن عباس: كان طول البناء في السَّماء خمسةَ آلاف ذراع[١].

وقال كعب: كان طولُه في السَّماء فرسخين. وبه قال مقاتل؛ قال: فهبَّتْ ريحٌ فألقَتْ رأسَه في البحر، وخرَّ عليهم الباقي من فوقِهم[٢].

وهذا الإتيان بإجماع أهل القبلةليس بإتيان انتقال، وكذا في قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢] في حقِّ بني قريظة والنَّضير، وهو حجَّتنا على المجسِّمة في تأويل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، و﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

***

(٢٧) - ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾: أي: يفضحهم ويُذِلُّهم، بعد[٣] ما أهلكهم في الدُّنيا، وأبطل مكرَهم بالأنبياء، وهو تلبيسُهم في تصوير حقِّهم بالباطل عند الضَّعفة، وسعيُهم في هلاك الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾: أي: يوبِّخهم فيقول: أين الآلهة التي كنْتُم تجعلونها شركاء لي[٤]، وتعادُون الأنبياءَ بسببها؟ أين هم فيدفعوا عنكم ما نزل بكم؟

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٣).

(٢) ذكره عن كعب ومقاتل الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٤). وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٦٥).

(٣) في (ر) و(ف): «مع».

(٤) في (ر): «التي كنتم تجعلونها آلهة»، و(ف): «التي كنتم تعبدونها».

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾: أي: المؤمنون الذي أُعطوا العلمَ باللهِ وبدينِه في الدُّنيا:

﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾: أي: الفضيحة والمذلَّة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: المكاره التي تسوؤهم ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المشركين بالله.

وهم يومئذ أنزلهم الله منازل الأنبياء والأولياء، فنعَّمهم وسرَّهم، فشكروا ذلك، وذكروا حال الكفَّار.

* * *

(٢٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: نعتٌ للكافرين ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: نصبٌ على الحال.

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾: أي: الاستسلام؛ أي: انقادوا، وهو ماضٍ بمعنى المستقبل، وأُلحقَ بالماضي لأنَّه كائنٌ لا محالة.

قوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾: أي: يقولون، وهذا مُضمَرٌ لدلالة الحال عليه، وقوله تعالى: ﴿مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي: كفرٍ، يتبرَّؤون منه.

وقيل: معناه: ما كان ذلك عندنا سوءًا.

فيُقال لهم: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: كنتم لا تعملون إلا سوءًا، والله عليم بما كنتم تعملون، فلم ينفعْكم إنكارُكم، ولا جهلُكم بالسُّوء؛ إذ كانت الأدلَّةُ واضحة، والبراهينُ لائحة.

* * *

(٢٩) ـ ﴿ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

﴿ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: لا خروجَ لكم عنها، ولا خلاصَ منها.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾: على أنبياء الله وعلى أوليائه.

وقد سبقَ ذكرُ تكبُّرِهم بقوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ فإنْ كان هذا القولُ لهم عند الموت فمعناه: فادخلوا أبواب جهنَّم إذا بُعِثْتُم.

وأبوابُها: طبقاتُها ودَركاتُها، وهي بعضُها فوقَ بعضٍ، ولعلَّ هؤلاء يستحقُّون العذاب في الدَّرك الأسفل، أو في الدَّرك الرَّابع، فلا يصلون إليه إلَّا بمجاوزةِ الأبواب أجمع.

ويجوز أن يكون لكلِّ طبقةٍ بيوتٌ، ولكلِّ بيتٍ بابٌ.

ويجوز أن يكون هذا إخبارًا لهم عندَ الموتِ بعذاب القبر؛ لأنَّه بابٌ من أبواب جهنَّم للكافر.

* * *

(٣٠) ـ ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ ﴾: ثم أخبر ـ بعد[1] الإخبار عن الكافرين ـ عن المؤمنين الذين اتَّقوا الشِّرك؛ أنَّهم إذا سُئلوا عن كتاب الله: ماذا أنزل الله فيه؟ ﴿قَالُواْ خَيْرًا ﴾؛ أي: أنزل خيرًا؛ لأنَّ القرآن خيرٌ وهدًى ونفعٌ وشفاءٌ لِمَا في الصُّدور، يُستَدلُّ به على الله وعلى أنبيائه وشرائعِ دينه، فخيراتُه لا تُحصى.

---

(١) في (ف): «بعد هذا».

وقيل: أي: أنزل[١] الشَّرائع ومكارم الأخلاق.

ونُصب ﴿خَيْرًا﴾ لوقوع فعل الإنزال عليه، وفي الأوَّل ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالرَّفع؛ لأنهم لم يقرُّوا بالإنزال، بل قالوا: هي أساطيرُ الأوَّلين.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: اختلفوا: أنَّه قول هؤلاء، أو ابتداءُ كلامٍ مِن الله؟ فأجاز الحسنُ فيه الوجهين، وكذلك الزَّجاج[٢].

والأظهرُ أنَّه كلامُ الله تعالى؛ لأنَّه أبلغُ في الدُّعاء إلى الإحسان، ولأنَّه إذا لم يقم الدَّليل القاطع أنَّه حكايةٌ عنهم فهو من كلام الله تعالى.

ثم معناه: للمحسنين حسنةٌ في الدُّنيا، وهي التَّوفيق والعصمة، والنَّجاة من العذاب المعجَّل النَّازل بالمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أي: ولدار الحياة الآخرة أو النَّشأة الآخرة خيرٌ لهم ممَّا أصابوه في الدُّنيا.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: اللَّام للقسم، و(نِعْمَ) كلمة مدح، فنِعْمَ الدَّارُ الجنَّةُ؛ إذ لا خوفَ فيها ولا حزن، ونعيمُها مقيمٌ، ومُلكها دائمٌ، وصاحبُها فيها خالدٌ.

* * *

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «إنزال».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾: هي صفة تلك الدَّار ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ثم وصف المتقين فقال:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾: أي: طيبي الأعمالِ والقلوب مِن دنَس الشِّرك.

﴿طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: إذا بُعِثْتم.

* * *

(٣٣) ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: أي: ما ينتظر مشركو قريش ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحِهم، وهم ظالمون لأنفسِهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بعذاب ينزلُ بهم في الدُّنيا مثلَ ما نزل بمَنْ قبلَهم مِن الخسْفِ والقذْفِ ونحو ذلك، أو في الآخرة بما أُوْعدوا به.

قال مجاهد وقتادة: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ أي: القيامة(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: استعجلوا العذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما عذَّبهم بغير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: يوردون أنفسَهم موارد الهلكة بالشِّرك، وينقصون حظوظها من الجنَّة.

* * *

(٣٤) ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾: أي: الأجزيَةُ السَّيئة بأعمالهم السَّيئة.

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢١٥).

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: نـزلَ بهـم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: العـذابُ الـذي كانـوا لا يصدِّقـون بـه ويجحدونه هـزوًا.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

إنَّما أنكر اللهُ هذا القول على المشركين وهو حقٌّ في نفسه إذ الكائنات كلُّها بمشيئة الله تعالى؛ لأنَّ بعض المشركين من العربِ كانوا يقولون هذا القول وقصدُهم أن ينفوا عن أنفسِهم الملامةَ والمذمَّة بارتكابهم الشِّرك والمعاصي، وكانوا يقولون: لا لومَ على عاصٍ ما لهذا المعنى[(١)]، فأكذَبهم اللهُ تعالى، وبيَّنَ لهم أنْ لا عذرَ لهم، ولا يَسقطُ اللَّوم عنهم، لأنَّ مشيئةَ المعاصي من اللهِ معناها: أنَّه أرادَ أن تكون معصيةً قبيحة منهيًّا عنها، ملومًا عليها مرتكبُها، معاقَبًا بها، ولا إكراه منه لهم على ذلك[(٢)]، فلم يسقط عنهم اللَّوم. وقد شرحنا ذلك في (سورة الأنعام) بأتمَّ من هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: ما على الرُّسل إلَّا التَّبليغ الظَّاهر، وقد بلَّغوا أنَّ مشيئةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ليسَتْ بعذرٍ لهم.

* * *

(١) قوله: «ما لهذا المعنى» ليس في (ر).

(٢) في (أ): «عليها» بدل: «على ذلك».

(٣٦) ـ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: وحِّدُوه وأطيعوه ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: الشَّيطان والصَّنم وكلَّ ما يدعوا إلى الشِّرك والضَّلالة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾: أي: اختلفَتِ الأمم: فمنهم مَن[1] اختاروا تصديقَهم واتِّباعهم فأرشدهم الله لذلك، ومنهم مَن اختاروا تكذيبَهم ومخالفتَهم، فخذلهم اللهُ بسبَب كفرهم، وتحقَّقَتْ لهم الضَّلالة.

قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معاشر المؤمنين ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين[2] أهلكَهم الله، وأخلى ديارَهم عنهم، وجعلها معتبَرًا لمن بعدهم، وكذلك يفعلُ بمن فعل[3] فعلَهم.

***

(٣٧) ـ ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾: أي: يا محمَّد، إنْ جهدْتَ على هدايتِهم فليسَ الأمرُ إليك.

---

(١) في (ر): «من هدى الله».

(٢) «الذين» من (أ).

(٣) في (أ): «فعل مثل».

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ بفتح الياء؛ أي: إنَّ الله لا يهدي مَن أضلَّه، لعلمه اختيار الضَّلالة منه.

وقرأ الباقون: ﴿لا يُهْدَى﴾ بضمِّ الياء على ما لم يُسمَّ فاعلُه[1]، والهاء العائدة مقدَّرةٌ في آخره؛ أي: مَن يضله؛ أي: مَن أضلَّه الله لا يُهدَى أبدًا؛ أي: لا يهديه أحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: جُمع لأنَّ (مَن) تصلح للجمع؛ لأنَّه جنس، يعني[2]: وما للضَّالين ناصرون يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم، ويدفعون العذاب عنهم، الذي أعدَّه[3] لهم وينزلُه بهم.

* * *

(٣٨) - ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: أي: وحلفوا بالله مجتهِدين في أيمانِهم مظهرين من أنفسِهم أنَّهم بارُّون فيها:

﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وهو وصفٌ منهم لله بالعجزِ عن بعث الموتى.

﴿بَلَىٰ﴾: وهو ردٌّ عليهم قولَهم ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ هو قادرٌ عليه، وقد أخبر به، وهو يحقِّق هذا الوعد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كمالَ قدرته، وبالغَ[4] حكمتِه، في بعثِه بعدَ إماتتِه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٧٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٧).

(٢) «يعني» ليس في (أ).

(٣) في (أ): «العذاب عنهم الذي أعده»، وفي (ف): «ويدفعون عنهم هذا الذي أعد»، وفي (ر): «ويدفعون عنهم عذابه الذي أعد».

(٤) في (ر) و(ف): «وبلاغ».

(٣٩) ـ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾.

قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾: أي: يبعثُهم ليبيِّن لمنكريه ما يختلفون فيه؛ فمنهم مَن كان يقطع القولَ بكونه، ومنهم مَن كان يشكُّ فيه، ومنهم مَن كان يقطع القول بنفيه.

ويحتمل الاختلاف في أمورٍ أُخَر[1] من أمور الدِّين، فيُبيَّن لهم ليظهرَ الحقُّ من الباطل.

قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في تكذيب الرُّسل، وجحود البعث، وهذا إثبات الجهل للكلِّ، وليس هذا عذرًا بالجهل؛ لأنَّهم كانوا متمكِّنين من النَّظر في الدَّلائل ليعلموا.

وقيل: معنى الآية: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: الأتباع ﴿أَنَّهُمۡ﴾؛ أي: الرُّؤساءَ المعاندين[2] بعد العلم ﴿كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما ادَّعوا، والأتباعَ إلى ذلك دعَوا، وفي تنفيذه وإقامته سعَوا.

وقيل: بعد بيان الاختلاف معنًى مضمَر، وهو[3]: ثم يجزي المحقَّ والمبطِلَ في الاختلاف كلًّا على وَفق عملِه وقولِه وعَقْده.

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: بعثُ الموتى

---

(١) في (أ) و(ر): «في أمر آخر».

(٢) في النسخ: «المعاندون»، والمثبت هو الصواب.

(٣) بعدها في (أ) و(ر): «قوله». ولا وجه لها.

علينا يسير، لا يَلحقُنا فيه نصبٌ، إنما هو أن نقول له: كن؛ فإذا هو كائنٌ، وهو عبارةٌ عن سرعة الإيجاد.

ثم معنى قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ وتسميتِه شيئًا: أنَّه شيء[1] بعد وجوده، وسُمِّي به لقربِه من حالة الوجود.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾: وهذا مدح للمؤمنين بعدَ ذمِّ الكافرين؛ أي: والذين هجروا أهاليَهم وأوطانهم في إحياء دين الله ونصرةِ رسول الله من بعدما ظلمَهم هؤلاء المشركون وعذَّبوهم وراودوهم بالعود إلى الكفر:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أي: لنمكننَّ لهم في الدُّنيا منازل حسنةً يرضونها بدلًا عن دورهم التي هجروها، وقد فعل ذلك حيث آواهم بالمدينة، وجعل لهم أنصارًا وأعوانًا على أعدائهم، وآنسوهم بالنُّفوس والأموال، وآثروهم على أنفسِهم بكلِّ شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: ولأجر الدَّار الآخرة ـ وهو الثَّواب الذي يؤتيهم[2] فيها ـ أكبرُ وأعظم قَدْرًا من الذي عُجِّل لهم في الدُّنيا من حِسَان الأوطان والأمنِ على الدِّين والأبدان.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أي: لو كان هؤلاء الظَّالمون يعلمون ما أعدَّ اللهُ للمهاجرين

---

(١) في (ف): «ينجز».

(٢) «الذي يؤتيهم» ليس في (أ).

في الآخرة من النَّعيم، لكنْ بجهلهم يظلمونهم، فلو علموا لم يفعلوا، بل وافقوهم لينالوا في الآخرة ما يناله هؤلاء.

وقول القائل: هو خيرٌ لك لو علمْتَ، ليس على معنى أنَّه لو لم يَعلم لم يكن خيرًا له، لكنَّه ترغيبٌ؛ أي: لو علمْتَ لاشتدَّتْ رغبتُكَ فيه.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: هو نعت المهاجرين؛ أي: صبروا على دينهم، وعلى إيذاء عدوِّهم في الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: في أمورِهم، ويرجون الظَّفر بعدوِّهم.

وقيل: نزلَتْ الآيةُ في أبي جندلِ بن سهيلِ بن عمرو.

وقيل: نزلَتْ في ستَّة نفرٍ: بلالِ بن رباح، وصهيبِ بن سنانٍ مولى عبد الله بن جدعان، وخبَّابِ بن الأرتِّ مولى [أمِّ] أنمارٍ، وعمَّارِ بن ياسر مولى أبي حذيفة، وعابسٍ، وجبيرٍ، أخذهم المشركون فعذَّبوهم، ثم تخلَّصوا فهاجروا، فنزلَتْ هذه الآية في شأنهم(١).

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: قيل: نزلَتْ في أبي

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٧). وما بين معكوفتين من المصادر. انظر: «تهذيب الكمال» (٨/ ٢٢٠)، و«الإصابة» (٢/ ٢٥٨).

جهل والوليد بن المغيرة وعبد الله بن أبي أميَّة المخزوميِّ، قالوا للنَّبيِّ ﷺ: هلَّا بعثَ الله إلينا ملكًا يصدِّقك(١) بما تقول، فنزلَتْ.

ومعناه: ما أرسلنا قبلَك ملائكة، إنَّما أرسلنا رجالًا آدميِّين يُوحَى إليهم على لسان ملَك.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾: أي: أهل الكتب المتقدِّمة؛ لأنَّهم أهلُ المعرفة بما ذكَرَ الله لهم من فرائضه وشرائعه وأقاصيص أنبيائه.

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم.

* * *

(٤٤) ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾: قيل: متَّصل بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

وقيل: تقديره: إلَّا رجالًا أرسلناهم بالبيِّنات والزُّبر.

والبيِّناتُ: المعجزات، وقيل: الشَّرائعُ الواضحات.

والزُّبرُ: الكُتبُ، جمع زَبور بمعنى مزبور؛ أي: مكتوب.

وإنَّما أمرَ المشركين بسؤال أهل الكتاب لأنَّهم كانوا يرجعون إليهم ويقبلون قولهم، فأثبتَ الحجَّة عليهم بجنسِ ما يركَنون إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: الكتاب الذي فيه ذكرُ ما يُحتاج إليه،

---

(١) في (أ) و(ف): «فنصدقك».

كما أنزلنا على مَن قبلَك ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لتوضِّح لهم معاني ما شرح لهم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: وليتفكَّروا فيك وفيما أُنزِل عليك، فيستدلُّوا بذلك على صدقِك، وهو معنى كلمة (لعلَّ) لأنَّها في الأصل للتَّرجي، وهو ممَّا يكون ولا يكون، وكذا ما يقع بالاستدلال.

* * *

(٤٥) - ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾: استفهامٌ بمعنى إثبات الذَّمِّ لهم بذلك، ويجوز أن يكون استفهامًا بمعنى النَّهي؛ أي: لا تأمَنوا ذلك، فإنَّهم قد استحقُّوه.

و﴿مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ له معنيان:

أحدهما: أنهم أخفَوا الأعمال السَّيئة عن العباد، والله تعالى مُطَّلِع منهم عليها.

والآخر: مكروا بالنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام بأشياءَ سيِّئة، وبما يسوء النَّبيَّ ﷺ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾: كما خسفَ بقارون.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: من السَّماء بغتةً كما كان لقوم لوطٍ ونحوهم.

* * *

(٤٦) ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾: أي: في أسفارِهم وتصرُّفاتهم في أمورهم.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين، وقد أعجزني الشَّيء؛ أي: فاتني فعجزْتُ عن أخذه.

والتَّقلُّب يحتمِل هنا ثلاثةَ معانٍ:

السَّيرَ في البلاد، كما قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

والتَّصرُّفَ باللَّيل والنَّهار بالإقبال والإدبار والذَّهاب والمجيء، في الأمور المعهودة، كما قال: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

والتَّدبيرَ في وجوه المكر والكيد، كما قال: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨].

يخوِّفُهم الأخذ في بعض هذه الأحوال.

* * *

(٤٧) ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: قال سعيد بن المسيِّب: بينما عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه على منبر قال: يا أيُّها النَّاس، ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، فسكتَ النَّاسُ، فقام شيخٌ فقال: يا أمير المؤمنين، هذه لغتُنا بني هذيل، التَّخوُّفُ التَّنقُّصُ، فقال عمرُ: فهل تعرف العرب[1] ذلك في أشعارِها، قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير[2] الهذليُّ:

---

(١) «العرب» من (أ).

(٢) في النسخ: «أبو بكر» وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وأبو كبير اسمه: عامر بن الحُلَيس، وهو أحد بني سعد بن هُذَيل ثم أحد بني جُرَيْب، وهو شاعر هذلي معروف. انظر: «ديوان الهذليين» (٢/ ٨٨).

تخـوَّفَ الرَّحـلُ منها تامِـكًا قَـرِدًا[١] كمـا تخـوَّفَ عـودَ النَّبعـةِ السَّـفَنُ[٢]

أي: تنقَّص[٣].

(١) في النسخ: «صلبًا» وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٢) نسبه لأبي كبير الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٩)، والواحدي في «البسيط» (١/ ٤٠١)، وأبو القاسم النيسابوي في «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢/ ٤٨٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٢)، والبيضاوي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٨). ولم أجده في «ديوان الهذليين»، لكن قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته على البيضاوي» (٥/ ٣٣٤): والبيت من قصيدة له مذكورة في شعر هذيل.

ونسب لابن مقبل في «القلب والإبدال» لابن السكيت (ص: ٩)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (٧/ ٢٤٢). وهو في «ديوانه» (ص: ٤٠٥).

ونسب لزهير في «أساس البلاغة» للزمخشري (١/ ٢٧٠)، و«الكشاف» له (٢/ ٦٠٨)، وفيه نظر؛ فقد قال الشهاب في «حاشيته على البيضاوي» (٥/ ٣٣٤): وفي كلام المصنف رحمه الله تعالى (يعني: البيضاوي، حيث نسبه لأبي كبير) إصلاح لما في «الكشاف» من نسبة البيت لزهير مع أنه ليس له، وهو مناقض لما نقله من قول الهذلي: شاعرنا، فإن زهيراً ليس بهذلي.

ونسب لذي الرُّمة في «الصحاح» للجوهري (مادة: خوف وسفن)، وهو في ملحق «ديوانه» (٣/ ١٩١٧).

قال الزبيدي في «تاج العروس» (مادة: سفن): هكذا في نسخ «الصحاح» لذي الرمة، وقيل: لابن مقبل، وأورده أبو عدنان في كتاب «النبل» لابن المزاحم الثمالي، وقال: لم أجده في شعر ذي الرمة، وقال غيره: هو لعبد الله بن عجلان النهدي جاهلي.

يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه، والتامك: السنام المرتفع المشرف، والقَرِد بفتح القاف، وكسر الراء، يقال: صوف قرد؛ أي: متلبد، وسحاب قرد؛ أي: ركب بعضه بعضاً، والنبع شجر يتخذ منه القسيُّ، والسَّفَن بفتح السين والفاء، هو المِبرد، يصف ناقة أثر الرحل في سنامها بعد تمكه واكتنازه، فأكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود. قاله الشهاب الخفاجي في «حاشيته على البيضاوي» (٥/ ٣٣٤).

(٣) «أي تنقص» من (أ).

فقال عمرُ رضي الله عنه: يا أيُّها النَّاس، عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديوانُنا؟ قال: شعر الجاهليَّة، فإنَّ فيه تفسيرَ كتابِكم ومعاني كلامِكم[١].

وذكر أبان بن تغلب عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كنْتُ أقرؤها ولا أعرفها، حتَّى شكا أعرابيٌّ أخًا له فقال: إنَّ أباه هلكَ وترك إبلًا، فما زال يتخوَّفها بعيرًا بعيرًا حتَّى أذهبها. فعلمْتُ أنَّه التَّنقُّص[٢].

وهو قولُ مجاهد وقتادة والضَّحاك وابن زيد، أنَّ معناه: على تنقُّصٍ، ومعناه: أنَّه يأخـذ الأوَّل فالأوَّل حتَّى لا يبقى منهم أحد، ولأنَّه حالةٌ يُخاف منها الهلاك والفناء[٣].

وقال الحسنُ: يُهلكُ القريةَ، فتخافُ قريةٌ أخرى[٤].

وقيل: هو كقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فمعنى قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: تنقُّصٍ من نواحيهم وأطرافهم حتَّى يعمَّ الهلاكُ جميعَهم بعضَهم على إثرِ بعض، ومعناه: أنَّه لا يعاجلهم، بل يأخذ القُرى التي حولَهم، حَّتى يَخْلصَ الأمرُ إليهم فيهلكَهم.

وقيل: معناه: يأخذهم بتنقُّص[٥] أموالهم وأنفسهم، دونَ العذاب المستأصل.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٩)، والواحدي في «البسيط» (١/ ٤٠١)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٠٨)، وذكره القسطلاني في «إرشاد الساري» (٧/ ١٩٦) وقال: (إسناد فيه مجهول). وقد رواه الطبري بنحوه دون الشعر في «تفسيره» (١٤/ ٢٣٦) من طريق رجل عن عمر.

(٢) لم أقف عليه. لكن روى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٣٧) عن ابن عباس قوله: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: التنقص والتقريع.

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ١٩٠).

(٥) في (أ): «بنقص»، وفي (ف): «بتنقيص».

وقيل: معناه: يهلك بعضَ ما يجاورهم من البلاد، ويدَعهم على خوفٍ أن يأخذهم، ثمَّ يأخذهم، فيكون أخذًا بعد تنغيصِ العيش عليهم زمانًا بتخوُّفهم كلَّ وقتٍ أن ينزلَ عليهم.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: تتميَّل[١].

والفيءُ: الظِّلُّ الذي بعدَ الزَّوال؛ لأنَّه يفيء؛ أي: يميل عن الجانب الذي كان إلى الجانب الآخر.

ووصَلَ الرُّؤية بكلمة (إلى) لأنَّها بالنَّظر تحصلُ، فصار كذِكْرِ النَّظر، كأنَّه قال: أو لم ينظروا إلى كلِّ ما خلقَه اللهُ مِن شيء صغيرٍ أو كبير[٢] تتفيأُ ظلاله؛ أي: يرجع ظلُّ كلِّ شيء من موضعٍ إلى موضعٍ يمينًا وشمالًا على حسب تحوُّل الشَّمس، مشرِّقةً ومُغرِّبة، يختلف ذلك بأوَّل النَّهار وآخره وبالبلدان؛ بتصريف الله إيَّاه.

وقال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ على الواحدِ ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ لوجوهٍ:

أحدها: أنَّه بدأ بقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، ولفظُه لفظ واحد فوحَّد (اليمين)، ومعناه جمعٌ فجمَع (الشَّمائل)، كما قال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ على الواحد ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] على الجمع.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ): «صغر أو كبر» بدل من «صغير أو كبير».

وقيل[١]: تقديره: عن يمين كلٍّ واحدٍ من ذلك، وعن شمائل الجميع.

وقيل: اكتفى في الأوَّل بالواحد لأنَّه جنس يصلح[٢] لإرادة الجمع به، كما قال تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، وجمع في (الشمَّائل) لتحقيق الجمع المراد بالآية.

﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾: حالُ قوله[٣]: ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾.

والسُّجودُ: الخضوعُ للهِ بالخلقة، والدَّلالة على وحدانيَّة الله تعالى بالصَّنعة، وأنشد أهل اللُّغة:

ترى الأُكْمَ فيها سُجَّدًا للحوافِرِ[٤]

جعل الأُكم إذا لم يتهيَّأ لها الامتناعُ من وطئ الحوافر إيَّاها سُجَّدًا لها، فكذلك ظلال الأشياء لَمَّا لم يكن فيها الامتناع[٥] من التَّصرُّف على ما يصرِّفُه الله تعالى إليه جُعلَتْ ساجدةً لله تعالى.

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾: أي: صاغرون.

* * *

---

(١) «قيل» من (أ).

(٢) في (أ): «فصلح».

(٣) في (ر) و(ف): «متعلق بقوله».

(٤) عجز بيت لزيد الخيل، وهو في «ديوانه» (ص: ١١٠)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٣٧)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (٢/ ٨٩٠)، و«الكامل» للمبرد (٢/ ١٤٩)، وصدره:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِه

(٥) في (أ): «امتناع».

(٤٩) ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أمَّا مَن كان منهم عاقلًا مؤمنًا فطاعتُه بالأمر، وما كان لا يعقل فبالتَّسخير بدلالة الخلقة، وأمَّا الكافر العاقل[1]: فما كان فيه مِن آثار الصَّنعة ودلائل الحدوث[2] يشهدُ لله باستحقاق العبادةِ له، فكلُّهم يسجدُ لله من هذا الوجه، وهو معنى قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: الملائكة.

* * *

(٥٠) ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: أي: الذي هو قاهرٌ لهم على السُّلطان[3] عليهم إنْ خالفوه.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: خوفًا[4] له، وعلمًا بعظمته، ونفاذِ سلطانه وقدرته.

وقيل: يخافون عقاب ربِّهم من فوقهم؛ لأنَّه يأتي من فوق.

* * *

(١) في (ر) و(ف): «الغافل».

(٢) في (ف): «الربوبية».

(٣) «على السلطان» من (أ).

(٤) في (ف): «طاعة».

(٥١) ـ ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: أي: بهذا أمرَ اللهُ تعالى؛ لا تتَّخذوا اثنين إلهين.

وقيل: هو على نظمِه[(١)]، وهو توكيدٌ، لا تتخذوا إلهين اثنين[(٢)]؛ أي: لا تجعلوا لله ثانيًا وهو واحد، وذلك قوله:

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: أي: خافوني ولا تخافوا غيري، وهو رجوعٌ عن المغايبة إلى الإخبار عن نفسِه، وهو من التَّوسُّع في الكلام.

* * *

(٥٢) ـ ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: أي: خَلْقًا ومُلْكًا.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾: قال ابن عبَّاس والحسنُ ومجاهد والضَّحاك وقتادة وابن زيد: أي: دائمًا[(٣)].

وقد وَصَبَ يَصِبُ وُصوبًا من باب ضرب، قال الدُّؤلي:

لا أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤُه   يومًا بذمِّ الدَّهرِ أجمعَ وَاصِبا[(٤)]

---

(١) في (أ): «تكلمه».

(٢) «اثنين» من (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٤٧ ـ ٢٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والحسن ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد.

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٦١)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٥٠٧)، و«الأغاني» (١٢/ ٣٦٠)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٢).

والوصَبُ: الألمُ عن الإعياء بدوام العمل، وقد وَصِبَ يَوْصَبُ وَصَبًا[(١)]، فهو وَصِبٌ، من باب علم.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾: استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي: ما ينبغي لكم أن تتَّقوا غيرَه وتعبدوا غيرَه وتطيعوا غيرَه وله الدِّين واصبًا، فهو الباقي الدَّائم الذي لا يزول ولا يحول، فلا تنقطعُ الطَّاعة له، فأديموها له.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾: أي: والذي بكم من نعمتِه مِن سعةٍ ورزقٍ[(٢)]، وصحَّةِ جسمٍ، وانبساطِ حياةٍ[(٣)]، وكثرةِ مالٍ، ووفورِ أنصارٍ وأعوانٍ، وسائرِ حسناتِ الدُّنيا، فذلك كلُّه من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾: أي: السَّقم والضِّيق والبلاء ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾: تَضِجُّون بالدُّعاء والمسألة.

والجؤارُ: رفعُ الصَّوت بالتَّضرُّع، فالنِّعمُ كلُّها منه، والفرحُ كلُّه به، والقدرةُ بكمالها له، فما ينبغي أن يُتَّقى غيره ويُعبدَ غيره.

* * *

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «وصوبًا»، والمثبت من (أ)، وهو الصواب. انظر: «التاج» (مادة: وصب).

(٢) في (ف): «سعة رزق».

(٣) في (أ) و(ف): «جاه».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾: أي: الأصنامَ التي لا تنفع ولا تَدفع، فلا ترجون إدرار النِّعمة ولا كشف الضُّرِّ إلَّا منه، ثم تشركون به غيره ممَّا لا يكون منه شيء من ذلك! وهذا كفرانٌ لنعمةِ الله تعالى منهم، وذلك قوله:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: من النِّعَم، وقيل: أي: ليجحدوا ما آتيناهم من الآيات.

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾: أي: عيشوا في دنياكم وتلذَّذوا بها قليلًا، ثم تنقضي.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أي: خطأَ فعلِكم في الكفر والكفران.

وقيل: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزلُ بكم من الخزي والهوان.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: ومن جهالاتهم أنَّهم يُسمُّون لأصنامهم أشياءَ من أنعامهم وزروعهم التي جعلناها رزقًا لهم، وهم لا يعلمون لها هذا النَّصيب، وهو ما ذكر في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦].

ويحتمل: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الأصنام لا تعلم أنَّه جُعِلَ لها نصيب، وجمَعَ فعلَها بالواو والنُّون وهي جماد لأنَّ الكفَّار أحلُّوها محلَّ مَن يعقل.

وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾: وصرفَ الكلام عن المغايبة إلى المخاطبة، وهو من وجوهِ الكلام.

وإذا سُئلوا عن ذلك لم يكن لهم حجَّة على ذلك، فعُوقبوا به.

(٥٧) ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾؛ أي: ويضيفون له ذلك، فيقولون: الملائكة بناتُ الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا لله عن ذلك؛ أي: هو مُنزَّه عنه.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين، يجوز أن تكون ﴿مَّا﴾ رفعًا على أنَّه خبرُ اللَّام، ويجوز أن تكون نصبًا عطفًا على ﴿ٱلْبَنَٰتِ﴾ بوقوع ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ عليها؛ أي: إذا حملَتْ امرأةُ أحدهم تمنَّى واشتهى أن يكون ولدُها ذكرًا، وهو كقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾: الظُّلول بالنَّهار كالبيتوتة باللَّيل.

وقوله: ﴿مُسْوَدًّا﴾؛ أي: متغيِّرًا مِن الغمِّ.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: قال ابن عبَّاسٍ: أي: حزين[1].

وقيل: هو المغموم الَّذي يُطْبِقُ فمَه لا يتكلَّم؛ للغمِّ[2] الذي به، مأخوذٌ من الكِظامَة.

يقول: إذا أُخبِر أحدُهم بولادةِ بنتٍ له اسودَّ وجهُه وتغيَّر واغبرَّ من الأَنَفة والذُّلِّ، وبقي ممتلئ القلب عن الغيظ، ساكت اللِّسان عن الغمِّ، لا فرجَ له ممَّا أصابَه.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٥٦).

(٢) في (ر) و(ف): «للهم».

(٥٩) ـ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: أي: يستخفي حياءً منهم وكراهةَ أنْ يُهنَّأَ بها، ويفكِّرُ في نفسِه:

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾: أي: يمسكُ ما بُشِّرَ به على هوان؛ لسقوطِ قَدْرِه عندَه.

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أي: يخفيه، وهو الوأدُ، وهو دفنُها حيَّة.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: أي: ما أسوأ حكمَهم، يختارون لأنفسهم البنين، ويصفون لله البنات، ويرضَون له بما لا يرضَون به لأنفسهم.

* * *

(٦٠) ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: صفةُ السَّوء، وهو ما ذَكَرَ عنهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الصِّفةُ العليا في الملك والسُّلطان، والعزَّة والقدرة، والتَّنزُّهِ عن الشُّركاء والأنداد.

وهذا لا يخالف قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] ـ فنهى عن ذلك مطلقًا، وذكر له المثل الأعلى هاهنا ـ لأنَّ[١] ذلك نهيٌ عن الوصف بالأشباه، وهذا إثباتٌ للصِّفة العليا.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الممتنِعُ على مَن رام مغالبَته في تعذيبِ مَن أراد تعذيبَه.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: في إمهال العباد إلى أن يحقَّ بهم القول.

* * *

(١) في (أ): «إلا أن».

(٦١) ـ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾: أي: ولو يعاقبُ اللهُ الكفَّار بظلمِهم أنفسَهم وعقولَهم، وعبادَ الله بصدِّهم عن الحقِّ.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾: أي: على الأرض، كنايةٌ عن مَكنيٍّ لم يَسبِقْ ذِكرُه، لكنَّه معلومٌ فصحَّ، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣٢]، وهو كقول لَبيدٍ:

حتَّـى إذا ألقَـتْ يَـدًا في كافـرٍ وأَجَـنَّ عـوراتِ الثُّغـورِ ظلامُهـا[١]

يعني: الشَّمس.

وقوله تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٍ ﴾: أي: لأدَّى ذلك إلى أن لا يبقَى على الأرض مَن يدبُّ؛ أي: لخلَت الأرضُ عن سكَّانها.

وهذا يدلُّ على أنَّ لله تعالى أن[٢] يعاجلَهم بالعقوبة، وإنْ كان في المعلوم أنَّه لو أخَّرهم لتابوا عن المعاصي، خلافًا للمعتزلة القائلين بالأصلح.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾: أي: برحمتِه، لا يعاجلهم بها، ولكن يمهلُهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ عندَه، إمَّا في الدُّنيا إذا شاءَ أن يهلكَهم أهلكَهم، وإمَّا في الآخرة، وهو وقت الحساب، وهو الأجل المسمَّى لحساب الخلائق أجمعين، وأيُّ هذين الأجلَيْن حلَّ لم يتأخَّر العذابُ عنهم، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

* * *

---

(١) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ١١٤).

(٢) في (ر): «أن الله تعالى لن».

(٦٢) ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسِهم من البنات.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾: ﴿أَنَّ﴾ ترجمةٌ عن ﴿الْكَذِبَ﴾، و﴿الْحُسْنَى﴾ نصب بـ ﴿أَنَّ﴾.

قال الزَّجَّاجُ: وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى من الله تعالى؛ أي: القضيَّةَ الحسنى[1]، وهي بالبنين[2]؛ أي: قضى لهم بالبنين، وجعل لنفسه البنات.

وقيل: أراد بـ﴿الْحُسْنَى﴾: الأحوالَ الحسنة في الآخرة، وهو كقوله خبرًا: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقرأ ابنُ عبَّاس: (ألسنتُهم الكُذُبُ) بضم الكاف والذَّال والباء[3]، نعتًا للألسنة، وهي جمع كذوب، كالرُّسُل جمع رسول.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٧)، وفيه: (الجزاء الحسن) بدل القضية الحسنى.

(٢) قوله: «وهي بالبنين» يوهم أن هذا من قول الزجاج أو شرح له، في حين أن غيره من العلماء قد فرقوا بين القولين، قال الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٩٦): (﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن لهم البنين مع جعلهم لله ما يكرهون من البنات. قاله مجاهد. الثاني: معناه أن لهم من الله الجزاء الحسن. قاله الزجاج). ومثله قول ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٦٠). وكذا قول الواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٠١ ـ ١٠٢)، وزاد تفسير (الجزاء الحسن) في قول الزجاج بالجنة.

(٣) نسبت لمسلمة بن محارب في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٧)، وله ولمعاذ في «المحتسب» لابن جني (٢/ ١١ ـ ١٢).

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: ﴿لَا﴾ هي ردٌّ لكلامهم، و﴿جَرَمَ﴾؛ أي: كسب قولهم هذا أنَّ لهم النَّار، فإنَّهم كفروا وكذَّبوا.

﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ قال سعيدُ بن جبير وقتادة ومجاهد والضَّحَّاك: متروكون في النَّار، منسيُّون فيها[1]. من قول العرب: ما أفرطْتُ ورائي أحدًا؛ أي: ما خلَّفْتُ وما تركْتُ.

وقال الحسنُ وقتادةُ في رواية: مقدَّمون إلى النَّار معجَّلون إليها[2].

وهو من قول العرب: أفرطْنا فلانًا في طلبِ الماء، فهو مُفْرِطٌ؛ أي: قدَّمناه لطلبِه، وفَرَطَ هو فهو فارِطٌ، من حد دخل؛ أي: تقدَّم، وجمعه الفُرَّاط، وقال القَطامِيُّ:

واستعجَلُونا وكانوا مِن صحابَتِنا ... كما تعجَّلَ فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ[3]

ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «أنا فَرَطُكُم على الحوضِ»[4].

وقرأ أبو جعفر: ﴿وأنَّهم مُفَرِّطُوْنَ﴾ بكسر الرَّاء وتشديدها[5]؛ أي: مقصِّرون في الواجب.

وقرأ نافع في رواية ورش: ﴿مُفرِطُونَ﴾ بإسكان الفاء وكسر الرَّاء[6]؛ أي: المجاوزون حدودَ الشَّرع، المسرفون في الذُّنوب.

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٦) عن قتادة، وذكره عن الحسن يحيى بن آدم في «تفسيره» (١/ ٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٨).

(٣) انظر: «ديوان القطامي» (ص: ٩٠)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٦٥)، و«النكت والعيون» (٣/ ١٩٦).

(٤) رواه البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٣٨). ذكراها عن نافع، ولم يفرقا بين ورش وقالون.

(٦٣) ـ ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ ﴾؛ أي: الرُّسل ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يا محمَّد، وهو تسليةٌ له في تكذيب قومِه إيَّاه.

قوله تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾: أي: الشِّرك والمعاصيَ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾: فالشَّيطانُ وليُّ المشركين اليومَ، كما كان وليَّ المشركين المتقدِّمين.

وقيل: أي: فهو وليُّ أولئك اليومَ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: أي: ولهؤلاء ـ وقيل: لأولئك ـ عذابٌ أليمٌ في الآخرة لا يدفعُه عنهم هو بولايته، وكيف وهو لا يمكنه الدَّفع عن نفسِه، فكيف عن غيره؟!

* * *

(٦٤) ـ ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾: أي: من أمر الآخرة والبعث، ومن أمور الدِّين.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾: نصب بالنَّسق على موضع اللَّام من قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ ﴾؛ لأنَّ معناه: لإرادةِ تبيينِه.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾: هم الذين ينتفعون به، وينالون الهدى والرَّحمة.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: وهو من النِّعم التي عدَّها عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ القولَ فيتدَّبرونه بقلوبهم، وهو كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

* * *

(٦٦) ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾: تعتبِرون بها في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

والعِبرةُ: تمثيلُ الشَّيء بالشَّيء لتُعرفَ حقيقته من طريق المشاكلة، ثم بيَّن هذه العبرة بقوله:

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: نعطيكم شرابًا من بطونِ ذوات الألبان من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم.

﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾: يخرجُ مِن بين فرثٍ ودمٍ، فلا يتعلَّق به منها شيءٌ يؤثِّرُ في لونِه وطعمِه، بل يكون سائغًا هنيئًا، سهلَ الجري لمن شربَه، لا يغصُّ به، فكذلك يقدر على إخراجِ ما تبدَّد من أبدان الموتى مِن حيثُ تبدَّد وممَّا اختلط به، حتَّى يخلِّصه من جميع ذلك بدنًا كما كان في الدُّنيا، لا يختلط به من غيره شيء.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿نَسْقِيْكُمْ﴾ بفتح النُّون، وقرأ الباقون بضمِّها(١).

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٨).

وبالفتح من سَقَى، وبالضَّم من أَسْقَى، وهما لغتان في معنًى واحد، قال لَبِيْدٌ:

سَـقَى قومِـي بنـي مجـدٍ وأَسْـقَى نُمَيْـرًا والقبائِـلَ مِـنْ هِـلالِ[1]

وقيل: سقاه؛ أي: أشربَه، وأسقاه؛ أي: جعل له سِقْيًا؛ أي: شرابًا دائمًا مِن نهرٍ أو لبنٍ أو غيرهما.

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ولم يقل: (من بطونها)، وهي جمعٌ، لأنَّ الأنعام والنَّعم في المعنى واحد، فصار ذكرُها ذكرَه، فجاز توحيده، وهو كقول الشَّاعر:

وطابَ ألبـانُ اللِّقـاحِ وبَـرَدْ[2]

ردًّا إلى اللَّبن؛ لأنَّه بمعناه.

أو يجعل كنايةً عن (ما)؛ يعني: بطونِ ما ذكرنا، أو عن (أيّ)، تقديرُه: من بطون أيِّها كان فيه اللَّبن.

والفَرْثُ: الثُّفْلُ الذي ينزل إلى الكرش.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾: عطف على قوله: (ما في بطونه)؛ أي: ونسقيكم من ثمرات النَّخيل والأعناب سكرًا ونحوَ ذلك.

---

(١) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ٧١).

(٢) الرجز بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢٩)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٦٤٢)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٧٢)، وقبله:

بَـال سُـهَيْل فِـي الفضيـح ففسـد

وقيل: تتَّصل (مِن) بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، ثمَّ أعاد (مِن) مع الهاء حين قُدِّمَتِ الأولى؛ إشعارًا بأنَّها اتَّصلَتْ بهذا الفعل.

وقيل: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ عبرة.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾: ﴿مِنْهُ﴾ توحيده كتوحيد ﴿بُطُونِهِۦ﴾ بوجوهِه.

والسَّكَرُ: هو خمرُ التَّمر.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وإبراهيم والشَّعبي وأبو رزين والحسن ومجاهد وقتادة: السَّكَرُ: ما حُرِّمَ من الشَّراب، والرِّزق الحسنُ: ما أُحِلَّ منه[1].

وقيل: السَّكَر: الطُّعم؛ قال الشَّاعر:

جعلْتُ عيْبَ الأكرمِيْنَ سَكَرَا[2]

أي: طُعمًا.

وقيل: هو العصير الذي لو تُرِكَ أيَّامًا يُسْكِرُ، فأُبِيْحَ شربُه قبل أنْ يبلغَ حدَّ السُّكْر، ومَنَّ اللهُ تعالى به، والرِّزقُ الحسنُ هو الزَّبيبُ والرُّبُّ[3] والخلُّ، وما يُتَّخذُ من العنب والتَّمر وراء هذا.

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٧٥ ـ ٢٨١). وعن ابن عباس وقتادة رواه أيضاً عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٩٥) و(١٤٩٦).

(٢) بلا نسبة في «تفسير الطبري» (١٤/ ٢٨٤)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٨). ونسب في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٣) لجندل، ولعله جندل بن المثنى الطهوي الذي له ترجمة في «سمط اللآلي» (ص: ٦٤٤).

(٣) في هامش (أ): «الرب: الخالص من كل شيء». وفي «المصباح المنير» (مادة: ربب): الرُّبُّ بالضَّم: دبسُ الرُّطَب إذا طبخ.

وقيل: هو خلُّ التَّمر[١]، كما قلنا، وكان هذا قبل قرار تحريم الخمر، وهو أوَّل الآيات نزولًا فيها.

ولَمَّا ميَّزَ السَّكَرَ مِن الرِّزقِ الحسَنِ قال كبراء الصَّحابة: لو كان فيها خيرٌ لم تُميَّز عن الرِّزق الحسن. فامتنعوا عن شربِها.

ثم نزلَ سائر الآيات فيها على التَّرتيب الذي ذكرناه في (سورة البقرة).

ثم اتِّصال هذا بالأوَّل[٢] أنَّه قال: ومن ثمرات النخيل والأعناب تستخرجون منه عصيرًا يخرجُ مِن قشرٍ قد اختلط به، وكذلك استخلاصُ ما يتبدَّد من الميت ممَّا هو مختلطٌ به، فإنَّكم إذا استخلصتُم العصير من العنب والرُّطبِ بتعليم الله إيَّاكم لم ينبغِ أنْ تُنكروا مثلَه من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: أي: يستعملون عقولهم في التَّدبُّر فيها.

* * *

(٦٨) ـ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾: أي: ألهمَها ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾: قيل: يبنون.

وقيل: يتَّخذون عرائش الكروم، ألهمَها اللهُ أنْ تتَّخذ بيوتًا في هذه المواضع.

* * *

(١) في (أ): «التين».

(٢) في (ر) و(ف): «بأول الآية».

(٦٩) ـ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: قيل: هي للتَّكثير، كما في قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾: أي: السُّبلَ[١] التي ذلَّلها اللهُ لك، والطَّريق الذَّلولُ: التي لا تتوعَّر على سالِكها، وهذا عن مجاهد[٢]. والذُّلُل على هذا صفةُ السُّبل.

وقال قتادة: ﴿ذُلُلًا﴾؛ أي: مُطيعة[٣]. جمع ذَلُول، وهي على هذا صفة النَّحل.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا﴾: هو رجوع من[٤] المخاطبة إلى المغايبة توسُّعًا في الكلام؛ أي: من بطون النَّحل، وهي جمع نحلة.

﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾: أي: عسل يُشرَبُ وتختلفُ ألوانُه، فمنها أبيض وأصفر وأحمر.

﴿فِيهِ﴾: أي: في الشَّراب، وهو العسل ﴿شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مِن أدوائِهم.

وعامَّة الأدوية المعجونةِ لا تخلو منه، وإنْ زعم زاعمٌ أنَّه قد[٥] يَهيج الصَّفراء، فليس مِن شيءٍ إلَّا وقد يضرُّ وينفعُ، وإنَّما المقصد ما فيه من غالب الشِّفاء.

وروي أنَّ رجلًا جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أخي قد اشتكى بطنَه، فقال: «اسقِهِ

---

(١) في (أ): «الذلل».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٨٨).

(٤) في (أ): «عن».

(٥) «قد» ليس في (أ).

عسلًا»، فسقاه عسلًا، فما زاده إلَّا استطلاقًا، فعاد إلى النَّبيِّ ﷺ، فذكر له ذلك، فقال: «اسقهِ عسلًا»، فسقاه ثانيًا، فما زادَه إلَّا استطلاقًا، إلى أن سقاه ثالثًا فاستمسَك، فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «صدقَ اللهُ وكذَبَ بطنُ أخيْكَ»(١).

وقال الحارثُ بن [عبد الله](٢) الأعور: جاء رجلٌ إلى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فشكا إليه سوءَ الحفظ، فقال: أترجع إلى أهلٍ؟ قال: نعم، فقال: قل لها تعطيك من مهرِها درهمين عن طيب نفسٍ، فاشترِ بهما لبنًا وعسلًا، واشربهما مع شربةٍ من ماء المطر على الرِّيق = تُرْزَقْ حفظًا(٣).

فسُئِلَ الحسين بن الفضل عن هذا، فقال: أخذه من قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]، وفي اللَّبن: ﴿خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وفي العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وفي المهر: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، إلا أن قول النبي ﷺ فيهما: «صدق الله وكذب بطن أخيك» كان قبل الثالثة.

(٢) ما بين معكوفتين من «التقريب»، وفيه: الحارث بن عبد الله الأعور الهمداني الكوفي أبو زهير صاحب علي، كذبه الشعبي في رأيه، وفي حديثه ضعف.

(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٥/ ٣٠٢) نقلًا عن كتاب العياشي من الإمامية. والعياشي هو محمد بن مسعود، من أهل سمرقند، له ما يزيد على مئتي كتاب، توفي نحو سنة (٣٢٠هـ). انظر: «الفهرست» لابن النديم (ص: ٢٤٤).

وروى نحوه ابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٥٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٦٢)، عن علي قال: إذا اشتكى أحدكم، فليسأل امرأته ثلاثة دراهم أو نحوها، فليشترِ بها عسلًا، وليأخذ من ماء السماء، فيجمع هنيئًا مريئًا، وشفاءً مباركًا. قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١٧٠): رواه ابن أبي حاتم بسند حسن.

فـإذا اجتمعَـتِ البركة والشِّـفاء والهنـيء والمـريء والخالص والسَّـائغ فلا عجبَ أنْ ينفعَ[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: للذين تفكَّروا، فعلموا أنَّ النَّحلة على صغر جسمها وضعف خِلْقتِها لا تهتدي لصنعة العسل بنفسها، وأنَّ ذلك بصانعٍ[(٢)] صنعَها، وخالف بينها وبين غيرها من الحشرات الطَّائرة، فاستُدِلَّ بذلك على خالق واحد قادر لا شريك له ولا شبيه.

وقال القشيريُّ: إنَّ الله تعالى عرَّفَ عبادَه في هذه الآية أنَّ التَّفضيل ليس من جهة القياس؛ فإنَّ النَّحل مع خساستِه وقلَّة قيمته وصِغَر جثَّته جعل ما وراءَه عسلًا هو شفاءٌ للنَّاس، والإنسان في كمال صورته وتمام عقله وفطنته وعلوِّ رتبته وأنَّ منهم الأنبياء والأولياء في خصائص كثيرة سواها، ثم جعل فيما وراءهم من الوحشة ما لا يخفى، فأيُّ علَّةٍ أوجبَتْ للنَّحل هذه الفضيلة؟ وأيُّ ذنبٍ للإنسان أوجبَ هذه الوحشة؟ ليس ذلك إلَّا مَحْضَ الاختيار.

وقال: إنَّ الله تعالى أجرى سنَّته أنْ يُخفي كلَّ شيءٍ عزيزٍ في شيءٍ حقيرٍ، جعل الإبريسم في الدُّود وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسلَ في النَّحل وهو أضعف الطُّيور، وجعل الدُّرَّ في الصَّدفِ وهو أوحش حيوانٍ من حيوانات البحر، وأودع الذَّهب والفضَّة والفيروزج في الحجر، كذلك أودع المعرفة والمحبَّة له في قلوب المؤمنين، وفيهم مَن يخطئ، وفيهم مَن يَعصي[(٣)].

***

(١) ورد هذا عند الألوسي من ضمن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند العياشي.

(٢) في (أ): «لصانع».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٧٠) ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾: أي: أردئِه، وقد رَذُلَ رَذَالَةً، من حدِّ (شـرُف).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: هو إذا بلغ خمسًا وسبعين سنة[1].

وقال قتادة: إذا بلغ تسعين سنة[2].

فيتعطَّل عن العمل والتَّصرف والاكتساب والحجِّ والغزو ونحوها، فيخرف، فينكر عقله، وذلك قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ممَّا كان يعلمه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالعباد ﴿قَدِيرٌ﴾ على إبقائهم وإفنائهم ونقلهم[3] من حالٍ إلى حالٍ، من الصِّبا إلى الشَّباب، ثم إلى الكهولة، ثم إلى الشَّيب، ثم إلى الخرف.

***

(٧١) ـ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾: فجعل منهم الغنيَّ والفقير، والمستكثِر والمقِلَّ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٢).

(٢) في (ر) و(ف): «سبعين سنة»، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٦/ ٧٨) ط: دار التفسير، و«البسيط» (١٣/ ١٢٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠).

(٣) في (ر) و(ف): «ويقلبهم».

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: أي: فليس الأغنياء الـمُفضَّلون في المال على غيرهم رادِّين ما رزقَهم اللهُ على مماليكهم؛ أي: جاعلين لهم في أموالهم شركاء حتى يكون المالكون والمملوكون سواءً في التَّبسُّط فيه والإنفاق منه، وحتى يشركوهم في نسائهم وإمائهم[1]؛ أي: وإذا كنْتُم لا ترضون بهذا من أنفسكم في أملاككم فكيف تحكمون به في أملاكي وهم خلقي وعبيدي فتجعلوهم لي شركاء؟!

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: أي: إذا أشركْتُم معي غيري فقد جحدْتُم نعمتي؛ لأنَّ النِّعمَ كلَّها منِّي، والعبادة والشُّكر والطَّاعة لا تحقُّ إلَّا لي.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿تجحدون﴾ بتاء المخاطبة، كما قال في أوَّله: ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾، والباقون بياء المغايبة كما قال: ﴿بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ﴾[2].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نزلَتْ في نصارى بني نجران حين قالوا: إنَّ عيسى ابنُ الله، فقال: هل أنتم تشركون عبيدكم معكم في أملاككم[3]، فإذا لم ترضوه لأنفسكم فكيف رضيْتُم به لي[4]؟!

وقيل: نزلَتْ في قول المشركين في التَّلبية، فإنَّهم كانوا يقولون: لبَّيك لا شريك لك إلَّا شريكاً هو لك، تملكُه وما ملك.

* * *

(١) في (ر) و(ف): «بساتينهم وأماكنهم».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٨).

(٣) في (ف): «أموالكم».

(٤) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٦٨).

(٧٢) ـ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾: وهذا ذِكْرُ نعمةٍ أخرى؛ أي: أمُّهُنَّ حوَّاء خُلقَتْ مِن آدم.

وقيل: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: بشرًا مثلَكم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ ليتمَّ لكم من أنفسكم التآلفُ والسُّكون[١].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾: قال عبد الله وأبو الضُّحى[٢] وإبراهيم وسعيد بن جبير: أي: أختانًا[٣].

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وطاوس: أي: خدمًا[٤]. وعلى هذا قوله: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ هم[٥] واحدٌ، والخدم[٦] من البنين.

وقيل: هم ولد الولد، وهم[٧] النَّوافل.

وقيل: هم الأعوان، وقال جميل:

(١) في (أ): «ليتم لكم التآلف والسكون»، وفي (ف): «ليتم لكم البينات ويزيل عنكم الشكوك».

(٢) في (ف): «قال عبيدة»، وفي (أ) و(ر): «قال أبو عبد الله وأبو الضحى»، والصواب المثبت. انظر التعليق الآتي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧) عن عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وأبي الضحى وإبراهيم وسعيد بن جبير.

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٨).

(٥) «هم» ليس في (أ).

(٦) في (أ): «الخدمة».

(٧) في (ر) و(ف): «وقيل هم».

حَفَـدَ الولائِـدُ حولَهـا واستسـلَمَتْ بِأَكُفِّهِـنَّ أَزِمَّـةُ الأجمـالِ(١)

وأصلُ الحَفْدِ: الإسراعُ في العمل، ومرَّ البعيرُ يَحفِدُ حَفَدانًا، ومنه قول الدَّاعي في القُنوت: «وإليك نسعى ونحفِدُ»(٢).

---

(١) نسب لجميل في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٦٤)، و«الغريبين» للهروي (٢/ ٤٦٣)، و«النكت والعيون» (٣/ ٢٠٢). وجميل: هو ابن عبد الله بن معمر العذري، من شعراء الدولة الأموية.

ونسب للأخطل في «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٢٦٥).

ونسب لحميد في «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٠٢).

ونسب لأمية بن أبي الصلت كما ورد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في «المعجم الكبير» للطبراني (١٠٥٩٧).

ونسب لكثير عزة كما في «عمدة الحفاظ» للسمين الحلبي (١/ ٤٣٠).

وقوله: «حولها واستسلمت» كذا وقع في النسخ الثلاث، وفي المصادر: «حولهن وأُسلمت».

(٢) قطعة من دعاء القنوت روي عن عدد من الصحابة منهم:

علي رضي الله عنه؛ رواه عنه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٧٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٠٢٩).

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. رواه عنه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٨٩٣).

ورواه أبو داود في «المراسيل» (٨٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٣٨٢)، من طريق خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٦٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٠٢٧) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٤٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٩٨)، من طريق ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير: (أن عمر بن الخطاب قنت..)، فذكره مطولاً. وللحديث طرق كثيرة، بعضها مرفوع وبعضها مرسل، واختار هذه الطريق البيهقي ورجحها. وانظر: «البدر المنير» (٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢)، و«نصب الراية» (٢/ ١٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أي: الأطعمة الشَّهية، وقيل: الحلال[(١)].

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: فيما جعل لكم الشَّيطان من تحريم بعض الطَّيِّبات في الزُّروع والأنعام تؤمنون، فتجعلونه دينًا وهو باطل.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: التي أنعم الله عليهم في إحلالها ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فهذا منكر عجيب.

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: جمادًا لا يملك ﴿لَهُمْ رِزْقًا﴾؛ أي: ترزيقًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ مفعول بوقوع فعل الرِّزق عليه؛ أي: لا يقدرون أن يرزقوهم[(٢)] من السَّماء مطرًا، ولا من الأرض نباتًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي: بأنفسِهم، والأوَّل: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يملكون الأمر به[(٣)]، نفى السُّلطان والقدرة عنهم جميعًا، وقد يملك الإنسان مالًا فلا يعطي، لكنه يستطيع أن يعطي إذا أراد، فيقول: الأصنام لا ملك ولا قدرة لها.

ثم وحَّد ﴿يَمْلِكُ﴾ للَفظ ﴿مَا﴾، وجمع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ لمعنى ﴿مَا﴾؛ لأنه أُريد به الجمع.

* * *

---

(١) في (أ) و(ف): «الحلالات».

(٢) في (أ): «لا يقدر أن يرزقهم».

(٣) «به» ليس في (أ).

(٧٤) ـ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: أي: لا تصفوا لله الأشباه[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ صوابَ الأمثال من خطئِها ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وقيل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ من الشَّياطين تقبلون[2] تحريمهم وتحليلهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ المصالحَ والحِكَمَ فيما يُحِلُّ ويُحرِّم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فتُحلُّوا وتحرِّموا.

وقيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ وعيدٌ؛ أي: يعلم ما تصنعون قولًا وفعلًا وعَقْدًا، فيجازيكم على ذلك كلِّه.

قال القشيريُّ: تعليق القلبِ بشخصٍ أو سببٍ مُضاهٍ لعبادة الأصنام، من حيثُ إنَّه يضيِّع الوقت فيما لا يعنيه، ويمحقُ الزَّمانَ فيما لا يُجدي على صاحبه بشيء ولا يُغنيه، ومَن ضيَّع فيما لا يعنيه وقته، استجلب من الله في التَّحقيق مقته[3].

***

(٧٥) ـ ﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾: روى ابن جريج عن عطاء: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾: هو أبو جهل بن هشام ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لا يملك لنفسه في

(١) في (ف): «لا تصف الله بالأشباه».

(٢) في (ر): «من الشياطين ما يفعلون من».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣٠٩)، وسقط أكثر الكلام من مطبوعه.

الكون تصرفًا[١]، ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾: هو أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾[٢].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾؛ يعني: أُبَيَّ بن خلف الجمحيَّ، ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ يعني: حمزة وعثمان بن مظعون[٣].

وقيل: عثمان بن عفان[٤].

وقال مقاتل: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ هو هشام بن عَمرو بن الحارث بن ربيعة القرشيُّ، كان رجلًا قليل الخير، يعادي رسول الله ﷺ، ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ يعني:

---

(١) قوله: «﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لا يملك لنفسه في الكون تصرفًا» من (ف)، ولم يرد في باقي النسخ والمصادر.

(٢) قوله: «﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾» من (ف)، ولم يرد في باقي النسخ والمصادر. والخبر ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٢)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٧٢).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٤٣) من رواية عطاء عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٣)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٤)، من قول عطاء، وفيهما: (حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٦٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٠٣٩)، والبخاريّ في «تاريخه» (١/ ٣٠٦)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٩ ـ ٢٨٠)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٤٨٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وزاد بعضهم: (والأبكم الذي أينما يُوَجِّهُ لا يأت بخير، ذاك مولى عثمان بن عفَّان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما). لفظ الطبري، وجاء في رواية الواحدي أن المولى المذكور هو أسيد بن أبي العيص.

المؤمن، وقوله: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ هو أبو العاص بن أميَّة بن عبد شمس[١].

قوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾؛ أي: ثقيل على وليِّه وعيال عليه[٢].

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ وهذا مثلٌ ضربَه اللهُ لنفسِه سبحانَه وللأصنام.

ويقال: هو مثلٌ للمؤمن والكافر:

أمَّا الأوَّل: فقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾ يقول: إنَّ مَن يعبدُ الوثن[٣] أو شيئًا مِن دون الله فإنَّما يعبد عبدًا من عباد اللهِ وخَلقًا من خلقِه، لا يقدر لعابده[٤] على جزاءٍ ولا ثواب، ومَن يعبد الله فإنَّما يعبدُ مَن يقدر على كلِّ شيءٍ، ومَن بيده كلُّ رزقٍ حسنٍ، فهو يجازي به العابد له. هذا معنى قول الحسن[٥].

والتَّمثيل مطَّردٌ في كلِّ معبود من دون الله من جمادٍ وذي روحٍ؛ لأنَّ الجميعَ خلقُ الله تعالى، كالعبد للآدميين، ولا يملك شيء منه ما يملكه الله تعالى، ولا يقوم بتدبير العالم في أرزاقهم.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).

(٢) في (ر) و(ف): «مقل وله عيال عليه».

(٣) في (أ): «الصنم».

(٤) في (أ): «لعباده».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٣) عنه في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ قال: الصنم.

يقول: إن كنتم معاشرَ عبادي لا تسوُّون بين المملوكِ منكم الفقير المعدَم وبين الحرِّ الغنيِّ الموسِر، فكيف تسوُّون بيني وبين غيري في العبادة، وأنا الغنيُّ القادرُ ومَن دوني فقير عاجز؟!

وأمَّا الثَّاني: فهو أنَّ الـمَثل للكافر الذي قد حَرَمَه اللهُ التَّوفيق، فهو لا يحصل منه عملٌ صالحٌ، ولا يوفَّقُ لبابٍ من أبواب الطَّاعة، فهو كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيءٍ ينفِقُ[1] منه في باب تكرمةٍ أو قضاءِ حقٍّ، ومَثل المؤمنِ الموفَّق للطَّاعات التي[2] تحصل منه من الخيرات والأعمال الصَّالحة مِن حيثُ يعلم النَّاس ومن حيث لا يعلمون.

والإنفاقُ[3] يُعبَّر به عن العمل، وقد ذهب بعضُ المفسِّرين في قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ أي: حتى تعملوا الطَّاعات، ويقال لمن أكثر الكلام: أمسكْ عليك نفقتَك.

والسِّرُّ والجهرُ مثلان للأعمال التي يُجهَر بها ،كالصَّلوات المفروضة، والإعلانِ بالشَّهادة لله في التَّوحيد[4]، والأذكارِ التي أُمِرَ النَّاس بالجهر بها، ومنها الحجُّ والجهادُ والأعمالُ التي تظهر للنَّاس.

والسِّرُّ: النَّوافل التي يخلو بها المرءُ في بيتِه وحيثُ لا يُعلَم به كدعاءِ السِّرِّ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: المستَحِقُّ للشُّكر والثَّناء والمدح كلِّه هو الله؛ لأنَّ النِّعم في الدِّين والدُّنيا كلَّها منه.

---

(١) في (ر): «يؤت».

(٢) في (ر) و(ف): «الذي».

(٣) في (ر) و(ف): «وفي الإنفاق قد».

(٤) في (أ): «وبالتوحيد» بدل: «في التوحيد».

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾: ردٌّ لِمَا قالوا من استحقاق الأصنامِ العبادةَ والشُّكرَ أنَّها ليس منها إنعام عليهم فتستحقَّ ذلك منهم، وأكثرُهم لا علمَ عندهم إنَّما هم مقلِّدون جُهَّال، استحسنوا عبادةَ غيرِ الله على غير بصيرةٍ اتِّباعًا للآباء.

* * *

(٧٦) - ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

الأبكمُ: الأخرس، والكَلُّ: العيال، ومولاه: ابنُ عمِّه وقريبُه.

وهذا المثل الثَّاني ضربَه اللهُ لنفسِه وللأوثان، فالذي كالأبكم الذي لا يقدر على شيء؛ أي: لا يقوم بإمساكِ نفسِه وتدبير أمرِه، فهو كَلٌّ؛ أي: عيالٌ على مولاه؛ أي: على قريبِه وابن عمِّه الذي يدبِّر أمرَه، أو على مَن يتولَّى من الأجانب أمرَه ويقومُ بأسبابه، أينما يوجِّهه مولاه في أمرٍ يَعْرِضُ أو حاجةٍ تقعُ أو رسالةٍ تؤدَّى فإنَّه لا يأتيه بخير؛ لأنَّه لا يُعربُ[1] عن نفسِه، ولا ينطق فيترجِمَ نطقُه عمَّا في ضميره، فالمستعين به خائبٌ من نفعه؛ لأنَّه لا يأمر ولا ينهى، ولا يُفصح عن حقٍّ ولا باطل، فكذا الوثن إنَّما يقوم بأمرِه غيرُه، فيُحمَل ويُنقَل مِن موضعٍ إلى موضعٍ، ويُصلَح ما يتشعَّث[2]

(١) في (ر) و(ف): «يعبر».

(٢) في (ر): «يتشعب».

منه، ويُماطُ عنه ما يَعلقُ به مِن قذًى أو أذًى، وكلُّ ما يسألُه عابدُه ويدعوه له ويرجوه من عبادته فإنه لا يجدُه عندَه؛ لأنَّه لا يعقِلُ ولا يتكلَّمُ، فهو كَلٌّ على عابدِه، يتكلَّفُ مُؤْنَتَهُ، ولا يرجو معونتَه.

وقال الكلبيُّ: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: مثَلُ الوثنِ، ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾: هو الله تعالى، يأمر بشهادةِ أنْ لا إله إلَّا الله، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ يعني: يدلُّكم[١] على طريق مستقيم[٢].

وفي قوله: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ فيه إثباتُ جميعِ ما نفاه عن الأوَّل:

فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ فيه نفي الكلام، وفي الأمر بالعدل إثبات الكلام.

وقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، والآمر بالعدل قادرٌ على كلِّ شيء.

وقوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، ومَن يأمرُ بالعدل فغيرُه يكون كَلًّا عليه، وهو يَمُونهم ويقضي حوائجهم.

وقوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، والآمرُ بالعدل يأتي بكلِّ خيرٍ.

* * *

(٧٧) - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «بذلك».

(٢) ذكر الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٢) عن الكلبي قوله: «يعني وهو يدلكم على صراط مستقيم».

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يجوز أن[1] يتصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقيل: إنَّ المشركين كانوا ينكرون البعث، ويقولون: متى السَّاعة؟ فإذا قيل لهم: هو مكتوم، قالوا: لو كان لكان له وقتٌ معلومٌ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الله مالك ما غابَ عن العباد في السَّماوات والأرض، ويملك إظهار ما غابَ من ذلك كلِّه، فيملك إظهار السَّاعة، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾: أي: كنظرِ البصر؛ أي: إنَّها تأتي بغتة في أسرع وقتٍ، كما قال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس هذا للشَّكِّ، بل معناه: مَثِّلوها بأيِّهما شئْتُم فهو صوابٌ، كما يُقال: جالسِ الحسنَ أو ابنَ سيرين.

وقيل: هو لشكِّ المخاطَب؛ أي: كونوا[2] في كونها على هذين الوسمين[3].

وقال ابن عبَّاس: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ أي: بل هو أقربُ[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذا ظاهر.

* * *

(٧٨) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) «يجوز أن» ليس في (أ).

(٢) في (ف): «كونه شاك» بدل: «أي كونوا».

(٣) في (أ): «الوجهين».

(٤) لم أقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٤٧٩).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: ومِن النِّعمِ التي عدَّها هذا، وقوله: ﴿أَخْرَجَكُم﴾ إثبات عجزنا في الابتداء؛ يعني: لم تكونوا قادرين بأنفسكم على الخروج فأنا أخرجتُكم.

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: فأنا علَّمتكم، وقولُه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، قيل: هو الهداية إلى رضاع الثَّديين.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: راجعٌ إلى هذا؛ أي: جعل لكم آلات العلم والفهم.

وفي إثباتِ السَّمع إثباتُ النُّطق؛ لأنَّ مَن لم يسمَع لا يقدر على أن يتكلَّم.

يقول: خلقَكم وأعطاكم هذه الأعضاء السَّليمة، وأودعَها هذه المعانيَ؛ ليكلِّفَكم شكرَه بما أعطاكم، ويتعبَّدكم بشرائِعِه لتشكروا له على صنائعه.

وقال القشيريُّ رحمه الله: جعلْتُ لكم السَّمع لتسمعوا خطابي، والأبصار لتعتبروا بأفعالي، والأفئدة لتعرفوا حقِّي، ثم تشكروا عظيم إنعامي بما أُنعمُ عليكم مِن هذه الحواسِّ(١).

* * *

(٧٩) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: وهذا تنبيهٌ على الاعتبارِ بما يرونَه من الطَّير، وهو جمع طائرٍ.

---

(١) في (أ): «الخواص». انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣١٠).

﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾؛ أي: مذلَّلاتٍ في الهواء المرتفعِ من الأرض، وأضاف الجوَّ إلى السَّماء لأنَّ المراد: ما ارتفعَ من الهواء إلى جهة السَّماء.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أي: ما يمسِكُ هذه الطُّيور في الهواء إلَّا الله بما أنبتَ لها من الأجنحة، وسخَّرها للطَّيران.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: أي: في تسخير الطَّير للطَّيران ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنَّها تدلُّ على خالقٍ خلقَها لا يشبِهُ خلقَه، وسخَّرها بقدرتِه، فإنَّها ما صارَتْ كذلك بأنفسِها، بل بمسخِّرٍ سخَّرها، وخصَّ المؤمنين بها لأنهم هم المنتفِعون بالتَّفكُّر فيها.

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾: أي: من بيوت الحجر والمدَر والخشب موضعَ سُكْنى في الحضر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾: وهي الفساطيطُ والأخبيةُ وقِبابُ الأَدَمِ والأنطاع، يخفُّ عليكم حملُها ونقلُها[1] في الأسفارِ وما دونها خارجَ القُرى والأمصار يومَ ارتحالِكم.

والظَّعنُ بفتح العين وتسكينها: الارتحالُ.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾: قرارِكم في منازلكم.

---

(١) في (أ) و(ر): «وثقلها».

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾: أي: وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها ﴿أَثَٰثًا﴾؛ أي: أمتعة وثيابًا تصلح للحضر والسَّفر، منها ثيابٌ تُلْبَس، ومنها ما يُفرَش[١]، ومنها ما يُنْصبُ[٢] كأخبية الشَّعر واللُّبُود، والأصواف للضَّأن، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: يجعلون منها أثاثًا ينتفعون[٣] به أيَّام الحياة.

والأثاثُ: متاعُ البيتِ الكبير، من قولهم: شَعْرٌ أثيثٌ؛ أي: كثير، وأثَّ النَّبْتُ يأَثُّ[٤] أثاثًا: إذا كَثُر والتفَّ، وكذلك الشَّعر، ولا واحدَ للأثاث.

***

(٨١) - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾: كالشَّجر وما يُستَظلُّ به.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾: جمع كِنٍّ، وهو السَّتر؛ أي: ستورًا من الأنداء[٥] ونحوها، وهي الكهوف يُتوقَّى بها من المطر والحرِّ والبرد.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾: قال قتادة: السِّربالُ: القميصُ من القطنِ والكتَّان والصُّوف[٦].

---

(١) في (ر): «ومنها ثياب تفرش»، وفي (ف): «ومنها تفرش».

(٢) في (ف): «ومنها تنصب».

(٣) في (أ) و(ف): «يتمتعون».

(٤) «يأث» مثلثة العين. انظر: «القاموس» (مادة: أثث).

(٥) الأنداء: جمع الندى، وهو المطر والبلل. انظر: «الصحاح» (مادة: ندا).

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٠٨)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٢١).

وقال الزَّجَّاجُ: كل ما لبسْتَه فهو سِربال[١].

وإنَّما قال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكر البرد، وإن كان ما يقي البرد أعظمَ في المنَّة؛ لأنَّ الذين خُوطبوا بهذا أهل حَرٍّ[٢] في بلادهم، فحاجتُهم إلى ما يقي الحرَّ أشدُّ. قاله عطاء[٣].

ولأنَّ ذِكْرَ أحدهما ذِكْر الآخر بتفاهم النَّاس[٤]، وهو كقول الشَّاعر:

وما أدري إذا يمَّمْتُ أرضًا ... أريدُ الخيرَ أيُّهما يليني[٥]

ذكر الخير[٦] وكنَى عن اثنين، وهما الخيرُ والشَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾: أي: ودروعًا من الحديد تردُّ عنكم سلاحَ عدوِّكم في قتالِكم. والبأسُ: شدَّةُ الحرب.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾: فلا يدعُ شيئًا ممَّا بكم الحاجةُ إليه في دينِكم ودنياكم إلَّا أعطاكموه تامًّا، تقع به الكفاية.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٥).

(٢) في (أ): «الحر».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٢٣).

(٤) في (ر): «تبعا للناس».

(٥) البيت للمثقب العبدي من قصيدة له في «المفضليات» للضبي (ص: ٢٩٢)، وانظر: «ديوانه» (ص: ٢١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٩). ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٢). وبعده:

أألخيرُ الذي أنا أبتغيه ... أمِ الشَّرُّ الذي هو يبتغيني

(٦) في (أ): «ذكر اثنين».

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾: أي: لتُسْلموا وتُخْلِصوا لله، وتجعلوا أنفسكم سالمةً له مُسْلمةً إليه.

* * *

(٨٢) - ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: أي: فإنْ أعرضوا عن تدبُّر ما عدَّدْتُ من النِّعم والآيات، وختمْتُ ذلك بالدُّعاء إلى الإسلام بقولي: تُسلمون[١]، وعن قَبولِه والإيمان بك فيما أتيتَهم به[٢]، فلا تبعةَ عليك في ذلك ولا لوم[٣]؛ ولأنَّ الذي عليك هو التَّبليغ الظَّاهر، وقد فعلْتَ.

* * *

(٨٣) - ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾: أي: يعرفون بقلوبِهم نعمةَ اللهِ عليهم بك يا محمَّد، ثم ينكرونها بألسنتهم فيجحدون نبوَّتك، وأكثرُ هؤلاء المشركين هم الكافرون النِّعمةَ التي نالوها[٤] بك.

وهو وصفٌ للمعاندين[٥] منهم، كما قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) في (أ): «تقول لكم يسلمون»، وفي (ف): «بقول مسلمون» بدل من «لقولي مسلمون».

(٢) في (ر) و(ف): «به منه».

(٣) في (ر) و(ف): «لزوم».

(٤) في (ر): «أوتوها»، وفي (ف): «ولوها».

(٥) في (ف): «وهو صفة للكافرين المعاندين».

وقال الحسن: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: وجميعُهم[١]، وهو كقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]؛ أي: فلا يؤمنون شيئًا.

وهو كقول العرب: هذه الأرض قلَّما تنبت الكلأ؛ أي: لا تُنبت شيئًا.

وقيل: بل هو على حقيقته؛ لأنَّه كان فيهم مَن لم تَقُم عليه الحجَّة به ممَّن لم يبلغ حدَّ التَّكليف، أو هو مَؤُوفٌ[٢].

وقال بعض المفسِّرين: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: هي محمَّدٌ ﷺ.

وقيل: هو جميع ما سبق تقريرُه في هذه السُّورة.

وإنكارُهم هذه النِّعمة مثلُ ما حُكِي أنَّ بعضَهم ذكرَ هذه النِّعم فقال: ورَّثنيها آبائي؛ أي: الأنعامَ والأثاثَ والبيوت[٣]، وكان بعضهم يقول: نلناها بشفاعةِ آلهتنا.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: هو قولهم حين سألهم: ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، و﴿مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [العنكبوت: ٦٣]، قالوا: الله، ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بقولهم للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله[٤].

وقال عون بن عبد الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ هو قول الرَّجل: لولا فلانٌ ما أَصبْتُ كذا[٥].

* * *

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٧)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٦٤).

(٢) مؤوف من الآفة وهي: العاهة، أو عرض مفسد لما أصابه. انظر: «القاموس» (مادة: أوف). ولعل المراد هنا فساد العقل الذي يرتفع معه التكليف.

(٣) «والبيوت» من (أ).

(٤) بمعناه في «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ٢٢٨).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٦).

(٨٤) ـ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: واذكرْ يا محمَّد يومَ نبعثُ من كلِّ أمَّة شهيدًا، وهو النَّبي يشهد على أمَّته بما كان[1] مِن إجابةِ مَن أجابَ وردِّ مَن ردَّ.

ومعنى الشَّهادة مع أنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بجميعِ ذلك: أنَّ هذا أهولُ[2] في النُّفوس، وأشدُّ في الفضيحة، وأردعُ إذا تأمَّلها المخوَّف بها.

وقيل: اتِّصالها بما قبلها: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ اليومَ ويوم نبعثهم ينكرون ذلك أيضًا.

وقيل: هو موصولٌ بقولِه: ﴿يَعْرِفُونَ﴾؛ أي: يعترفون بذلك[3] يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: في الاعتذار عمَّا كان منهم في الدُّنيا من الإنكار، كما قال: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]، ومعنى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾؛ أي: لا يُسمَع عذرُهم ولا يُقبَل.

وقيل: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾؛ أي: يُحجبون عن ربِّهم، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ومجازه قولهم: أذنَ السُّلطانُ لفلانٍ، وخرج له الإذن؛ أي: بالدُّخول عليه ولقائه.

---

(١) في (أ): «يشهد على الأمة مما كان»، وفي (ر): «يشهد على أن الأمَّة ممن كان».

(٢) في (ف): «القول فحش».

(٣) في (أ): «ذلك» بدل من «أي: يعترفون بذلك».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يؤمرون بالكفِّ في معصيةٍ[١] كانوا يرتكبونها؛ لأنَّه ليس بيومِ تكليفٍ.

والاستعتابُ في الدُّنيا كذلك، فإنَّه يُقال: أساء إليَّ فلانٌ فعتبتُ عليه[٢]؛ أي: أظهرْتُ الموجدة فعاتبْتُه بذلك؛ أي: ذاكرْتُه به[٣]، واستعتبْتُه؛ أي: سألتُه وطلبْتُ منه أنْ يمتنِعَ عن ذلك ليرضيَني، فأعتبني؛ أي: أرضاني بترك ذلك، والعودِ إلى ما أحبُّه.

* * *

(٨٥) - ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ أي: أشركوا، فوضعوا العبادةَ في غير موضعها، وضرُّوا بذلك أنفسَهم، ونقَصوها حظَّها، ورأوا العذابَ الذي أُعِدَّ لهم في الآخرة، وذلك إذا دخلوا إلى جهنَّم، فلا يهوَّن عليهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: يُمهَلون للإيمان.

وقيل: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ساعةً فيستريحوا، ولا يمهَلون للدُّخول إذا انتهوا إليها.

* * *

(٨٦) - ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «بالكف عن معصيته التي».

(٢) في (ر) و(ف): «فإنه يقال أتينا إلى فلان نعتب عليه».

(٣) في (ف): «أي ذاكرته» بدل من «إذا ذاكرته به».

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾: أي: إذا رأوا أصنامَهم التي أشركوها في عبادتهم إيَّاها مع اللهِ وقد حُشِرَتْ معهم ليوبِّخوا بها.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾؛ أي: يا ربَّنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾؛ أي: هم أضلُّونا، فافعل بهم كذا.

﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾: أي: فقال الشُّركاء في جوابهم:

﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولكم: إنَّا آلهةٌ، وفي إضافتكم الإضلالَ إلينا.

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: أي: واستسلمَ هؤلاء المشركون لحكم الله، وذلُّوا، وسقط تكبُّرهم ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من قولهم: هم شفعاؤنا، بطلَ ذلك القولُ، فلا شفاعةَ ولا نصرةَ.

* * *

(٨٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم كبراء المشركين، كفروا نعمةَ اللهِ، وصدُّوا النَّاس بالتَّمويه عن دين الله.

﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾: أي: ضاعفنا لهم العذاب ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ النَّاس بالصَّدِّ عن سبيل الله، فلهم عذابُ ضلالهم[1] وعذابُ إضلالهم النَّاسَ.

---

(١) في (ر) و(ف): «أليم».

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ يعني: خمسة أنهار من صُفرٍ مُذابٍ، تسيل من تحت العرش[١]، يُعذَّبون بثلاثةٍ منها على مقدار اللَّيل في الدُّنيا، وباثنين منها على مقدار النَّهار[٢].

وقال سعيد بن جبير: يزادون حيَّاتٍ أمثالَ البُخْتِ، وعقاربَ أمثالَ البِغال، تلسَعُ أحدَهم اللَّسْعَةَ، فيجدُ صاحبُها حمَّتَها أربعين خريفًا[٣].

وقيل: هو الجرب.

* * *

(٨٩) ـ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: أي: نبيَّهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: وهو تخصيصٌ بعد التَّعميم، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: أي: ممَّا هم فيه الآن، أو ما[٤] يَؤُول إليه أمرهم في الآخرة، وكشفْنا ذلك كلَّه، وأودعْنا كلَّ ما يحتاجون إليه من أمور الدِّين والدُّنيا.

---

(١) في (ف): «من تحتهم»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٦)، ورواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٧).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٦).

(٤) في (ف): «ومما»، وفي (أ): «وما» بدل من «أو ما».

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: دلالة إلى الحقِّ، ورحمة لهم حتى لا يهلكوا، وبشارة بالجنَّة لمن أسلم[1].

***

(٩٠) - ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ **الآية:** هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقد بيَّن ذلك كلَّه في هذه الآية، فإنَّه أمرَ بثلاثةِ أشياءَ هي جامعةٌ جميعَ ما أمر الله به في القرآن، ونهى عن ثلاثة أشياء هي جامعة جميعَ ما نهى الله عنه في القرآن، ولذلك يقرأ كلُّ خطيبٍ على المنبر في آخر كلِّ خطبةٍ هذه الآية لإتيانها على كلِّ مأمور ومنهيٍّ؛ لتكونَ عِظةً جامعةً للنَّاس كلِّهم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: أجمع آية في القرآن هذه الآية[2].

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: جِماع التَّقوى في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ الآية[3].

وقال عثمان بن مظعون: كنْتُ أسلمْتُ استحياءً من رسول الله ﷺ لكثرة ما كان يَعْرض عليَّ الإسلام، ولم يَقرَّ الإسلام في قلبي، فكنْتُ ذاتَ يومٍ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ جالسًا أتأمَّله، فشَخَصَ بصرَه نحو السَّماء، ورأيته[4] كأنَّه يستفهم شيئًا، فلمَّا سُرِّيَ

---

(١) في (أ): «يسلم».

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠٠٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٥٨).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٦٠) مرفوعًا دون راو أو سند.

(٤) في (ف): «والله»، وليست في (ر).

عنه سألْتُه عن حالِه، فقال: «نعم، بينا أنا أحدِّثكُم رأيْتُ في الهواء جبريل، فأتاني بهذه الآية»، وقرأها عليَّ، فقرَّ الإسلامُ في قلبي، فأتيْتُ عمَّه أبا طالبٍ فأخبرْتُه، فقال: يا آلَ قريشٍ، اتَّبعِوا محمَّدًا تَرشُدوا، فإنَّه لا يأمركم إلَّا بمكارم الأخلاق، فإنْ كان ابنُ أخي صادقًا أو كاذبًا فإنَّ إلهَه لا يأمرُه إلَّا بخير، فأتيْتُ رسولَ الله ﷺ، فأخبرْتُه بقولِه، ففرح بذلك، فقال له: «يا عم، تأمر النَّاسَ باتِّباعي ولا تتَّبعُني»، فأبى، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فأتيْتُ الوليدَ بنَ المغيرة، وقرأْتُ عليه الآية، فقال: إنْ كان محمَّدٌ قاله فنِعْمَ ما قال[١]، وإنْ كان قالَه ربُّه فنِعْمَ ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ الآيات [النجم: ٣٣][٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾؛ أي: بالتَّسوية في الحقوق فيما بينكم، وتركِ التَّظالم، وإيصالِ كلِّ ذي حقٍّ إلى[٣] حقِّه، والإحسانِ إلى مَن أساءَ إليكم.

وقيل: هو التَّفضُّل الزَّائد على العدل.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إعطاءِ ذي القربى[٤]، وهو صلةُ الرَّحم وبرُّ الأقارب.

---

(١) في (ف): «فنعما» بدل: «فنعم ما قال».

(٢) رواه دون قصة أبي طالب وما بعدها الإمام أحمد في «المسند» (٢٩١٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٩٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٢٢)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وذكره كما عند المصنف لكن دون قصة الوليد بن المغيرة: السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٣) في (أ): «كل حق إلى ذي حقه».

(٤) في (أ): «القراب به».

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: أي: عن الذُّنوب المفرِطة في القُبح.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: وهو كلُّ ما تنكرِهُ العُقول السَّليمة، ولا يُعرَف في سُنَّةٍ ولا عقلٍ.

وقيل: الفاحشةُ: كلُّ ما يعظُمُ قبحُه فيما يفعلُه الإنسان في نفسِه ولا يظهرُه، والمنكرُ: ما يظهَرُ للنَّاسِ ممَّا يجبُ(١) عليهم إنكارُه.

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾: أي: وينهى عن الاستطالة على النَّاس بفضل القوَّة.

وحقيقتُه: طلبُ ما ليسَ له طلبُه، ولا يكون البغيُ إلَّا من الفاعلِ في غيره، فأمَّا الظُّلم فقد يكون في نفسه.

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ﴾: أي: يحذِّركم مكروهَ العواقب في مخالفةِ أمرِه ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لتتذكَّروا بعقولِكم فتتَّعظوا بمواعظ الله.

وقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ فيما بينكم وبينَ ربِّكم أوَّلًا، وليس من العدل أنْ يُعدَل بالشُّكر عن المنعِم إلى غير المنعِم، ولا أنْ يُشركَ في الشُّكر غيرُ المنعِم، وهذا يوجب تركَ عبادة الأوثان، فالتَّوحيد عدلٌ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقيل: إنَّ الإحسانَ أن يأتيَ بما أُمِرَ به من الأعمال حسنًا على التَّمام.

وقيل: الإحسانُ إشارةٌ إلى الإخلاص فيه(٢).

فأمَّا ما رُوي في تفسيرها عن السَّلف:

---

(١) في (ر): «ويجب»، وفي (ف): «ما يجب».

(٢) «فيه» ليس في (أ) و(ف).

فقد قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: العدلُ: شهادةُ أن لا إله إلَّا الله، والإحسانُ: الإخلاصُ فيه[١].

وعنه في رواية: العدلُ: التَّوحيدُ، والإحسانُ: أداءُ الفرائض[٢].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: العدلُ: الإنصاف، والإحسانُ: التَّفضُّل[٣]. يعني: المروءة.

وقال مقاتل: العدلُ: التَّوحيدُ، والإحسانُ: العفو عن النَّاس[٤].

وقال عطاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: العدلُ: خلعُ الأنداد، والإحسانُ: أن تعبدَ الله كأنَّك تراه[٥].

وقيل: العدلُ: في الأفعال، والإحسانُ: في الأقوال؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقيل: العدلُ: في الأفعال والأقوال[٦]، والإحسانُ: أن تحبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسك.

وقال أبو بكر الورَّاق: العدلُ: أن ينصِفَ وينتصِفَ، والإحسانُ: أن ينصِفَ ولا ينتصِفَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٧)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٥) الشطر الأول منه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٧).

(٣) رواه ابن النجار في «تاريخه» كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٠).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٨٣).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٧).

(٦) «والأقوال» ليس في (أ).

وقال سفيانُ بن عيينة: الفحشاءُ: مخالفةُ القولِ الفعلَ، والمنكرُ: الشِّركُ، والبغيُ: التَّكبُّر.

وعنه في رواية: العدلُ: استواءُ السَّريرة والعلانية، والإحسانُ: أن تكون السَّريرة أحسن من العلانية، والفحشاء والمنكر: أن تكون العلانية أحسن من السَّريرة[1].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أُمِرَ العبدُ بالعدلِ فيما بينَه وبينَ الله، وفيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الخلق.

فالذي بينَه وبين نفسِه: منعُها ممَّا فيه هلاكها، قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

والعدلُ بينَه وبين ربِّه: إيثارُ حقِّ اللهِ على حظِّ نفسِه، وتقديمُ رضاه على هواها، والتَّجرُّد عن جميع الزَّواجر، والتَّفرُّد بملازمة جميع الأوامر.

والعدلُ الذي[2] بينه وبين الخلق: بذلُ النَّصيحة، وتركُ الخيانة فيما قلَّ وكثر، والإنصاف لهم بكل وجهٍ، وأن لا يسيء إلى أحد لا بالقول ولا بالفعل ولا بالعزم.

وصفةُ العوام منه: بذلُ الإنصاف، وكفُّ الأذى.

وصفةُ الخواصِّ: بذلُ الإنصاف، وترك الانتصاف، وإسداء الإنعام، وترك الانتقام، وكفُّ الأذى عن النَّاس، والصَّبر على ما يصيبك منهم من البلوى.

فأمَّا الإحسان فيكون بمعنى العلم، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنُه[3].

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٧).

(٢) «الذي» ليس في (أ).

(٣) رواه الشجري، كما في «ترتيب الأمالي الخميسية» (٦٦١).

والعلمُ مأمورٌ به في كلِّ الـمَواطن(١)، وهو علمُ الإنسانِ بحدوث نفسِه، وقِدَمِ محدِثِه، بصفات جلاله، ثم العلومُ الدينيَّة على حسب مراتبها.

وأما الإحسان في الفعل، فالحسنُ من أفعالنا ما أمرَ اللهُ به، وأذنَ لنا فيه، وحكم بمدح فاعله، وجعل في كلِّ عقلٍ حُسنَه.

والإحسانُ أيضًا: أن تقومَ بكلِّ حقٍّ وجبَ عليك، حتى لو كان طيرٌ في ملكك لا تقصِّر في تعهُّده(٢).

***

(٩١) ـ ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾: أي: اثْبُتوا على ما عاهدْتُم اللهَ عليه وبايعْتُم به رسولَه بالأيمان التي تحلفون بها.

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾: أي: لا(٣) تنكثوها بالحِنْثِ ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: بعد إحكامِ عقدِها على أنفسكم.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: فإنَّ مَن حلفَ بالله ليفعلَنَّ كذا، أو لا يفعلُ كذا؛ فقد منعَ نفسَه عن الخلافِ بذكرِ اسمِ الله تعالى؛ مهابةَ أن يهتكَه، فكأنَّه جعلَ تعليقه ذلك بحقِّه كفيلًا إقامةً على نفسه بإلزامِه البِرَّ فيه(٤)، كالذي أقامَ على نفسِه

---

(١) «في كل المواطن» ليس في (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣١٤ـ٣١٥)، وليس فيه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) «لا» من (ف).

(٤) في (ر) و(ف): «بإلزامه التوفية».

كفيلًا يطالبُه بأداء ما عليه، فإذا لم يؤدِّ ما عليه فقد استخفَّ بكفيله، فكذا مَن ترك البرَّ وحنثَ في يمينه فقد استهان باسم الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾: من البرِّ والحنْثِ، فيجازيكم به.

***

(٩٢) - ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾: جمع نِكْثٍ بالكسر، وهو ما نُقِضَ من الغزلِ، والنَّكْثُ بالفتح مصدر، وهما كالنَّقض والنِّقض، والقَطف والقِطف، والذَّبح والذِّبح؛ أي: ولا تنقضوا ما عاهدْتُم اللهَ عليه، فيكونَ مَثَلُكم كمثلِ امرأةٍ تُبْرِمُ غزلَها، حتى إذا قَوِيَ[1] عادَتْ عليه فنقضته[2]، وهذا قبيحٌ لا يخفى عليكم قبحُه.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نزلَتْ في امرأة حمقاء من قريش، يقال لها: رائطة[3].

وقال مقاتلٌ: ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد بن مناة بن تيم، وكانت تُلقَّب بجعدة[4].

---

(١) في (ر) و(ف): «فرغ».

(٢) في (ر) و(ف): «عادت إليه فتنقضه فيكون مثلكم».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٧٨) عن الكلبي. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٨)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٩ - ٤٠)، عن الكلبي ومقاتل لكن اسمها فيهما: (ريطة).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٨٤). وفيه: (ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة)، وما ذكره =

وكانت اتَّخذَتْ مغزلًا بمقدار ذراع، وفلكةً على قَدْرها، وكانت لها جوارٍ تأمرهُنَّ من الغداة إلى نصف النَّهار بغزل الصُّوف، فإذا انتصفَ النَّهار أمرتهنَّ بنقض ما غزلْنَ، فهذا كان دأبَها، فضربَ اللهُ تعالى بها مَثَل ناقض العهد(١).

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾: الدَّخَلُ: ما أُدخِلَ على الشَّيء للفساد.

والمعنى والله أعلم: تَدخلون في الأيمان للغرور، وهو إفساد، ومن نيَّتِكُم الغدرُ بمن حلفتُم لهم.

وقيل: الدَّخَل: الدَّغَلُ والخديعة.

وقيل: الغِلُّ والغِشُّ.

وقيل: هو أن يكون داخلُ القلب على الجفاء، والظَّاهرُ على الوفاء.

وقيل: معناه: أن تحلفوا غيرَ معتقدين للوفاء بما حلفْتُم.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾: أخبر بالسَّببِ الذي يفعلون هذا لأجلِه، فقال: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: من أجلِ أنَّ طائفةً من النَّاس يكونون أكثرَ عددًا من طائفةٍ أخرى، ويكونون أكثرَ أموالًا، وأزيدَ أسبابًا في القوَّة والمال، فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسَّعة في الدُّنيا في أعدائكم من المشركين. وهذا لمن دخل في الإسلام ونافقَ أهلَه ليستعين بهم ويتَّسع(٢) في

= المؤلف من زيادة (زيد مناة) هو رواية الثعلبي والبغوي عن الكلبي ومقاتل. انظر التعليق السابق.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٨)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٩ ـ ٤٠)، عن الكلبي ومقاتل. وفيهما: (...وكانت اتخذت مغزلاً بقدر ذراع وصنارةً مثلَ الإصبع وفلكةً عظيمة على قدرها...)، وكذا ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٣١). والصنارة: رأس المغزل.

(٢) في (أ): «ونافع أهله لسيتغني بهم ويتسع بهم» بدل: «ونافق أهله ليستعين بهم ويتسع».

أسباب الدُّنيا، ويظفر على أعدائه، وإذا لم يحصل ذلك عاجلًا نقضَ العهدَ وارتدَّ إلى الكفَّار؛ لِمَا يرى من كثرة عددِهم وأموالِهم، فنهاهم أن يكون دخولهم في الإسلام على هذا القصد، فيكونوا قد اتَّخذوا إسلامهم دَخلًا خديعةً للمسلمين، لا إخلاصًا في الدِّين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾: أي: يُجري أحوالَ المؤمنين في بعض الأوقات على الضَّعف والقِلَّة والنُّقصان ليختبرهم؛ أي: يعاملَهم معاملةَ المختبِر ليظهَرَ صبرُهم فيجازيَهم عليه أحسنَ الجزاء، وهو لا محالة ينصرهم ويُظفِرهم بعدوِّهم ويُطيِّب لهم عيشهم، وله ذلك في عباده[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: أي: ليميزَنَّ المحِقَّ من المبطِل يوم القيامة، فيثيبَ المحقَّ ويعاقب المبطل، وهذا وعدٌ لهم على حفظ العهد واليمين، وعلى الصَّبر على الشِّدة، وعلى الثَّبات على الدِّين.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ لكلِّ قومٍ عهدٌ مخصوصٌ عاهدوا الله عليه، وهم مطالبون بالوفاء بعهدِه؛ فالزَّاهدُ عاهدَه ألَّا يرجعَ إلى الدُّنيا، فإذا رجع إلى ما تركَه منها فقد نقضَ عهدَه ولم يفِ به، والعابدُ عاهدَه في ترك الهوى، والمريدُ عاهدَه في ترك العادة، والعارفُ عاهدَه في التَّجرُّدِ له وإنكارِ ما سواه، والمحبُّ عاهدَه في القول بتركِ نفسِه معه بكلِّ وجهٍ.

فكلٌّ منهم مأمورٌ بالوفاء بعهدِه، منهيٌّ عن نقضِه، ومَن نقضَ عهدَه فقد هدمَ بفعلِه ما أسَّسَه لنفسه[2]، وقلعَ بيده ما غرسَه، وكان كما قال أوَّلًا: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ الآية.

---

(١) في (أ): «عادة».

(٢) «لنفسه» ليس في (أ).

وإنَّ السالكَ إذا وقعَتْ له فترةٌ، والمريدَ إذا حصلَتْ له في الطَّريق وقفةٌ، والعارفَ إذا حصلَتْ له حجبةٌ، والمحبَّ إذا استقبلَتْه فُرقةٌ = فهي محنٌ عظيمة، ومصائبُ فجيعة(١).

***

(٩٣) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي: على ملَّة واحدة، وهي الإسلام.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: مَن علمَ منه اختيارَ الضَّلال أضلَّه، ومَن علمَ منه اختيارَ الهداية هداه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: يوم القيامة، فتُجزَون به.

وقال القشيريُّ رحمه الله: لو شاء الله سعادتهم لرحمهم، وعن المعاصي عصمهم، ودوامَ ذكرِه ألهمهم، ولكن سبقَتِ القسمةُ فجاءت القسوة والغيبة(٢).

وما أحسنَ ما قالوا:

شكا إليكَ ما وَجَدْ ... مَنْ خانَهُ فيك الجَلَدْ
حيرانُ لو شِئْتَ اهتَدَى ... ظمآنُ لو شِئْتَ وَرَدْ(٣)

---

(١) في (ر): «لحقته شديدة»، وفي (ف): «لحقته». انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

(٢) في (ر): «فجاءت العسرة»، وفي (ف): «فجاءت العسرة والغيبة». وليست العبارة في مطبوع «اللطائف».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣١٧). والبيتان نسبا لهبة الله بن المنجم، كما في «يتيمة الدهر» (٣/ ٤٥٤)، و«الإعجاز والإيجاز» (ص: ٢٠٣)، و«خاص الخاص» (ص: ١٧٨) ثلاثتها للثعلبي. =

(٩٤) ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾: أي: لا تَعقِدوا الإيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم، كما قال[1]:

﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾: مجازٌ عن الصيرورة من الأمن إلى الخوف، ومن الرُّشد إلى[2] الغيِّ، ومن الصَّواب إلى الخطأ، ومن الحقِّ إلى الباطل.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: بما ينالكم في الدُّنيا من السُّوء على أيدي المؤمنين.

﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: أعرضْتُم عنه، من الصُّدود، ومنعْتُم عنه غيركم، من الصَّدِّ.

﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾: في الآخرة، مع ما ينالكم من السُّوء في الدنيا.

* * *

(٩٥) ـ ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾: أي: ولا تستبدلوا بنقض العهد واليمين عوضًا يسيرًا، وهو عرَض الدُّنيا، فإنَّه يسيرٌ خسيسٌ فانٍ، والثَّوابُ بحفظ العهود واليمين باقٍ، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾: أي: تنتفعون بالعلم.

= ونسبا لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي كما في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٣/ ٤٣٠)، «المنتظم» لابن الجوزي (١٤/ ٦٩).

(١) «فتزل قدم كما قال» من (ف).

(٢) في (ر) و(ف): «إلى اعتقاد».

(٩٦) ـ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾: أي: يفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾: لا يفنى، فلا تنقضوا العهد واليمين طمعًا في المال الذي عندكم وهو ممَّا يفنى، فيفوتَكم الثَّوابُ الذي عند الله تعالى وهو باقٍ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾: على حفظ العهد واليمين، وتَحَمُّلِ المشقَّة والفاقة.

﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي: بأحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها في الدُّنيا، وهي ما عملوه في حال إسلامِهم، فإذا جزاهم بها[1] الجنَّة، فلا شكَّ أنَّه قد غفر لهم ما كان منهم من الشِّرك، ومن الذُّنوب في الإسلام.

وقيل: نزلَتْ الآيةُ في عَيدان بن الأشوع[2] الحضرمي، وامرئ القيس الكندي[3]، وقد ذكرنا ذلك في (سورة آل عمران)[4].

وقال القشيريُّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾: ما كان عندكم أو منكم أو بكم فأفعالٌ معلولة، وأحوالٌ مدخولة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فثوابٌ مقيم، ونعيمٌ عظيم، ما منكم من

---

(١) في (ف): «فإذا جازاهم به» وفي (ر): «فإذا جازاهم به في».

(٢) في (ر) و(ف): «عبدان بن الأسود»، والصواب المثبت، وقد تقدمت قصته وتحقيق اسمه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [آل عمران: ٧٧].

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٨٩) عن الكلبي، وذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٨٧) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، فهو مما روي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا إسناد ضعيف جدًّا لا يحتج بمثله.

(٤) انظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [آل عمران: ٧٧].

معارفكم ومحابِّكم آثار متعاقبة، وصفات متناوبة، أعيانُها غير باقية، وإن كانت أحكامها غير باطلة، والذي هو وصف الحقِّ من رحمته بكم ومحبَّته لكم وثنائه عليكم فصفات أزليَّة، ونعوت سرمديَّة[1].

وقال في قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: جزاء الصَّبر الفوزُ بالطلبة[2] والظَّفر بالبُغية، والطَّلبات مختلفة[3].

* * *

(٩٧) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: يتَّصلُ بقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

نبَّههم على أنَّ التَّوسُّع في الدُّنيا ليس يحصل به في الحقيقة طيبُ عيشٍ إلَّا للمؤمنين؛ لئلا يدعوهم الطَّمعُ في المال إلى نقض العهد، ثم العملُ الصَّالح لا يكون من غير المؤمن، وإنَّما أراد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: بيانًا أنَّ معناه: مَن عمل صالحًا في الحال وهو مؤمن في المآل؛ لأنَّ اعتبار[4] صفاء الحال بوفاء المآل، والأمور بخواتيمها.

قال القشيريُّ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مصدِّق بأنَّ عملَه الصَّالح بتوفيق الله تعالى[5].

---

(١) في (ف): «فصفات أزليته ونعوت سرمديته».

(٢) في (أ): «بالطيبة».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

(٤) في (ف): «الاعتبار».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣١٩).

وقيل: أي: مصدِّقٌ بأنَّ نجاته بفضل الله لا بفعله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: فلنُطيِّبنَّ عيشَه، وذلك بوجوهٍ:

قد يكون بالقناعة. وهو معنى قول الحسن(١).

وقد يكون بفتح بلاد الكفر وتوسُّعهم بالغنائم.

وقد يكون بتعريفه وجوه طيب الكسب واكتسابه من ذلك الوجه، خلاف كسب المشركين الحرام. وهذا معنى قول ابن عبَّاس رضي الله عنهما(٢).

وقيل: هو أن يَعملَ بطاعةِ الله، فتكون حياتُه طيِّبةً في الحقيقة؛ لأنَّها تُؤَدِّيه إلى رضوان الله، بخلاف عيش الكافر.

وقال القشيريُّ: الطَّيِّبُ لا يُعرَف بالنُّطق بل بالذَّوق، فقومٌ قالوا: هو حلاوة الطَّاعة، وقوم قالوا: هو صدق القناعة، وقال قوم: هو الرِّضى، وقال آخرون: هو لَذاذةُ النَّجوى، وقيل: هو نسيم القُرب، والكلُّ صحيحٌ، ولكلِّ واحدٍ أهلٌ.

وقيل: الحياة الطَّيِّبةُ ما يكون مع المحبوب، وفي معناه أنشدوا:

نحن في أكمل السُّرور ولكن ... ليس إلَّا بكم يتمُّ السُّرور
عيبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ ودِّي ... أنكم غُيَّبٌ ونحنُ حضورُ

وقيل: الحياة الطَّيِّبة للأولياء ألَّا يتركَ لهم سؤالًا إلَّا حقَّقه، ولا مأمولًا إلَّا صدَّقه، وأمَّا الخواصُّ فالحياة الطَّيِّبة لهم ألَّا يكون لهم سؤال ولا حاجة ولا إرب

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٠).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥١).

ولا مطالبة، وكم بينَ مَن له مرادٌ فيرتفعُ، وبين مَن لا إرادة له، الأوَّلون قائمون بشرط العبوديَّة، والآخرون معتَقون بشرط الحريَّة[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾: جَمَع بعد التَّوحيد صرفًا إلى المعنى؛ لأنه جنس.

﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: قد فسَّرناه الآن، وليس بتكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّل في حقِّ الذين عاهدوا رسولَ الله فحفظوا عهودهم، وهذا في كلِّ مؤمنٍ عمل صالحًا.

***

(٩٨) ـ ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: وانتظامها بالأولى أنَّه قال: ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهو العملُ بما في أحسنِ الحديث، وهو القرآن.

وقيل: هو متَّصل بقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾.

ومعنى قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي: فإذا أردْتَ قراءة القرآن؛ كما في قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]؛ أي: إذا أردتم القيام إليها، وقال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]؛ أي: إذا أردتم تطليق النِّساء.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾: أي: فامتنِعْ به واعتصِمْ، وقد فسَّرنا العياذ ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ في أوَّل الكتاب.

***

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣٢٠).

(٩٩) ـ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صدقوا اللهَ في وعدِه ووعيدِه.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾: في دفعِ وساوسِ الشَّيطان، وتفويض الأمور كلِّها إلى الله، والتَّبرُّؤ عن الشِّرك.

***

(١٠٠) ـ ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾: إنَّما تعملُ وسوستُه وتنفذُ دعوتُه إلى الضَّلال على الذين يتولَّون الشَّيطان، فيجعلونه عمدةً لهم، ويرجون نصره وعونه، ويتوقَّعون كفايته، وينقطعون إليه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾: أي: بسبب الشَّيطان مشركون بالله، والهاء على هذا راجعٌ إلى الشَّيطان. وهو قول الرَّبيع بن أنس[1].

وقال الضَّحَّاك: ﴿بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: بالله مشركون[2].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ [سبأ: ٢١]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ ... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وفي جملتها: أنَّه يتسلَّطَ على كلِّ مَن أقبل إليه، لا على مَن أدبرَ عنه.

وقال القشيريُّ: شيطانُ كلِّ أحدٍ ما شغلَه عن ربِّه، فمَن تسلَّط عليه نفسه حتى

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦١).

شغلَتْه عن ربِّه، ولو بشهود طاعته، أو استحلاء طاعته، أو ملاحظةِ حاله، فذلك شيطانه، والواجب عليه أن يستعيذَ باللهِ من شرِّ نفسِه، وشرِّ كلِّ ذي شرٍّ[1].

***

(١٠١) ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: ناسخةً بآيةٍ منسوخة.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾: هو اعتراض الكلامِ قبلَ التَّمام، وهو من محاسن الكلام؛ أي: والله أعلم بمصالح العباد، وبما ينزلُ من النَّاسخ والمنسوخ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: أي: متقوِّلٌ من نفسك، تكذبُ على الله.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنَّ النَّاسخ والمنسوخَ كلاهما من الله.

وقيل: لا يعلمون حسنَ النَّسخ وجوازَه، بما فيه من الحكمة والمصلحة.

***

(١٠٢) ـ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: قلْ لهم يا محمَّد: إنَّما أنزلَ القرآنَ كلَّه ناسخه ومنسوخه ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾، وهو جبريل ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: من عند الله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصَّواب ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: ليتدبَّره الذين آمنوا بالله،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣٢٠).

فيصدِّقوا بالنَّاسخ كتصديقهم بالمنسوخ، ويعتقدوا أنَّ الكلَّ حقٌّ في وقته، فيوفِّقَهم اللهُ للثَّبات على الإيمان، وليكونَ ما ينزِّله هدًى للمؤمنين إلى طريق الحقِّ، وبشارةً بالجنَّة إذ عملوا بالطَّاعة في الحالين.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾: يقول الله تعالى: لا يخفى علينا قولهم: إنَّما يعلِّم محمَّدًا هذا المتلوَّ بشرٌ.

قيل: أرادوا به جَبْرًا، وقيل: يسارًا[١]، وكانا غلامين لابن الحضرميِّ يهوديَّين.

قال أبو رَوْق عن الضَّحاك: نزلَتْ في عبيدٍ لأهل مكَّة، منهم يعيش وسلمان وجبر ويسار[٢].

وقال السُّدِّيُّ: كان بمكَّة رجلٌ نصرانيٌّ يقال له: أبو ميسرة، يتكلَّم بالروميَّة، فربَّما يقعد إليه رسولُ الله ﷺ[٣].

وقيل: هو نصرانيٌّ حدَّاد بمكَّة يُسمَّى: بلعام؛ روى مجاهدٌ عن ابن عبَّاس

---

(١) عبدان نصرانيان كانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرأان الإنجيل. روى القصة بذلك الطبري في «التفسير» (١٤/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٨)، عن عبد الله بن مسلم الحضرمي: (أنه كان لهم عبدان من أهل عين التمر، وكانا صيقلين، وكان يُقال لأحدهما يسار، والآخر جبر...).

(٢) لم أقف عليه هكذا، لكن روى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٨) عن الضحاك في قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾: كانوا يقولون: إنما يعلمه سلمان الفارسي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٤).

قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّم قينًا بمكَّة يُسمَّى بلعام، وكان أعجمي اللِّسان، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ أي[1]: بلعام، فأنزل الله هذه الآية[2].

وقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾: أي: يُميلون إليه القرآنَ ليس بعربيٍّ.

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: أي: وهذا القرآن منظومٌ بالعربيَّة.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: بالقرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ما داموا مختارين للكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على شركهم في الآخرة.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾: أي: على الله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الكافرين؛ يعني[3]: أنَّ المستَحقَّ لاسم المفتري هم لا أنت.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ كذلك.

* * *

---

(١) «بشر أي» من (أ)، ولم يرد في باقي النسخ والمصدر.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٥).

(٣) «الكافرين يعني» ليس في (أ)، وصوابه: (الكافرون) بالرفع.

(١٠٦) ـ ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾: قيل: هو متَّصل بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾، والصَّحيح أنَّه مبتدأ، ومعناه: الذين كفروا بالله بعد إيمانهم.

و﴿ مَن﴾ هاهنا للجمع؛ لأنَّه جنسٌ، فيصلح للجمع.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾: هو استثناء منهم؛ يعني: إلَّا مَن أُجبِرَ على الكفر ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾؛ أي: ساكن به، معتقِد له، فإنَّه ليس في حكمِهم.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾: وتقدير الآية على التَّقديم والتَّأخير: الكافرون بالله بعد إيمانهم به الشَّارحون لقَبول الكفر واعتقاده صدورًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم إلَّا مَن أُكرِه على الكفر؛ فإنَّه لا يستحقُّ غضبَ الله والعذابَ العظيم.

وقيل: هذان ابتداءان ولهما جواب واحد:

أحدهما: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾.

والثَّاني: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

وجوابُهما: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾، وهو كقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ... لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا ﴾ [الفتح: ٢٥] جوابهما[(١)].

وقيل: نزلت الآية في عمَّار بن ياسر، خرج مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ مع جماعة، فأخذهم كفَّار مكَّة، وقالوا: إنكم تريدون محمَّدًا، وعذَّبوهم، وأكرهوهم

(١) «وقوله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ جوابهما» ليس في (أ).

على الكفر، فصبر بعضهم حتى قُتِلَ، وتكلَّم عمَّار بما أكرهوه عليه وقلبُه مطمئن بالإيمان، فخلَّوا عنه، فلمَّا قدم على رسول الله ﷺ أخبره بذلك، فنزلت الآية، وقال له النَّبيُّ ﷺ: «إن عادوا فعد»(١).

وقيل: في قوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]: هو أن يُكرَه عليه، فهو عذرُه وبرهانُه.

وقيل: نزلَتْ في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الرَّضاعة، وأبي جندل بن سهيل بن عَمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسيد الثَّقفي، وهم المستضعَفون بمكَّة، وهم الذين كان النَّبيُّ ﷺ يقنُتُ لأجلهم في الفجر: «اللَّهم اشددْ وطأتَك على مضر، واجعلها عليهم سنينَ كَسِنِي يوسفَ»(٢)، وفيهم نزل بعد هذا: ﴿ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، فتَنهم(٣) الكفَّار عن دينهم، فأبوا وصبروا، فأثنى الله عليهم(٤).

* * *

(١) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٤) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ٣١٢): وهو مرسل ورجاله ثقات.
ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٦٢) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه، وصححه، وقال الحافظ: (وهو مرسل أيضاً، وأخرج الطبري من طريق عطية العوفي عن بن عباس نحوه مطولاً وفي سنده ضعف).
قلت: وليس في شيء من رواياته أن أخذ المشركين له كان عند الهجرة، ولعله وهم من المؤلف رحمه الله.

(٢) هذا الدعاء رواه البخاري (٢٩٣٢)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (ر) و(ف): «فنهاهم».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٧) دون نسبة.

(١٠٧) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾: أي: ذلك الغضب والعذاب بأنَّهم ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: آثروا الحياة الدنيا ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما داموا مختارين للكفر.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: فلا يتدبَّرون ولا يتفكَّرون، وهذا عقوبةٌ لهم على إصرارهم، وخذلانٌ لهم لميلِهم إلى الكفر واختيارهم.

﴿وَسَمْعِهِمْ﴾: فلا تصغي إلى المواعظ.

﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾: فلا تبصر طريق الرَّشاد، ولا تَعتبر بما تشاهد من عجائب الخليقة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: أي: المتغافلون عن آيات الله، كأنَّهم لم يأتهم شيءٌ من هذا.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: أي: حقًّا، أو كلمةُ ﴿لَا﴾ نفيٌ لقولهم، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كسَبَ فعلُهم لهم خسرانَ الآخرة، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢]؛ أي: أهلكوها وباعوها بعرض الدُّنيا فغبَنوها.

* * *

(١١٠) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: من مكَّة إلى المدينة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾؛ أي: عُذِّبوا بمكَّة وأُكرِهوا على الكفر ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ المشركين بعد الهجرة ﴿وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: أعاد كلمة ﴿إِنَّ﴾ بعد ما ذكرها مرَّة لطول الكلام.

﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾: أي: من بعد هذه الفعلة، أو بعدِ هذه الأفعال.

﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: غفرَ لهم ما كان منهم في حالة الفتنة[1] من التَّكلُّم بكلمة الكفر، ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يعذِّبُهم على ما قالوه حالةَ الإكراه.

***

(١١١) ـ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾: قيل: معناه: اذكروا[2] يوم تأتي.

وقيل: ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾.

﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾: أي: تحتجُّ وتخاصِمُ عن نفسِها فيما كانت تعتقده من دين، كما قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ الآية [الأحزاب: ٦٧]، وقال: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يقول: تجادل، ولا ينفع الكافرَ جدالُه.

---

(١) في (أ): «التقية».

(٢) في (ف): «اذكر».

وقوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: أي: بل يتمُّ[١] لها جزاء ما كسبَتْ، وهم لا يُعاقَبون بغير ذنبٍ.

وقيل: معنى قوله: ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾؛ أي: لا تتفرَّغ للجدال عن غيرها، ولا للشَّفاعة له، ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨١] من خيرٍ وشرٍّ، وهم لا ينقصون من جزائِهم شيئًا.

وفي «تفسير أبي القاسم بن حبيب»: أنَّ إحدى النَّفسَين في هذه الآية الرُّوح، قال: إنَّ النَّفس والرُّوح يجيئان يوم القيامة بين يدي الله تعالى فيختصمان، فتقول النَّفسُ للرُّوح: كنْتُ كالثَّوب الـمُلْقَى ما لم تدخل فيَّ، لم اقترف ذنبًا. وتقول الرُّوح للنَّفس: كنْتُ مخلوقةً قبلَكِ بدهورٍ، لم أدرِ ما الذَّنب إلى أن دخلْتُ فيك.

فتورَّكُ كلُّ واحدةٍ منهما على صاحبتها[٢]، فيمثِّلُ اللهُ لهما أعمى ومقعدًا، وكَرْمًا على جداره عنب، والنَّاس ينظرون، فيقولون لهما: مُرَّا فاقتطفا من هذا العنب، فيقول الأعمى: أنا لا أبصره، ويقول المقعد: لا رِجلَ لي فأمشيَ إليه، فيقال للمقعد: اركبْ على عاتق الأعمى، فيحملُه الأعمى حتى يقتطفَ المقعدُ العنبَ.

فيقول الله لهما: هذا مَثَلكما جميعًا[٣]، فكما صار العنب مقطوفًا بهما جميعًا، فكذلك الذَّنب صار موجودًا منكما جميعًا. وقد روي معنى هذا الخبر[٤].

***

---

(١) في (ر): «يتمم».

(٢) في (ر) و(ف): «فيرد كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه».

(٣) «جميعًا» ليس في (أ).

(٤) رواه ابن أبي عمر العدني في «الإيمان» (٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه موقوفاً.

(١١٢) - ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾: لَمَّا عذَّبَ أهلُ مكَّة المسلمين، وأكرهوهم على الكفر على ما ذكرنا، دعا النَّبيُّ ﷺ في قنوت الفجر عليهم فقال: «اللَّهمَّ اشدُدْ وطأتك على مضر، وخذهم بسنين كسني يوسف»[١].

فابتلاهم الله بالسِّنين حتى أكلوا العِلْهِز، وهو الوبرُ يُخلَط بالدَّم والقُرَاد ثمَّ يُؤكَل، فذكر الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: بيَّنَ اللهُ شبهًا لمكَّةَ وأهلِها ﴿قَرْيَةً﴾ بدلًا عن ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: وصفَ وبيَّن قريةً، وهي مكَّة.

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾: لا يخافُ أهلُها ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾: ساكنة، لا يحتاجون إلى الانتقال عنها.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: تُحمَل إليها الأطعمةُ والثِّمار من كلِّ مكان بالبلاد[٢].

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: أي: كفرَ أهلُها نعمَ الله.

قيل: الأَنْعُمُ: جمع نُعْمى بالضَّم، كالبُؤْسى والأبؤس.

وقيل: جمع نِعمة، كالأَشُدِّ جمع الشِّدة.

وقيل: جمع النَّعماء، كالأَبْؤُس جمع البأْساء.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) في (أ) و(ف): «من البلاد».

فأزال اللهُ عنهم النِّعم بالكفر(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾: أي: ابتلاهم اللهُ بالجوع والخوف بصنيعهم.

والذَّوقُ: مجازٌ عن الإصابة كالنَّيل، قال الله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩]، وقال: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥](٢)، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣٨].

وقال الشَّاعر:

وإنَّ اللهَ ذاقَ حُلُومَ قيسٍ ... فلمَّا راءَ خفَّتها قلاها(٣)

وهو في معنى: وَجَدَ.

ويقال: قد ذُقْتُ حُلوًا، وذُقْتُ مُرًّا.

وكان الحسنُ يذهب بالإذاقة إلى تقديم بعض العذاب قبل الاستئصال، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

وكذلك ذوق المطاعم(٤)، وأمَّا اللِّباس فعلى مجازِ قولهم: ألبسَكَ اللهُ العافية، وقد تُستعمَل في الاختلاط، كما قال النَّابغةُ الجَعْديُّ:

---

(١) في (أ): «بالكفران».

(٢) «وقال ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾» ليس في (أ).

(٣) البيت ليزيد بن الصعق. كما في «الحيوان» للجاحظ (٥/ ٣٠)، و«الإبانة» للعوتبي (١/ ١٩٣)، ودون نسبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٠٥)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٢٤). قال العسكري: راء بمعنى رأى.

(٤) في (أ): «ذق الطاعم».

لبسْــتُ أناسًـا فأفنيْتُهُــمْ وأفنيْــتُ بعْــدَ أنــاسٍ أناسًــا(١)

وعلى هذا قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقيل: معنى اللِّباس في الجوع: أنَّه ظهر عليهم من الهزال وتغيُّر اللَّون وسوء الحال ما هو كاللِّباس، وفي حقِّ الخوف كذلك.

ويحتمل أن يكون اللِّباس هاهنا مصدرًا في معنى الملابسة؛ أي: أذاقَها الله ملابسةَ الجوع والخوف.

* * *

(١١٣) ـ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو مِن أجلِّ النِّعم؛ لأنَّهم قد عرفوا مَولِدَهُ ومنشأَه وهديَه وأمانتَه، فيكون أقربَ لهم إلى تصديقِه والاهتداءِ به، فلم يعرفوا حقَّ هذه النعمة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدُّنيا ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسَهم، جائرون عليها.

وقيل: في ضرب المثل بمكَّة عبرةٌ لغيرها من البلاد التي يسلكُ أهلُها طريقَهم في الكفر وتكذيب النَّبيِّ ﷺ.

يقول: لَمَّا تلقَّى أهلُ مكَّةَ نعمَ الله تعالى بالكفر امتُحِنوا بالجوع والخوف، مع محلِّهم من المجاورة ببيت الله وعمارة مسجده وغير ذلك، فغيرُهم ممَّن لا حرمةَ لهم كحرمة أهلِ مكَّة أولى بذلك.

* * *

(١) انظر: «ديوان النابغة» (ص: ٧٧)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٧٥)، و«الأغاني» للأصفهاني (٥/ ١٠).

(١١٤) ـ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾: قيل: ﴿ فَكُلُوا ﴾ معاشر المشركين من غير أهل مكَّة ممَّا رزقكم الله حلالًا طيبًا ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

وذلك أنَّهم مع عبادة الأصنام كانوا يدَّعون أنَّهم يعبدون الله تعالى، فقيل: إن كان هذا[1] كما تدَّعون فلا تحرِّموا طيِّبات ما أحلَّ اللهُ لكم؛ أي: بجعلِ بعضِ زروعِكم وأنعامِكم لأصنامكم؛ لأنَّه ممَّا[2] لم يَشْرعْه الله تعالى، والتزِموا ما شرعَه الله تعالى دون ما شرعَه الشَّيطان.

وقيل: أي: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ على ما يؤديه محمَّدٌ ﷺ إليكم عن الله ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فلا تكذِّبوه.

وقيل: كان رسولُ الله ﷺ وجَّهَ إلى أهل مكَّةَ في سِنِي القَحطِ بطعامٍ، ففُرِّقَ فيهم، فقال اللهُ لهم بعدَ أن وصفَ أنَّه أذاقَهم الجوع: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ على يدي محمَّد ﷺ، ﴿حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ بدلًا عمَّا كنتُم تأكلونه محرَّمًا خبيثًا من الأموال الخبيثة[3] المأخوذة بالغارات والغصوب[4] وخبائث الكسوب.

* * *

(١) «هذا» ليس في (أ) و(ف).

(٢) «مما» ليس في (أ).

(٣) «الخبيثة» ليس في (أ) و(ف).

(٤) في (ر) و(ف): «من الغارات والمغصوب».

(١١٥ ـ ١١٧) ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: فسَّرناها في (سورة البقرة) و(سورة المائدة)، أخبرَ أن المحرَّم هذه الأشياء دون ما حرَّموه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: قرأ ابن عبَّاس: (تصفُ ألسنتُكُمُ الكُذُبُ) بضم الكاف والذَّال ورفع الباء: جمع كذوب، نعتًا للألسنة[١].

وقراءة العامَّة بالنَّصب لوقوع الوصف عليه.

وقرئ: (الكذبِ) بخفض الباء[٢]، بدلًا عن قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾.

يقول: لا تصفوا بعضَ الأنعام بأنَّه حلالٌ وبعضَها بأنَّه حرام كذبًا على الله؛ فإنَّ الكاذِبَ على الله لا يفوزُ أبدًا، وما أنتم فيه من النِّعم قليلٌ متاعُه في الدُّنيا، ويَعقبُه في الآخرة عذابٌ وجيعٌ.

* * *

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٤٩)، ونسبها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧) إلى مسلمة بن محارب.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٧) عن الحسن.

(١١٨) ـ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾: هو ما قال في سورة الأنعام: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦]، وقد فسَّرناها هنالك.

وكان ذلك التَّحريمُ تغليظًا عليهم لظلمِهم وبغيهم، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقال هاهنا:

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾: بكفران النِّعم.

***

(١١٩) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: أي: أعرِّفك يا محمَّد بعدَ بيان حكم المشركين أنِّي لكلِّ مَن عمل ذنبًا بكونه جاهلًا، ثمَّ تاب عنه، وندمَ عليه، وعزم على[1] ألَّا يعود إليه، وأصلح العمل في المستأنف، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: من بعد العمل ـ وما قال في الآية المتقدمة[2]: ﴿مِنۢ بَعْدِهَا ﴾؛ أي: بعد الجهالة، وقيل: بعد

(١) «على» من (أ).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «وفي هذه الآية أيضًا».

الغفلة ـ فإنِّي غفورٌ له أسترُ ما مضى من معاصيه، ورحيمٌ أرحمُه[١] فلا أعذِّبه؛ أي: فتوبوا أيَّها المشركون؛ أي: المفترون، فتُقبَلَ توبتُكُم ويُغفَرَ لكم.

و﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أُعِيدَ لطولِ الكلام ووقع الفصل.

وقال مقاتل بن سليمان: نزلَتْ الآية في جبر مولى عامر بن الحضرميِّ، أكرهَه سيِّدُه على الكفر بعد الإسلام[٢]، ثمَّ ندم وتاب[٣].

وقال مجاهدٌ: نزلَتْ في أناسٍ ارتدُّوا عن الإسلام، ثمَّ تابوا وآمنوا، فقبلَ اللهُ توبتَهم وإيمانَهم[٤].

* * *

(١٢٠) ـ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾: أمرَ بالشُّكر في الآية الأولى، ومدح إبراهيم بالشُّكر في هذه الآية.

ونظمٌ آخر: أنَّ الله رغَّب المشركين في اتِّباع أبيهم إبراهيم، الذي به فخرُهم، وببيت[٥] الله الذي بناه عندهم، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾؛ أي: إمامًا يُقتدَى به.

وقيل: أي: كان بنفسه وحده يأتي بالخيرات التي تكون من أمَّة تامَّة.

---

(١) في (ر) و(ف): «وأرحمه».

(٢) «بعد الإسلام» من (ف).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٩٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٨).

(٥) قوله: «وببيت» معطوف على الهاء في «به»؛ أي: فخرهم واقع بإبراهيم وببيت الله. ووقع في (أ): «وبيت».

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾؛ أي: مطيعًا مواظبًا على طاعته.

﴿حَنِيفًا﴾: عادلًا عن الباطل، مستقيمًا على منهاج الحقِّ.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: لم يكن دينه ما تَدينون به أيُّها المشركون.

* * *

(١٢١) ـ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾: بإخلاصِ العبادة له.

﴿اجْتَبَاهُ﴾: أي: اختارَه واختصَّه لنفسه واصطفاه.

﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أرشدَه إلى طريق الحقِّ المفضي إلى الجنَّة.

* * *

(١٢٢) ـ ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: قال الحسنُ: أي: النُّبوَّة[١].

وقال مقاتلُ بن حيَّان: أي: الصَّلاة عليه على لسان هذه الأمَّة في صلواتهم[٢].

وقيل: الخُلَّة.

وقيل: هو أنْ جعلَ محمَّدًا ﷺ من ذرِّيَّته وعلى ملَّته.

وقال قتادة: ليس من أهل دين إلَّا وهو يتولَّاه ويرضاه مقتديًا به[٣].

وقيل: هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ حالة جميلة، فيتناول كلَّ خصائصه المذكورة في النُّصوص.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٢١٩).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٥٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٩٨).

وقال القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حتى كان لنا بالكليَّة، ولم يكن فيه لغيرنا بقيَّة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: في عداد مَن يأتي وقد انتفى عنه وعن أعماله الفساد، فاستحقَّ كلَّ منزلة رفيعة ودرجة عالية، وقد فسَّرناه في (سورة البقرة) بأتمَّ من هذا.

وقيل: سمَّاه أمَّةً تسليةً للنَّبيِّ ﷺ في كثرة المكذِّبين به من قومِه؛ إذ كان إبراهيمُ أمَّة وحده[2] في الإيمان، لم يكن معه غيره، ثم كثَّرَ اللهُ ذرِّيَّتَه، وكان منهم الأنبياء إلى قيام السَّاعة، فكذا يفعل اللهُ بك في تكثير أمَّتك ونشر دعوتك.

* * *

(١٢٣) - ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: مدحَه الله بخمسةِ أشياء: سمَّاه أمَّة، قانتًا لله، حنيفًا، غيرَ مشركٍ، شاكرًا.

وأكرمه بخمس كرامات: اجتباه، وهداه، وآتاه حسنة الدُّنيا، وكرامة الآخرة، وأمر محمَّدًا ﷺ باتِّباع ملَّته.

ثم الأمرُ بالاتِّباع لا يدلُّ على أنَّه دون إبراهيم في الفضيلة، بل هو ﷺ أفضلُ الأنبياء، وإنَّما أُمر باتِّباع إبراهيم في هذه الآية، وباتِّباع كلِّ الأنبياء المتقدِّمين في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ لأنَّهم سبقوه، والاتِّباع هو سلوكُ سبيل المتبوع، فكان اتِّباعُه لهم لمجيئِه بعدَهم، لا لكونه دونهم.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣٢٨).

(٢) في (ر) و(ف): «واحدة».

(١٢٤) - ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾: ونظمُها بالأولى: أنَّ الله تعالى أمر محمَّدًا ﷺ باتِّباع إبراهيم، وأمر أمَّته بذلك أيضًا بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، وفي متابعة الأنبياء رحمةٌ وراحة، وفي مخالفتهم والاختلافِ عليهم محنةٌ وفتنة، كما كان لأصحاب السَّبت.

وفي الآية وجوهٌ أصحُّها(١) وأوضحها ما حكاه الإمام أبو منصور رحمه الله فقال: قال بعضُهم: إنَّ موسى أمرَ بني إسرائيل أن يتفرَّغوا في كلِّ سبعة أيَّام يومًا للعبادة، وهو يوم الجمعة، ويتركوا فيه عمل دنياهم، فقالوا: نتفرَّغ يوم السَّبت؛ فإنَّ الله تعالى لم يخلق يوم السَّبت شيئًا، فقال فريق منهم: انظروا إلى ما يأمركم به نبيُّكم فخذوا به، فذلك اختلافهم فيه، فجُعل لهم يوم السَّبت على ما سألوا، فاستحلُّوا فيه المعاصي(٢).

فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ فتنة ومحنة(٣)، ولو اتَّبعوا نبيَّهم ولم يختلفوا عليه لم يُشدَّد عليهم هذا التَّشديد، ولم يقعوا فيما وقعوا فيه.

وقال الحسن وقتادة: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي: إنما لُعِنوا في السَّبت

---

(١) «أصحها» ليس في (أ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٩٣).

(٣) في (أ): «فذلك اختلافهم فيه أي فتنة ومحنة على الذين اختلفوا فيه» بدل: «فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ فتنة ومحنة».

ومُسِـخوا قـردة وخنازيـر ﴿ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ وكان اختلافُهـم أنَّـه حرَّمَه بعضُهم واسـتحلَّه بعضُهم(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: أي: يميِّزُ المحقَّ من المبطِل بالثَّواب والعقاب.

* * *

(١٢٥) - ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: ادع يا محمَّد النَّاس إلى سلوك الطَّريق الذي هو يؤدِّي إلى طاعة ربِّك، وكلُّ ما أضافه الله إلى نفسه فذلك دليلُ تشريفه وتفضيله، كبيت الله، وشهر الله، فكذلك سبيل الله، ومعناه: تفضيلُه والحثُّ على سلوكه.

وقوله: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ أي: باستعمال الصِّدق والصَّواب، وبوضع كلِّ شيءٍ موضعَه، ودعاءِ كلِّ أحدٍ بما يحتملُه حالُه، ويقبلُه عقلُه، وتُرجَى به إجابتُه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ أي: وأحسِنْ وعظَ مَن تدعُوه بالتَّرغيب الجميل والتَّنبيهِ البليغ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: أي: بالخصلة التي هي أجمل؛ أي: بالمحاجَّة التي ليس فيها مماراةٌ أو لجاجٌ ومكافأةٌ على قبيحٍ يقولُه الخصم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ في

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٥٩٣).

المجادلة لا يخفى عليه مقاصدهما فيها، فإذا أَلْزَمْتَ[1] فاكتفِ به، واضبط نفسك عن المقابلة بالمخاشنة.

وقيل: نزلَتْ هذه الآية قبل نزول الأمر بالقتال، ونُسخَتْ بآية السَّيف.

* * *

(١٢٦) ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾: قيل: الأوَّل خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ على الخصوص، وهذا خطاب لأمَّته، وإباحةٌ لهم بالمكافأة على المساواة، والأول أمرٌ بالتَّفضُّل المحضِ.

ومعناه: إذا قال لكم الخصم: دينُكُم باطلٌ، فقولوا: بل دينُكُم باطل.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ فلم تجيبوا ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من المكافأة بالمثل.

* * *

(١٢٧) ـ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: هذا خطاب للنَّبيِّ ﷺ على الإفراد، وهو تأكيدُ الأمر الأوَّل بالمجادلة بالتي هي أحسن.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي: بتوفيق الله، ويحتمِل أن يكون قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ خطاباً له ولهم جميعًا، والإفراد في قوله: ﴿ادْعُ﴾ ﴿وَجَادِلْهُم﴾ لِمَا أنَّه هو المخصوصُ بالأمر بالدَّعوة إلى الدِّين والجدال عليه.

---

(١) أي: حججت الخصم وألزمته الحق. ووقع في (أ): «أكرمت».

ثم قد يجري بين المؤمنين والمشركين كلامٌ يؤذيهم في غير الدَّعوة إلى الدِّين، فأطلق لهم المعاقبة بالمثل، وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

ثم خصَّ النَّبيَّ ﷺ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ﴾؛ أي: على الدُّعاء إلى الله ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بتوفيقِه، فاسأل التَّوفيق منه، ولا يكون هذا[1] نهيًا للنَّبي ﷺ عن المعاقبة بالمثل، بل يكون قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ إرشادًا إلى الأفضل.

وقيل: إنها نزلَتْ في قصَّة حمزة رضي الله عنه حين مُثِّلَ به، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لأمثِّلنَّ بثلاثينَ منهم»، فأُمر بالاقتصار على الـمُثْلَة بواحد منهم[2][3]، ثم نُسخَت الـمُثْلَة[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾: أي: الصَّبر، ودلَّ عليه قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾.

---

(١) في (أ): «عنه وهذا لا يكون» بدل: «منه ولا يكون هذا».

(٢) «منهم» ليس في (أ).

(٣) رواه بنحوه البزار في «مسنده» (٩٥٣٠)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٤٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٩٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٨٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: صالح المري واه.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٥١)، والدارقطني في «سننه» (٤٢٠٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الدارقطني: فيه عبد العزيز بن عمران ضعيف. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢٠): رواه الطبراني، وفيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف.

ورواه الدارقطني (٤٢٠٩) من طريق آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: لم يروه غير إسماعيل بن عياش وهو مضطرب الحديث عن غير الشاميين.

(٤) رواه البخاري (٢٤٧٤) من حديث عبد الله بن يزيد الأنصاري رضي الله عنه. وأبو داود (٤٣٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: على المشركين بتركهم الإيمان واستحقاقهم سخط الله وعقوبته بذلك، وكان كذلك لكمال شفقته، وهو كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقيل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: على قتلى أحد، فإنَّهم وصلوا إلى رضوان الله تعالى وجنَّته.

﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: ضيق صدر، وهو في معنى الضِّيق، كالشَّفِّ والشِّف، والرَّطل والرِّطل، بالفتح والكسر لغتان، وقرأ ابن كثير بالكسر[(١)].

وقيل: الضِّيق بالكسر مصدر، والضَّيق[(٢)] بالفتح نعت، كالهَيْنِ واللَّيْنِ، ومعناه: في أمر ضيقٍ من مكرهم؛ أي: لا يضيقنَّ بك الأمرُ لمكرهم.

وعلى الأوَّل: لا يضيقنَّ صدرُك لمكرهم، فإنَّه لا ينفذ عليك.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾: أي: حافظُهم وناصرُهم، وأنت متَّقٍ محسنٌ فيحفظُك وينصرُك.

وقيل: هو على العموم، و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾[(٣)]؛ أي: توقَّوا عن السَّيِّئات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾؛ أي: عاملون بالطَّاعات.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٧٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٩).

(٢) «الضيق» ليس في (أ).

(٣) في (أ): «وهم الذين اتقوا».

وقال القشيريُّ رحمه الله: اتَّقوا رؤية النُّصرة من غيره، وأحسِنوا العبادة كأنَّكم ترونَه[١].

والحمد لله ربِّ العالمين

ربِّ أعنْ على التَّمام يا كريم، وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين[٢].

* * *

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٣٣٠).

(٢) «ربِّ أعنْ على التَّمام يا كريم. وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين» من (ف).

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

سورة الإسراء(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الرحمنِ الذي له الأسماءُ الحسنى، الرحيمِ الذي نزَّل الفرقان شفاءً وهدًى لمن اهتدَى.

روى أبيٌّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورةَ بني إسرائيل فرقَّ قلبُه عند ذكر الوالدَين كان له قنطارٌ في الجنة، والقنطار ألفُ أوقيَّةٍ ومئتا أوقية(٢)، الأوقيةُ خيرٌ من الدنيا وما فيها»(٣).

وسورةُ بني إسرائيل مكيةٌ، وهي مئةٌ وإحدى عشرةَ آيةً، وقيل: عشرُ آيات، الاختلاف في قوله: ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧](٤).

وهي ألفٌ وخمسُ مئةٍ وستٌّ وخمسون كلمةً، وستةُ آلافٍ وأربعُ مئة وتسعةٌ وعشرون حرفاً(٥).

---

(١) في (ر) و(ف): «سورة بني إسرائيل».

(٢) «ومئتا أوقية»: ليست في (أ)، وقد اختلفت الروايات في إثباتها وعدمه. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٢٩٦).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٤) آية ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ عدَّها الكوفي ولم يعدَّها الباقون. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧٧).

(٥) وقال الداني في المصدر السابق: (كلمها ألف وخمس مئة وثلاث وثلاثون كلمة، وحروفها ستَّة =

وانتظامُ أول هذه السورة بآخر[١] تلك السورة: أنَّ في آخر تلك السورة الأمرَ بالصبر، وفي أول هذه ثمرةَ الصبر، صَبَر في الله صبراً جميلاً فأُعطي ليلةَ المعراج عطاءً جزيلاً.

وانتظام تلك السورة بهذه السورة: أن تلك السورة في بيان آيات[٢] وحدانية الله تعالى، وبيانِ نعمه، وفي أكثر[٣] آياتها محاجَّةُ المشركين، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] تضمينُ جميع الأوامر والنواهي، وفي هذه السورة ذُكر في الآية الأولى إراءةُ الآيات، وفيها بيانُ كمال القدرة وتمامِ النعمة، وبعدها آياتٌ جامعةٌ لجميع[٤] الأوامر والنواهي، وفي بقيَّتها[٥] محاجَّةُ المشركين ووعيدُهم ووعدُ المؤمنين.

ذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن التوراة كلَّها في خمسَ عشرةَ آيةً من (بني إسرائيل)، ثم قرأ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات[٦].

***

(١) ـ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

= آلاف وأربع مئة وستُّون حرفاً). فأنقص من عدد الكلمات ثلاثاً وعشرين، وزاد في عدد الحروف واحداً وثلاثين.

(١) في (أ): «بختم».

(٢) «آيات»: ليست في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «وبيان نعمته وأكثر».

(٤) في (أ): «جميع»، وفي (ر): «بجميع».

(٥) في (ف): «نفسها».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٨).

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾: روى طلحةُ بن عبيد الله قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن تفسير ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1] قال: «تنزيهُ الله عن كلِّ سوءٍ»[2].

قال الفرَّاء: هو نصبٌ على المصدر[3]، وهو على معنى الأمر؛ أي: نزِّهوا الله وبرِّئوه من قول المشركين.

و﴿أَسْرَىٰ﴾؛ أي: سار بالليل، وفيه لغتان: سرى[4] وأسرى، وهو لازمٌ، وهاهنا متعدٍّ بالباء التي في قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، وهو محمدٌ المصطفى ﷺ.

﴿لَيْلًا﴾: ظرف؛ أي: بالليل.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: هو الذي يحيط بالكعبة، وأراد به هاهنا جميعَ الحرم، فقد رُوي أنه أُسري به من بيتِ أمِّ هانئ[5]، وهو في مكةَ خارجَ المسجد الحرام عينِه،

---

(١) في (أ): «الله» بدل: «﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾».

(٢) رواه مرفوعاً متصلًا البزار في «مسنده» (٣٠٨٢ ـ كشف الأستار)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٨). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٨) من طريق موسى بن طلحة عن النبي ﷺ مرسلاً، والمرفوع ضعيف الإسناد، وقد أورده الدارقطني في «العلل» (٤/ ٢٠٨) موصولاً ومرسلاً، وقال: المرسل أصح.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٥)، قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [النحل: ٥٧].

(٤) في (ر) و(ف): «سار».

(٥) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٣٢) من حديث أم هانئ رضي الله عنها. لكن ليس الإسراء بالنبي ﷺ من بيت أم هانئ مما اتفقت عليه الروايات، فقد وقع فيها اختلاف في ذلك، وجاء في «صحيح البخاري» (٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة: «بينما أنا نائم في الحطيم ـ وربما قال: في الحِجْرِ ـ مضطَجِعًا إذ أَتاني آتٍ...»، وعند البخاري أيضاً (٣٢٠٧) من حديثه أيضاً: «بَيْنَا أَنَا عند =

وعلى هذا قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨] هو على جميع الحرم، وكذا قوله: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: وهو مسجد بيت المقدس؛ لأنه أبعدُ مسجد في الأرض يعظَّم بالزيارة له وشدِّ[١] الرحال إليه، وليس وراءه في تلك الجهة متعبَّدٌ مثلُه، قال ﷺ: «لا تشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ: مسجدي هذا، والمسجد الأقصى، والمسجد الحرام»[٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: أخبر عن نفسه بعد ما ذكر الفعلَ على وجه المغايَبة بقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، وهو أحدُ أقسام التوسُّع[٣] في الكلام.

والبركة: دُرور الخير وثبوتُه؛ لأن ما بَرَكَ[٤] ثبت، وهو يكون دينيًّا ودنيويًّا، قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١] وهذا دينيٌّ، وقال

= البيت بينَ النَّائم واليقظان...»، وكذا رواه مسلم (١٦٤). وفيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل»، وفي غير الصحيحين روايات أُخر، وقد أورد الروايات بذلك الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٠٤) محاولاً الجمع بينها لأنها كما قال: لم تتعدد لأن القصة متحدة لاتحاد مخرجها، قال: وقد تقدم في أول بدء الخلق بلفظ: «بينا أنا عند البيت» وهو أعم، ووقع في رواية الزهري عن أنس عن أبي ذر: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة»، وفي رواية الواقدي بأسانيده أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه بات في بيتها قال: ففقدتُه من الليل فقال: «إن جبريل أتاني...»، والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه.

(١) في (أ): «ويشد».

(٢) رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (ر) و(ف): «التوسعة».

(٤) في (أ): «بورك».

تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وهذا دنيويٌّ، والبركةُ حول المسجد الأقصى بهما جميعاً، فإنه مستقرُّ الأنبياء والأولياء، وفيه قبورُ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وفيه كثرةُ الماء والأشجار والأطعمة والثمار.

وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾: أي: أَسْرينا به لإراءةِ الآيات، وهي: البُراقُ، وقطعُ المسافة البعيدة في المدة اليسيرة، وسيرُ الأنبياء، وعجائبُ الملَكوت.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لمقالات المصدِّقين والمكذِّبين بحديث المعراج ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بجزاء كلٍّ على وَفْق عمله.

وحديثُ الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ ثابتٌ بنصِّ الكتاب، والعروجُ به إلى السماء في تلك الليلة إلى حيث شاء الله كذلك، وفيه أحاديثُ كثيرة صحيحة، وقد قبلها أهل السنَّة والجماعة، وردَّها المعتزلةُ خذَلهم الله، وممن رواه(١): أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر الفاروق رضي الله عنه، وعثمان ذو النورين، وعليٌّ المرتضَى، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدريُّ، ومالك بن صَعْصَعة، وعِمران بن الحُصين، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله الأنصاري، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أوفى، وأبو سلمى راعي رسولِ الله ﷺ، وأمُّ كلثوم بنتُ رسول الله ﷺ، وبلالٌ الحبشي، وأبو أمامة الباهليُّ، وأسامة بن زيد، وعياض، وعبد الرحمن بن عائش(٢)، وأبو الدرداء، وعائشة، وأم هانئ بنت أبي طالب، وأبو ذر الغفاري،

---

(١) في (ر) و(ف): «وممن روى ذلك ورواه».

(٢) في (ر): «وعياض بن عبد الرحمن بن عابس»، وفي (ف): «وعياض وعبد الرحمن بن عابس»، والمثبت من (أ)، وعبد الرحمن بن عائش مختلف في صحبته كما في «الكاشف» للذهبي (١/ ٦٣٢) =

وبلال بن سعد، وأبو حَيَّةَ الأنصاري، وأبيُّ بن كعب، وغيرهم، منهم مَن ساق الحديثَ كلَّه، ومنهم مَن روى شيئاً منه[1]، وقد جمعنا أحاديثَهم في كتابٍ أفردناه له وأَمْلَيناه على أهل العلم، ومَن أنكر هذا فهو منكِرٌ إمَّا[2] قدرةَ الله تعالى، أو فضلَ النبيِّ ﷺ، وكلُّ ذلك باطل.

وقال مقاتل: كانت ليلةُ الإسراء قبل الهجرة بسنةٍ، وكان رسول الله ﷺ تلك الليلةَ نائماً في دارِ أمِّ هانئ بنت أبي طالبٍ وزوجِها هبيرةَ بن أبي المغيرةِ[3] المخزوميِّ، فلما أصبح قال لها: «أَلَا أُخبركِ بالعجَب؟» قالت: بلى! قال: «صلَّيتُ هاهنا صلاةَ العشاء والفجر وذهبتُ فيما بينهما إلى بيت المقدس، ومَثَل لي النبيون فصلَّيتُ بهم»[4]، فلما أراد أن يخرج تشبَّثت أمُّ هانئ بثوبه فقالت له: ما وراءك؟ فإني أخشى أن يكذِّبك قومُك، قال: «وإنْ كذَّبوني»، فسألتْه أمُّ هانئ عن كيفية خروجه، فقال: «أتاني جبريل ومعه ميكائيلُ بالبراق، وهي دابةٌ دون البغل وفوق

= وغيره، ولم أجد له حديثاً في الإسراء. أما عبد الرحمن بن عابس فهو ليس من الصحابة، وإنما يروي عن أبيه عابس بن ربيعة، وهو ـ أي: عابس ـ تابعي كبير كما قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٥٥٣)، ولم أقف على حديث له في الإسراء أيضاً.

(١) وقد جمع الحافظ ابن كثير في أول الإسراء ما روي فيه من أحاديث، وساقها أحسن سياقة فلتراجع فيه.

(٢) «إمَّا» ليس من (ف).

(٣) في (أ): «وهب».

(٤) إلى هنا رواه بنحوه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠٢)، ومن طريقه الطبري في «التفسير» (١٤/ ٤١٤)، عن الكلبي عن أبي صالح عن أم هانئ، والكلبي ومقاتل متروكان، وقد وقع في متن هذا الخبر نكارة نبه عليها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٨/ ١٣٧)، وهي أنه صلى العشاء الآخرة والصبح معهم وإنما فرضت الصلاة ليلة المعراج.

الحمار، ووجهُها كوجه الإنسان، وذنَبها كذنب البقرة، وحافرُها كظلفِ البقر، خَطْوُها مدُّ البصر، فركِبْتُها فإنْ هممتُ بها سارت، وإن هممتُ بها طارت، فدخلتُ مسجدَ بيت المقدس فإذا النبيون بها» ثم أتى المسجدَ الحرام وفيه صناديد قريش فقال: «أَلَا أخبرُكم بالعجَب؟» قالوا: بلى! قال: «صلَّيتُ صلاة العشاء والفجرِ هاهنا، وذهبت فيما بينهما إلى بيت المقدس»، وقصَّ عليهم القصةَ، فقال مُطْعِم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: واحرباه[1] من هذا الكذَّاب، إنَّ عِيرَنا لتخرجُ من مكة إلى بيت المقدس في أربعين يوماً بشقِّ النَّفْس، وقد خرجْتَ إليها في ساعةٍ؟! أشهد أنك كذاب، ثم أَخبر بذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فأتاه فسأله وقال له: ماذا لقيتَ على يمينك حين دخلتَ بيتَ المقدس وعلى يسارك؟ وسأله عن الصخرة، فأجابه فصدَّقه فسمِّي الصدِّيق[2].

وفيما كتبناه في الأمالي مسنداً عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «قلتُ: يا جبريل، يكذِّبني[3] قريش، فقال لي جبريل: فإن أبا بكر الصدِّيقَ هو يصدِّقُك»، فذهبتْ إليه قريش فقالت له: يا أبا بكر! قال صديقُك: إنه أُسري به إلى السماء في ليلةٍ واحدة! قال: صَدَق صَدِيقي، أُصَدِّقه بوحي السماء في[4] مسيرةِ خمسِ مئة عام يأتيه في ساعة، أفلا أصدِّقه بأنه أُسري به؟! فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ

---

(١) في (أ): «وا حربي».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥١٦ ـ ٥١٨) وقد وقع عند المؤلف تقديم وتأخير في بعض المواضع، ومن ذلك أن الصدِّيق صدَّق النبي ﷺ بمجرد سماعه بالقصة وقبل أن يستفسر أو يسأل، وهذا هو المعروف عن الصدِّيق، ولذلك سمي بذلك.

(٣) في (ر): «كذبني».

(٤) في (ر) و(ف): «على».

ومعه جبريل عليه السلام فقال: صَدَق أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «سرَّني والله قولُه»، فقال له جبريل عليه السلام: سمِّه الصدِّيقَ، فلذلك سُمي الصديق[١].

قال نجم الدين[٢]: وأنا أقول في ذلك:

لا يَجْحَدُ المعراجَ بعد نُصوصه ... إلَّا عنيدٌ[٣] كافرٌ زنديقُ

ومُصدِّقٌ أهلُ الهدى وإمامُهم ... بالحقِّ في تصديقه الصِّدِّيق

وتمام القصة نقلناه[٤] بطرقه في كتاب وسميناه بـ: «كتاب ما ورد من الأخبار في ذكر معراج النبي المختار وفوائدِه ولطائفه» في مجالسَ جمعناها وتكلَّمنا بها في مجالس الوعظ في تمام شهر.

وقال القشيري: لمَّا أراد الحقُّ سبحانه أن يعرِّف العبادَ ما خَصَّ به رسولَه[٥] ليلةَ المعراج من علوِّ ما رقَّاه إليه ولقَّاه إياه، أزال الأعجوبة بقوله: (أسرى به) ونفَى عن نبيِّه خطر الإعجاب بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾؛ لأن مَن عرف الإلهية ـ وهي استحقاقُ كمالِ العز ـ لا يَتعجَّب منه أن يفعلَ ما يفعلُ، ومَن عرف عبوديةَ نفسه وأنه لا يملك شيئاً من أمره لا يُعجب بحاله، فأَوجبت الآية شيئين: نفيَ الإعجاب مِن وصفِ رسول الله ﷺ، ونفي التعجُّب من فعلِ الله.

وقال: جعل المعراجَ بالليل على غفلةٍ من الراقب وغيبةٍ من الأجانب، ومن غير

---

(١) رواه بنحوه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢١٣ ـ ٢١٥) من حديث ابن عباس وعائشة وأم سلمة وأم هانئ وغيرهم دخل حديث بعضهم في حديث بعض.

(٢) «نجم الدين»: من (أ).

(٣) في (ر): «عتيد».

(٤) في (أ): «نقله»، وفي (ر) و(ف): «نقلًا»، والصواب المثبت.

(٥) في (أ): «رسول الله».

ميعادٍ سبَق ولا استعدادٍ تَقدَّم؛ لكونه مرضيًّا بغير تصنُّعٍ، وهذه غايةُ حال المحبوب، وكان مجيءُ موسى للميقات بعد أربعين ليلة ليتصنَّع لذلك[١].

وقال: ولمَّا خُص بقيام الليل بقوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] أُكرم بالمعراج خصوصاً بالليل.

وقال: أرسله بالحق إلى أهل الأرض ليَتعلَّموا منه العبادة، ثم رقَّاه إلى[٢] السماء ليتعلَّم الملائكة منه آداب العبادة، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] ما طمعَ في مقام، ولا نظرَ إلى إكرام، بل تجرَّد[٣] عن كلِّ طلبٍ وأَرَب.

وقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] أراه في تلك الليلة ما عرَف به [صلوات الله عليه] أنه ليس [أحدٌ] من الخلائق مثلَه ﷺ في علوِّ حالته وجلالِ رتبته[٤].

***

(٢) ـ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: التوراةَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وجعلنا موسى، ويحتمِل الكتابَ هادياً؛ أي: دليلاً وداعياً إلى الحق والصواب؛ أي: أعطينا موسى الكتاب حين جاء لميقاتنا وأسرينا بمحمد وأريناه آياتنا.

---

(١) في (ر): «ليصطنع كذلك»، وفي (ف): «ليتصنع كذلك»، وليست العبارة في «اللطائف».

(٢) بعدها في (ف): «أهل».

(٣) في (ر) و(ف): «تحرز».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾: قرأ أبو عمرٍو بياء المغايَبة، ويرجع إلى بني إسرائيل، وقرأ الباقون بتاء المخاطبة[1]؛ أي: قلنا لهم في التوراة ذلك؛ أي: لا[2] تتَّخذوا من دوني أحداً وليًّا تتَّكلون عليه في أنْ يخلِّصكم من العذاب ويقومَ بأموركم ويراعيَ مصالحكم، وهذه صفاتُ الوكيل في معاملات الناس، وهو إبطالٌ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وليشفعوا لنا.

***

(٣) ـ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: أي: يا ذريةَ مَن حملنا وهم الأولاد، و﴿حَمَلْنَا﴾؛ أي: في السفينة وهم مؤمنو قومه، وبنو إسرائيل من نسلِ سام بن نوح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: أي: كثيرَ الشكر على نَعمائي مطيعاً لي، يقول: لا تتَّخذوا من دوني وليًّا يا ذرية مؤمني قومِ نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ لي ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾؛ أي[3]: فكونوا لي كذلك ولا تخالفوه.

رُوي: أنه كان لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يلبسُ إلا قال: الحمد لله.

والشكر: مقابَلةُ النعمة بالثناء على المنعِم والطاعةِ له في أمره ونهيه، وهو عامٌّ للنِّعَم كلِّها صغيرِها وكبيرِها، قولاً وعملاً وعَقْداً.

وقال مجاهد: ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: كان يحمدُ ربَّه قائماً وقاعداً، ومتَّكئاً ومستلقياً، وراكباً وماشياً[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) في (ر) و(ف): «ألا» بدل: «أي لا».

(٣) بعدها في (ر) و(ف): «كثير الشكر لي على نعمائي مطيعاً لي أي»، وفيه تكرار لا لزوم له.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٥٣).

(٤) ـ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: أعلمناهم في التوراة، كما قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، وأصله: الإحكام والإتمام؛ أي: أعلمناهم إعلاماً محكَماً متمَّماً.

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: لتُفسدَنَّ أخلافُكم، وفي قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢]؛ أي: وإذ قتل أسلافُكم.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في البلاد التي تسكنونها من بيت المقدس وما يُضاف إليها من الشام، وفي قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]؛ أي: في البلاد التي يجري سلطانُه عليها وعلى أهلها[١]، وفي قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]؛ أي: البلادَ التي يسكنها المشركون.

وهذا الإفساد هو العصيان، وارتكابُ[٢] المحظورِ من الدماء والأموال.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾: أي: دفعتين في زمانين مختلفين.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: هو غلبةُ المفسدين على المصلِحين إفراطاً مجاوِزاً للقَدْر، عظيماً في الذِّكر، والعلوُّ لغةً: هو الغلبةُ بحقٍّ كان أو باطلٍ.

❋ ❋ ❋

(٥) ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

---

(١) في (أ): «سلطانه على أهلها».

(٢) في (ف): «وهو ارتكاب».

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾: أي: الوقتُ المعلوم[١] الموعود لأُولَى المرتين من الإفساد والعلوِّ وما أَوْعَدْنا عليه من العذاب.

﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: سلَّطْنا عليكم ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾: خلقاً[٢] يجري لنا عليهم سلطان[٣] العبودية، ولا يتمكَّنون إلا بتمكيننا.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾: أي: علماءَ بالقتال صابرين عليه، والبأس: هو الحرب والقتال، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾: أي: أَفسدوا، وقيل: وَطِئوا، وقيل: تخلَّلوا، وقيل: طافوا، وقيل: هو الاستقصاء في الطلب، وقيل: هو التردُّد بالذهاب والمجيء للاستقصاء في طلب الشيء.

ومعناه: يستولون عليكم، وإذا انهزمْتُم اتَّبعوكم ودخلوا بلادكم بالسيوف، ويدخلون البيوت فيقتلون مَن يجدون، ويأخذون ما يجدون، وهو أشدُّ ما يكون من استيلاء الأعداء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾: أي: كان ذلك موعوداً من الله كائناً لوقتٍ معلوم عند الله يفعله فيه، وهو[٤] مصدر بمعنى المفعول.

* * *

(٦) - ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾.

---

(١) «المعلوم»: ليست في (أ).

(٢) «خلقاً»: ليست في (أ).

(٣) في (أ) و(ف): «بسلطان».

(٤) في (ر): «فهو».

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: ثم جعلنا لمن بقي منكم لم يُقتل الدولةَ عليهم.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾: أي: زدناكم أموالاً وأعطيناكم أولاداً.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: أي: أعواناً وأنصاراً من أهل زمانكم تَنفرون في قتال عدوِّكم، والنفير: جمع نافرٍ، كالغَزِيِّ جمع غازٍ، والحَجيج جمع حاجٍّ(١).

وقيل: جمعُ النافر: النَّفْر بالسكون، ثم النَّفيرُ جمع الجمع، كما يُجمع الراكب: ركباً، وكما يجمع العبدُ عبيداً.

وقيل: النَّفير واحدٌ، ولكنه ذُكر في موضع التفسير فصلحَ الواحدُ عبارةً عن الجمع(٢)، كما يقال: عشرون درهماً، و: هو أكثرُ الناس مالاً ودرهماً وديناراً.

* * *

(٧) - ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾: أي: أن أخلَصْتُم الشكر لله على نعمه بالطاعة له في أوامره ونواهيه كان نفعُ ذلك راجعاً إليكم بنَيلكم المزيد.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾: أي: إن أسأتُم بكفران النعمة كان ضررُ ذلك راجعاً إليكم بزوال النعمة ونزولِ العقوبة، وبوقوع الذِّلة والمسكنة، واللامُ للاستحقاق كما قال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤].

---

(١) في (أ): «كالغزي والحجيج جمع غاز وحاج».

(٢) في (ر) و(ف): «يصلح عبارة الواحد عن الجميع».

وقيل: معناه: فإليها؛ أي: فقد أسأتُم إليها، وهو كقوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]؛ أي: إليها.

وقيل: هو بمعنى (على)، والحروف تتناوب.

ثم قيل: إن قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يحتمِل أنه في التوراة خطاباً لهم، ويحتمِل أنه خطابٌ مبتدأ في عصر النبيِّ ﷺ لمن كان من[1] أخلافهم في عصره، ويحتمِل أنه خطاب للمشركين أنهم لو أَحسنوا فلأنفسهم أَحسنوا، وإن أساؤوا فعلى أنفسهم فعلوا.

وقوله[2] تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾: أي: وقتُ المرة الآخرة بالعَود إلى الإفساد بعد زمان، وأضمر هاهنا: بعثنا[3] عليكم.

ثم قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: قرأ ابن عامر وحمزةُ وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿ليسوء﴾ بياءِ المغايَبة على الواحد؛ أي: ليسوء لقاؤهم وجوهَكم، أو[4]: ليسوء بعثُنا وجوهكم.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص: ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ على الجمع؛ أي: ليسوء هؤلاء وجوهَكم.

وقرأ الكسائي: ﴿لنسوء﴾ بالنون إخباراً من الله تعالى عن نفسه[5]؛ أي: نحن نفعلُ ذلك.

---

(١) في (أ) و(ر): «في».

(٢) في (أ): «وهو قوله».

(٣) في (أ) و(ف): «بعثناهم».

(٤) في (أ): «أي»، وفي (ر) و(ف): «و»، والصواب المثبت.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

ويَسـوء بمعنـى: يَحْـزُن، ومعنـاه: أن لقاءهـم لا يسـرُّهم بل يَحزُنهـم، وخَصَّ الوجـوه لأن أثـره يظهر فـي الوجوه.

وقيل: أي: ليقتلوكم، فتسوءَ الوجوه وتقبُحَ بعد زوال الحياة عن الأجسام.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾: أي: المسجد الأقصى، ولا يدخلونه إلا بعد دخول البلد، فمعناه: أنهم يستولون على بلدكم.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾: أي: وليُهلِكوا[1] ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ مفعولٌ[2]؛ أي: ما عَلَوه وظفروا به.

وقيل: ﴿مَا﴾ غايةٌ؛ ومعناه[3]: ما داموا عالين مستولين، ومعنى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾؛ أي: وليُهْلكوكم.

﴿تَتْبِيرًا﴾: أي: إهلاكاً، والتَّبار: الهلاك، وذُكر المصدر للتأكيد.

***

(٨) ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾: بإرسال محمد إليكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الإفساد بتكذيب محمد عليه الصلاة والسلام ﴿عُدْنَا﴾ إلى تعذيبكم في الدنيا، وهو بأيدي العرب بنحو ما أريناكم في المرتين.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: لكم ولأمثالكم ﴿حَصِيرًا﴾؛ أي: مَحْبساً لمن مات منكم مصرًّا على كفره.

---

(١) «أي: وليهلكوا»: ليست في (أ).

(٢) «مفعول» ليست في (ف).

(٣) في (ر): «أي».

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الحصير: المَحْبس[١]، والحَصْر: الحبس، ويقال للمَلِك: حصير؛ لأنه محجوب فكأنه محبوس بالحجاب.

وقال الحسن: ﴿حَصِيرًا﴾؛ أي: مهاداً[٢]، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١] يَذهب به إلى[٣] الحصيرِ المرمول.

واللامات في قوله: ﴿لِيَسُـُٔوا... وَلِيَدْخُلُوا... وَلِيُتَبِّرُوا﴾ لاماتُ العاقبة؛ لأن تخريب المسجد ما لا يجوز إباحتُه.

ثم الخطابات في هذه الآية يرجع بعضها إلى الأسلاف وبعضها إلى الأخلاف؛ لأنه قصصُ قرونٍ بعد قرون.

وقال ابن عباس وقتادة: سلَّط الله عليهم في الكرَّة الأولى جالوتَ، ثم أرسل الله إليهم حين أحسنوا داودَ عليه السلام فقَتَل جالوت، وكان ملكُهم طالوت[٤].

وقال سعيد بن المسيب: هو بختنصَّر[٥].

وقال سعيد بن جبير: هو سنحاريب[٦].

وقال الحسن: هم العمالقة، وكانوا كفاراً[٧].

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٠٨).

(٣) في (ر) و(ف): «إلى أن».

(٤) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٢٩).

(٥) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٢٩). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠) عن ابن عباس وقتادة.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٨٥)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٢٩).

(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٢٩).

فأما حديثُ بختنصر: فقتل علماءهم، وأحرق التوراة، وخرَّب المسجد، وألقى فيه الجيَف، وسبى سبعين ألفاً، وذهب بهم إلى بابل فكانوا بها سبعين سنةً، ثم أنقذهم[1] الله على يدي أنطيانوس[2] الرومي، ثم عادوا إلى الفساد وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، فانتقم الله منهم بألمقياس[3] أتاهم فقتل منهم مئة وثمانين ألفاً على دم يحيى بن زكريا، وخرَّب بيت المقدس، وقتل العلماء، وأحرق التوراة، وألقى في المسجد الجيَف، وكانت خراباً إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعمَّرها المسلمون.

وقيل: الله بعث عليهم في الكرَّة الأولى جالوتَ وفي الثانية بختنصَّرَ.

وقيل: كان في المرة الأولى بختنصَّرُ وجنودُه، وفي الثانية كردوسُ المجوسيُّ وجنوده، وهي كانت أعظمَ الوقعتين، وهو قول محمد بن إسحاق[4].

وفي إنجيل النصارى: أن الملك الذي كان عليهم في بيت المقدس حين بعث عيسى عليه السلام كردوس المجوسي.

وقيل في قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ أي: فلها العقوبةُ، وقيل: فلها الوعيد، وقيل: فلها الجزاء، وقيل: فلها التوبة، وقيل: فلها الرجاء، وقيل: فلها المهلة إلى أن تتوبَ.

---

(١) في (ر) و(ف): «استنقذهم».

(٢) في (ر): «أيطانوس»، وفي (ف): (أنطايوس).

(٣) قوله: «بألمقياس» كذا في النسخ، ووقع اللفظ عينه في «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٢٢)، لكن فيه أن المذكور هو الذي أنقذهم، وهذا لفظه: (ثم إن الله عز وجل استنقذهم على يدي ألمقياس فردهم إلى بيت المقدس فعمروه، ورد الله عز وجل إليهم ألفتهم... فعادوا إلى الكفر وقتلوا يحيى بن زكريا فسلط الله عليهم ططس بن أستاتوس الرومي، ويقال: اصطفانوس فقتل على دم يحيى بن زكريا مئة ألف وثمانين ألفاً...).

(٤) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٩٩).

وقال الحسين بن الفضل: أي: فلها ربٌّ يغفر لها، قال النبيُّ ﷺ: «إن العبد إذا أذنبَ فقال: ربِّ اغفر لي، قال الله تعالى: عَلِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرتُ له»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال: وإنْ عدتُم إلى المعصية عُدنا إلى المغفرة(٢).

وقيل على هذا: إن عُدتُم إلى الدعوى عُدنا إلى الإجابة، وإن عُدتُم إلى السؤال عُدنا إلى النَّوال، وإن عُدتُم إلى المعذرة عدنا إلى المغفرة، وإن عُدتُم إلى التنصُّل عُدنا إلى التفضُّل، وإن عُدتُم إلى الاعتراف عدنا إلى غفران الاقتراف.

وقال القشيري: إن عدتُم إلى ما يليق بكم عُدْنا إلى ما يليق بكرَمنا(٣): ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

وكأنه خطر على قلب العاصي أنه إذا غُفر للعصاة فمَن يكون في جهنم؟ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ والجنةَ للمؤمنين مصيراً.

* * *

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... أَعَلِمَ عبدي...».

(٢) لم أقف عليه، ولعل الصواب: (إلى العقوبة)، كما هو لفظه في «تفسير الثعلبي» (٦/ ٨٦)، وكذا يفهم مما رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦) عنه، ولفظه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال: (عادوا فعاد، ثم عادوا فعاد. قال: فسلَّط الله عليهم ثلاثة ملوك من ملوك فارس: سندباذان وشهرباذان وآخر)، وفي رواية ثانية: (فعادوا فسلَّط الله عليهم المؤمنين). ونحوه في «النكت والعيون» (٣/ ٢٣١): (إن عدتم إلى الإساءة عدنا إلى الانتقام، فعادوا، قال ابن عباس وقتادة: فبعث الله عليهم المؤمنين يذلونهم بالجزية والمحاربة إلى يوم القيامة).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٣٧).

(٩) ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾: أي: يُرشد إلى الملة التي هي أقومُ المللِ، وهي[1] القيِّم، وهي[2] المستقيم، وهي ملةُ الإسلام.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾: أي: تقع به لهم البشارة بالثواب العظيم.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾: أي: وينذرَ أن الكفار لهم العذاب الأليم، وقد يُذكر فعلٌ واحد وبعده مفعولان، والثاني يُضمر له فعلٌ آخر، كما قال: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]؛ أي: وادعوا شركاءكم، وكما أنشدوا:

علَفْتُهـــا تبنـــاً ومـــاء بـــارداً[3]

أي: وسقيتُها ماءً بارداً.

وقد[4] تقع البشارةُ عليها، فقد ذُكرت البشارة في حق العذاب في قوله:

---

(١) في (ر): «وهو» وكلمة: «الملل» ليست في (ف).

(٢) في (ر): «وهو».

(٣) صدر بيت أنشده الفراء لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الكشاف» (٢/ ١٠٨)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّـــى شَـــتَتْ هَمّالَـــةً عَيْناهَـــا

(٤) في (أ): «وقيل».

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] على معنى أنه يؤثِّر في البشرة أيضاً بالحزن والخوف كما يؤثِّر الخبرُ السارُّ بالسرور في البشرة، أو لأنه[1] قائمٌ في حقِّ الكفار مقامَ البشارة في حقِّ المؤمنين.

وقيل: معناه: وبشر المؤمنين أيضاً بأن أعداءهم الكفار أعَدَّ الله لهم عذاباً أليماً.

***

(١١) ـ ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾: أي: الكفارُ يُعرضون عن قبول هذا القرآن الذي مرَّ ذكرُه ولا يصدِّقون بالعذاب الأليم الذي ينذر به، ويستعجلون هذا العذاب فيقولون: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، و: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

و﴿الْإِنسَانُ﴾ جنسٌ، والمراد به الناس، وهم المشركون هاهنا، يَدْعون بالعذاب وهو الشرُّ.

﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾؛ أي: كما يدعو بالسلامة والعافية والنعمة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾: أي: عادتُه في أصل تركيبه العجلةُ وتركُ التثبُّتِ والإعراضُ عن التدبُّر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ومجاهد: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده عند غضبه: اللهم الْعَنْه واغْضَبْ عليه، اللهم أَهْلكني وأَرِحني[3].

---

(١) في (ف): «والبشر» بدل: «في البشرة أو لأنه».

(٢) وردت هذه الآية في سبع سور: يونس (٤٨)، الأنبياء (٣٨)، النمل (٧١)، السجدة (٢٨)، سبأ (٢٩)، يس (٤٨)، الملك (٢٥).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥١٢ ـ ٥١٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾: هو آدم عليه السلام لمَّا نُفخ فيه الروحُ وبلغت إلى رجليه وقبل أن تجري فيهما رام النهوض فسقط(١).

***

(١٢) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: ذَكر بعد ذمِّ المشركين آيةً من آيات وحدانيته حجةً على المشركين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾؛ أي: خلقنا(٢) الليل والنهار علامتين؛ للتعيُّش والاضطراب لتحصيل الأقوات التي بها قِوامُ الأبدان، والاستراحةِ من التعب الذي يقع بهذا الاضطراب؛ إذ لا قوام للأبدان إلا بلجام(٣)، فخالَفْنا بين الآيتين فجعلنا الآيةَ التي هي الليلُ ممحوَّةً؛ أي: عديمةَ النُّور، فإن القمر لا نور له في نفسه وإنما يأخذه من الشمس، والآيةَ التي هي النهارُ مبصرةً؛ أي: مضيئة.

وقيل: أي: أهلَه بُصَراءَ فيه، كما يقال: رجلٌ مُخْبِثٌ(٤)؛ أي: أهلُه(٥) خبثاءُ، و: رجلٌ مُضْعِفٌ؛ أي: دوابُّه ضعفاءُ، وكذا قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: أصحابَه بصراءَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥١٤).

(٢) في (أ): «جعلنا».

(٣) في (ف): «بخلافهما».

(٤) في (ف): «خبيث».

(٥) في (ر): «أصحابه». وانظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥١٧)، والتمثيل فيه بلفظ: (رجلٌ مُجْبِنٌ: إذا كان أهلُه وأصحابُه جُبناء).

وقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: بالنهار، ولتستريحوا بالليل، ولم يذكره هاهنا وذكره في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١] ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أي: رِزْقِه، وسمَّاه فضلاً لأن ما يُعطيه الله العبدَ فضلٌ، ولا يجب للعبد على الله شيء، وهو حجَّتنا على المعتزلة في مسألة وجوب الأصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: بانفصالِ الليل من النهار، فيُعرف به حساب الساعات والأيام والشهور، وباجتماعها تصير سنةٌ، ثم يجتمع عددُ السنين في التواريخ فيعرف بها أزمنةُ الحوادث، والحسابُ لِمَا دون السنة والعددُ للسنين المجتمعة.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾: أي: مما بهم الحاجة إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾: أي: بينَّاه تبييناً، والمصدر للتأكيد؛ أي: هو حقٌّ يَلزم العمل به.

ثم[1] قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ يدلُّ على أن أنفسهما آيةٌ، ثم قال: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أضاف الآيةَ[2] إلى الليل وإلى النهار، وهي إضافة الشيء إلى نفسه، كقولك: نفسُ الشيء، وعينُ الشيء.

ومحوُ الليل: إخلاؤه عن النور، وإبصار النهار: ضياؤه.

وقيل: بل آيةُ الليل غيرُ الليل، وهي القمرُ[3]، ومحوُه: أنه لا نورَ له في نفسه،

---

(١) «ثم»: سقط من (أ).

(٢) في (أ): «الآية» بدل من «الإضافة».

(٣) في (أ): «بل آية الليل هي القمر».

ونورُه من الشمس، وآيةُ النهار غيرُ النهار، وهي الشمس، وإبصارها: نورها الذي[1] يقع به الإبصار، و﴿مُبْصِرَةً﴾ بمعنى: ذاتَ بصرٍ؛ كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذاتِ رضًى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مضيئةً[2].

وقال الضحاك: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني: السوادَ الذي في وجه القمر[3].

ثم ذكر في الليل والنهار أنهما آيتان، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] فجعَلهما آيةً واحدة[4]، فإن الآية كونُ الولد منها بغير أبٍ، وهو معنًى واحدٌ قام بهما[5]، وهاهنا الليلُ آيةٌ والنهار آية.

وقيل: إنهما كان يمكنُ رؤيتُهما معاً والاعتبارُ بهما في وقتٍ واحد فكانا آية، والليل والنهار بخلافِ ذلك.

وقيل: معناه: وجعلنا ابن مريم وأمَّه كلَّ واحدٍ منهما آيةً؛ كما قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: كلُّ واحدة منهما.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

---

(١) في (ف): «أي».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٨٧).

(٣) لم أجده عن الضحاك، لكن رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٧٠)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥١٥)، عن علي رضي الله عنه. ورواه الطبري أيضاً (١٤/ ٥١٦)، عن ابن عباس.

(٤) بعدها في (أ): «وقيل هما بجملتهما آية واحدة».

(٥) في (أ): «في وقت واحد فكانا آية».

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: واتصالُها بالآية الأولى[١]: أنه فصَّل الأعمال تفصيلاً في اللوح المحفوظ، وألزم كلَّ إنسان عملَه في عنقه؛ أي: قلَّدهم أعمالهم، فذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ أي: عمله في عنقه، وهو عملُه[٢] في الخير والشر.

وقال مقاتل بن حيَّان: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ يعني: ما كان من خير وشرٍّ لا يفارقه حتى يحاسَب به[٣].

وقال الحسن: يعني: يُـمْنَه وشُؤمَه، وسعادتَه وشقاوته[٤].

وأصله: ما يُتطيَّر منه ويُتفاءل به، من الطائر السانح[٥] البارح، فالذي يجيءُ من ذات اليمين يُتيمن به، والذي يجيء به من ذات الشمال يُتشاءم به.

ثم هو يتوجَّه وجهين: إلزام العمل، وإلزام جزاء العمل.

وقيل: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾؛ أي: قَسْمُه؛ يقال: طيَّرتُ المالَ بين القوم فطار لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، وهو ظهور قَسْمِه.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: أي: ونخرج له الطائرَ،

---

(١) في (ف): «واتصالها بالأولى».

(٢) «في عنقه وهو عمله»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٨٨)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٨٢)، عن الكلبي ومقاتل.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٧) (ط: دار التفسير)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٨٢)، دون قوله: «وسعادته وشقاوته».

(٥) في (ر) و(ف): «السارح»، والمثبت من (أ)، وهو الصواب؛ يقال: من لي بالسانح بعد البارح؛ أي: بالمبارك بعد الشؤم. انظر: «القاموس» (مادة: سنح).

وهو عمَلُه الذي عمِلَه، ويحتمل: بالطائر الذي عمِله كتاباً مكتوباً[١]؛ أي: في كتاب ﴿يَلْقَىٰهُ﴾؛ أي: يراه[٢].

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر[٣]: ﴿يُلَقَّاه﴾ بضم الياء وتشديد القاف؛ أي: يُلقِّيه الملَك ذلك منشوراً بعدما كان مطويًّا مختوماً ليقرأه.

* * *

(١٤) ـ ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ﴾: أي: يقال له: اقرأ كتابك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾؛ أي: مُحاسِباً.

وقال الحسن: لقد أنصفكَ مَن جعَلَك حسيبَ نفسِك[٤].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أَلْزمَ كلَّ أحد[٥] ما ليس يجدُ له[٦] من عُهدته خلاصاً، ولا يَنال من لزومه مناصاً، وهو حكمُ السعادة لقومٍ وحكمُ الشقاوة لقومٍ، فالذين هم أهلُ السعادة أسرجَ لهم مراكبَ التوفيق، فتسير بهم إلى ساحات النجاة،

---

(١) في (ف): «متلواً».

(٢) في (ف): «منشوراً» بدل: «أي يراه».

(٣) في (ر) و(ف): «وقرأ أبو جعفر»، وفي (أ): «وقرأ ابن عامر»، والصواب المثبت. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٢٣).

(٥) في (ف): «واحد».

(٦) «له»: ليست في (أ)، وعبارة مطبوع «اللطائف»: (ما لبس بجيده)، وليس فيه ما بعده من قوله: «من عهدته خلاصاً».

والذين هم أهل الشقاوة ربطتهم مثقلةُ الخذلان[١] فأقعدتهم عن النهوض إلى نهج الخلاص، وأوقعَتْهم في وَهدة الهلاك.

وقيل: مَن حاسبه بكتابه وجد[٢] كلَّ زلَّةٍ ومَهلكةٍ، ومَن حاسبه بكتاب نفسه ففي كتابه[٣] سبحانه: ﴿ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، فالواجبُ على العبد أن يبتهِل في دعائه فيقول: اللهمَّ حاسبني بكتابك على ما قلتَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ لا بكتابي فإنه مشتمِل على القبائح والفضائح[٤].

***

(١٥) ـ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: هو كلُّه تفسير قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ فعمَلُ كلِّ إنسان يكون[٥] في عنقه، ويكون هو المؤاخَذَ به لا غيرُه، ويؤاخَذُ بعمل نفسه لا بعمل غيره، والوِزر: الحِمْل، ومعناه: لا تحمِلُ كلُّ[٦] نفسٍ حاملةٍ حِمْلَ نفسٍ أخرى، والآثام: أحمال وأثقال، قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٣][٧].

---

(١) في مطبوع «اللطائف»: «أركبهم مطية الخذلان»، بدل: «ربطتهم مثقلة الخذلان».

(٢) في (أ) و(ر): «وحده».

(٣) في (ف): «ففي كتاب نفسه».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٤٠)، والكلام فيه بنحوه.

(٥) «يكون»: من (أ).

(٦) «كل»: من (أ).

(٧) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧/ ١٧ ـ ١٩)، والكلام فيه بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمِل: وما كنَّا معذِّبين تعذيبَ استئصالٍ في الدنيا إلا بعدَ دفع الشُّبهِ ورفعِها عن الحجج مِن كلِّ وجهٍ وبعد تمامها ـ وإن كانت الحجةُ لزمتْهم بالعقول بدون بعثِ الرسل ـ ليدفعَ عنهم عذرَهم من كلِّ وجهٍ.

أو يكونُ قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ في الدنيا فضلاً منَّا ورحمةً، وإن كان العذاب قد لزمهم والحجةُ قد قامت عليهم.

والأشبهُ هو الأول، وعذابُ الاستئصال في الدنيا ليس هو بجزاءٍ على الكفر، بل جزاءُ الكفر عذابُ الآخرة الذي لا ينقطع، وإنما هو جزاء المعانَدة والمكابَرة عقوبةً لهم وعبرةً لغيرهم، وذلك يكون في المعاندة بعد لزوم الحجة من كلِّ وجه[1].

* * *

(١٦) ـ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾: أي: أهل قرية[2] ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾؛ أي: أمرنا منعَّميها وجبابرتها بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾: أي: خرجوا عن[3] الأمر وعصَوا، وقرئ

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧/ ١٩)، والكلام فيه بنحوه.

(٢) «أي: أهل قرية»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (أ): «على».

بالتشـديد: (أمَّرْنـا)(١)؛ أي: ولَّينـا وسـلَّطنا(٢)، مـن الإمـارة.

وقرئ: (آمَرْنا) بالمد(٣)؛ أي: أكثرنا، وقد أَمِرَ يَأْمَرُ أَمَراً من باب عَلِمَ(٤): إذا كَثُر، وآمَرَ غيرَه؛ أي: أَمَره(٥)؛ إذا: أَكْثَره، يُؤْمِرُه إيماراً، قال الشاعر:

إنْ يُغْبَطـوا يـهبـطوا وإنْ أَمِـروا ... يـومـاً يصيـروا للقُـلِّ والنَّفَـدِ(٦)

وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: أي: وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾؛ أي: أهلكناها واستأصلناها.

أَخبر أنه لا يعاجل بالعقوبة أمةً ظالمة حتى يُعذِر إليهم غايةَ الإعذار.

---

(١) نسبت لأبي عثمان النهدي، ورويت عن أبي عمرو وعاصم في غير المشهور عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

(٢) «وسلطنا» ليست في (أ).

(٣) نسبت لخارجة عن نافع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

(٤) لو قال: «من باب فرح» كما في «القاموس» لكان أصوب، لأن (فرح) يوافقه في الماضي والحاضر والمصدر.

(٥) «أي: أَمرَه» ليست في (أ). وقوله: «أَمرَه»، جعله بعضهم بفتح الميم على أنه مما يصير به الفعل متعدِّيًا بعد أن كان بالكسر لازماً، كما في شَتِرَتْ عينُ الرَّجل بكسر التَّاء، وشَتَرَها الله بفتحها، وآخرون لم يقصروا التعدية على الفتح واللزومَ على الكسر، فذكروا أن كسر الميم لغةٌ كفتحها، ومعناها: كثرنا، حكى أبو حاتم عن أبي زيد: أَمَر الله مالَه وأَمِره ـ بفتح الميم وكسرها ـ ؛ أي: كثَّره. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣)، و«البحر» (١٤/ ٤١) وفيه تفصيل المسألة.

(٦) في (ف): «للقل والنقل»، وفي (ر): «للقلة والثقل». والبيت للبيد، وهو في ديوانه (ص: ٣٤) برواية: (للهُلْك والنَّكَدِ)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٧٣) برواية: (للهلك والنفد)، و«غريب الحديث» للحربي (١/ ٨٨) كرواية المؤلف.

(١٧) ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾: أي: وما أكثرَ ما أهلكنا من القرون، وهو جمع قرنٍ.

وقال محمد بن القاسم المازني: هو مئة سنةٍ[١].

وقال عبد الله بنُ أبي أوفى: هو مئةٌ وعشرون سنةً[٢].

وقيل: هو أربعون سنة.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾:

قال القشيري رحمه الله: هذه تسليةٌ للمظلومين إذا استبطَؤوا هلاك الظَّلَمة، وتمنَّوا قَصْرَ أيديهم عنهم، فاستعجلوا[٣] انقضاءَ دُولهم وأيامهم، فإذا فكَّر[٤] فيمَن مضى منهم كيف بنَوا مَشيداً، وأمَّلوا بعيداً، فبادوا جميعاً، يَعلم أن الآخرين سيُخرطون[٥] عن قريب في سِلكهم، ويُمتحَنون بمثل شأنهم، فإذا تغيَّمت سماء أُنسهم بسحابِ الوحشة، فأَوَوا إلى ظلِّ شهودِ التقدير، فتزول عنهم الوحشةُ، وتَطيب لهم الحياةُ، وتتوفَّر أسباب البهجة[٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٣٤) من طريق سلامة بن حواس، عن محمد بن القاسم، عن عبد الله ابن بسر المازني، قال: وضع النبيّ ﷺ يده على رأسه وقال: «سَيَعِيشُ هذَا الغُلام قَرْناً» قلت: كم القرن؟ قال: مِئَةُ سَنَةٍ. ثم روى عقبه عن محمد بن القاسم، قال: ما زلنا نعدّ له حتى تمَّت مئة سنة ثم مات.

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٣٦)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٨٤).

(٣) في (أ): «أو استعجلوا».

(٤) في (أ): «أفكر». وفي «اللطائف»: (فكروا)، وهو الأنسب بالسياق.

(٥) في (ف): «سيدخلون»، وفي «اللطائف»: (سينخرطون).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٣٤).

(١٨) ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: أي: مَن كان يريد بعمله الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾: في العاجلة ﴿مَا نَشَآءُ﴾ تعجيلَه ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيلَه له، لا ما يشاؤه العامل وما يريده العامل(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾: يدخلُها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾: مطروداً.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: أي: ثواب الآخرة بعمله ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: عَمِلَ عَمَل الآخرة من أداء الفرائض واجتنابِ المحارم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مصدِّقٌ للهِ في وعده ووعيده ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾؛ أي: مقبولاً عند الله، مَرْضيًّا محموداً، مُثاباً عليه الكثيرَ الخطيرَ على اليسير الحقير من العمل.

* * *

(٢٠) ـ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كُلًّا﴾: من هذين الفريقين ﴿نُّمِدُّ﴾: نعطي ونوسِّع ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾: ترجمةٌ عن قوله: ﴿كُلًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾: رجوعٌ عن الإخبار عن نفسه إلى الخطاب، وهو من وجوه الكلام.

---

(١) في (ر): «العاجل» في الموضعين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: ممنوعاً عن عباده.

* * *

(٢١) ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: في السعة[١] في الدنيا ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: أشد تفاوتاً، وتفضيلُها أكبرُ قَدْراً[٢] من التفضيل الواقع في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ نزلت في ثلاثة نفرٍ من ثقيف: مَرْثِدِ[٣] بن ثُمامة، وأبي فاطمةَ بنِ البَخْتَرِيِّ، وجَدْعان، كانوا حراصاً على الدنيا[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ نزلت في بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومِهْجَع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٥].

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مصدِّقٌ بأن نجاته بفضلِ الله لا بسعي نفسِه.

---

(١) في (أ): «الرزق».

(٢) في (ف): «وتفضلها أكثر فضلًا».

(٣) في (أ) (ف): «فرقد» وانظر التعليق الآتي.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٢٦) وفيه: (نزلت في ثلاثة نفر من ثقيف؛ في فرقد بن يمامة، وأبي فاطمة بن البختري، وصفوان، وفلان، وفلان). وانظر: «تنوير المقباس» (ص: ٢٣٥)، واقتصر على قوله: (نزلت هذه الآية في مرْثَد بن ثُمامة).

(٥) قوله: «ومهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه» ليس في (ف)، ولم يرد في «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٢٦). لكنه ذكره في أول العنكبوت على أنه أول شهيد للمسلمين يوم بدر، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ الآية.

وقال في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾: قومٌ تفاضلوا بصدق القدم، وقومٌ تفاضلوا بعلوِّ الهِمم، ومنهم مَن يتفاضل بما لا بيانَ يصفه ولا عبارة، ولا رمز يدركه ولا إشارة، ومنهم مَن يراه في الأسبوع مرةً، ومنهم مَن لا يغيب عنه لحظة، وقد يجتمعون عند الرؤية ثم يتفاوتون في النصيب، فليس كلُّ مَن يراه يراه بالعين التي يَرى بها صاحبُه، وأنشدوا:

لو يَسمعون كما سمعتُ كلامَها خرُّوا لعزَّةَ رُكَّعاً وسجوداً[1]

***

(٢٢) ـ ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: أي: جرِّد التوحيد فلا تعتقِدْ مَن يَستحق العبادةَ غيرَه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾: أي: فتبقى وتمكُثَ ﴿مَذْمُومًا﴾ بكلِّ لسان ﴿مَخْذُولًا﴾: موكولاً إلى مَن اتَّخذْتَه من دون[2] الله معبوداً لا نصيرَ عنده ولا عون.

والخطاب للنبي ﷺ والمراد به[3] غيره.

وهذه الآيات متصلةٌ بعضُها ببعضٍ، وأولها: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾؛ أي: عملَه من الخير والشر، ثم ذكر تفاصيلَ ذلك وتفاوتَ الفرق فيها، وذكر تفاوتَ الناس في الدنيا في الأعمال وتفاوتَهم في الآخرة في المحالّ، وذلك على حسب الأفعال، ثم فصَّل تلك الأعمال وبدأ بالتوحيد وهو في هذه الآية، ثم أتبعها خصال الإسلام الحسنةَ وما يضادُّها من الأعمال السيئة.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٢) في (ر): «غير»، وفي (ف): «من غير» بدل: «من دون».

(٣) «به» من (ف).

(٢٣) - ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: قال ابن عباس وقتادةُ وابن زيد: وأمر ربُّك[١]. وأصل القضاء: فصلُ المعنيِّ بالأمرِ على أحكام[٢].

وفي مصحف عبد الله: (ووصَّى ربُّك)[٣].

و﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ نصبٌ لوقوع (قضى) عليه، و(لا تعبدوا) نهيٌ.

ولمَّا أمر الله تعالى بالتوحيد وقدَّمه لأن به تُقبل الأعمال، أَتْبعه بالإحسان إلى الوالدين وهو أعظمُ حقوق البشر، ثم أمر بعد ذلك بصلةِ الرَّحِم ومواساةِ المحاويج بالمقدار المعقول في الإنفاق المحمود، ثم نهى عن قتل الأولاد وهو من صلة الرَّحِم، ثم أَتْبعه النهيَ عن الزنا وفيه حفظُ الأنساب ليتوصل بذلك إلى صلة الأرحام؛ إذ في الزنا اختلاطُ الأرحام[٤] والجهلُ بوجوه القَرابات، ثم النهيَ عن قتل النفس المحرَّمة بغير حقٍّ إذ لا ذنب بعد ذلك إلا الشركُ أعظمُ منه، ثم النهيَ عن تضييع مال اليتيم وإفسادِه، ثم الوفاء بالعهود، ثم إيفاء الكيل والوزن[٥] بالقسط، ثم حفظ السمع والبصر والفؤاد عن خلاف الحق، ثم الأمر بالتواضع وتركِ التكبُّر والتعظُّم والمرحِ على الناس، كلُّ ذلك مَسُوقٌ على قوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، ولا

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣). وعن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٥٣).

(٢) في (ف): «الإحكام».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٧).

(٤) في (أ): «الأنساب».

(٥) في (ف): «والميزان».

شك أن مَن استوفى هذه الخلالَ[1] فقد يَـمُنَ طائره وسُعِد جدُّه، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾؛ أي: أَحْكَم ربُّك الأمرَ[2] لعباده وبتَّ[3] القولَ عليهم فيما تعبَّدهم به أن يُفْردوه بالعبادة فلا يشركوا به أحداً غيرَه.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: أي: وأن تُحْسِنوا بالوالدين؛ أي: إلى الوالدين، كما قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾: (إمَّا) كلمتان: (إنْ) للشرط[4] و(ما) للصلة، والنون للتأكيد، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿يَبْلغانِّ﴾ على التثنية؛ لسبقِ ذكر الوالدين في صدر الآية، وعلى هذا قولُه: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدلُ البعض؛ كقولك: جاءني القوم بعضُهم، أو هو تفصيل، فقد قال: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

وقرأ الباقون على الوحدان لأنه فعلُ قولِهِ: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ في ظاهر النظم، وعُطف عليه ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾[5].

يقول: إنْ بلغ عندك الكبرَ الذي هو أرذلُ العمر وهما حينئذٍ في الحاجة إلى مَن يكفيهِما ويقومُ بمصالحهما كالولد في صِغَره حين حاجتِه إليهما، فلا تَستثقِلْ أن تليَ منهما ما كانا يليانه منك، ولا تُظهر لهما شيئاً من التكرُّه والتضجُّر قولاً ولا فعلاً، وهو قوله تعالى:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: وفيها ستُّ لغاتٍ: الحركاتُ الثلاث بتنوينٍ وغيرِ تنوينٍ:

---

(١) في (أ): «الخصال».

(٢) في (ف): «حكم ربك الأمر» وفي (ر): «حكم ربك بالأمر».

(٣) في (أ): «وثبت».

(٤) في (ف): «الشرطية».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩)، وقراءة يعقوب في «النشر» (٢/ ٣٠٦).

أمَّا الكسرُ فعلى أصل الحركة لالتقاء الساكنين، والفتح طلباً للخفَّة في المضاعَف، والضمُّ تشبيهاً بـ(حيث) لأنه يوقف عليه من غير وصل بغيره[(١)]، وهو كقولك: قبلُ وبعدُ.

والتنوين للتنكير، وتركُه للتعريف.

وفيه ثلاث قراءات:

﴿أفِّ﴾ بكسر الفاء من غير تنوينٍ، وهي قراءةُ أبي عمرو والكسائيِّ، وعاصم في رواية أبي بكر وحمَّادٍ.

والثانية: ﴿أفَّ﴾ بفتح الفاء من غير تنوين، وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، وسهلٍ، ويعقوبَ، وعاصمٍ في رواية المفضَّل[(٢)].

والثالثة: ﴿أُفٍّ﴾ بالكسر والتنوين، وهي قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ في روايةِ حفصٍ[(٣)].

وهي كلمةٌ تدلُّ على التضجُّر، والعرب تقول: أُفًّا وتُفًّا.

وقيل: الأفُّ: وسخُ الأظفار، والتُّفُّ: ما رفعتَ بيدكَ من حَقيرِ الأرض.

وقيل: معنى (أفّ): النَّتْن. وقيل: التَّبرُّم.

وقيل: الأفُّ ما يكون في المغابن من العَرَق، والتُّفُّ: ما يكون في الأصابع من الوسخ.

---

(١) في (ف): «أنه لا يوقف عليه من غير فصل بغيره» بدل: «لأنه يوقف...».

(٢) «وسهل ويعقوب وعاصم في رواية المفضل»: سقط من (أ).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩)، وقراءة يعقوب في «النشر» (٢/ ٣٠٦ـ٣٠٧). وقراءة سهل، وكذا رواية حماد عن عاصم، ورواية المفضل عنه، ليست من المتواتر ولم تَرِد في هذه المصادر.

وقال سعدونٌ المجنون(١):

أُفٍّ للدنيا وتُفّ ... كلُّ مَن فيها يَلفّ(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: النَّهْر والانْتِهار: الزَّجرُ بإغلاظٍ وصياح.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: شريفاً في نفسه، أَعْرِض فيه عن القُبح واللَّغو، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]؛ أي: معرِضين عنه مكرِمين أنفُسَهم عن الإصغاء إليه.

وأصل الكَرَم: الصَّفْح.

وقوله: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] قيل: شريف.

وقيل: الكريم: الذي يُظهر محاسنَ حبيبه ويُخفي القبائح(٣)، قال الشاعر:

إنَّ الكريم إذا حبَاكَ مودَّةً ... سَتَر القبيحَ وأَظهر الإحسانا

وقال الضحاك: هو ألا يُسمِّيَهما بالاسم(٤)، لكن يقول: يا أبتاه ويا أُمَّاه.

وقال الزهريُّ لسعيد بن المسيِّب: قد عرفتُ ما في القرآن إلا قولَه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ فما هو؟ قال: هو قول العبد المذنبِ للسيد الفظِّ(٥).

---

(١) سعدون الْمَجْنُون، يُقَال: إنّ اسمه سعيد وكنيتَه أبو عَطاء ولقبَه سعدون، من أهل البَصْرة، كان من عقلاء المجانين وحكمائهم، له أخبار مِلاح وكلام سديد ونَظْم ونَثْر يُسْتَحْسَنُ، وطوَّف البلاد ودُوِّنت أخبارُه، استقدمه المتوكِّل وسمع كلامه. انظر: «الوافي بالوفيات» (١٥/ ١١٩).

(٢) انظر: «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٥٠)، وعزاهما لابن المنجم الواعظ.

(٣) في (ف): «المقابح».

(٤) في (ر): «باسمهما».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٤٩ و٥٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٤)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٠٦)، وعندهم جميعاً: أبو الهداج التُّجيبي، مكان: الزهري.

(٢٤) ـ ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾: حاصلُه: التواضعُ والعطفُ والرعاية.

وقال عطاءٌ في تفسيره: لا تَرفع إليهما بصرَك، ولا تشدَّ[١] نظرك[٢].

ومجازُه: أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخِه إليه خفَض له جناحيه، فكذا قيل للولد: اكفُل والديك وضمَّهما إلى نفسك كما كانا هما[٣] يفعلان بك في صغرك.

وقيل: إذا نزل الطائرُ إلى ولده المتروك في وكره عن طيرانه خفَض جناحيه ولم يُرفرف بهما لئلا يؤذيَ الولدَ ذلك، فكذا الولدُ أُمر أن يتقدَّم إلى والديه على لِينٍ وتواضُعٍ، لا يأخذهما ولا يرفعهما إذا احتاجا إلى رفعه على قلةِ مراعاةٍ وعلى حَملهما كما يحمل الأحمال، كيلا يَشُقَّ عليهما ولا يؤذيَهما.

وقيل: خفضُ الجناح: ترك الطيران، وبسطُهما: للطيران والتباعُد، فهذا أمرٌ للولد ألا يَبرحَ عن خدمتهما، ولا يَنفِرَ عنهما ولا يتباعَدَ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: والرحمة تجمعُ كلَّ الخيرات في الدِّين والدنيا إلى أن يُدخل الله المرحومَ الجنة ويَغفر له خطاياه، يقول: يا ربِّ

---

(١) في (ر): «وتمد إليهما»، بدل: «ولا تشد»، وسقطت من (ف) مع كلمة «بصرك».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٤)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٠٧)، عن عطاء بن أبي رباح قال: (لا ترفع يدك عليهما)، زاد ابن أبي حاتم: (إذا كلمتَهما). وفي «البسيط» أيضاً: وقال عطاء عن ابن عباس: (لا يريدان منك أمرًا إلا أجبتهما إليه). ولعل هذا الثاني هو الخراساني.

(٣) في (ف): «كما أنهما كانا».

افعَلْ بهما هذا النوع من الإحسان كما أحسَنَا إليَّ في تربيتهما إياي، والتربيةُ هي التنمية، وهذا من حقوقهما بعد موتهما وهو الدعاءُ لهما(١).

وقيل: نزلت الآية في سعد بن أبي وقَّاص حين أسلم، وعلمت بذلك أمُّه فتجرَّدت وألقت نفسها في الرمضاء، فأُخبر سعدٌ بذلك، فقال: فلتَمُت، فلم يرضَ الله بذلك وأنزل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] وما ضاهاها من الآيات(٢)، وعلى هذا قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ نسخَها قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

***

(٢٥) ـ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾: قيل: لمَّا نزلت الآيةُ خاف بعضُ الناس ما وقع منهم في حقِّ الأبوين من التقصير على غير قصدٍ، فنزلت.

أي: اللهُ عالمٌ بقصدِ قلوبكم، فإن تكونوا صالحين غيرَ قاصدين للعقوق، بل نادمين على ما يقع من غير قصدٍ، راجعين إلى الله، غفر الله تعالى لكم ما قد سلف.

---

(١) «وهو الدعاء لهما.» ليس من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٣)، عن قتادة في نزول قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]. ورواه مسلم (١٧٤٨)، والطبري (١٨/ ٥٥٢)، من حديث سعد رضي الله عنه في نزول قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

وقيل: هو في حق العاقِّين(١) إذا تابوا وتداركوا ذلك بالعذر والبِرّ.

وقيل: هو على العموم في حقِّ جميع ما سبق ذكرُه في السورة من الأمر والنهي.

وقال سعيد بن المسيب: الأوَّاب: التوَّاب؛ كلما أذنبَ بادر بالتوبة منه(٢).

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: الأواب: الراجع عن ذنبه بالتوبة(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأوَّاب: الرجَّاع إلى الله فيما يَنوبه(٤).

وقالت عائشة رضي الله عنها: الأوَّاب: الذي يُذنبُ ثم يتوبُ، ثم يذنبُ ثم يتوبُ، ثم يذنبُ ثم يتولى(٥).

وقال سعيد بن جبير: الأوَّاب: المسبِّح(٦)، قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]؛ أي: سبِّحي.

وقال قتادة: الأوَّاب: المطيع(٧).

---

(١) في (ر): «العارفين»، ولعله تحريف.

(٢) في (ف): «بادر إلى التوبة». والخبر ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٣٩)، ورواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩).

(٣) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٣٩)، ورواه عنهما بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).

(٤) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣١٠) بلفظ: (الراجعين عن معاصي الله، التاركين لسخط الله، النادمين على الزلَّات).

(٥) «ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتولى»: من (أ).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٥٧) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٧) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٥٧)، بلفظ: ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾: للمطيعين المصلين.

(٢٦) ـ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: أي: أعطِ ذا القرابة منك ـ وهو المتَّصل بك بأبيك أو أمِّك ـ حقَّه الواجب عليك من الصلة[١] والمواساة.

﴿و﴾ أعطِ ﴿الْمِسْكِينَ﴾[٢] أيضاً وهو الفقير ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أيضاً وهو الغريب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: أي: ولا تُسرف إسرافاً، وأصله: التفريق، من إلقاء البذر في الأرض وهو تفريق حبَّاته.

وقال ابن عباس وابن مسعود وقتادة رضي الله عنهم: هو إنفاق المال في غير حقِّه[٣].

وقال مجاهد: لو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيراً[٤].

وذكرُ المصدرِ لتأكيدِ النهي.

* * *

(٢٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: أي: لم يزل فعلُهم قبيحاً في العقل والشرع، فهم لقبح أعمالهم إخوان الشياطين؛ أي: جارُون على مذهبهم لازمون لأفعالهم، والعرب تسمي الملازِمَ أخاً له، فتقول: أخو المكارم، وأخو الجود، وأخو السفر، إذا كان مواظِباً عليه ملازماً له.

---

(١) في (أ): «الصدقة».

(٢) في (ف): «والمسكين وإعطاء المسكين» بدل: «وأعط المسكين».

(٣) رواه عن ابن مسعود وابن عباس البخاري في «الأدب المفرد» (٤٤٤) و(٤٤٥)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٦٥ ـ ٥٦٧). وعن قتادة الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٦٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨).

قولـه تعالـى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾: أي: كثيـرَ الكُفران لنعمـه جَحوداً لحقوقـه، ودخـول (كان) فيـه إخبارٌ عـن عادتـه ومذهبه في القِـدَم[١].

وقيل: إخوانُ الشياطين: قرناؤهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] قيل: أي: وقرناءهم[٢] من الشياطين.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾: أي: وإن عَرَضتْ[٣] لك حاجةٌ أحوجَتْك إلى الإعراض عن هؤلاء المحتاجين لضِيقِ يدٍ انتظارَ الرزقِ ترجُوه من الله فلا تَدَعْ تعهُّدهم بالقول الجميل، وهو قوله[٤]: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

وكان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية إذا سُئل ولم يكن عنده ما يعطي سكت انتظاراً للرزق يأتي من الله كراهةَ الردِّ، فنزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل ولم يكن عنده ما يعطي قال: «يرزقُنا الله وإياكم من فضله»[٥]، وذلك قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: لا تسكت فيكونَ ذلك إيحاشاً لهم، ولا تُؤْيسهم فيكونَ ذلك إيلاماً لهم.

---

(١) في (ف): «القديم».

(٢) في النسخ: «وقرناؤهم»، والصواب المثبت.

(٣) في (أ): «عزمت».

(٤) «وهو قوله»: سقط من (أ) و(ف).

(٥) ذكرته كتب التفسير دون سند. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ١٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٠).

(٢٩) ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾: أي: ولا تمنع العطيةَ بمرةٍ منعَ البخيل[١]، والغَلُّ كنايةٌ عن المنع.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾: أي: ولا تجاوزِ الحدَّ في الإعطاء ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾؛ أي: فتبقى تلومُك الناس على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَّحْسُورًا ﴾: أي: منقطِعاً عن الطاعة.

***

(٣٠) ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾: أي: الله هو الذي يوسِّع الرزق على مَن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ ﴾؛ أي: يضيِّق على ما يعلم من صلاح العبد، لا لعجزٍ ولا لبخل[٢]، بل قد يعطي ليَمتحِنَ بالشكر وقد يَمنع ليَمتحِن بالصبر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾: عالماً بعباده ومصالحهم، بصيراً بأحوالهم وأعمالهم.

وقيل: نزل قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ الآيةَ في مهجعٍ وبلالٍ وسالمٍ مولى أبي حذيفةَ وخبَّابِ بن الأرتِّ وصُهيب بن سنان، كانوا يَسألون رسول الله ﷺ في الأحايين ما يحتاجون إليه، ولا يجد له متَّسعاً فيُعرض[٣] عنهم حياءً منهم، فأنزل الله هذه الآية[٤].

---

(١) في (أ): «عن منع البخيل»، وفي (ر): «بمرة منع البخل»، وفي (ف): «منع البخل»، والصواب المثبت.

(٢) في (ف): «لا كالعجز والبخل»، وفي (ر): «لا للعجز والبخل».

(٣) في (ر) و(ف): «فإن كان لا يجد لها متسعاً أعرض»، بدل: «ولا يجد له متسعاً فيُعرض».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩٦)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٨٩).

وروى جابر: أن النبيَّ ﷺ كان قاعداً بين أصحابه، إذ أتاه صبيٌّ فقال: يا رسول الله! إنَّ أمي تَستكسيك قميصاً، ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلا قميصُه، فقال للصبي: «من ساعةٍ إلى ساعةٍ يَظهر»، فعاد الصبي إلى أمه فقالت: قل له: إن أمي تستكسيك القميصَ الذي عليك تتبرَّك به، فدخل النبيُّ ﷺ داره ونزع قميصه وقعد عارياً، فأذَّن بلال للصلاة وانتظره فلم يخرج، فشُغل قلب الصحابة، فدخل عليه بعضهم فرآه عارياً فلامه، فنزلت الآية[1].

* * *

(٣١) ـ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾: يجوز أن يكون هذا مجزوماً على النهي عطفاً على قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ ﴾، ويحتمِل أن يكون منصوباً عطفاً على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾، وقتلُ الأولاد[2] من أشدِّ العقوق، وقد أمر الله تعالى ببِرِّ الأولاد كما أمر ببرِّ الوالدين، وفي التفسير: الأبرار هم الذين يَبَرُّون الآباء والأبناء.

---

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٩٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٦٢). قال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٩٩): (لم أجده). وقال الآلوسي في «روح المعاني» (٢٩/ ١٤): وأنت تعلم أنه يأبى هذا كونُ السورة مكية والآية ليست من المستثنيات، ولعل الخبر لم يثبت فعن ولي الدين العراقي: أنه لم يجده في شيء من كتب الحديث؛ أي: بهذا اللفظ، وإلا فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا فقال: «ما عندنا اليوم شيء»، قال: فتقول لك: اكسني قميصك، فخلع عليه الصلاة والسلام قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت حاسراً فنزلت، وأخرج ابن أبي حاتم عن المنهال ابن عمرو نحوه، وليس في شيء منهما حديث أذان بلال وما بعده.

(٢) في (أ): «الوالدين».

وإذا[١] كان ذلك خوفاً من الفقر فهو أشدُّ؛ لِمَا فيه من سوء الظن بالله تعالى.

وكان ذلك نهياً عن وأد[٢] البنات، وكانوا يفعلونه، قال النبيُّ عليه السلام: «إن الله كَرِه لكم وَأْدَ البنات وعقوقَ الآباء والأمهات»[٣].

وذكَر الأولادَ على العموم ـ مع أن عادتهم كانت في البنات على الخصوص ـ تعريفاً أن البنات أولادٌ[٤] كالبنين، وكان وأدُهم البناتِ لخوف الفقر، فإن البنات عاجزاتٌ عن التكسُّب[٥]، وكانوا يتعيَّشون بالغارات، ويأخذون أموال الناس في المحارَبات، والبناتُ عن ذلك عاجزات، وربما لا يَرْغبُ كفءٌ في البنت فيُضطر إلى تزويجها من غير كفءٍ، فيلحقها العار بذلك، فكانوا يئدون البنات تحرُّزاً عن ذلك، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾؛ أي: فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أي: علينا أرزاق الكلِّ فلا تهتمُّوا لذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن كثير: ﴿خِطاءً﴾ بكسر الخاء ممدودةً مهموزة، وقرأ ابن عامر في رواية ابن مجاهدٍ عن ابن ذكوان: ﴿خَطَأً﴾ بفتح الخاء والطاء والهمزة من غير مدٍّ، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتسكينِ الطاء[٦].

---

(١) في (ف): «وإن».

(٢) في (ف): «قتل».

(٣) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بلفظ: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم عُقُوقَ الأُمَّهاتِ، ومَنْعًا وهاتِ، ووَأْدَ البنات، وكَرِه لكم: قِيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤال، وإضاعةَ المال».

(٤) في (ر): «والأولاد».

(٥) في (أ): «الاكتساب»، وفي (ر): «الكسب».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠).

والخِطْءُ والخَطَأُ مصدر خَطِئَ يَخْطأُ، كالحِذْر والحَذَر، والعِشْق والعَشَق، وقد خَطِئ: أَثِم، وأخطأ: ضدُّ تعمَّد، والخِطْءُ ـ بالكسر ـ لا يكون إلا تعمُّداً، والخطَأُ بالفتح قد يكون عمداً وقد يكون خطأً.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾: والفاحشة: الفعلةُ المتناهيةُ في القبح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾: أي: وما أسوأه وأفسده[1]، والنهي عن القُربان مبالغةٌ في المنع عنه.

* * *

(٣٣) ـ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾: أي: كلُّ نفس عصَمها وحقَن دمَها بالإسلام أو بالعهد فلا تقتلوها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: إلا بحقٍّ يُوجب قتلها؛ كالقصاص، والرجم بعد الإحصان[2]، ونحوِ ذلك، وبيَّن النبيُّ ﷺ ذلك فقال: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلمٍ إلا بإحدى معانٍ[3] ثلاثة: زناً بعد إحصان، وكفرٍ بعد إيمان، وقتلِ نفس بغير حق»[4].

---

(١) في (أ): «وما أسوأه وما أفسده».

(٢) «بعد الإحصان»: ليست في (أ) و(ف).

(٣) كلمة: «معاني»: ليست في المصادر.

(٤) حديث صحيح: رواه أبو داود (٤٥٠٢) والترمذي (٢١٥٨) والنسائي (٤٠٥٧)، وابن ماجه (٢٥٣٣)، من حديث عثمان رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: أي: ولايةَ القصاص، ووليُّه: وارثُه، فإن القصاص موروثٌ بين وارثِيهِ[١] على السهام.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف، وابن مجاهد والنقَّاش عن ابن ذكوان[٢] بتاء المخاطبة جزماً[٣]، وهو نهي للولي خطاباً، وقرأ الباقون بياء المغايبة جزماً، وهو نهيُ مغايبةٍ ويرجع إلى الولي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾: قال قتادة: أي: إن الوليَّ منصورٌ باستيفاء القصاص، وعلى الأئمة والمسلمين نصره بإيفاء حقِّه[٤].

وقال مجاهد: أي: إنَّ المقتول منصورٌ على قاتله، في الدنيا بالقصاص وفي الآخرة بما يجري على قاتله[٥] من العذاب الشديد[٦].

---

(١) في (أ): «ورثته».

(٢) «وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان»: ليست في (أ)، وكلمة: «ابن» ليست في (ف). ولم أقف على ما في هذه العبارة في المصادر. إلا ما جاء في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٧٢)، من نسبة هذه القراءة لمجاهد بخلاف عنه.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٣)، عن حمزة والكسائي وابن عامر، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٤٠٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٤٠)، و«الإقناع في القراءات السبع» لابن الباذش، عن حمزة والكسائي ولم يذكروا ابن عامر، و«المبسوط في القراءات العشر» لأبي بكر النيسابوري (ص: ٢٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧)، عن حمزة والكسائي وخلف. وقال في «البحر المحيط» (١٤/ ٧٢): في نسخة من «تفسير ابن عطية»: (وابن عامر، وهو وهم).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩٨)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٨٨).

(٥) في (ر): «صاحبه».

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩٨)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٨٨).

ومعنى النهي عن الإسراف فيه: ألا يَقتل وليُّ المقتول غيرَ قاتلِ وليِّه، وكان مِن عادةِ العرب قتلُ غيرِ قاتله، والزيادةُ على ذلك بقتلِ النفوس بنفسٍ واحدة.

وقيل: هو مجاوزةُ الحدِّ الذي جُعل في القصاص؛ من الـمُثْلة، وقطعِ الأطراف، ونحوِ ذلك.

وقال النبيُّ ﷺ: «إذا قتلْتُم فأَحْسِنوا القِتلةَ، وإذا ذبحتُم فأَحْسِنوا الذِّبحة»[1]، وعلى هذا قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾؛ أي: القاتل، فإن الله تعالى ينهَى عن قتله بأكثرَ من فعله.

وقيل[2]: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ هو نهي القاصد عن القتل؛ أي: لا يَقتل، فإن نَفْس القتل إسرافٌ، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: أي: بالجهة التي هي أحسنُ؛ أي: أصلحُ وأنفع.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: كمالَ عقله وقوَّته، وهو إذا احتلم أو بلغ بالسنِّ، على ما فسَّرناه في آخر سورة الأنعام.

---

(١) رواه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «فقوله».

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾: أي: بعهد[١] الله، وهي أوامره ونواهيه، ونذورُ العبد وأيمانُه؛ كما قال: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]؛ أي: بعهد الله[٢]، وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾: أي: مطلوباً؛ كما يقال: سألتُه حقِّي؛ أي: طلبته، ولذلك لم يقل: مسؤولاً عنه.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾: أي: سلِّموا ما استُحِقَّ عليكم كيلاً بكيلٍ تامٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾: أي: سلِّموا[٣] ما استُحِقَّ عليكم وزناً على استقامةٍ، والقسطاس: الميزان صغُر أو كبُر؛ قاله الزجَّاج[٤].

وقيل: هو القبَّان، وهو قول الحسن[٥].

وقال مجاهد: هو العدل بالرُّومية[٦]، وكأنَّ القسط أصلٌ ـ وهو العدلُ ـ والباقي مزيدٌ عليه، والمستقيم: المعتدِل.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية حفصٍ بكسر القاف، والباقون بضمِّها[٧]، وهما لغتان.

---

(١) في (أ): «بعهود».

(٢) «أي: بعهد الله» ليست في (أ).

(٣) في (ف): «إذا سلمتم» بدل: «أي: سلموا».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٨).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩١).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٢).

(٧) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: قال قتادة: وأحسنُ ثواباً في العاقبة[١]، وهو مِن آلَ يؤولُ، وهو كقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ أي: في الدنيا، فإنه أمانة، وهو[٢] يوجب الثناءَ والمحمَدةَ ورغبةَ الناس في معاملته، وهو أنفع من كلِّ كسبٍ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ في الآخرة فقد جمع نفع الدارين.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: قال قتادة: أي[٣]: ولا تقُل: سمعتُ، ولم تسمع، ولا: رأيتُ، ولم تَرَ، ولا: علمتُ، ولم تَعلم[٤].

وأصلُ القَفْو: اتِّباع الأثر، وكأنه يتَّبع قفا المتقدِّم، والخطاب للنبيِّ ﷺ والمرادُ جميع أمته.

وقيل: هو النهيُ عما كان عليه المشركون على التقليد من غير علمٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] وقال: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ [ق: ١٥]، ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، وقال: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٣).

(٢) «وهو»: ليست في (أ).

(٣) في (أ): «يعني».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٤).

[القصص: ٥٠]، وقال: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فعلى هذا قوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾؛ أي: لا تتبع في الاعتقاد وتقليدِ مَن لا يَلزمُ تقليدُه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾: قيل: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: كلُّ العباد ﴿كَانَ عَنۡهُ﴾؛ أي: عن قَفْو ما ليس له به علم، وعن استعمال هذه الجوارح فيما استعملها فيه.

وقيل: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: كلُّ هذه الأشياء وهي السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ﴾؛ أي: كان كلُّ واحد منها ﴿عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾؛ أي: عمَّا عمِل صاحبه؛ أي: يُسأل الشهادةَ على ذلك، كما قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآية [يس: ٦٥]، وقال: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ الآية [فصلت: ٢٠]، وقال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآيات [النور: ٢٤].

وقيل: ﴿كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾: عن شكر هذه الأشياء(١).

وقيل: إن العبد مسؤولٌ عما يَكسبه بسمعه وبصره وقلبه من الأمور؛ إذ لله في جميع هذه الجوارح عبادات، حتى لا يجوزُ لهم استعمالها في غيرها، فيُسأل عنها؛ أي: يحاسَب عليها ويجازَى بها.

وقيل: اعتقاد الدِّين يقع بالقلب، والمرءُ مسؤولٌ عنه؛ كما لو أصغى إلى باطل، أو نطق بباطل، أو نظر إلى باطل.

وقيل: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ هو نهيٌ عن قذف المحصَنين والمحصَنات، وكانوا يتهاجَون في الأشعار بالقول في الآباء والأمهات، فنُهوا عن ذلك، وهذا يُروى عن مجاهد وعكرمة.

---

(١) بعدها في (أ): «وقيل عما امتحن به هذه الأشياء».

وفي الخبر: «مَن قَفَا مسلماً بما ليس فيه حبَسه الله تعالى في رَدْغة الخَبَال»(١).

ونفاةُ القياس يتعلَّقون بهذه الآية.

وقلنا: هو طلب العلم بدليله بالأسباب التي جعل الله بها الوصولَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تجوز الإشارة بهذه الكلمة إلى جميع ما لا يَعقل، قال الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعدَ منزلةِ اللِّوَى والعيشَ بعد أولئك الأيام(٢)

***

(٣٧) - ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾: قيل: هو شدة الفرح.

وقيل: هو الخُيَلاء والكِبْر؛ قاله قتادة(٣).

وقيل: الـمَرَح البَطَر والأَشَر.

وقيل: هو تجاوزُ الإنسان قَدْرَه مستخِفًّا بالواجب عليه، وقال(٤) تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال بعده: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، فدلَّ على أنه مشيُ المختال المتكبر.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥٥٤٤) من حديث ابن عمر.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥٩٦)، و«البحر» (١٤/ ٧٧). والبيت لجرير، وهو في «ديوانه» (٢/ ٩٩٠)، وفيه: (أولئك الأقوام).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٨).

(٤) في (ر) و(ف): «قال» بلا واو.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: لن تشُقَّ الأرض بشدةِ مشيك؛ أي: لا تقدر على ذلك ولا يتهيَّأ لك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾: أي: برَفْع رأسك ونصبِ عنقك لن تنال الجبال؛ أي: فليس من أحد إلا وهو يقدر على هذا الضرب من المشي فلا معنى للتكبُّر به[١]، فالتواضع والقصد في المشي أولى، وقد مدح الله تعالى به عباده فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقيل: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: لن تقطعها طولاً وعرضاً حتى تستوفيَ قطعَها، إنما تمشي بقَدْر قوتك الضعيفة، ولا ترتفع إلى الجبال بذلك، فلا تسرع إسراع المختال، ولا حاجة لك إلى ذلك كلِّه، بل سر على هِينتك بقَدْر حاجتك.

وقيل: لا تمشِ مرحاً تتوهَّم أنك تَطولُ كلَّ جبلٍ فتكونُ عالياً عليه، وتخرقُ كلَّ أرض فتكونُ خارجاً عنها، بل كيفما اختَلْتَ فأنت محاطٌ بك[٢] من فوقك وتحتك بشيئين من الجمادات هما خلق الله، وأنت أضعف منهما، والمحاط به مغلوب لأنه كالمحصور، فكأنه قال: تواضَعْ ولا تتكبَّرْ ولا تختَلْ فإنك خلقٌ من خلقِ الله ضعيفٌ محصورٌ بين حجارةٍ وتراب وهؤلاء[٣] فلا تفعل فعل المقتدِر القوي.

* * *

(٣٨) ـ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾: قرأ ابن كثير ونافعٌ وأبو جعفرٍ

---

(١) «به»: زيادة من (أ).

(٢) «بك»: من (أ).

(٣) «وهؤلاء»: من (أ).

وأبو عمرٍو ويعقوبُ: ﴿سيئةً﴾ منوَّناً غيرَ مضاف؛ أي: خصالاً سيئةً، ويرجع إلى المنهيَّات، وقال: ﴿كَانَ﴾ ذهاباً إلى قوله: ﴿كُلُّ﴾ لأنه فرد لفظاً، ولذلك قال: ﴿مَكْرُوهًا﴾ على التوحيد والتذكير.

وقرأ الباقون: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ بالرفع والإضافة إلى السيِّئ منه(١)؛ لأنه سبق ذكر المأمور به والمنهيِّ عنه، فكان القبيح بعضَه لا كلَّه، فكان قوله: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ اسماً لـ﴿كَانَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَكْرُوهًا﴾ خبراً له.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾: أي: جميع ما ذكر فيه من القصص والأمر والنهي وآداب الدين هو مما أوحاه الله تعالى إليك على يدِ جبريلَ لم يأتِ به شيطان؛ كما قال في سورة الشعراء بعد اقتصاصِ كلِّه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، وبيَّن أنه من الحكمة؛ أي: من الأشياء الموضوعة في مواضعها، الموصوفِ معتقِدُها والعاملُ بها بصوابِ الاعتقاد والقول والعمل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أعاد ما بدأ به ـ وهو قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] ـ إعلاماً بعظم محلِّه.

﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾: والملوم: المعنَّفُ على الشيء يفعلُه، والمدحور: المطرود المهان.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾: الخيلاءُ والتبختُر والمرح

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧).

والتكبُّر كلُّ ذلك نتائجُ الغَيبة عن الذكر، والحَجْبة عن شهود الحق، فإن الله تعالى إذا تجلَّى لشيء خشع له، بذلك ورد الخبر[(١)]، فأما في حال حضور القلب واستيلاءِ الذكر وسلطانِ الشهود فالقلبُ مطرِقٌ، وحكمُ الهيبةِ غالبٌ، ونعتُ المدح وصفةُ الزَّهْو وأسبابُ التفرقة كلُّها ساقطة، والناس في الخلاص عن محنةِ[(٢)] التكبر أصنافٌ، وأصحاب الاعتبار إذا عرفوا أنهم مخلوقون من نطفةٍ أمشاجٍ وحاملون في بطونهم ما يحملون ويصيرون في اللحد إلى ما يصيرون، نزَع ذلك عنهم التجبُّرَ والتكبُّر[(٣)]، فأما أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انخناسُ النَّفْس[(٤)].

***

(٤٠) ـ ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

وقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾: استفهام بمعنى التوبيخ؛ أي: أفخصَّكم أيها المشركون ربُّكم بالبنين من الأولاد ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾: اتخذ لنفسه البنات.

وقيل: أَصْفاه[(٥)] بكذا؛ أي: اختار له[(٦)]، واصطفاه: اختار لنفسه، قال تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾

(١) () رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٣٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٨٣) و(١٨٨٥)، وابن ماجه (١٢٦٢)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) في (ر): «محبة» وفي «اللطائف»: (صفة).

(٣) في (ر): «التكبر والتبختر».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٤٨).

(٥) في (ف): «اصطفاه».

(٦) في (أ): «أصفاه تلك أي اختاره».

[النجم: ٢١ ـ ٢٢]؛ أي: جائرة، وقال ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾: أي: كذباً عظيماً، وهذا كما قال: ﴿ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] وعظمته ما قال: ﴿ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ الآية [مريم: ٩٠].

* * *

(٤١) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾: أي: صرَّفنا في هذا القرآن القولَ في بطلانِ ما يقولونه ويعتقدونه؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ [القصص: ٥١] صرَّح بالقول في تلك الآية وأضمره هاهنا.

وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا ﴾؛ أي: ليتَّعظوا وليتذكَّروا بعقولهم قبحَ ذلك وبطلانه فينتهوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾: أي: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ القرآن أو تصريفُ هذا القول فيه ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴾؛ أي: نفرةً وإعراضاً عنه، وإضافة النفور إليه بطريق التسبيب(١)؛ أي: ازدادوا نفوراً عنده كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

ودلت الآية على بطلان قول المعتزلة في الأصلح، فإن تصريف القول لمَّا كان زيادةً للنفور لم يكن صلاحاً لهم، ومع ذلك فعَله الله تعالى.

* * *

(٤٢) ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾.

---

(١) في (ر): «السبب»، وفي (ف): «التسبب».

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾: يتصل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]؛ أي: قل للمشركين: لا تجعلوا مع الله آلهة، فإنه لو كان مع الله آلهةٌ أخرى في الأرض كما تقولون ـ والإلهيةُ تقتضي نفوذَ القدرة وسعةَ السلطان وانتفاءَ العجز ـ لما احتَملت آلهتكم وهي في الأرض أن تكون[1] الغلبةُ لملك السماء، ولكانت تُوجب أن تكون هذه الآلهة تُمانع إله السماء وتنازعُه في سلطانه، وأنتم تعترفون بأنها لا تقدر على منازعةٍ في ملك، ولا على دفعِ ما يَرِدُ عليها من قهرٍ، وهذا خارجٌ عن صفة الإله، وهذا معنى قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾؛ أي: إذاً لطلبوا إلى الله ذي العرش العظيم في السماء سبيلاً لإزالة ملكه ولقهره، وإذا لم تكن آلهتهم هكذا ـ بل هي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تضرُّ ولا تنفع، ولا قدرةَ معها على ردِّ مَن يَروم قهرَها ـ فقد وجب أنها مربوبة مخلوقة.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أي: هو منزَّهٌ عن ذلك وبعيدٌ عنه، أمرٌ للعباد[2] بتنزيهه عما يقول هؤلاء الظالمون.

* * *

(٤٤) ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾: أي: تشهدُ له بالإلهية والوحدانية والتعالي عن الأضداد والأنداد السماواتُ السبع والأرضون وما فيهنَّ من حيوان وجماد؛ لِمَا في كلِّ شيءٍ منها من دلائل الحدوث وآثار صنعِ الصانع.

---

(١) في (ر): «إذ»، وفي (ف): «أن»، وسقطت منهما: «تكون».

(٢) في (ف): «وأمر العباد»، ووقع قبلها في (أ) و(ر) كلمة رسمها: «ومحبه».

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾: أي: وما من شيء إلا ينزِّه الله تعالى بما قلنا ويحمده على نعمه؛ أي: يُظهر وجوبَ الشكر[1] على خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والثناء عليه بما يستحقُّه بذاته وصفاته وأفعاله.

وقوله: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾: هذا خطابٌ للمشركين؛ أي: أنتم لإصراركم على الكفر وإعراضِكم عن التدبُّر في الآيات لا تفقهون هذه الشهادة، وأنتم تستحقُّون العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: ولكنه لا يعاجلُكم بالعقوبة لحِلْمه، ويستر عليكم الذنوب فلا يَهتكُ أستاركم للحال.

وقيل: ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: يغفر لكم إذا آمنتم فلا يعذِّبكم بما كان منكم.

ومنهم مَن حمل هذا التسبيح على النطق به، وهو عندنا جائز على أن يخلق الله تعالى فيها حياة ونطقاً، وقد سبَّح الحصا في يد رسول الله ﷺ معجزةً له[2]، وحنَّ الجذعُ حنين الناقة شوقاً إلى رسول الله عليه السلام[3]، وعلى ذلك تصدُّعُ الجبل من خشية الله تعالى، وهبوط الحجارة من خشية الله تعالى.

وقال أبو الحجاج[4]: حدثني رجل من ولد خبَّاب بن الأرتِّ أن محجنَ رسول الله ﷺ كان في يده فسبَّح، فسمع ذلك القوم فتعجبوا وفزعوا، وقالوا: يا

---

(١) في (أ): «شكره»، وسقطت الجملة من (ف).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١٢٠)، وابن الجوزي في «العلل» (٣٢٧)، وقال: هذا حديث لا يصح. وفيه أنهن سبحن في كف عمر وعثمان أيضاً. وروى ابن الجوزي نحوه في «العلل» (٣٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ونقل عن النسائي قوله: هذا حديث باطل منكر.

(٣) رواه البخاري (٩١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) في (ر): «الجحد»، وفي (ف): «الحجار».

رسول الله! كيف يسبح هذا العود اليابس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ الآية[١].

وقال عطاء: الشجر والنبات تسبِّحن، فإذا قُطعن ترَكْنَ التسبيح؛ لأنهن أحياءٌ ما لم يُقطعن، فإذا قُطعن صرنَ في عداد الأموات.

وقال الحسن: التراب يسبِّح، فإذا لُبِّن ترك التسبيح[٢].

***

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: إن الكفرة كانوا يَمنعون رسولَ الله ﷺ عن تبليغ الرسالة إلى الناس، وقراءةِ ما أَنزل الله عليه من القرآن عليهم، وقد أُمر بتبليغ الرسالة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأَخبر أنه جعل بينه وبين أولئك حجاباً مستوراً، ومكَّنه من التبليغ إليهم بالحجاب الذي ذكر، ثم اختُلف في ذلك الحجاب:

قال بعضهم: شغلَهم في أنفسهم بأمورٍ وأشغال حتى بلَّغ إليهم.

وقيل: أَلقَى في قلوبهم الرعبَ حتى لم يقدروا على منع ذلك.

---

(١) لم أجده.

(٢) لم أقف على هذين القولين عن عطاء والحسن، لكن روى نحو ما جاء فيهما مع زيادة عليه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٤٧) (ط: دار التفسير) من كلام المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه. وفيه: «فإذا ابتل» بدل: «فإذا لبن».

وقيل: صيَّرهم بحيث كانوا لا يرونه، ويستمعون[١] قراءته، ولم يقدروا على إيذائه والإضرار به، فبلَّغهم.

قال: ويجوز أن يكون ما ذُكر من الحجاب هو حجابُ الفَهْم، وذلك أنهم كانوا ينظرون إليه بالاستخفاف له والاستهزاء به فحُجبوا عن الفهم، وهو كقوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ويدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قيل: معناه: ساتراً؛ كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]؛ أي: آتياً.

وقيل: أي: مستوراً به، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ أي: مسئولاً عنه، فحذف الصلة عنه هاهنا وهو (عن)، وفي الأول حُذفت الصلة وهي الباء.

وقيل: معناه: مستوراً عن أعين الخلق لا يَرونه، وكذلك مأتيًّا هو على حقيقته؛ لأن ما أتاك فقد أتيتَه.

* * *

(٤٦) ـ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾: أي: أغطيةً، جمع كِنَان؛ أي: غطاءٍ.

---

(١) في (أ) و(ر): «ولا يسمعون»، والمثبت من (ف) و«التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٥٤).

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: لئلا يفقهوه[١].

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾: أي: ثقلاً، ودل ذلك أن أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى، وأن الطاعات والمعاصيَ كلَّها بمشيئة الله، وإنما فعل الله ذلك في حقِّ مَن عَلِم منه اختيارَ الكفر كما مرَّ شرحُه مرات.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾: أي: وإذا قرأت عليهم[٢] ما فيه ذكرُ التوحيد وذمُّ الشرك أعرضوا نافرِين عنك مفارِقين مجلسَك، والنُّفور: جمع نافر، كالقُعود جمعُ قاعد.

وقيل: هو مصدر، وذُكِر تأكيداً لقوله: ﴿وَلَّوۡاْ﴾، وتقديره: ولَّوا توليةً، وقد يؤكَّد الفعل بالمصدر من خلافِ لفظه، قال القَطَامي:

ألَم يَحْزُنْكَ أن جبالَ قيسٍ ... وتغلبَ قد تبايَنَتِ انْقِطاعاً[٣]

وتقديره: تبايَنَتْ تبايُناً.

* * *

(٤٧) ـ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «أي لا يفهموه».

(٢) في (أ): «ذكرت» بدل من «قرأت عليهم».

(٣) البيت في «تفسير الطبري» (١٨/ ٤٣٤)، و«الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (ص: ٥٠٤). وهو من قصيدة في مدح زفر بن الحارِث الكلابي، وكان بنو أَسد أسروا القطامي يوم الخابور وأرادوا قتله، فحال زفر بينه وبينهم وحماه ومنعه وحمله وكساه وأعطاه مئة ناقة. انظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ٣٦٨).

وقولـه تعالـى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: قيل: أي: يسـتمعون إليـه، وحروف الأدوات تتناوب.

وقيل: الباء بيانُ السبب؛ أي: نحن أعلم بالسَّبب الداعي لهم إلى الاستماع.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: أي: حيـن يسـتمعون إليـك ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾؛ أي: وهـم متناجـون بالطعـن فـي القـرآن، مصدر يـراد به نعـتُ الجمع قـد اشـتغلوا بتناجيهم عـن الإنصـات والتدبُّر.

ثم بيَّن تناجيَهُم، وهو قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي: المشركون الواضعون الشيءَ في[1] غير موضعه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾: أي: ما تُظهرون الاستماع، فسمِّي إظهارهم الإصغاءَ إليه اتِّباعاً.

﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾: مخدوعاً مغلوباً على عقله يأتيه الشيطان فيخدعه فيظنُّه ملَكاً.

قال قتادة: نجواهم: أنْ زعموا أنه مجنونٌ وأنه ساحرٌ وأنه آتٍ بأساطير الأولين[2]، وكان منهم الوليدُ بن المغيرة.

والمسحور قيل: هو المخدوع.

وقيل: هو الذي عُمل به السحرُ واختَلط عليه أمرُه.

وقيل: أرادوا أن له سَحْراً ـ بفتح السين؛ أي: الرئة ـ يعنون أنه لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو بشرٌ مثلكم ليس بملك.

* * *

---

(١) «في»: ليست في (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦١٢).

(٤٨) ـ ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: أي: العجبُ منهم كيف وضعوا لك الأشباه والأوصاف يُسمُّونك بكلِّ اسم سوء.

﴿فَضَلُّوا﴾ سبيلَ الاحتيال عليك، وتحيَّروا في وجه[1] صدِّ الناس عنك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: فما يجدون إلى شيءٍ من ذلك سبيلاً.

وقيل في نزوله: إن النبيَّ ﷺ أمر عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتخذ لأبي جهل، وأبي البَخْتري بن عمرو بن هشام، وزمعةَ بنِ الأسود، وحويطبِ بن عبد العزَّى ـ لعنهم الله تعالى ـ طعاماً فيدعوَهم إليه، ففعل، فدخل عليهم رسول الله ﷺ فقال: «قولوا: لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتَدينَ لكم العجم»، فخرجوا، فقال النضر بن الحارث: ما أرى محمداً يقول شيئاً إلا أنه يحرك شفتيه. فقال أبو جهل لعنه الله: هو مجنون، وقال حُويطبٌ: هو كاهن، وقال زمعةُ: هو شاعر، ثم أتوا الوليد بن المغيرة فشاوَروه في أمره، فقال: هو ساحر، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[2] حين تدعوهم إلى الشهادة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي: وإذ هم متناجون إليك.

وقيل: (إذ) للحين، وهما حينان لأمرين مختلفَين: الاستماع إذا حضروا، والتَّناجي إذا تفرَّقوا.

***

(٤٩) ـ ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

---

(١) في (أ): «وجوه».

(٢) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (٢/ ٣١٤) عن الكلبي دون ذكر علي رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾: قال مجاهد: (رفاتاً): تراباً[١]، وفي اللغة: هو الحطام، وهو ما يُحْطَم من الشيء؛ أي: يُكسر، وقد رَفَتَ يَرْفِتُ رَفْتاً من باب ضرب؛ أي: كَسَر، وأراد به: رميماً، وهذا مما تناجوا به، قالوا: أئذا متنا وكنا عظاماً ورفاتاً وتراباً[٢] تحت الأرض نبعث خلقاً جديداً كما نحن عليه الآن؟! وهذا استفهامٌ بمعنى الاستبعاد؛ أي: إنَّ هذا لا يكون.

***

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾: أي: عرِّفهم أنهم لا يُعْجزونني وإن صاروا عظاماً أو رفاتاً، أو لو كانوا حجارةً أو حديداً، أو خلقاً أشدَّ من خلق البشر وأصلبَ، وأبعدَ من أن يمكنَ تفرُّقُه على[٣] الأحوال المختلفة من الإعدام والإيجاد والإبقاء والإفناء مثل الحديدِ والحجارةِ[٤] أو غيرِهما مما يَكبر في صدوركم تغييرُه عن هيأته[٥]؛ أي: يَعْظم ويَسْتكبِر مثلَ السماوات والأرض والجبال ونحوها؛ أي: لو كنتُم في نهاية القوة والامتناع من نيل العباد لكم لم تعجزوني.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦١٤).

(٢) في (ر): «وكنا تراباً»، وفي (ف): «وكنا عظاماً وتراباً».

(٣) في (أ): «تصريفه عن» بدل: «تفرقه على».

(٤) في (ر): «مثلًا كحديد أو كحجارة»، وفي (ف): «مثلا الحديد أو الحجارة».

(٥) «عن هيأته»: سقط من (أ).

وطريق هذا الكلام طريقُ قولِ الرجل إذا عزم على قهر إنسان فقيل له: كيف تقهره على قوته وصلابته؟ فيقول: قل له كن حديداً أو حجراً؛ أي: فإني لا أبالي به بل أقهرُه وأصل إلى غرضي فيه.

وقال مقاتل: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾ في القوة ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾ في الشدة ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾[١].

وقال مجاهد: الجبال[٢].

وقال ابن عباس ومقاتل والضحاك والحسن رضي الله عنهم: الموت[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾: أي: مَن الذي يفعل بنا هذا؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: خلقكم وأنشأكم، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: أي: فسيحرِّكون رؤوسهم[٤] فعلَ المستبعِد[٥] للشيء والمتعجِّب منه، والإنغاض: التحريك، والنَّغَضان: التحرُّك، من حدِّ ضرب، والنَّغْضُ: الظَّليم؛ لتحريكه رأسَه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾: أي: البعث ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾؛ أي: لن تطولَ مدةُ كونه ولا تبعد بل هو قريب؛ لأن كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٣٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٧٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٠٥) بلفظ: (السماء والأرض والجبال).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٧٤) عن سعيد بن جبير، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦١٦ ـ ٦١٧) عن ابن عباس وابن عمر وأبي صالح والحسن وسعيد بن جبير والضحاك.

(٤) «فسيحركون رؤوسهم»: من (أ).

(٥) في (أ): «المستبدع».

(٥٢) ـ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾: أي: يُعيدكم خلقاً جديداً يوم[١] يدعوكم.

قيل: يدعو إسرافيلُ بأمره، فيقول في نفخ الصور: أيتها اللحومُ المتفرِّقة[٢]، وأيتها الأوصال البالية، وأيتها العظام النَّخِرة، وأيتها العروق المتمزِّقة، وأيتها الشعور المتبدِّدة، قوموا إلى محاسبةِ ربِّ العالمين؛ قاله قتادة[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾: أي: تُبعثون قائلين: سبحان الله وبحمده.

وقيل: يدعوكم للمحاسبة فتسعَون إليه قائلين ذلك.

وقيل: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾؛ أي: يبعثكم ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ أي: لا تمتنِعون على الله بل تحيَوْن[٤] بإحيائه معترِفين بما كنتُم عليه من الباطل، حامِدينَ لله بالثناء عليه بالقدرة على ما يشاء، وبإنعامه عليكم بخلقكم وتركيبِ العقول فيكم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: أي: ما لبثتُم، وهو كقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾[الكهف:١٩]، وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال الحسن: كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزَل[٥].

---

(١) في (ف): «ثم».

(٢) في (ر) و(ف): «المتمزقة».

(٣) لم أجده.

(٤) في (ف): «تجيبون».

(٥) سيأتي بنحوه.

وقيل: لِمَا يرون من سرعة الرجوع يظنُّون قلة اللَّبْث في القبور.

وقال قتادة: هو احتقار أمر الدنيا حين عايَنوا يوم القيامة[١].

وقال الحسن: إن لبثتم إلا قليلاً في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة[٢].

***

(٥٣) ـ ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: أي[٣]: قل يا محمد لعبادي ـ أي: المؤمنين ـ يقولوا للكفار إذا حاجوهم في إثبات التوحيد وإثبات البعثِ التي هي أحسنُ؛ أي: الكلمةَ التي هي أحسنُ، أو المقالةَ التي هي أحسن، وهو كقوله: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: لا تخرجوا في المجادلة إلى السفاهة، بل قولوا كما قلتُ في ردهم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ وقلتُ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: أي: يُغري بين المؤمنين وبين المشركين، فيعارض المشركون المؤمنين بالكلام السيِّئ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: أي: مُعادياً قديمَ العداوة[٤] للناس مؤمنِهم وكافرِهم، فهو يُغري بعضَهم ببعضٍ ثم يتبرأ منهم؛ كما قال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٢٣).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٤٩)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٦٤).

(٣) قبلها في (ف): «قيل».

(٤) في (أ): «المعاداة».

(٥٤) ـ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾: أي: لا يخفَى عليه شيءٌ من ظواهركم وبواطنكم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾: إن تبتُم رَحِمَكم ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾: إنْ أصرَرْتُم على كفركم عذَّبكم في النار أبداً.

وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾: عاد الكلام إلى خطاب رسول الله ﷺ، فقد بدأ بقوله: ﴿ وَقُل ﴾ وهو خطابٌ له، يقول: عليك بتبليغ هذا، وليس عليك هداهم، ولا أنت قادرٌ على أن تحمِلهم على الإيمان والإجابة.

وقيل: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ هم عبادُ الخِلقة، وهم الكفار ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾: كلمةَ التوحيد ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يحملُهم على الشرك ويُغري بينهم وبين المؤمنين بالعداوة ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ فإنْ علم منكم توبةً باستماعكم مواعظَ الله وعملِكم بها[1] رَحِمَكم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ مسلَّطاً مكرِهاً على الإيمان، إنما عليك الإنذار.

وقيل: هو خطابُ المؤمنين، وقولُ الأحسن: هو الكلام الحسن إذا أُوذوا؛ كما قال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]، ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه رجل من العرب فنزلت هذه الآية، وأمره الله تعالى فيها بالعفو والصفح[2].

* * *

(١) «بها»: زيادة من (أ).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٠٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (١/ ٢٨٨).

(٥٥) ـ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾: يعني[1]: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والبشر، لا يختار منهم أحداً إلا على علمٍ به وأهليَّتِه لِمَا اختيرَ له، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: إنْ أنكر هؤلاء المشركون اختصاصَ الله إياك بالنبوة فعرِّفهم أن الله فضَّل بعضَ الأنبياء على بعضٍ فيما آتاهم من الآيات، وأجرى على أيديهم من المعجزات، وعرَّفهم أنه فضَّلك على جميع الأنبياء بما آتاك من الآية الباقية إلى قيام الساعة وهي القرآنُ المعجِزُ، وإن حاجَّك اليهود بأنْ لا كتاب بعد التوراة فعرِّفهم أن الله تعالى قد آتى داودَ زبوراً بعد موسى فبطَلت دعواهم.

***

(٥٦) ـ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾: أي: ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ٱدْعُوا۟﴾؛ أي: دعاء المسألة والاستعانة ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾؛ أي: الآلهةَ الذين قلتُم ظنًّا وكذباً إنهم آلهةٌ وهم الملائكة، وسَلُوهم كشفَ الضر عنكم، ﴿فَـ﴾إنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ إجابةَ دعائكم ولا ﴿ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ وهو إزالتُه لا إلى أحد، ولا تحويله؛ أي: نقله عنكم إلى غيركم من مستحقِّيه، وكانوا لا يَدْعون لكشف الضرِّ عنهم غيرَ الله، قال تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١] فكان قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ﴾ أمر تقريع وتوبيخ.

---

(١) في (أ): «أي».

(٥٧) ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾: أي: الملائكةُ(١) الذين يسمُّونهم هؤلاء آلهةً، وهذا دعاءُ تسمية.

وقوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾: أي: هؤلاء الملائكةُ يتبادرون إلى طلب القُربة إلى الله تعالى، ويجتهدون في العبادة له طلباً لفضل الدرجة على غيرهم ينظرون ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ درجةً(٢) إلى الله ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾؛ أي: طاعته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ أي: إنْ عَصَوه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾: يعلمون(٣) أن عذاب الله مما ينبغي أن يحذَره كلُّ مكلَّف نبيًّا كان أو ملَكاً أو غيرَ ذلك، وإذا كان الملائكة كذلك فكيف تكون(٤) آلهةً؟ وأنتم معاشرَ المشركين أحقُّ بأن تحذَروا عذابي بمخالفتي وتكذيبِ رسولي.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ يعني: عيسى وأمَّه وعُزيراً(٥).

وقال الضحاك وعطاء: يعني: الملائكةَ(٦).

---

(١) في (أ): «أي هؤلاء الملائكة».

(٢) في (أ): «منزلة».

(٣) في (ف): «يعني».

(٤) في (أ): «يكونون».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣٠ ـ ٦٣١).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣٠) عن ابن مسعود وابن زيد.

وقيل: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ يعني: ما أصابكم من القحط سبعَ سنين.

وقال القشيري رحمه الله: يعني: إذا كانوا هم يرجُون ويخافون فكيف يَدفعون عنكم؟

قال: ويقال في المثل: تعلُّقُ الخَلْق بالخَلْق كتعلُّقِ المسجون بالمسجون، والفقيرُ إذا انضم إلى الفقير ازدادت الفاقة، والضريرُ إذا قاد الضرير سقطا جميعاً في البئر، وفي معناه أنشدوا:

إذا الْتَقى في حَدَبٍ واحدٍ ... سبعون أعمى بمقاديرِ
وصيَّروا بعضَهم قائداً ... فكلُّهم يسقط في البير[1]

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: من أهل بلدةٍ ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بكفرها وإصرارها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بما دون الاستئصال ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾: أي: في اللوح المحفوظ.

يجوز أن يكون انتظامُها بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ فلْيَحذَرْه المشركون، فليست من قريةٍ إلا وأهلُها مستحقُّون ـ بكفرهم[2] ـ استئصالي أو تعذيبي بما دون ذلك من قِبَل أكابرهم، وتسليطِ المؤمنين عليهم يَسْبونهم ويغتنمون أموالهم، أو يعتصمُ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٥٤).

(٢) في (ر) و(ف): «لكفرهم».

الكفار بالذمة فيؤدون الجزية. وقد[١] قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] قيل: هو القهر وأخذُ الجزية.

ويجوز أن يكون انتظامها بقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾؛ أي: بالسيف والزلازل[٢].

وقال مقاتل: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أمَّا الصالحةُ فبالموت، وأمَّا الطالحةُ فبالعذاب[٣].

وقال الحسن: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾: هو الموت الذريع[٤].

وعن مقاتل بن سليمان قال: قرأتُ في كتب الضحاك بن مزاحم بعد موته ـ وهي الكتب المخزونةُ عنده ـ في قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ الآية، قال: يقول: ما مِن قرية إلا يحلُّ بها العذاب قبل يوم القيامة، فأما أمُّ القرى فيخرِّبها الحبَش فذلك عذابها، وأما المدينةُ فبالجوع، وأما البصرةُ فبالغرق، وأما الكوفة فبالتُّرك، وأما الجبال فبالصواعق والرواجف، وأما خراسان فتخرَّب بأصناف العذاب، وأما مدينةُ بَلْخَ فتصيبهم هدَّةٌ ثم يغلب عليها

---

(١) «قد»: من (أ).

(٢) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣١٧).

(٣) في (ر) و(ف): «إما صالحة فالموت وإما طالحة فبالعذاب». وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٣٧).

(٤) بعدها في (ر) و(ف): «السريع»: وليست في (أ) والمصادر. وهذا الخبر رواه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥١٨) و(١٥٧٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٨)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠٨) عزوه لسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر، جميعهم رووه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

الماءُ فيُهلك أهلَها، وأما بَذَخْشان[1] فيُبعث عليها أقوام يخربونها ويتركونها كجوف الحمار الميت يتأذى الناس بالنَّتْن من موتهم، وأما مدينةُ خُلم[2] فإنه يصير عاليها سافلَها، وأما تِرْمِذُ فإن أهلها يموتون بالطاعون، وأما الصَّغَانيان[3] إلى واشَجَرْدَ[4] فيُقتلون بقتلٍ ذريعٍ ويغلب عليها، وأما سمرقندُ فإنه يَغلب على مدينتهم بنو قنطوراء فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً، وكذلك فَرْغانةُ والشَّاش وأَسْبِيجابُ وخَوَارزمُ، فيصير في هذه المدن من النَّتْن شيء كأنها جيفةُ حمار، وأما بخارى فهي أرض الجبابرة، فيصيبهم من الغرق نحوُ ما يصيب أرض خوارزم يموتون قحطاً وجوعاً، وأما مدينة

---

(١) في (ف): «بدخسان»، وفي (ر): «مدينة حسان». والصواب المثبت، وبذخشان بفتحتين والخاء معجمة ساكنة وشين معجمة محركة وألف ونون، والعامة يسمونها بلخشان باللام، وهو الموضع الذي فيه معدن البلخش المقاوم للياقوت، وهي بلدة في أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك بينها وبين بلخ ثلاث عشرة مرحلة ومثلها بينها وبين ترمذ، وبها حصن عجيب من بنائها قلَّ ما رأى الناس مثله. انظر: «معجم البلدان» (١/ ٣٦٠).

(٢) في (ر): «حلم»، وفي (ف): «جلم». والصواب المثبت، وخُلم بضم أوله وتسكين ثانيه بلدة بنواحي بلخ على عشرة فراسخ منها، وهي بلاد للعرب نزلها الأسد وبنو تميم وقيس أيام الفتوح، وهي مدينة صغيرة ذات قرى وبساتين ورساتيق وشعاب وزروعها كثيرة. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٣٨٥).

(٣) صغانيان بالفتح وبعد الألف نون ثم ياء مثناة من تحت وآخره نون، والعجم يبدلون الصاد جيماً فيقولون: جغانيان، ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٤٠٩).

(٤) في (ف): «وادي اشجرد»، وفي (ر): «وادي استجرد». والصواب المثبت، وواشجرد بالشين المفتوحة والجيم وراءٍ ساكنة ودال مهملة من قرى ما وراء النهر، وهي مدينة نحو الترمذ وشومان أصغر منها، ويرتفع من واشجرد وشومان إلى قرب الصغانيان زعفران كثير يحمل إلى سائر الآفاق. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٣٥٣).

مَرْوَ[١] فإنه يَغلب عليها الرملُ ويُهلِك بها العبَّادَ والعلماء، وأما مدينة هَرَاةَ فإنهم يُمطَرون بالحيات فتأكلهم أكلاً وتقتلهم قتلاً، وأما مدينة نَيْسابورَ فيصيب أهلها رعدٌ وبرق وظُلمةٌ فيَهلِكُ أكثرهم، وأما مدينة الرَّيِّ فيغلب عليها الطَّبريَّةُ والدَّيلمية[٢] مرةً هؤلاء ومرةً هؤلاء فيقتلونهم قتلاً، وأمَّا أرمينيةُ وأذربيجانُ فتهلكهما سنابكُ الخيول والجيوشِ والصواعقُ والرواجفُ، وأما مدينة هَمَذانَ فالدَّيلم يدخلها ويخربها فلا همدان بعد[٣]، وأما حلوانُ فتمرُّ بها ريحٌ ساكنةٌ وهم نيامٌ فيصبح أهلها قردةً وخنازير، وأما الكُوفان[٤] فإنه يقصدها رجل يقال له: عنبسة، من بني أبي سفيان[٥]، فيأخذ جاريةً شابةً من آل فلان[٦] وشابًّا فيقتلهما ويَنصبهما للناس، ويقول: هذا علي بن أبي طالب وهذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم يَخرج رجل من جُهينةَ يقال له: ناجية، يدخل إلى مصر، فويلٌ لأهل مصر، وويلٌ لأهل دمشق، وويلٌ لأهل إفريقية، وويلٌ لأهل الرَّمْلة، ولا يدخل بيتَ المقدس يمنعه الله تعالى بحوله وقوَّته، وأما أهلُ سِجِسْتان فتُصيبهم ريحٌ عاصفٌ أياماً ثم هدَّةٌ تأتيهم تتصدَّع منها الجبال، ويموت فيها علماءُ كثيرٌ، وأما كَرمانُ وأصبهانُ وفارسُ فيأتيهم عدوٌّ إذا قربوا منهم

(١) في (ف): «تعز».

(٢) في (ر): «والديلمة».

(٣) «فلا همدان بعد» ليس من (ف).

(٤) في (أ): «أهل الكوفان»، وفي (ر) و(ف): «أهل الكوفة». والصواب المثبت. انظر: «البدء والتاريخ» لابن طاهر المقدسي (٤/ ١٠٣). وكوفان بضم الكاف ثم واو ساكنة: موضعان أحدهما: اسم للكوفة، والآخر قرية بهراة. انظر: «مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين القطيعي (٣/ ١١٨٧). قلت: والظاهر أن المراد هنا هو الذي بهراة؛ لأن الكوفة تقدم ذكرها في أول الخبر.

(٥) في «البدء والتاريخ»: وأمّا الكوفان فيخرّبها رجل من آل عنبسة بن أبي سفيان، يعني: السفياني.

(٦) في (ر) و(ف): «جارية حسناء».

صاحوا صيحةً تنخلعُ منها القلوب وتموت الأبدان، فذلك قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[١].

***

(٥٩) - ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾: المنع: وجودُ ما يَتعذَّر به وجودُ الفعل من القادر، ولا يجوز ذلك على التحقيق في صفةِ الله تعالى، ولكنْ إطلاقُه هاهنا للمبالغة في أنه لا يقع منه هذا الفعل كما لا يقع من الممنوع، ومعناه: إنَّا لم نرسلْ الآيات لئلا يكذِّبَ بها هؤلاء كما كذَّب مَن قبلَهم فيستحقُّوا عذاب الاستئصال.

وقيل: لمَّا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ قالوا: إنه أَرسل الرسل وآتاهم الآيات، فآتى صالحاً الناقة، فآتنا أنت بمثْلِ تلك الآية، ومثلِ فَلْقِ البحر لموسى، فقال[٢] الله تعالى: وما منعنا أن نرسل بهذه الآيات المقترَحة إلا أن الأوَّلين من الأمم لمَّا كذَّبوا بالآيات التي سألوها فأُعطُوها كان حُكمي فيهم الاستئصالَ؛ لأنهم صاروا مكابِرين معاندين، وما كانوا بالسؤال مسترشِدين، وهكذا حُكمي في هؤلاء أنِّي أستأصلُهم لو كذَّبوا بها - إذا أتتهم - لعنادهم، وقد علمتُ أنهم

(١) انظر: «البدء والتاريخ» للمطهر بن طاهر المقدسي (٤/ ١٠٣)، و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٦٧٤)، و«مدارك التنزيل» لأبي البركات النسفي (٢/ ٢٦٣). والزمخشري اقتصر على أوله وأشار إلى تمامه بقوله: (ثم ذكرها بلداً بلداً في الكتاب في اللوح المحفوظ). وفي المصدرين الآخرين بعض اختلاف عما هنا أو زيادة ونقصان.

(٢) في (أ): «وأنزل».

يكذِّبون[1]، وقد وَعدتُ محمداً فضلاً ورحمةً ألا أعذِّب هؤلاء عذابَ هؤلاء؛ أي: عذابُ الاستئصال[2] يكون لقومٍ أعلمُ أنه لا يؤمن منهم أحد كقوم نوح، وهؤلاء يكون مِن نسلهم مَن يؤمن فلن أستأصلهم، وحُكمي الاستئصال فيمَن يكذِّب بالآية المقترحة، فلم أُعطهم ذلك ولم أُخْلِهم عن الآيات الكبيرة التي لا تُوجب الاستئصال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: والآيةُ التي التمَسوها مثلَ آية ثمود قد آتيناها ثمودَ واضحةً بيِّنة يشاهدونها[3] معجزةً، ثم كفرت ثمودُ بها فاستحَقُّوا الاستئصال، فكيف يتمنَّاها هؤلاء على سبيل الاستقراح؟

وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: جحدوا بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ أي: وكلُّ آيةٍ نُرسل بها نبيًّا ـ أيِّ آية كانت ـ فإنما هي منَّا[4] تخويفٌ بالعذاب لمن يكذِّب بها.

وقيل: ﴿وما نُرْسِلُ بـ﴾هذه ﴿الآياتِ﴾ التي نُجريها على يديك يا محمد ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لهم ليؤمنوا.

وقيل: وما نُظهر الآياتِ من كسوف الشمس والقمر ونحوِهما إلا تنبيهاً للناس، وتحذيراً عن العذاب، وتحريضاً على التوبة.

* * *

---

(١) في (ف): «منهم يكذبون» وفي (ر): «منهم مكذبون».

(٢) في (أ): «ألا أعذب هؤلاء عذاب الاستئصال وكذا عذاب الاستئصال»، وفي (ف): «ألا أعذب هؤلاء عذاب هؤلاء عذاب استئصال».

(٣) في (ر) و(ف): «شاهدوها».

(٤) في (ف): «قائمة هي هاهنا» وفي (ر): «قائمة هي عندنا»، بدل: «فإنما هي منا».

(٦٠) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾: وهو ينتظِم بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ أي: نرسل معك الآيات، ومنها: أنَّا ﴿قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾؛ أي: وعدناك بالعصمة من الناس وهذا تخويفٌ لهم(١)، وكذا المعراجُ(٢) وما ذكرنا في القرآن من كون شجرة الزقوم في النار كان ذلك فتنةً لهم، وفيها تخويفٌ، وكذلك قال في آخر(٣) هذه الآية: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾، فهذا وجه انتظام بعضها ببعض.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ له تأويلان:

أحدهما: علِم بمكر الناس في حقِّك؛ كما قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]؛ أي: عالماً، وقال: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

والثاني: أنه غالب لهم قادرٌ عليهم؛ كما قال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، فمعناه: أنه يَعصمك من كلِّ همٍّ، ويَقهرُهم ويجعلهم تحت يدك واستيلائك بقتلك بعضَهم ودخولِ بعضهم في الإسلام، لينشِّطه بذلك على تبليغ الوحي والصبرِ على أذاهم حتى يأتيَ وعد الله، فكان هو يُظهر لهم ذلك، وعلى مرور الزمان يتحقَّق لهم(٤) ذلك، فكان تخويفاً لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾: وهذه آيةٌ أخرى: وهي مما افتَتح بها هذه السورةَ، وهي قصة المعراج، وهذه رؤيةُ عينٍ وإن ذكرت

---

(١) في (ر) و(ف): «تخويف بها».

(٢) في (ر) و(ف): «المعجزات».

(٣) في (أ): «ولذلك قال في آخر» وفي (ف): «وكذلك قال في» وفي (ر): «وكذلك في».

(٤) «لهم»: من (أ).

بلفظةِ ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾؛ لأنها كانت بالليل، فسمِّيت رؤيا وإن كانت بالعين؛ كما يقال: بات فلان يفعل بكذا، إذا فعَله ليلاً، فسمِّي ما يفعله ليلاً بيتوتةً وإن لم يكن ذلك نوماً، فكذلك سُمي ما رآه من الآيات بالعين ليلاً رؤيا.

ويدلُّ على أنه كذلك: أن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومسروقاً وأنس بن مالك[1] وإبراهيم النخعي وقتادة ومجاهداً ورجالاً غيرَهم تأوَّلوا الآية على أنها كانت رؤيةَ عينٍ[2]، وهم أرباب اللسان.

وقال قائلون: إن الرؤيا المذكورة في هذه الآية هي الرؤيا المذكورة في قوله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، وكان أَخبر رسولَه حين أَراه هذه أنها تكون فتنةً على قومه، وكان كذلك حين قصد مكة فصدَّه عنها المشركون، فصالحهم فافتُتن بذلك قوم حتى قالوا: ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟! حتى قال عمر رضي الله عنه: أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّا نأتي البيتَ فنطوفُ به؟ فقال له أبو بكر رضي الله عنه: بلى، ولكن هل وعدك في هذا العام[3]؟ فقال: لا، فقال: إنك ستأتيه وستطوفُ به، وإنه رسول الله وإنه يفعل ما يُؤمر به[4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾: أي: جعَل ذلك فتنةً أيضاً، فإنه لمَّا

---

(١) في (أ): «ومسروقا وأبا مالك».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤١ ـ ٦٤٥). وقول ابن عباس عند البخاري (٣٨٨٨) و(٤٧١٦).

(٣) في (أ): «المقام».

(٤) تفسير الآية بقصة الحديبية رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما دون كلام عمر وقصته عمر مع أبي بكر، وهذه قطعة من حديث صلح الحديبية الطويل الذي رواه البخاري (٢٧٣١) عن مروان بن الحكم ومسور بن مخرمة.

نزل قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٤] قالوا: كيف يكون في النار شجرةٌ والنارُ تأكل الشجر[(١)]؟

وسماها ملعونةً على تقدير: والشجرةَ الملعونةَ الأُكُل، فحُذف المضاف إليه لوضوح المراد، كما في قوله: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]؛ أي: عاصفِ الريح؛ أي: ولأن عادة الناس أنهم إذا نادَوا بشيء سمَّوه ملعوناً على معنى الشتم والذمِّ له وطلبِ البعد منه، فيقولون: لعنك الله؛ أي: بعَّدك الله عنا وأراحنا منك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا نزل قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٢] جمع أبو جهل لعنه الله رجال قريش فقال لهم: ألا ترونَ إلى[(٢)] محمد يزعم أن النار تُنبت الشجر! وأنتم تعلمون أن النار تحرق الشجر، ويخوِّفنا بالزقوم فما تقولون في الزقوم؟ فقال عبد الله بن الزِّبَعرى: إنها الزُّبد والتمر بلغة بربر، فقال أبو جهل لعنه الله: يا جارية زقِّمينا، فأتت بالزُّبد والتمر فقال: تزقَّموا فإن محمداً يخوِّفكم بها، فنزل قوله في صفتها: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦][(٣)].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٨٥) عن قتادة، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٨ و٦٥١) عن الحسن وقتادة.

(٢) في (أ): «أن».

(٣) رواه بنحوه عن ابن عباس الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٨)، وإسناده ضعيف، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٠) عن قتادة. وذكره باللفظ أعلاه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٦) دون عزو. وجاء عن ابن عباس عند الإمام أحمد في «المسند» (٣٥٤٦) بإسناد صحيح: (وقال أبو جهلٍ: يُخَوِّفُنا محمد بشجرة الزَّقُّوم، هاتوا تَمْرًا وزُبْدًا فتزَقَّموا).

وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾: أي: عتوًّا عظيماً ومجاوزةً للحد، وإضافةُ الزيادة في الطغيان إلى التخويف كإضافة النفور إلى القرآن كما مر.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾؛ أي: المذكورةَ في القرآن؛ كقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]؛ أي: هي مذكورةٌ في كتاب.

* * *

(٦١) - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: هو متصلٌ بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]؛ أي: قد أُمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا هو:

﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: استفهام بمعنى الإنكار؛ أي: لا أسجد لمن خلقتَ طيناً؛ أي: قدَّرْتَه وهو طينٌ ليكون إنساناً إذا نفختَ فيه الروح فصيَّرْتَه لحماً ودماً وكذا وكذا.

* * *

(٦٢) - ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: أي: أخبرني لمَ فضَّلتَ هذا عليَّ؟ ولمَ جعلتَه أكرم عليك(١) مني؟

---

(١) «عليك» ليست في (أ).

و(أرأيتَ) لفظةُ استفهامٍ على معنى: أخبِرْني عنك، والكاف خطاب، وقد كشفنا عن حقيقته في سورة الأنعام.

وقيل هاهنا: فعلُ الإراءة واقع على شيئين: الكاف و﴿هَٰذَا﴾.

وقيل: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ كلمة تامة منفصلةٌ عما بعدها لِمَا وُضعَتْ له، و﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ مبتدأ، وما بعده خبرُه(١).

وقيل: طريق هذا طريقُ الرجل يقول لآخر: أترى هذا لأفعلن به كذا وكذا.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي: لأستأصلنَّ؛ يقال: احتَنَك الجراد الزرعَ(٢): إذا أكله كلَّه واستأصله، واحتنكت السَّنةُ أموال الناس: إذا(٣) أذهبتْها كلَّها؛ قال الشاعر:

نشكو إليك سنةً قد أَجْحَفَتْ ... جَهْداً إلى جهدٍ بنا فأَضْعَفتْ(٤)

واحتَنَكتْ أموالَنا وجلَّفت(٥)

---

(١) في (أ): «خبر له».

(٢) في (ف): «احتنك الحرث والزرع» وفي (ر): «لا احتنك الجراد والزرع».

(٣) في (ر) و(ف): «أي».

(٤) في (ف): «جهدتنا وأصيفت» بدل: «جهد بنا فأضعفت».

(٥) الرجز في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٤)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٦٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٤٩). وقال الأستاذ محمود شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري»: هذه أبيات ثلاثة من مشطور الرجز، من الأرجوزة السادسة في بقية «ديوان الزفيان السعدي» (عطاء بن أسيد الراجز)، وهي ملحقة بـ«ديوان العجاج» المطبوع في ليبزج سنة (١٩٠٣) (ص: ٦٥)، مع اختلاف في رواية بعضها. ومعنى أجحفت: أضرت بنا، وذهبت أموالنا، فلقينا من شدتها جهداً إلى جهد. ومعنى جلفت: قشرت، أو قشر الجلد مع شيء من اللحم. والأبيات شاهد على أن الاحتناك معناه الاستئصال.

وقيل: لأقودنهم إلى المعاصي كما تُقاد الدابة بما جُعل في حنكها من حَبْلٍ.

ومعنى الأول: لأُفسدنهم بالإغواء فلا يبقَى معهم من دينهم شيء، كالشيء الذي يُقلع من أصله.

* * *

(٦٣) - ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾: أي: قال الله له[1] على لسان ملَك: اذهب.

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ نصبٌ على المصدر، والموفور: المكمَّل، ووَفَر وُفوراً لازم، ووَفَر وَفْراً متعدٍّ، وقال زهير:

ومَن يجعل المعروف من دون عِرضه ... يَفِرْهُ ومَن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشتَمِ[2]

و﴿ٱذْهَبْ﴾ دلالة الاستهانة به والوعيدِ له.

ومعنى الموفور: أنه لا نقصان فيه عن قَدْر الاستحقاق، وقيل: هو الذي لا يزول ولا ينقطع.

* * *

(١) «له»: من (أ).

(٢) البيت من معلقة زهير. انظر: «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري (ص: ٢٨٧)، و«شرح المعلقات» للزوزني (ص: ١٩٤)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٣٨٩). قال الزوزني: يريد أن من بذل معروفه صان عرضه، ومن بخل بمعروفه عرَّض عرضه للذم والشتم. وقال ابن الأنباري: معناه: مَن اصطنع المعروف إلى الناس وقى عرضه. والعرض: موضع المدح والذم من الرجل، يقال: إنه لطيب العرض، إذا كان طيب ريح الجسد. وقوله: (يفره): يجعله وافراً، ويقال: وفرت ماله وعرضه فأنا أَفِرُه، وقد وَفَر مالُ بني فلان يَفِرُ وفوراً، و(يفره) جواب الجزاء علامة الجزم فيه سكون الراء، وكان الأصل فيه: يَوْفِرْه، فحذفت الواو لوقوعها بين الكسرة والياء.

(٦٤) ـ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: أي: واستَخْفِفْ وأَزعِجْ إلى[1] المعاصي، وقد استفزَّه الغضب أو الفرح؛ أي: استخَفَّه.

﴿بِصَوْتِكَ﴾؛ أي: بدعائك، يقول: صوِّتْ بمن استطعتَ منهم حتى تزيلَهم عن رزانة العقلاء إلى خفَّة الجهلاء، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الصوت الذي يدعو به إلى المعصية.

وقال مجاهد: هو الغناء واللهو[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾: أي: اجمع عليهم ﴿**بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ**﴾[3].

وقيل: الإجلاب هو السوق بجلَبة من السائق؛ أي: بصياح.

والرَّجْل: جمع راجل، كالرَّكْب جمع راكب.

ولإبليس لعنه الله جندٌ وأتباع من جنسه[4]، فمنهم فرسان ومنهم رجَّالةٌ.

---

(١) في (ر) و(ف): «في».

(٢) روى القولين الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٧).

(٣) قرأ حفص: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسر الجيم، والباقون بإسكانها. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠). وإنما أثبتنا القراءة بسكون الجيم لأنها هي المرادة عند المؤلف؛ بدليل ما سيأتي من قوله: «والرَّجْل: جمع راجل، كالرَّكْب جمع راكب».

(٤) في (ر) و(ف): «جيشه».

ويجوز أن يكون لهم من جوهرهم[١] مراكبُ يركبونها، فيجد ذلك بعضهم فيكون فارساً[٢]، ولا يجده بعضهم فيكون راجلاً.

ويجوز أن يكون ذلك على ضرب المثل للتكثير من الأتباع.

ويجوز أن يكون خيلُه ورَجِله من بني آدم؛ قال قتادة: كلُّ راكبٍ في معصيةِ الله فهو من خيلِ إبليس، وكل ماشٍ في معصيةٍ فهو من رجله[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أما الأموال: فالحرثُ والأنعام والبَحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وما حلَّلوا وما حرَّموا، وأما الأولاد: فأولاد الزنا[٤].

وقال عطاء: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾؛ أي: على جمع الحرام ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بمعنى الأدعياء[٥].

وقال الحسن: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ يعني: على جمع الحرام حتى يكسبوها من غير وجهها وينفقوها في غير حقِّها[٦] ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾؛ أي: أولاد الحرام.

---

(١) في (ر): «وجوههم»، وفي (ف): «وجوه».

(٢) في (أ): «ركباناً».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٩) عن ابن عباس، أما قتادة فروَى عنه قولَه: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٦٢ و٦٦٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٦٠) بلفظ: الشرك في أموال الربا.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٦١) بلفظ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: مرهم أن يكسبوها من خبيث، وينفقوها في حرام. وكلمة: (مرهم) لم ترد في رواية عبد الرزاق.

وعن بعض السلف قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾؛ أي: كُلْ مِن أَطْعِمَتِهم ما لم يذكروا اسم الله عليه عند الأكل (وفي الأولاد) خالِطْ أهاليهم عند وطئهم إذا لم يذكروا اسم الله عند ذلك الفعل.

وقيل: يدخل في الأموال الربا وما ذبحوه لآلهتهم، وفي الأولاد ما نَشَؤوه على الكفر والمعاصي، كصنيع أهل الكفر من النصارى والمجوس وغيرهم بأولادهم، ويدخل فيه ما كانوا يسمُّون به[1] أولادهم من الأسماء المضافة إلى الشياطين والأصنام؛ كعبد ودٍّ وعبدِ العُزَّى وعبد اللاتِ وعبد مَناةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾: هو ما يمنِّيهم من الأماني الكاذبة: من النصر على مخالِفيهم في الدنيا، وأنه لا بعثَ ولا نشورَ، وإن كان فهو للحُسنى لهم؛ كما قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾: وهو كلامٌ معترِضٌ، ثم عاد إلى خطابه، وهو قوله تعالى:

* * *

(٦٥) ـ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: قال سفيان بن عُيينةَ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أنْ تلقيَهم في ذنبٍ يَضيق عنه عفوي[2].

---

(١) في (ر): «يسمونه»، وفي (ف): «يسمون».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢١٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨٢).

وقيل: إن خواصِّي ليس لك عليهم سلطانُ الوسوسة؛ لالتجائهم[(١)] إليَّ ودوامِ استعاذتهم بي؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١].

وقال القشيري رحمه الله: قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ إنما يكون عبدُه مَن لا يكون في أسرِ غيره، فأما مَن استعبده هواه، واستَمْكَن من قلبه الأطماع، واسترقَّته كلُّ خسيسةٍ ونقيصة[(٢)]، فلا يكون من جملتِهم، قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدِّينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم» الخبرَ[(٣)].

وقيل: عباده هم المتفيِّئون بظلِّ عنايته لتبرُّئهم عن الحول والقوة، وانفرادِهم بالله بحُسن التوكُّل ودوامِ التفويض[(٤)].

ثم قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ... وَٱسۡتَفۡزِزۡ... وَأَجۡلِبۡ﴾ هذه الألفاظُ الخارجة على صيغةِ الأمر على معنى تعجيز إبليس، وتعريفِه أن ذلك لا يضرُّ الله شيئاً ولا يَنقص من ملكه، وأن سلطان إبليس إنما يجري على الجهَّال الذين قد أخرجهم الله تعالى عن جملة مَن شرَّفهم بعبوديته.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾: أي: كافياً لك، ومعتمَداً لك[(٥)] في أمورك.

وفي الخبر: أن الله تعالى لمَّا لعن إبليس وطرده قال: ربِّ أسألك أن تُعينني

---

(١) في (ر): «لاستنادهم»، وسقطت هذه الجملة من (ف).

(٢) في (ر): «واسترقه كل خسيس ونفيس».

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

(٥) في (أ): «ومعتمداً عليه».

على آدم، قال: يا إبليس، لا يُولد له ولدٌ إلا وُلد لك عشرةٌ، قال: يا ربِّ زِدْني، قال: تجري فيه وفي ذريته مجرى الدم، قال: يا ربِّ زِدْني، قال: أَجْلِبْ عليهم بخيلك ورَجِلك وشارِكْهم في الأموال والأولاد وعِدهم، فاستغاث آدم بالله عز وجل وقال: إنك جعلتَ بيني وبين إبليس عداوةً وقوَّيْتَه عليَّ فأعنِّي عليه يا ربِّ، فقال: إذا عملْتَ حسنةً فلك بها عشرةٌ، وإنْ عملتَ سيئةً فواحدةٌ، قال: يا رب زدني، قال: لا أغلق بابَ التوبة على أحدٍ من ذريَّتك حتى يُغرغر، قال: يا رب زدني، قال: أغفرُ ولا أبالي، فقال آدم: حسبي يا رب(١).

* * *

(٦٦) ـ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾: قال ابن عباس وقتادة وابن زيد: يُجري(٢).

والإزجاء في اللغة: السَّوق؛ قال تعالى: ﴿يُزْجِى لَكُمُ﴾ [النور: ٤٣].

وانتظامها بما قبلها: أن هذا في تفسير قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

ووجهٌ آخر: أنه بيانُ وحدانية الله تعالى، وبيان إنعامه على خلقه، وفيه إظهارُ قبحِ شركهم وأكثر السورة فيه، يقول: هو ربُّكم المتفضِّل عليكم بما يَتِمُّ به معاشكم(٣)، الذي يَسوق لكم السفن في البحر سَوقاً ليِّناً رقيقاً بريحٍ طيبةٍ تقطَعُ بكم المسافة البعيدة في المدة القريبة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٣ ـ ٣٢٥٤) عن عبيد بن عمير قوله.

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٦٧).

(٣) في (أ): «معايشكم».

وقوله تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾: أي: من رزقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾؛ أي: لم يزل بارًّا بكم يوصل إليكم المنافعَ والمرافق الدِّينية والدنيوية.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾: أي: إذا اشتدَّ بكم البلاء في البحر حتى تُشرفوا على الهلكة ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: بطَل وتلاشى عنكم آلهتُكم التي تدعون من دون الله فلا تستعينون إلا بالله.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾: أي: خلَّصكم من هول البحر فأخرجكم إلى البر ﴿أَعۡرَضۡتُمۡ﴾ عن إخلاص العبادة لله وأقبلتُم على عبادة غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾: أي: عادةُ الإنسان كفرانُ النِّعم، والمراد به الناس لأنه اسم جنس ويصلح للجمع.

ثم أَخبر أن قدرته عليهم في البر كقدرته عليهم في البحر، وهو قولُه تعالى:

* * *

(٦٨) ـ ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾: استفهام بمعنى التوبيخ، يقول: عجباً منكم كيف أمنتُم أن يَغور بكم في الأرض في جانبٍ[1] من جوانبها.

---

(١) «في جانب»: من (أ).

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: ريحاً ترميكم بالحصباء[١]، وهي صغار الحجارة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: مَن يكفيكم ما يَحِلُّ بكم.

* * *

(٦٩) ـ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: يسبِّبَ لكم سبباً يَضْطَرُّكم إلى العَود وإلى ركوب البحر مرة أخرى.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾: عند ذلك ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ يكسرُ السفن ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾: فيهلككم عقوبةً لكم على كفران نعمةِ تخليصكم[٢] في المرة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ﴾: أي: لأنفسكم ﴿عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾؛ أي: مَن يَتبعُنا بدمائكم ويخاصمُنا عنكم بهلاككم.

والتبيع: المُطالِب، والتَّبِعة والتِّباع المطالبة بالجناية، والاتِّباع: الطلب؛ قال الله تعالى: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

* * *

(٧٠) ـ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ

---

(١) في (ر) و(ف): «بالحصى».

(٢) في (ر): «نعمه بتخليصكم»، وفي (ف): «نعمه بتخليصه إياكم».

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾: ذكَر في الآيات[١] المتقدِّمة كفرانَ النِّعم من الكفار، وبيَّن في هذه الآية إنعامَه على بني آدم، فحثَّهم بذلك على الشكر، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ أي: فضَّلناهم على كثيرٍ من أصناف الحيوانات، وجعلناهم أحقَّ بالكرامات منها، ويدخل فيها خلقُه إياهم على هذه الهيئة التي يَصلحون بها للتكليف والتمييز بين الأشياء، والاهتداءِ إلى أسباب المعاش، وما جعَل لهم من القامات المنتصِبة، وحرَّم دماءهم ولحومهم، وسخَّر لهم ما في الأرض، وجعلهم المقصودين بالخلق والامتحان، واستعمالِ السماء والأرضِ، والشمس والقمر، والنجوم والبحار، والبراري[٢] والجبال، وجميع الصعاب والشِّداد[٣] في حوائجهم بما لا يَتهيَّأ لغيرهم ذلك، وأَسجَدَ لأبيهم الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في البر على الدواب وفي البحر على الفُلك، في الرَّطْب على اليابس وفي اليابس على الرَّطْب.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: اللذائذِ من الحبوب والثمار، ولحومِ الحيوانات النافعة المقوِّية، والأشربة العذبة[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾؛ أي: فضَّلناهم بهذه الأشياء على سائر الحيوانات، وجعلنا سائر الحيوانات مسخَّرة لهم، وخلقنا لهم آلةَ المناولة والتناوُلِ.

و﴿كَرَّمْنَا﴾ أبلغ من: أكرمْنا؛ لأنه يقتضي التكرير والتكثير.

---

(١) في (أ): «الآية».

(٢) في (ر): «والقفار».

(٣) في (ر): «وجميع الصفات والسداد».

(٤) في (ف): «المغذية».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كرَّمناهم بالعقل.

وقال الضحَّاك: بالنُّطق والتمييز.

وقال عطاء: بامتداد القامة وتعديلها.

وقال يمان بن رئابٍ: بحسن الصورة.

وقال محمد بن كعب القرظي: بأن جعل محمداً ﷺ منهم[١].

وقال مقاتل: ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالأكل بالأيدي[٢].

ورُوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[٣].

وقال الأصمعي: دخلت على الرشيد وبين يديه جامُ خبيصٍ وبيده ملعقةُ ذهبٍ يأكل بها، فقال: يا أصمعي، تعال فساعِدْ، فقلت: حدَّثني سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوسٍ، عن جدِّك عبد الله بن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالأكل بالأيدي، فرمى الملعقة.

وقال القشيري رحمه الله: هذا ظاهرٌ على العموم، والمراد به المؤمنون على الخصوص؛ لأنه قال في وصف الكفار: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، التكريم: التكثير من الإكرام[٤]، فإذا حُرم الكافر أصلَ الإكرام فمتى[٥] يكون له التكريم[٦]؟

---

(١) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٤)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٠٢)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١٠٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٤٢).

(٣) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥٨٤١).

(٤) في (أ): «التكثير من الإحرام»، وفي (ر) و(ف): «التكثر من الإكرام». والمثبت من «اللطائف».

(٥) في (ف): «فمن أين».

(٦) في (ر) و(ف): «تكريم»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

ثم إنما قال: ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: المؤمنين، ولا: العابدين، ولا: المجتهدين، تقديساً للتكريم من أن يكون مقابَلاً بفعلٍ، أو معلَّلاً بوفاق، أو مسبَّباً باستحقاق.

وذلك التكريم: أنهم متى شاؤوا وقفوا على بساط المناجاة.

ومن التكريم: أنك على أيِّ وصفٍ كنتَ من الطهارة وغيرها إذا أردتَ أن تخاطبه خاطَبْتَه، وإذا أردتَ أن تسأله سألتَه.

ومنه: أن العبد إذا تاب ثم نَقَض توبته ثم تاب قُبلت توبتُه، ولو تكرَّر منه جُرمه [ثم توبته] يضاعف له قبول التوبة وعفوه.

ومنه: إذا عثَر أخذ بيده، وإذا قال: لا أعود، قَبِله بقوله[1] وإنْ عَلِم أنه سيعود.

ومنه: أنه زيَّن ظاهرهم بالمجاهَدة، وحسَّن باطنهم بالمشاهدة.

ومنه: أنه أعطاهم قبلَ سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كذلك ورد في الخبر[2]: [«أعطيتكم قبل أن تسألونى، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني»[3]].

ومنه: أنه قال لهم: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

وكذا قال: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) في «لطائف الإشارات»: «يقبل قوله».

(٢) في (ر): «ورد الخبر».

(٣) رواه ابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل»، وأبو نصر السجزي في «الإبانة»، والديلمي من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه مرفوعاً، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٨)، وهو في «الفردوس» (٧٢٠٦). ورواه النسائي في «الكبرى» (١١٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً بلفظ: «أعطيْتُكم قَبْل أنْ تسألوني، وأجبْتُكم قَبْل أنْ تَدْعونِي».

ومنه: قوله في حقهم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال: محمولُ الكرام لا يقع، ولو وقع أُخذ بيده[١].

ولما حمل بنو آدم الأمانة جازاهم بأن قال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وشتَّان ما بينهما[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: الرزقُ الطيِّب: ما كان على شهود الرازق، فمَن لم يكن غائباً بقلبه، ولا غافلاً عن ربِّه، استطاب كلَّ رزق، وأنشدوا:

إنِّـي لِمَـا قـد سُـمْتَ ركَّابُ ... ولـلَّـذي تـسقيـه شـرَّابُ

لا عائفاً شيئاً ولـو شِيـبَ لـي ... مـن كفِّك العلقمُ والصَّابُ[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ فضَّلهم جميعاً بالخَلْق الحسَن، ثم فضَّل بعضهم على بعضٍ بالخُلُق الحسَن.

وقيل: فضَّلهم بأنْ لاحظوا أنفسهم بعين الاستحقاق، وأعمالَهم بعين الاستصغار[٤].

***

(١) في «لطائف الإشارات»: (وإن وقع وجد من يأخذ بيده).

(٢) في (أ): «هما».

(٣) البيتان لأبي نواس، وهما في «ديوانه» (ص: ٦٩)، ولم يردا في «اللطائف»، وفيه بدلاً منهما:

يـا عاشـقي إنـي سُـعِدْتُ شراباً ... لـو كان حتـى علقمـاً أو صابـا

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢)، وما تقدم بين معكوفتين منه، والعبارة الأخيرة فيه: (فضَّلهم بألَّا ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار).

(٧١) ـ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾: قيل: هو على الإغراء؛ أي: احذروا يومَ ندعو، أو هو على الابتداء؛ أي: اذكروا ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا ﴾ الآية.

وقال الزجَّاج: أي: ويعيدكم ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا ﴾(١).

وقيل: يتصل بقوله: ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ الآيةَ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا ﴾.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا ﴾.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا ﴾.

وقيل: بقوله: ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا ﴾.

وقيل: يتصل(٢) بقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾.

روَى عليٌّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال في تفسيره: «بكتاب ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم»(٣).

والإمام هو المقتدَى، وكتاب الله هو الذي يجب أن يُقتدَى به، فعلى هذا يُدْعى: يا أهل القرآن، يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٥٢).

(٢) «يتصل» ليست في (ف).

(٣) رواه ابن مردويه، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٧)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨). وهو حديث موضوع. انظر: «الميزان» ترجمة داود بن سليمان الجرجاني وترجمة عبد الله بن أحمد بن عامر.

وقيل: أي: بإمامهم المبعوثِ إليهم: يا أمة محمد[١]، يا أمة موسى، يا أمة عيسى.

وقيل: أي: تُدعى كلُّ أمةٍ مع نبيِّها ليَشهد عليها.

وقال علي بن أبي طلحة: بأئمَّتهم في الخير والشر؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١][٢].

وقال محمد بن كعب: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾؛ أي: بأمَّهاتهم[٣].

وقال بعضهم: بمذاهبهم؛ لأنهم كانوا يَؤمُّونها[٤].

وقيل: بحِرَفهم.

وقيل: بأحوالهم وبمقاماتهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «أولُ مَن يُدْعَى إلى الجنة الحامدون اللهَ على كلِّ حال»[٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في حديث عَقْدِ الألوية: ثم يُعقد لواء آخر وينادي منادٍ: أين الساعون للمشكور[٦]؟ فيقومون، ثم يعقد لواء آخر وينادي منادٍ[٧]: أين الراضُون بالمقدور؟ فيقومون، ثم يعقد لواء آخر وينادي منادٍ

---

(١) في (أ): «أحمد».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٦).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١١٠).

(٤) في (أ): «يأتونها».

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٣١١٤ ـ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٤٥) و«الأوسط» (٣٠٥٧)، و«الصغير» (٢٨٨). وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ١٠٨): رواه البزار والطبراني في الثلاثة بأسانيد أحدها حسن.

(٦) في (ف): «للمسكين»، وفي (ر): «للسكون».

(٧) في (ف): «وينادون»، بدل: «وينادي مناد».

آخر[١]: أين الصابرون على المحذور؟ فيقومون، فهذه هي المقامات، إلى أن يَتمَّ أربعٌ وسبعون من الألوية[٢].

وقيل ـ وهو الأظهرُ والأوفق للنظم ـ: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾؛ أي: إلى كتابهم الذي كتب فيه أعمالهم، وسمِّي إماماً لأن المرجع إليه في تعرُّف أعمالهم، كما يسمَّى مصحفُ عثمان إماماً لأن المرجعَ إليه، ويدل عليه ما بعده، وهو قوله:

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾: وهو كتاب أهل السعادة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ مشتمِلاً على ما كان منهم.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾: أي: ولا يُنقصون شيئاً من ثواب أعمالهم وإن كان شيئاً حقيراً يسيراً بمقدارِ ما يفتله الرجلُ بين أصابعه من الوسخ، فهو الفتيل.

وقيل: الفتيل: الذي يكون في شقِّ النواة.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ لكمالِ صَحْوِهم ووُفور عقلهم، والذين يُؤتَون كتابهم بشمالهم فهم لتحيُّرهم وتردُّدهم لا يقرؤون كتابهم، وأشار إليه في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩] الآيات، ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥] ولم يذكر القراءة[٣].

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾.

---

(١) «آخر» ليس من (ف).

(٢) في (أ): «أربع وسبعون لواء».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٦٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾: قرأ أبو عمرو[١]: (أعمى) الأول بالإمالة والثاني بالتفخيم، وقال: هو للتفضيل بدليل قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾، ومعناه: أشدُّ عمًى مِن عمَى القلب، فيكون أفعل للفعل لا للإفعال فيصح، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

وقرأ بالتفخيم فيهما ابن كثير ونافعٌ وابن عامر وعاصم في رواية حفص، وبالإمالة فيهما حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[٢].

ومعناه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: في الدنيا والنظرِ إلى أعيانها[٣] والاستدلالِ بها على ما جُعلت الدلائلُ عليها ﴿أَعۡمَىٰ فَهُوَ﴾ في التفكُّر في أمور ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ لأنها غيبٌ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾؛ أي: أعدلُ عن الحق.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذكر النعمةَ قبله فقال[٤]: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ وكذا وكذا، ثم قال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: ومَن كان عن هذه النِّعم التي يعايِن ويشاهِد ﴿أَعۡمَىٰ﴾ فهو عمَّا لم يُعايِن ولم يشاهِد من أمور الآخرة أعمى[٥].

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «ونصير عن الكسائي وورش عن يعقوب والكرخي عن أبي بكر».

(٢) في (ر) و(ف): وقرأ بالتفخيم فيهما ابن كثير ونافعٌ وأبو جعفر وابن عامر وعاصمٌ غيرَ الكرخي ويحيى وحماد، وبالإمالة فيهما حمزة والكسائي غير نصير وخلف ويحيى وحماد. وانظر القراءات المذكورة أعلاه في «السبعة» (ص: ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) في (ف): «أعيابها».

(٤) في (ر) و(ف): «أي ذكر النعم قبله»، بدل: «ذكر النعمةَ قبله فقال».

(٥) رواه الفريابي وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٧).

ومَن عمي عن آيات الله في الدنيا[١] فعن الذي غُيِّب عنه من أمور الآخرة أشدُّ عمًى[٢].

ومَن كان في الدنيا عن سلوك سبيل النجاة بالتوبة أعمى فهو في الآخرة أشدُّ عمًى[٣] من طريق النجاة من عذاب الله.

وقال أبو العباس بن العطاء: مَن كان في هذه الدنيا أعمى عن معرفته، فهو في الآخرة أعمى عن رؤيته.

وقيل: مَن كان في الدنيا لا يُبصر[٤] رشدَه مع ما مُدَّ له في المهلة، فهو في الآخرة بهذه الحالة أيضاً لا سبيل له إلى التوبة.

وقيل: مَن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله بُعث يوم القيامة أعمى؛ كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآيات، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وهو على العمى[٥] الحقيقيِّ بالبصر عقوبةً لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَن كان في هذه الدنيا أعمى عن شكر النعيم كان في الآخرة أعمى عن نيل الثواب العظيم.

---

(١) في (ف): «ومن كان عن آيات الله في الدنيا أعمى».

(٢) رواه بنحوه أبو الشيخ في «العظمة» (٦٩)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٧)، من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ف): «أعمى» بدل: «أشد عمى».

(٤) في (ر): «لا يتصور».

(٥) قوله: «أعمى كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ الآيات، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ وهو على العمى»، جاء بدلاً منه في (ر): «وهو على وجهه أعمى وهو على العمى».

وقال أبو بكر الورَّاقُ: مَن كان في هذه أعمى عن حجَّته فهو في الآخرة أعمى عن جَنَّته[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ عن مشاهدته ببصيرته فهو في الآخرة أعمى عن رؤيته ببصره[٢].

وقيل: لمَّا نزلت هذه الآيةُ جاء عبد الله بن أمِّ مكتومٍ ـ وكان ضريراً ـ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][٣].

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾: وهذا من عمَاهم في الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء وفد ثَقيفٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: نحن أخوالك[٤] وأصهارُك وجيرانك فأعطِنا ما نريد نُعْطِكَ ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟» فقالوا: نريد أن لا نُعشَرَ ولا نُحشَرَ ولا نجبِّيَ[٥]، وكلُّ رباً لنا

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٧).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٦٢).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٧)، وأورده البيضاوي في تفسير سورة الحج مقدما له بـ(قيل)، وهي صيغة التمريض عنده، وقال الشهاب: لعل تمريضه لعدم ثبوته عنده لأنّ ابن أم مكتوم رضي الله عنه لا يخفى عليه مثله. انظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٦/ ٣٠٣).

(٤) في (أ): «إخوانك».

(٥) في (ر) و(ف): «نُحنى»، وهو موافق لبعض المصادر.

على الناس فهو عليهم، وكلُّ رباً للناس علينا فهو موضوعٌ عنا، ومَن قصَد وادِيَنا وجًّا فعضَد[١] شجرها واصطاد صيدها منَعْناه وضربناه، وأن تمتِّعنا باللات سنةً[٢] لتَظهر كرامتُنا وفضْلُنا، وألا نكسرها[٣] بأيدينا! فقال النبي ﷺ: «لا نَعْشر ولا نَحْشر، وكلُّ رباً فهو لكم، وأما قولكم: لا نجبِّي[٤]، فلا خير في دِين لا يكون فيه ركوعٌ ولا سجود، وأما قولكم: لا نكسر اللات بأيدينا، فلْنأمر بكسرها[٥]، وأما قولكم: متِّعنا بها سنةً[٦]، فأنا أنتظرُ أمر الله تعالى فيها»، فقالوا: إن لامك العرب فقل: أمرني الله بذلك، فقال لهم عمر: ما لكم أحرقتُم رسول الله ﷺ أحرقَ الله أكبادكم؟ لا ولا نَعِمَتْ عينٌ، لا يدعُ رسول الله ﷺ صنماً بأرض العرب يُعبد، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾[٧]؛ أي: ما كادوا إلا أنْ يصرفوك عن الذي أوحينا إليك

(١) في (أ): «وقطع»، وفي (ر): «يعضد».

(٢) في (ر) و(ف): «وأن تمتعنا بها ثلاثين سنة»، وهو مخالف لسائر المصادر.

(٣) في (أ): «تكسر».

(٤) في (ر) و(ف): «نُحنى».

(٥) قوله: «فلنأمر بكسرها» من (أ) وليس في باقي النسخ، وفي «تفسير مقاتل»: (فإنا سنأمر من يكسرها غيركم)، وفي غيره: (فذلك لكم).

(٦) في (ر) و(ف): «ثلاثين سنة»، وهو مخالف لسائر المصادر.

(٧) ذكره عن ابن عباس الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٨)، وعبد القاهر الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٢٢٢)، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٤٣)، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧) في نزول هذه الآية وقال: رواه عطاء عن ابن عباس. ثم ذكر نحوه عن عطية عن ابن عباس. وذكره أيضاً (٢/ ١٩٦) في نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك.

قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ١٠٠): ذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند. وقال العراقي كما في «روح المعاني» (١٥/ ٣٢): لم نجده في كتب الحديث. =

لتفتريَ علينا غيره، وهو قولهم: قل: أمرني الله به ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ يعني: لو فعلتَ ذلك لصادقوك وطاوَعوك.

وقيل: وقالوا: يا رسول الله، امسح وجوهَ أصنامنا بيدك حتى نمكِّنكَ أن تستلم الحجر الأسود[1].

وقيل: هو في الْتِماس المشركين أن يُخْلِي لهم المجلس وأن يطرد الفقراء عنه.

***

(٧٤) - ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾: وفيه إثبات العصمة له حتى لم يهمَّ بذلك أصلاً، ولم يكَدْ يفعل ذلك؛ لأنه علَّق ذلك بالشرط وهو قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾؛ أي: على الحق والصواب لكان منك ذلك، وهو

= قلت: رواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٨٨٤) عن الكلبي ولا يفرح به، لكن روي بعضه بإسناد رواته ثقات، فقد روى الإمام أحمد في «المسند» (١٧٩١٣)، وأبو داود (٣٠٢٦)، من طريق الحسن عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: أن وَفْدَ ثَقيفٍ لَمَّا قدِموا على رسولِ الله ﷺ أنزلَهم المسجدَ ليكون أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا عليه أن لا يُحْشَروا ولا يُعْشَرُوا ولا يُجَبُّوا، فقال رسولُ الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشَروا ولا تُعشَروا، ولا خيرَ في دِين ليس فيه ركوعٌ». ورجاله ثقات، إلا أن في سماع الحسن - وهو البصري - من عثمان بن أبي العاص اختلافاً، ويُثبت سماعه منه ما أورده البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢١٢) عن الحسن قوله: كنا ندخل على عثمان بن أبي العاص.

وجاء في هامش (ر): «لا نعشر: لا يؤخذ العشر منا، ولا نحشر: لا نبعث إلى الغزو، ولا نجبي: لا نركع».

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ١١٧)، و«زاد المسير» (٥/ ٦٧)، قال ابن الجوزي: قاله سعيد بن جبير وهذا باطل.

كما قلنا في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]: أنه لمَّا ذكره معلَّقاً بالشرط كان نفياً له أصلاً، وقوله: ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ بيانُ قصدهم لا فِعلُه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: معناه: لو تركناك ونفسَك ورفعنا عنك ظلَّ العصمة لألْمَمْتَ بشيءٍ مما لا يجوزُ من مخالفةِ أمرنا، ولكنَّا ضربنا عليك سُرادقاتِ العصمة، وآويناك في كَنَف الرعاية، وحفظناك عن الأخطار باتِّباع هواك، فالزلة منك مع هذا محال، والافتراء في نفسك غير موهوم(١).

وقال قتادة: لمَّا نزلت هذه الآية قال ﷺ: «اللهمَّ لا تَكِلْني إلى نفسي طَرفةَ عين»(٢).

***

(٧٥) ـ ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾: أي: لو ركَنْتَ إليهم لأذقناك ضعفَ عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، فمَن كانت درجتُه أرفعَ ونِعمُ الله عليه أسبغَ كان وعيدُ الله في حقه أبلغَ، ولذلك قال في حق نساء رسول الله ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾: أي: مانعاً عذابَنا عنك معيناً لك.

وإنما جاز إضمار العذاب في الضِّعف في هذه الآية لأن الله تعالى وصف العذاب بالضعف في آية أخرى، فعُرف هاهنا أنه هو المراد به، قال تعالى: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٦٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٦). والمرفوع منه رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٧٦) - ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾: أي: ليستخِفُّونك ويستعجلونك.

قيل: نزلت في حييِّ بن أخطبَ وجديِّ بن أخطب[1] ورؤساءِ اليهود، قالوا للنبي ﷺ: إنك لَتعلمُ أن الحجاز ليست بأرض الأنبياء، وإنما مُقام الأنبياء أرضُ المحشر بالشام، فإن كنتَ نبيًّا فاخرج إلى الشام، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافتُك قتلَ الروم إياك، فتوجَّه رسول الله ﷺ نحو الشام إلى ذي الحُليفةِ، فأتى جبريل بهذه الآية، فانصرف رسول الله ﷺ[2].

وقيل: المراد منه الإخراج المذكور في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وهو ما ائتَمروا به في دار الندوة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: قرأ ابن كثيرٍ ونافع وأبو جعفرٍ وأبو عمرٍو وعاصم في رواية أبي بكر وحماد: ﴿خَلْفَكَ﴾ والباقون: ﴿خِلَٰفَكَ﴾[3]،

---

(١) «وجدي بن أخطب» من (أ).

(٢) رواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٥٤)، عن عبد الرحمن بن غَنْم رضي الله عنه. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٨) من طريق سليمان التيمي عن حضرمي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٨) عن الكلبي، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٤٥).

(٣) في (أ): «قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي في رواية حفص: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بالألف والباقون: ﴿خَلْفَكَ﴾» بدل: «قرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وحماد: ﴿خَلْفَكَ﴾ والباقون: ﴿خِلَٰفَكَ﴾». والصواب المثبت، و﴿خِلَٰفَكَ﴾ قرأ بها ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، من السبعة، ويعقوب وخلف من العشرة. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨).

ومعناهما واحد؛ أي: لو فعلوا ذلك لم يكن لهم بقاءٌ بعدك إلا قليلاً قَدْرَ ما ينزل بهم العذاب؛ لأنه ما فارق نبيٌّ قومَه إلا عذِّبوا ونزل بهم الاستئصال.

* * *

(٧٧) ـ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾: أي: كسنَّتِنا[1] فيمَن قد أرسلنا قَبْلَك من رُسُلِنا: أنه ما فارق نبيٌّ قومَه إلا عذِّبوا ونزل بهم الاستئصال[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾: أي: لا يجد أحدٌ[3] سبيلاً إلى تبديل ما سنَّه الله وكتب[4] على عباده، وقال تعالى[5]: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٣]، وقد جرى على أهل مكة بعد خروج النبي ﷺ عنها إلى المدينة بسبب مكرهم قتلُ صناديدهم ببدرٍ بعد سنتين، ثم فتحُ مكة وإخراجُ مَن بها من المشركين.

* * *

(٧٨) ـ ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾.

(١) في (أ): «لسنتنا».

(٢) «ونزل بهم الاستئصال» ليس في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «تجد»، بدل: «يجد أحد».

(٤) في (ر): «تبديل سنة الله التي كتب»، وفي (ف): «تبديل سنة الله وما كتب».

(٥) في (ف): «قوله».

وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: فإنْ ثقُل عليك أذاهم فافْزَعْ إلى الصلاة ففيها الفرجُ والمخرج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما في روايةٍ، وابنُ زيد: لغروبها؛ أي: بعد غروبها وهي صلاةُ المغرب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في روايةٍ والحسنُ ومجاهد وقتادة: هو زوالها[١].

وأصله[٢]: الميل، وهو يَنتظِم الأمرين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾: هو أولُ ظلمة الليل، وقيل: هو ظهور ظَلامه. وقد غَسَقَت القَرحة: إذا انفجرت وظهر ما فيها.

يقول: أقِمِ الصلاة لزوال الشمس إلى ظلام الليل، وهو يَنتظِم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾: أي: صلاةَ الفجر، سماها قرآناً لأن القراءة من أركانها، كما سميت الصلاة ركوعاً وسجوداً، وكذلك قال عليه السلام: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين»[٣]، وفي بعض الروايات:

---

(١) روى الأول عن ابن مسعود عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٩١٢٧ ـ ٩١٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٢). وعن ابن عباس ابنُ أبي شيبة في «المصنف» (٦٢٧٤). وروى القولين عن الأئمة المذكورين الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٢ ـ ٢٧).

(٢) في (أ): «وأصلها».

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

«حتى يسجدَ سجدتين»[١]، وقد سمى الله تعالى المصلِّين ركَّعاً وسجَّداً.

وقيل: ﴿قرآن الفجر﴾؛ أي: قراءةَ الفجر؛ أي: أقمْ قراءةَ الفجر؛ أي: القراءةَ المفروضة فيها، فعلى هذا تكون الآية جامعةً للصلوات الخمس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: أي: صلاةَ الفجر وما يُقرأ فيها، يشهدها ملائكةُ الليل والنهار؛ لفضيلة هذه الصلاة في نفسها.

* * *

(٧٩) ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: أي: اسهَرْ بالقرآن تقرؤه في صلاة الليل ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ زائدةً على تلك الفرائض المذكورة في الآية الأولى، فتلك فرائضُ وهذه نوافل.

وقيل: غنيمةً لك.

وقال الحسن: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: خالصةً لك، وخلوصُه له: أنه لا يَغفل عن شيء منه في حالٍ، وغيرُه من الناس قد يغفلون فيه عن أشياء[٢].

وقيل: إنما قال: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ لأنه كان مغفوراً له فيما يعمل فيكون نافلة له، وأما غيره من الناس فإن ما[٣] يعمل من الخيرات يكون كفارةً لذنوبه فلا يكون نافلةً له، وإذا ثبت أنه نفلٌ في حقه ثبت أنه نفلٌ في حق أمَّته؛ لأن المشروع في حقه مشروعٌ في حق أمته حتى يقوم دليلُ التخصيص، وكان قيام الليل فرضاً في الابتداء ثم نسخت فَرْضيَّته.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٧) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٩٨).

(٣) في (ف): «فإنه بما»، وفي (ر): «فإن بما».

وقيل: كان فرضاً على النبي ﷺ، ومعنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: زائدةً على عدد الخمس فرضاً عليك دون غيرك.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾: أي: يُقِيمكَ مقام الشفاعة فيَحمدك عليه الخَلق، والمحمود: المرْضيُّ أيضاً، والمقام: هو الموضع الذي يقوم فيه الإنسان بجلائل الأمور؛ كالمقامات بين يدي الملوك، وفي مجالس العشائر لتسكين النائرة(١)، وقال لبيد:

ومقامٍ ضيِّقٍ فرَّجتُه ... بلساني وبناني وجَدَلْ(٢)

وقال آخر(٣):

وإنِّي لقَوَّامٌ مَقَاوِمَ لم يكنْ ... جريرٌ ولا مولَى جريرٍ يقومُها(٤)

وفي هذه المقامات يتبيَّن بها فضلُ السادة، وتُكتسب بها أسبابُ السيادة، ويطير بها الذِّكر في الناس.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة: المقام المحمود هو مقام الشفاعة(٥).

وقيل: هو إعطاءُ لواءِ الحمد.

* * *

---

(١) في (أ): «النوار»، وفي (ف): «الثائرة». والنائرة: الحقد والعداوة.

(٢) «ديوان لبيد» (ص: ٩٦).

(٣) «آخر» من (أ).

(٤) البيت للفرزدق كما في «المقتضب» (١/ ١٢٢)، و«المخصص» لابن سيده (٤/ ٢٠٩). وللأخطل كما في «الخصائص» لابن جني (٣/ ١٤٧)، و«اللامع العزيزي» للمعري (ص: ٣٣٨).

(٥) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٤ ـ ٤٦).

(٨٠) ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾:

المَدخل والـمَخرج بفتح الميم: موضع الدخول وموضع الخروج، وبالضم: موضع الإدخال وموضع الإخراج، ويكون مصدراً أيضاً وهو نفسُ الإدخال ونفس الإخراج.

والصدق أريد به: صدقُ الوعد؛ أي: تُصَدِّقُ[1] به ما وعدتَني، كما قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦].

ويحتمِل أن يكون معناه: الحسَن الجميل، كما يقال: فلانٌ خليلُ صدقٍ ورجلُ صدق؛ أي: مرضيُّ الخلُق، ومنه قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة: هو إدخال المدينة بعد الإخراج من مكة[2].

وقيل: معناه: أدخلني فيما أمَرْتني به وأخرجني عما نـهَيْتني عنه.

وقال القفَّال: علَّمه ما يدعو به في صلاته من إخراجه من بين ظهراني المشركين على الحالة المحمودة من السلامة والكفاية والعز والعافية: وأخرجني من مكة إخراج صدق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾: أي: وإذا أدخلْتَني مكة بالحرب

---

(١) في (ر) و(ف): «مصدقٌ».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٤ ـ ٥٥). وخبر ابن عباس رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٩٤٨)، والترمذي (٣١٣٩)، وقال: حسن صحيح.

فسلِّطني على المشركين وأعنِّي عليهم وانصُر سلطاني؛ أي: اجعل سلطاني عليهم منصوراً، والنصير بمعنى المنصور، ويقال[١]: راية منصورة، يراد بها أن صاحبها منصورٌ على أعدائه، والنصر: التمكين من الانتصار من العدو، وقد استجاب الله تعالى ذلك يوم الفتح.

* * *

(٨١) ـ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾: أي: بشِّر أصحابك بدنوِّ دولتهم وبُطلان دولة[٢] أعدائهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾: أي: لم يزل[٣] مضمحلًّا؛ أي: لا بقاء له يتراءى[٤] ثم يتلاشى، وإنما الثباتُ والدوامُ للحق، وهذا مستقبلٌ بصيغة الماضي كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (زَهَق الباطل): ذهب[٥]، وهو من زَهَقت نفسه: إذا خرجت وهلَكتْ.

وروي[٦] أن النبي ﷺ لمَّا دخل الكعبة يومَ فتح مكة وجد فيها ثلاثَ مئة وستين صنماً، فجعل يطعُنها [بعودٍ كان] بيده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[٧].

---

(١) قبلها في (ر) و(ف): «قال».

(٢) قبلها في (ر) و(ف): «دعوة».

(٣) «لم يزل» ليست في (أ).

(٤) في (ف): «يتوالى»، وفي (ر): «سوى ظهوره».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٢).

(٦) في (ر): «ويروى».

(٧) رواه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فيحتمِل أن تكون هذه الآيةُ أمراً له أن يقول هذا إذا دخل مكة، وفيه تحقيقٌ للبشارة بالفتح، وهذا التأويل أقربُ للنظم والاتِّصال بقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

وفيه أقاويلُ أُخَرُ:

قيل: معناه: أَمِتْني إماتةَ صدق وابعثْني يومَ القيامة مَبعثَ صدق، فيتصل بقوله: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ويكون الإدخالُ في القبر والإخراج منه.

وقيل: أي: أدخلني في الأمر الذي أكرمْتَني به من النبوة ما دمتُ حيًّا مدخل صدق، وأخرجني منه إذا أمتَّني مُخرج صدق، وهذا معنى قول مجاهد[1].

وقال القشيري رحمه الله: ﴿أَدْخِلْنِى﴾ في طاعتك ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ على رؤية المنَّة ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ منها ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ على رؤية التبرِّي من الحول والقوة.

وقيل: إدخال الصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله لله لا لغيره، وإخراجُ الصدق أن يكون خروجه عن الأشياء بالله لله لا لغيره.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حتى لا ألاحظ دخولي ولا خروجي.

والحقُّ ما كان لله تعالى والباطلُ ما كان لغيره.

والحق من الخواطر ما دعا إلى الله والباطلُ ما دعا إلى غير الله[2].

* * *

(٨٢) ـ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٦٥).

وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: متَّصلٌ بقوله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، وبقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

و﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ليس للتبعيض، بل هو كقوله: لي من هذا الرجل أخو صدق؛ أي: هذا الرجل أخو صدق. والقرآن كلُّه شفاءٌ من وجوه:

أحدها: ما فيه من البيان الذي يزيل عمَى الجهلِ وحيرةَ الشكِّ ومرضَ العلم.

ومنها: أنه برهان من جهة النَّظم والتأليف على أنه معجزٌ يدلُّ على صدقِ مَن أتى به.

ومنها: أنه يُتبرك به فيدفع الله به كثيراً من المكارِه والمضارِّ والأمراض، وقد روي أن اللَّديغ برئ حين قُرئ عليه فاتحة الكتاب[١].

ومنها: ما في تلاوته من التعبُّد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾: أي: المشركين المعرِضين عن التدبُّر[٢] والتفكُّر فيه إلا هلاكاً وغبناً[٣] بفَوْت الثواب واستحقاقِ العقاب، وإضافةُ الزيادة إلى القرآن بطريق التسبُّب على ما مرَّ مراتٍ.

***

(٨٣) ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾: وسبب الخسران بتنزيل القرآن:

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه البخاري (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ر) و(ف): «التذكر».

(٣) في (أ): «إلا هلاكاً وعنفاً»، وليست في (ر).

أَنَّا[١] إذا أنعمنا على الإنسان ـ أي: المشرك ـ بإعطاء المال والصحة والأمان وكثرةِ الولد[٢] لنمتحنَه بشكر نعمتنا وأداءِ طاعتنا أعرض عن تدبُّر آياتنا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَـَا بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: تباعَدَ بجانبه عن المؤمنين، فلم يَلِنْ لهم، وهو عبارةٌ عن التكبُّر[٣]، يقال: فلان ليِّنُ الجانب: إذا كان متواضعاً سَمْحَ الأخلاق، وصعبُ الجانب: إذا كان متكبِّراً عَسِرَ الأخلاق، ولا يوصَل إليه بسهولةٍ كالشيء البعيد.

ويحتمِل: ﴿وَنَـَا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ أي: تباعَدَ في إعراضه؛ كما قال: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ [يونس: ١٢]، وهو كما يقال إذا نأى وخالف[٤]: ركب فلان رأسه، وشمَخ بأنفه، وصعَّر خدَّه، ولوَى شِدْقه.

وقولـه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾: أي: فإذا أصاب هذا الكافرَ سوءٌ يَئِس من رحمة الله فلم يصبر على المحنة، وفي الحالة الأولى لم يشكر على النعمة، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١].

* * *

(٨٤) ـ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: كلُّ إنسان يعمل في دِينه على ما يشاكِل عقله، فمَن تدبَّر القرآن واستشفَى به عمِل في دينه بالحجة، ومَن أعرض عنه عمِل على ما يُوجبه تقليد الآباء في الضلالة.

---

(١) في (ر) و(ف): «أي».

(٢) في (أ): «الولدان».

(٣) في (أ): «الكبر».

(٤) «نأى وخالف» من (ف).

وقوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾: من الفريقين، ويجازي كلَّ فريقٍ على عمله وعلى وَفْق اعتقاده.

والشاكلة: الخليقة، وقيل: الطريقة، وقيل: الطبيعة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؛ أي: على ناحيته(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على طريقته(٢).

وقال مقاتل: على طبعه(٣).

وقال الحسن وقتادة: على نيَّته(٤).

وقال المبرِّد: على ضريبته(٥).

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٦).

(٢) «وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على طريقته»، من (ر)، وهذا الوجه بمعنى الذي قبله، فإن الإمام ابن جرير رحمه الله في تقديمه لقول ابن عباس السابق قال: (﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: على ناحيته وطريقته... وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل...) ثم روى قول ابن عباس السابق. وقال الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٣٠): ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: ناحيته، وهي الطريقة والجديلة.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٤٧)، وفيه: (على جديلته)، والمعنى واحد.

(٤) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٢٩).

(٥) في (أ): «ضربته». والضريبة: الطبيعة. انظر: «القاموس» (مادة: ضرب). وبلفظ الطبيعة رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٦) عن مجاهد، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٦٩) عن ابن عباس. وقال الآلوسي في «روح المعاني» (١٥/ ٧٨): وفسر مجاهد الشاكلة بالطبيعة على أنها من شكلت الدابة: إذا قيدتها؛ أي: على طبيعته التي قيَّدَتْه؛ لأن سلطان الطبيعة على الإنسان ظاهر، وهو ضابط له وقاهر، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ومثل ذلك في المأخذ تفسير بعضهم بالعادة، ومن مشهور كلامهم: العادات قاهرات.

(٨٥) ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾: أي: هؤلاء المشركون المعرِضون عن التدبُّر في كتابك يتعنَّتونك في سؤالك وجوابك.

وقيل في نزول هذه الآية: إن النَّضْر بنَ كلَدةَ بنِ عبدِ مناف بنِ عبد الدار قال: يا معشر قريش، قد نزل بكم أمر ما تَقْدِرون قَدْرَه فانظروا في أمركم، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا النضرَ بن الحارث[1] وعُقبةَ بنَ أبي معيطٍ وأبيَّ بن خلف إلى أحبار يهود بيثربَ: فأْتُوهم وسَلُوهم عن محمد وأمره، فخرجوا حتى أتوا يهود بني قريظةَ والنضيرِ وقينقاع، ثم سألوهم عن النبي ﷺ فوجدوهم قوماً حُسَّداً، فقالوا: اسألوا الرجل عن ثلاثة أشياء، فإن أخبركم عنهنَّ فإن الرجل مرسَل، وأن لم يفعل فالرجلُ[2] متقوِّل، وقد أظلَّ زمانُ نبيٍّ، فاسألوه عن طوَّافٍ قد بلغ المشرق والمغرب قد كان له خبرٌ ونبأ وقَصَص، واسألوه عن الروح، فإن أخبركم عنه فإنه كاذب، وإن لم يخبركم عن الروح فهو كما قال، واسألوه عن أصحاب الكهف، فإن عجز عنها فهو متقوِّل، فخرجوا حتى انتهَوا إلى فدك فقالوا لهم مثلَ هذا سواءً، إلا أنهم قالوا: هذه صفتُه، ونجدُ مخرجه من بلادكم، ونجدُ مُهاجَرَه بيثرب، فرجع النفر إلى مكة، فلما قدموا على قريش قالوا: جئناكم نَفْصِل ما بينكم وبين محمد، قد أمرَنا أهلُ الكتاب الأوَّل أن نسأله عن أمور، فإن أخبرنا عنها فهو كما قال، وإنْ عجز عنها[3] فهو متقوِّل، فمشت قريشٌ مع هؤلاء الرسل حتى وقفوا على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ

---

(١) هو نفسه النضر بن كلدة المذكور في أول الخبر، فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٩٠٤).

(٢) في (ر) و(ف): «فإن الرجل».

(٣) «عنها» ليس من (أ).

عند الكعبة قد فرغ من صلاته، فقالوا: إنَّا نريد أن نسألك عن أشياء، وتقدم النَّفَر الذين كانوا قدِموا فسألوه عن تلك الخصال الثلاث، فقال: أخبرُكم غداً، ولم يقل: إن شاء الله؛ أي: لم يستثنِ، فمكث الوحيُ عن النبيِّ ﷺ خمسَ عشرةَ ليلةً لا يأتيه جبريل عليه السلام بشيء[1]، فكبُر ذلك على رسول الله ﷺ، وأَرجَف أهل مكة، فقال[2] بعضُهم لبعض: الرجل متقوِّل، وبطَل ما كان يقوله، وعدَنا أن يخبرَنا عما سألناه عنه فقال: غداً أخبركم، واليوم خمس عشرة ليلة[3] ولم يأتنا بخبرٍ ما سألناه عنه، ثم عادوا فسألوه عن حديث أصحاب الكهف، فقصَّ عليهم قصَّتهم، ثم جاءهم بحديث الطوَّاف وهو ذو القرنين، فأخبرهم بذلك كلِّه وقص عليهم، ثم سألوه عن الروح فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فانصرفوا[4]. وقد جاءت هذه الأمور كلُّها وهم لا يؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾؛ أي: عن الروح التي يَحْيَى بها الحيوان: ما هي؟ كما يَسأل عنها مَن يدَّعي الفلسفة ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: هو المتفرِّد بعلم كيفيتها، كمَن يُسأل عن شيء لا يقف على حقيقته، فيقول: هذا من أمر أستاذي؛ أي هو الواقف على حقيقته.

وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: وجودُها بتكوين ربي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ

---

(١) «بشيء» من (أ).

(٢) في (ف): «وقال أهل مكة» بدل: «وأرجف أهل مكة فقال»

(٣) في (ف): «يوماً».

(٤) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ١٩٧)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وشيخ ابن إسحاق فيه مبهم لم يسمه.

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وهذا جوابٌ مُقنعٌ كافٍ لمن أنصف، وإنما بُعث رسول الله ﷺ لبيان ما يُحتاج إليه من أمر الدين.

قوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: أي: ولقلَّةِ علمكم بمواقع حُجج الله ومراتبِ دلائله تلتمسون دلائلَ صحةِ دعوَى النبوةِ من جهةِ العلم بالروح ونحوِ ذلك، وليس كذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الروح الذي سألوه عنه هو جبريل، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣][(١)].

وقيل: هو ملك من الملائكة له سبعون ألفَ وجهٍ، لكلِّ وجهٍ سبعون ألفَ لسانٍ، يسبح الله تعالى بجميع ذلك، وهذا عن عليٍّ رضي الله عنه[(٢)]، وقال: وهو حافظٌ على الملائكة، كالملائكة حفَّاظٌ على بني آدم، وهو في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ [النبأ: ٣٨][(٣)].

وقال الحسن: سألوه عن الروح الذي هو القرآن، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢][(٤)]، ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، ويدلُّ عليه

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٦٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٧١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٠٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٨١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) لم أجده، وقال مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٤٧): ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ وهو ملك عظيم على صورة إنسان أعظم من كلِّ مخلوق غير العرش، فهو حافظ على الملائكة وجهه كوجه الإنسان. وليس فيه ما يحتج به.

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٦٩). وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦١٥) عن قتادةَ والحسَن، في قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قال: هو جبريلُ، قال قتادةُ: وكان ابنُ عباس يَكتمه.

ما قبله وما بعده: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية؛ أي: قالوا: ما هذا الروح؟ أي: القرآنُ الذي سمِّي[1] روحاً، ومَن آتاك هذا وأنزله عليك؟ فإنَّا نراه مبايِناً لضروب الكلام من الشعر والأساجيع والخطب، فقال: هو من أمر ربي أنزله إليَّ، ولو تدبَّرتُموه لحَيِيْتم به من موت الجهل، ولكنْ لقلةِ علمكم تركتُم ذلك وقلتُم مِن أين جاء؟ ومَن جاء به؟ وهو قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقيل: لمَّا قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ولم يفسِّر قالوا: إنه لم يعلم، فنزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقيل: سمع النبيُّ ﷺ اليهودَ يقولون: علمُ كلِّ شيء في التوراة، فقرأ عليهم هذه الآية: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقالت اليهود: نحن مخصوصون[2] بهذا الخطاب أو أنتم معنا فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل نحن وأنتم، ولم نُؤت من العلم إلا قليلاً»، قالوا: ما أعجَب شأنك! تارةً تقول: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وتارةً تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فأنزل الله تعالى قوله ردًّا عليهم: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧][3]، فبيَّن لهم أن علوم الخلائق تتلاشى في علم الله تعالى.

* * *

---

(١) في (أ): «يسمى».

(٢) في (ف): «مخصصون».

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

(٨٦) ـ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾: عدَّد نعمَه عليه ﷺ بما آتاه من القرآن، ثم قال: ونحن قادرون على أن نَذهب به بأنْ نُنْسيَكه والناسَ جميعاً ونرفعَه من صدوركم.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾: أي: لا تجد مَن يردُّنا عنه وكيلاً لك بذلك؛ أي: قائماً به معتمِداً عليه.

***

(٨٧) ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾: وهذا استثناء منقطع، يعني: لكنْ ما أراده الله من الرحمة[١] بعباده على يديك وما في سعة فضله هو الذي يبقيه عليكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾: أي: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ ﴾ في سابق علمه بما أراده من إرسالك إلى الناس نبياً[٢] ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾[٣].

***

(٨٨) ـ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾: لفظاً ومعنًى وإعجازاً ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾؛ أي: لم يقدروا على ذلك ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

---

(١) في (ر) و(ف): «لكن من أراد الله به من الرحم».

(٢) في (أ): «تبياناً».

(٣) في (ف): «كان كبيراً» بدل: «نبياً ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾».

ظَهِيرًا ﴾؛ أي: مُعيناً؛ أي: وإن تظاهروا وتعاونوا وتقوَّى بعضُهم ببعض لم يقدروا على ذلك، هو جواب قول النضر بن الحارث الذي قال: لو نشاء لقُلنا[1] مثلَ هذا.

قال السدِّي: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾؛ لأنه غيرُ مخلوق، ولو كان مخلوقاً لأتَوا بمثله[2].

وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ إنما رُفع ولم يُجزم بجزاء الشرط لأنه غلَب جوابُ القسم على جواب الشرط؛ لوقوعه في صدر الكلام، ويجوز أن يُجزم على الجواب للشرط، قال الأعشى:

لئنْ مُنِيْتَ بنا عن غِبِّ معركةٍ لا تُلْفِنا[3] عن دماء القوم نَنتقلُ[4]

والأصحُّ الأفصحُ الرفعُ.

***

(٨٩) ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾: أي: صرَّفنا في هذا القرآن المعجِز القولَ بكلِّ نوعٍ من الترغيب والترهيب ليتدبَّروا وليتفكَّروا.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾: وهم قريشٌ والعرب ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إصراراً على الكفر وتمادياً على الطغيان وكفرانِ النِّعم[5].

***

(١) في (ر) و(ف): «لو شئنا لفعلنا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٣٢).

(٣) في (أ) و(ف): «تلقنا».

(٤) «ديوان الأعشى» (ص: ١١٣).

(٥) في (ر) و(ف): «وكفراناً للنعم».

(٩٠) ـ ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾: أي: لن نصدِّقك وإنْ أتيتَنا بهذا القرآن المعجِز.

﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾: قرأ عاصم[١] وابن غالب وحمزة والكسائي وخلفٌ ويعقوب: ﴿تَفْجُرَ﴾ بالتخفيف[٢]؛ لأن المحل واحدٌ وهو قوله: ﴿يَنۢبُوعًا﴾ والثلاثي منه متعدٍّ، وقد فَجَر؛ أي: شقَّ العين وأسال الماء، وقرأ الباقون بالتشديد[٣]؛ لأنه للتكثير والتكرير.

والينبوع: العين التي ينبع منه الماء؛ أي: يفور، وأرادوا باليَنبوع طلبَ عيون ببلدهم، قاله قتادة ومجاهد[٤]، وما بعده وهو قوله: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾ هذا بالتشديد بالإجماع؛ لمكان الأنهار.

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرض مكةَ ﴿يَنۢبُوعًا﴾؛ أي: عيوناً فيتهيَّأ لنا بها الزراعة وغرسُ الأشجار.

* * *

(٩١) ـ ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾: أي: يكونَ

---

(١) بعدها في (ر): «عن المفضل»، وسقطت هذه الجملة من (أ).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٤ ـ ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١)، عن عاصم وحمزة والكسائي، وقراءة خلف ويعقوب في «النشر» (٢/ ٣٠٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٤ ـ ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨).

(٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٧٨).

لك في[(١)] خاصةِ نفسك إذ زعمتَ أنك رسول الله مكرمٌ عنده، فيَخصَّك بالجنان التي فيها النخيل والأعناب، فتفجِّرَ[(٢)] فيها الأنهار المطَّردة.

* * *

(٩٢) ـ ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي: قِطَعاً[(٣)].

والكَسْف: القَطْع، وهو مصدر بالفتح، وبالكسر: القطعة، وتجوز جمعاً بحذف الهاء كالسِّدر جمع سِدْرة.

وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ ﴾ يعنون قوله عن الله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبأ: ٩]، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور: ٤٤].

وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾: أي: مُقابلاً، وهو كالأكيل بمعنى المؤاكل، والجليس بمعنى المجالس، واحدٌ بمعنى الجمع كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي: أطفالاً.

وقيل: ﴿قَبِيلًا ﴾ جمع قبيلة؛ أي: مجتمعين.

وقيل: القبيل: الكفيل؛ أي: تأتي بهم كفلاءَ عنك يضمنون عهدةَ ما تَدْعونا إليه

---

(١) «في» ليست في (أ)، وفي (ر): «ذلك في».

(٢) في (أ): «مفجرة»، وفي (ف): «تتفجر».

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٨١ ـ ٨٢)، وعن قتادة رواه أيضاً عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٢٤).

وتَعدُنا من نصر إلهكَ لمن آمَن بك على مَن عاداك، واحدٌ بمعنى الجمع، وطريق استعماله: أن يراد به أن يأتي بكلِّ واحدٍ منهم قبيلاً؛ أي: كفيلاً، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ أي: يخرج كلَّ واحد منكم طفلاً.

* * *

(٩٣) - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

وقوله: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: من ذهب[١]، والزخرفة: التزيين والتحسين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤]؛ أي: زينتَها.

وقال الحسن: الزُّخرف؛ أي: النقوش[٢]؛ أي: أو يجعل الله لك بيتاً مزيَّناً[٣] بالذهب كما تكون بيوت ملوك الروم وفارس وغيرهما، فإن الناس لا ينقادون لك على ما بك من الفقر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾: أي: تصعدَ ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾؛ أي: لصعودك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ في قرطاس، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧][٤].

وقيل: أي: على كلِّ واحدٍ منا كتاباً، كما قال: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٨٤).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٧٣).

(٣) في (ر) و(ف): «مبنيا».

(٤) «كما قال ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾» زيادة من (ف).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾: أي: تنزيهاً لربي أن يعجز عن شيء من هذا ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ والبشريةُ لا تقتضي القدرة على هذه الأشياء من غيرِ إقدارِ الله تعالى عليه، والرسالةُ لا تقتضي الإتيانَ بها لا محالة، فإنه أرسل الرسل وما أتى كلَّ رسولٍ بهذه الأشياء.

وقيل: أنا رسولٌ ولستُ بملَكٍ لأُزخرفَ[1] البيوت وأغرسَ الجنان، إنما أنا رسول إليكم أبلِّغكم رسالات ربي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: طلبَ هذه الأمورَ من رسول الله ﷺ جماعة من قريش، وهم: عتبةُ بن ربيعةَ، وشيبةُ بن ربيعةَ، وأبو سفيان، والأسوَدُ بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وعبد الله بن [أبي] أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهٌ ومنبِّهٌ ابنا الحجَّاج السُّلَميان[2].

وقيل: أجابهم عن هذا في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١]، وإنما لم يُعطهم ذلك لأن ما جاء به الرسول من الآيات كانت أدلةً لا شبهةَ فيها، فلم يكن لهم إنكارُها مع وضوحها، فكان طلبُ غيرها من الآيات تعنُّتاً، فلم يستحقُّوا أن يُجابوا عنها.

وقيل: قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؛ أي: أمرُها إلى الذي أرسلني، وهو أعلم بالتدبير وبما ينصبه[3] من الدليل.

* * *

(٩٤) ـ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

---

(١) في (أ): «فأزخرف» وفي (ر): «فإني أحرق».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٨٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) في (ف): «يمضيه».

وقولـه تعالـى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾: لمَّـا قـال: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فقالوا[1]: وإذا كنتَ بشـراً مثلَنا فكيف يلزمُنـا الانقيـادُ لك؟ ثـم ردَّ عليهـم هذه الشـبهةَ فقال:

* * *

(٩٥) ـ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾: أي: يسكنونها مستوطِنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ ليكون من جنسهم فيفهمون كلامه ويسكنون إليه، فأما أنتم فبشرٌ، فبعثني إليكم بشراً مثلَكم لتكون قلوبكم إليه أسكنَ، وأنتم لكلامه أفهمَ.

* * *

(٩٦) ـ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

وقـولـه تعالـى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾: أي: قـل يا محمد لهؤلاء المشـركين[2] المكذِّبين لك: قـد أوردتُ عليكم الآيـات، وبلَّغـتُ الرسـالات، وأنا أُشـهد الله على ذلـك، و﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا ﴾ عالمـاً ﴿بَصِيرًا ﴾ مشـاهِداً أفعالَكـم وأفعالـي، فهـو يَشـهد لـي عليكـم يـوم القيامـة بالتبليـغ وعليكـم بالإعـراض والتكذيـب، فيجـازي كلًّا بعملـه[3]، وهـو وعيد شـديد.

---

(١) في (ر) و(ف): «قالوا أبعث الله بشراً رسولًا»، بدل: «فقالوا».

(٢) «المشركين» ليست في (أ).

(٣) في (ر): «بفعله».

(٩٧) ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾: أي: ومَن يَهده الله فهو المهتد[١]، دلت الآية على خلق أفعال العباد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾: أي: ومَن يُضلِلْه الله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: مَن يتولَّى هدايتَهم، وهو بمعنى الجمع لأنه جنسٌ ولذلك جمع ما بعده، وهو قوله:

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: أي: مسحوبين عليها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا نزل هذا قال المشركون: كيف يمشون على وجوههم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشِيَهم على وجوههم»[٢].

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾: حين يحشرون، ثم يزول ذلك بدليل قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقيل: عُميٌ عمَّا يَسرُّهم[٣]، بكمٌ عن التكلُّم بما ينفعُهم، صمٌّ عمَّا ينفعهم[٤]، كذا قال ابن عباس والحسن[٥] ....

---

(١) «فهو المهتد» زيادة من (أ).

(٢) روى نحوه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «ينفعهم»، وفي (ف): «شهوده».

(٤) في (أ) و(ف): «يمنعهم»، وانظر التعليق الآتي.

(٥) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٧٥)، وفيه: (صم عما يمتعهم). وذكره القرطبي

وهو جزاءٌ على ما[1] كانوا يتعامَون في الدنيا عن رؤيته من الحق، ويتباكَمُون عن التكلم به من الحق، ويتصامُّون عن سماعه من الحق، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال مقاتل: ذلك في جهنم حين يقال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨][2].

وقوله تعالى: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾: أي: مَصيرهم ومَقرُّهم ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾؛ أي: كلما سكن لهبُها، وقد خبا يَخْبو خَبْواً، والتاء للتأنيث.

﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾: أي: لهيباً، وقد سَعَر النارَ يَسْعَرُها من حدِّ صَنَع؛ أي: ألهبها[3].

وقيل: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾؛ أي: أرادت أن تخبوَ؛ كما قال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

* * *

(٩٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾: فسَّرناه في هذه السورة، يقول: لم نعذِّبهم ظلماً، بل جزاءً على كفرهم وإنكارهم البعثَ وتعجُّبهم منه بعدَ إرمامهم وتفتُّت عظامهم.

في «تفسيره» (١٣/ ١٧٩)، وفيه: (... بكم عن التكلم بحجة، صم عما ينفعهم)

(١) في (ف): «جزاء ما»، وفي (أ): «جزاء عما».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٥١).

(٣) في (ف): «وقد سعر من حد صنع».

(٩٩) ـ ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾: فإذا قدَر على خَلْق مِثْلِهم قدَر[1] على إعادتهم خلقاً جديداً ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ذلك؛ أي: أولم يعلموا ذلك علماً يقوم[2] مقام العِيان في حقِّ الإيقان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾: أي: مدةً طويلةً إنظاراً[3] لأنفسهم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه؛ أي: في مُضيِّه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾: أي: كفراناً لهذا الإنعام بعد[4] الإمهال.

وقيل: جعَل لهم أجلاً هو البعثُ لمحاسبتهم على كفرهم، فأبوا في الدنيا إلا كفراً بهذا[5] الوعيد في الآخرة.

وقيل: في الآية تقديمٌ وتأخير: خلق السماوات والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ـ وهو مدة العمر ـ قادر على أن يخلق مثلهم.

* * *

(١٠٠) ـ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾: يخاطب المشركين، و﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾؛ أي: مفاتيح رزقه.

---

(١) في (ف): «قادر» بدل من «فإذا قدر على خلق مثلهم قدر».

(٢) في (ف): «يقاوم».

(٣) في (أ): «أي مدة نظراً».

(٤) في (ر) و(ف): «بهذا».

(٥) في (ر) و(ف): «كفوراً لهذا».

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ عن الإنفاق على أنفسكم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾[1]؛ أي: لخوف الفقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[2]، واللغة كذلك.

وقيل: ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾؛ أي: أن يُذهِب إنفاقُكم أموالَكم.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ قال الحسن: أي: بخيلاً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: مُمسكاً[3]. وقال الضحاك: ضيِّقاً[4]، وأصله: يُضيِّق النفقة، وقد قَتَر يَقْتُرُ قَتْراً من حدِّ دخل وضرب جميعاً، وقتَّر تقتيراً بالتشديد؛ أي: ضيَّق النفقة.

فإن قيل: فلمَ قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ وفي الناس الجواد؟

قلنا: الأغلب ذلك؛ لأن المقتصِد والبخيل ليسا بجوادٍ، ولأن طبع الكلِّ الضَّنُّ على غيره بما فيه نفعُ نفسه.

وقال الحسن: إذا أراد به المشركَ وهو لا يرجو الثواب فلا يجود لذلك[5].

* * *

(١٠١) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

---

(١) في (ف): «﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ على أنفسكم»، وفي (ر): «﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ عن الإنفاق على أنفسكم خشية الإملاق».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٩٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٩٩) عن ابن عباس بلفظ: بخيلًا، وعن قتادة بلفظ: بخيلًا ممسكاً.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٣٧) دون عزو جامعاً بين الأقوال كلها، حيث قال: ﴿قَتُورًا﴾: بخيلاً ممسكاً ضيقاً.

(٥) انظر السؤال والجواب وقول الحسن في «البسيط» للواحدي (١٣/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾: واصلنا له الحججَ فلم يقبلوها ولم ينقادوا لها؛ كما فعل قومك بآياتنا التي واصلناها لك.

و﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ قال ابن عباس والضحاك: هي العصا، واليد البيضاء[1]، واللسان، والبحر، والطوفان، والجراد والقمَّل، والضفادع والدم[2].

وقال محمد بن كعب القرظيُّ: هي الطُّوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم والبحر والعصا والطمسة والحجر[3].

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾: أي: سَلْ علماءَ بني إسرائيل عن الخبر حين جاءهم ـ أي: جاء أسلافهم ـ موسى.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾: أي: سُحرتَ فأثَّر في عقلك وحسِّك ذلك حتى أفضى بك ذلك إلى أنْ تدَّعيَ أن لك إلهاً فوقي أرسلك إليَّ لأَدخل في طاعتك.

وقيل: ﴿مَسْحُورًا﴾؛ أي: مخدوعاً.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾:

---

(١) «البيضاء» زيادة من (أ).

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٩٩ ـ ١٠٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠٠)، وفيه أن قول ابن كعب هذا كان جواباً عن سؤال عمر بن عبد العزيز، وزاد: فقال (أي: عمر): وما الطمسة؟ فقلت: دعا موسى وأمَّن هارون، فقال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، وقال عمر: كيف يكون الفقه إلا هكذا.

قرأ الكسائي: ﴿عَلِمتُ﴾ بضم التاء؛ أي: قال موسى: علمتُ أنا، وقرأ الباقون بفتح التاء[1]؛ أي: علمتَ أنت يا فرعونُ؛ لأنه عانَدَ مع علمه، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، يقول: إنك لصحة عقلك وسلامةِ حسِّك تعلم أنَّ ما جئتُ به من الآيات ليس بسِحر، ولا أنا فيها مخدوع، بل هي حجج الله جلَّ جلالُه التي مَن تأمَّلَها استبصَر فيها؛ أي: تيقَّن أنها من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾: أي: أَعلمُك بالاستدلال مهلَكاً، وقيل: ممنوعاً عن كلِّ خير.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: هَمَّ أن يستخِفَّهم ويزعجهم[2] عن أرض مصر.

﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾: مِن أعوانه وأهلِ دينه جميعاً لم يبق منهم أحد[3].

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: أسكنَّاهم، أمرٌ بمعنى الخبر؛ كما في قوله: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: أي: أخبرناهم أنكم[4]

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥ ـ ٣٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) في (ف): «ويزحزحهم».

(٣) في (ف): «بقية».

(٤) في (ف): «أخبرناكم بأنكم».

ممتَّعون في الأرض إلى الموت فتُفارِقوا الدنيا وتُنقلوا إلى الآخرة للحساب والجزاء، فإذا جاء ما[١] وعدنا من البعث حشرناكم مختلِطين من قبائل شتَّى وبلدانٍ مختلفة.

وقيل: أراد به: جميعاً لا نغادر منهم أحداً.

وقيل: أراد به اختلاط الناس بعضِهم ببعض لفزعِ القيامة؛ العربِ بالعجم، والجنسِ بخلاف الجنس، بلا نظامٍ لاجتماعهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وروى صفوانُ بن عسَّالٍ المراديُّ: أن يهوديَّين مرَّا بالنبي ﷺ فسألاه عن هذه الآية، فقال: «أوحَى الله تعالى إلى موسى أن قلْ لبني إسرائيل: لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تَزْنوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تشربوا الخمر، ولا تسحروا، ولا تسرقوا، ولا تَقذفوا، وعليكم خاصةً يا أيها اليهود ألا تَعْدُوا في السبت، فجاءا إلى النبي ﷺ فقبَّلا رِجلي النبي ﷺ[٢]، فقالا: نشهد أنك نبيٌّ مبعوث، قال: «فما يمنعُكما عن الإيمان بي؟»، قالا: نخاف أن يقتلنا اليهود[٣].

* * *

(١٠٥) ـ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾: أي: القرآن، وقد سبق ذكره في آيات أنزلناها بالحق لا بالباطل، وبياناً للحق.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾: أي: كما أنزلناه لم يبدِّله جبريل ولا حرَّف شيئاً منه.

---

(١) «ما» ليس من (أ).

(٢) في (ف): «فقبلا رجله».

(٣) رواه الترمذي (٢٧٣٣) و(٣١٤٤)، والنسائي (٤٠٧٨)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾: أي: فامضِ لِمَا[1] أرسلناك له ولا تنظر إلى تكذيب المكذِّبين.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾: قيل: أضمر فيه: وآتيناك قرآناً.

وقيل: وأنزلناه قرآناً فرقناه؛ أي: دلَلْنا فيه على أصوب[2] الطريقين، وميَّزنا به الحق من الباطل.

وقيل: بينَّاه؛ كما قال: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقيل: أحكمناه.

وقيل: هو بمعنى التفريق؛ أي: أنزلناه متفرِّقاً في سنين.

﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾: أي: على تثبُّت وتوقُّف؛ لتجمعه في صدورهم.

وقيل: أي: من غير عجلٍ، كما قال: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]، وقال: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [طه: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾: أي: شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث.

وقيل: ﴿نَزَّلۡنَٰهُ﴾؛ أي: جعلناه منازلَ ومراتبَ درَّجْنا الناس عليها ولم نأخذهم بجميع الفرائض جملةً لئلا يَشُقَّ عليهم فينفِروا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: على تُؤَدَةٍ[3].

---

(١) في (ف): «فيما».

(٢) في (ر) و(ف): «أمور».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١١٧) بلفظ: (على تأييد).

وقال عطاء: على مَهَلٍ[1].

وقال مجاهدٌ ومقاتلٌ: على ترسُّلٍ[2].

وقيل: على هِيْنةٍ.

***

(١٠٧) ـ ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾: أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقولون لك: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآيات: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾، وليس بتخييرٍ، ولا جمعٍ بين الأمر والنهي، لكنه وعيدٌ وإخبارٌ أنهم إن آمنوا فلا نفعَ لنا وإن لم يؤمنوا فلا ضررَ علينا، النفعُ لكم والضَّررُ عليكم، وليس في ترككم الإيمانَ ما يُبطل الحقَّ الذي نزل به، وقد آمَن به مَن هو أعلم بالدِّين[3] منكم، وهو قولُه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾: أي: من قبلِ نزول القرآن وهم مؤمنو أهل الكتاب مثلَ عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآنُ[4] ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: جمعَ الذقنَ وهو مجمع اللَّحْيين، وأراد بها الوجوه، وهذا عن ابن عباسٍ وقتادة.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٤٠) دون عزو بلفظ: (على تؤدة ومهل).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١١٧ و١١٨) عن مجاهد بلفظين: (على ترتيل)، و(على تؤدة). وبلفظ (على ترتيل) ورد في «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٥٥). ولعل المعنى في جميع هذه الأقوال واحدٌ؛ فقد قدم الطبري لقولي ابن عباس ومجاهد بقوله: (وقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ يقولُ: لتقرأه على الناسِ على تُؤَدَةٍ، فتُرَتِّلَه وتُبَيِّنَه، ولا تَعْجَلَ في تلاوته فلا يُفهَمَ عنك).

(٣) في (أ): «بالذين»، وفي (ر): «بالذين آمنوا»، وسقطت الجملة من (ف)، والصواب المثبت.

(٤) «القرآن» ليس من (أ).

وقيل: إنما ذكر الأذقان لأن أول ما يقع في الأرض من الوجه ذلك.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: أي: في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تنزيهاً له عن المعايب ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾: أي: ما كان وعدُ ربِّنا إلا كائناً.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾: أي: ثم يخرُّون سجَّداً لذلك ويبكون فيه خجلاً من تقصيرهم.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾: أي: القرآن حين يتلى عليهم ﴿خُشُوعًا﴾؛ أي: خوفاً وتذلُّلاً.

* * *

(١١٠) ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾: قال الضحاك: قال أهل الكتاب ـ وهم الذين مر ذكرهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ ـ: يا رسول الله! إنك لتُقِلُّ ذكرَ الرحمن، وقد أكثر الله هذا الاسم في التوراة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فسُرَّ به أهلُ الكتاب[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سمعوا النبيَّ ﷺ يقول: «الله» مرة و: «الرحمن» مرة، فقالوا: ينهانا عن إلهين اثنين وهو يدعو إلهين؟! فأنزل الله هذه الآية[٢].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٤١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٩٩)، وليس عندهم: «فسر به أهل الكتاب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٣).

وقال مقاتل: دعا رجلٌ من الصحابة باسم الله، ودعاه ثانياً باسم الرحمن، فسمعه أبو جهل لعنه الله: نهيتُمونا عما تتعاطَونه[١].

وقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾: هذا شرطٌ، ولذلك جُزم وحُذف النون.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: التسميات الدالةُ على الصفات، بأيِّ اسم دُعي به فهو واحد، وليس اختلافُ الأسماء لاختلاف المسمَّى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: أي: بدعائك، كما قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ليكن دعاؤك[٢] اللهَ بين الجهر الشديد والمخافتة الشديدة، وذلك بأن تُسمعَ نفسك ويَفهَمَ عنك مَن يَقرُب منك، فيؤمِّنَ على دعائك أو[٣] يقتديَ بك فيه، وهو تعليم أدب الدعاء[٤]، وهو أوفق للنظم.

وقيل: هو عين الصلاة المعهودة، ومعناه: لا تجهر بالقراءة في صلاتك كلَّ الجهر ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كلَّ المخافتة، وهي خفضُ الصوت، وكان هذا بمكة؛ لأن المشركين لعنهم الله كانوا يُؤْذُونه إذا جهر، ولا يُسمعُ مَن خلفه إذا خافَتَ، وهذا عن ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم[٥].

وقال الحسن: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بإشاعتها عند مَن يؤذيك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عند مَن يَلتمِسها منك[٦].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٥٥).

(٢) في (ر): «دعاؤكم».

(٣) في (أ): «أي».

(٤) في (ر): «وهو تعليم للدعاء».

(٥) رواه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٩)، عن ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٣) عن قتادة.

(٦) لم أجده عنه هكذا، وقد روي عنه قول آخر سيأتي قريباً.

وقيل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ كلِّها ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾ بجميعِها ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾: بأنْ تجهر بصلاة الليل وتخافتَ بصلاة النهار، و﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ في معنى: بين ذينِكَ؛ كما مر في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

وقال الضحاك: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ رياءَ الناس ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ مخافةَ الناس[١].

وقال الحسن: لا تُحسِن صلاتك في العلانية وتُسيئها في السر[٢].

وقال عليٌّ وعائشةُ رضي الله عنهما: هذا في الدعاء[٣]، يقول: لا تجهَرْ باستغفارك وتوبتك فيسمعَه غيرُك فيلومك بذنبك.

وقال مقاتلُ بن حيَّان: كان رسول الله ﷺ إذا جهَر في صلاته سبَّه المشركون ولغَوا[٤]، فنزلت الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمعَ المشركون ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا يسمعَ أصحابك[٥].

ومرَّ النبيُّ ﷺ بأبي بكر وهو يخافتُ بالقراءة، ومرَّ بعمر رضي الله عنه وهو يجهر بالقراءة، فلما أصبح ذكر لهما ذلك، فقال الصدِّيق رضي الله عنه: كنتُ أُسمع مَن أناجيه. وقال الفاروق رضي الله عنه: كنتُ أوقظُ الوسنانَ وأطردُ الشيطان، فأمر أبا بكر أن يجهر قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً[٦].

---

(١) لم أجده هكذا، وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٠) عنه كقول ابن عباس وقتادة المتقدم.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، وفي رواية: قال: (لا تحسن علانيتها، وتسيء سريرتها).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٣)، ومسلم (٤٤٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٥)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) «ولغوا» ليس من (ف).

(٥) هو مثل قول ابن عباس وقتادة المتقدم.

(٦) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٠) عن الربيع، وبنحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٢) عن ابن سيرين، وكلاهما مرسل.

(١١١) ـ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾: قال الحسين بن الفضل رحمه الله: أي: الحمد لله الذي عرَّفني أنه لم يتَّخذ ولداً.

وقيل: أي: المستحِقُّ للحمد والثناء على ذلك هو الله تعالى[١] الذي لم يتَّخذ ولداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾: على الأول؛ أي: عرَّفني ذلك، وعلى الثاني؛ أي: المستحِق للحمد والثناء على ذلك، وعلى هذين قوله[٢]:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: أي: مَن يتولَّى عليه أمرَه ويقومُ بنصرته فيعتزَّ به[٣] من الذل.

وقيل: أي: لم يكن له حبيبٌ من أهل الذلِّ وهم اليهود والنصارى، بل أولياؤه المؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾: أي: عظِّمه تعظيماً حقًّا، والمصدر للتأكيد والتحقيق؛ أي: حتى لا يكون في قلبك شيءٌ أعظمَ منه ولا أهيبَ.

وقيل: أي: قلْ بلسانك: الله أكبر، وفي قلبك تحقيق ذلك.

وقيل: أي: كبِّره عن[٤] كلِّ ما لا يجوز في وصفه.

---

(١) في (أ): «والثناء هو».

(٢) في (أ): «وعلى هذا القولين».

(٣) في (ر): «فيغشونه»، وفي (ف): «فيعتريه».

(٤) في (ر) و(ف): «على»، وهو تحريف ظاهر.

وقيل: أي: صِفْه بأنه أكبرُ من كلِّ شيء، القادرُ الذي لا يُعجزه شيء، العالمُ الذي لا يخفَى عليه شيء، الغنيُّ عن كلِّ شيء، معتقِداً له بقلبك، عاملاً عليه فيما يلزمك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ أي: لم يتخذ الأولياءَ ليتعزَّزَ بهم من الذل، إنما اتخذ أولياءَ رحمةً منه وفضلاً ليتعزَّزوا هم[1] بذلك.

قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: صِفْه بما وَصَف به نفسَه، واعْرِفه بما ذَكَر، فإذا عرَفْتَه كذلك فقد عظَّمتَه وكبَّرتَه[2].

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: بأنْ تَعلم أنك تصلُ إليه به لا بتكبيرك.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) في (ف): «ليتعززهم»، والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧/ ١٣١).